

نظرات في التصوف (١)

المصطلح والمفهوم

تأليف :

الشيخ عبد المحمود الحفيان بن الشيخ الجيلي

١٩١٩ - ١٩٧٣ مـ

الطبعة الثالثة : ١٤٣١هـ - ٢٠١٠ مـ



مشيخة الطريقة السمانية
طابت الشيخ عبد المحمود

نظرات في التصوف (1)

المصطلح والمفهوم

تأليف:

الشيخ عبد المحمود الحفيان بن الشيخ الجيلي

١٩١٩ ـــ ١٩٧٣م.

حققه المدني محمد توم الفكي علي

الطبعة الثالثة: ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقرير لجنة الأمانة العامة للصحافة والمطبوعات

كتبه: البروفيسور احمد علي محمد المهدي- نائب عميد كلية الآداب جامعة الخرطوم سابقًا.

...... ولقد اطلعتُ على كثيرٍ مِن المؤلَّفات في التَّصوف الإسلامي قديمًا وحديثًا، وقمتُ بتدريس مادة التصوف على مدى السنوات الماضية، لكني لم أقف على كتابٍ أعظم مِن هذا الكتاب في هذا المجال. وأعتقد أنَّ هذا الكتاب يمثِّل مساهمةً علميَّةً سودانيةً أصيلة تُضاف بكلِّ جدارة إلى مصافِّ الكتب العلميَّة الإسلاميَّة الرَّاقية على المستوى العربي الإسلامي والمستوى العالمي.

وإذا قُدِّر لهذا الكتاب أن يُنشرَ فسيكون له شأن عظيم في تصحيح كثير من الأغلاط والأخطاء التي شاعتْ عند المتقدِّمين والمتأخرِّين عن التصوف الإسلامي، وسيؤدِّي ذلك لإزالة اللبس الذي أدَّى إلى ظهور كثيرٍ من خصوم التصوف والصوفية في القديم والحديث.

وختامًا فإنَّ كتاب النظرات يقدِّم تجديداً للفكر الصوفي لم يسبق له مثيل. فهو نظراتُ عالمٍ عارفٍ مُتمكِّنٍ مِن علوم الحقيقة والشَّريعة على مستوى النَّظر والعمل.

كتابُ نظرات في التَّصوف الإسلامي [الجزء الأول] لمؤلفه "الشيخ عبد المحمود الحفيان بن الشيخ الجيلي"، يقع الكتاب في [٥٢٥ صفحة] من القطع الكبير، ويحتوي على:

- سبعة أبواب.
- ومدخل كتبه الشيخ الجيلي بن الشيخ عبد المحمود الحفيان بن الشيخ الجيلي، وهو ابن المؤلِّف وخليفته الحالي.

وبالإضافة إلى ذلك يحتوي الكتاب على:

- مقدِّمة بقلم المؤلف.
- وقائمة المحتويات.
- وثبت للمراجع[1].

---

[1] / لقد كُتِبَ هذا التَّقريرُ عندما عُرِضَ الكتابُ على لجنة الأمانة العامة للصحافة والمطبوعات، كتبه: المرحوم البروفسير أحمد علي محمد المهدي نائب عميد كلية الآداب بجامعة الخرطوم [في ذلك الوقت]. وكان الكتاب آنذاك في مجلَّد واحد، إلاَّ أنَّه كان يضمُّ خُطَّة الكتاب وما يحمل من إشارات لموضوعاته كلِّها. وبعد الفراغ من إعداده للنشر بكامل مادته و ترتيب موضوعاته وإضافة الهوامش والحواشي إليه صار حجمه كبيرًا جدًا مما اقتضى تقسيمه إلى تسعة أجزاء عَدَا الفهارس التي أفردناها بجزء خاص هو الجزء العاشر، أمَّا الأجزاء التسعة فهي:

- الجزء الأول: المصطلح والمفهوم.
- الجزء الثاني: أطوار التصوف الإسلامي.
- الجزء الثالث: البيئة والسماع.
- الجزء الرابع: أعرافٌ ومواسم.
- الجزء الخامس: التصوف الإسلامي [المنهج].

ومؤلِّفُ هذا الكتاب هو سليلُ الدَّوحة الطيّبيّة السمّانية المشهورة بالعلم والصّلاح، ونَسَبُه إلى الشيخ أحمد الطيِّب بن البشير رائد الطريقة السمانية في السودان.

وقد كتب الشيخ عبد المحمود كُتباً كثيرة اطّلعتُ على بعضها، مثل كتاب:

- ❖ الإجالة: "إجالة الفكر".
- ❖ وكتاب الوصيَّة.
- ❖ وغيرها.

وهي كلها تفيض بالعلم والروح الإسلاميّة العالية، وتتَّسم بالبلاغة والفصاحة، مما يدلُّ على أنَّ هذا الشيخ بحر زاخر في العلم والمعرفة.

والكتاب الذي بين أيدينا هو من أعظم ما أتحفنا به الشيخ عبد المحمود الحفيان بن الشيخ الجيلي، وأنت تطالع صفحات هذا الكتاب تجد نفسك أمام فيضٍ زاخرٍ في علوم:

- ❖ الجزء السادس: التصوف الإسلامي [العطاء].
- ❖ الجزء السابع: طهر وصلاة - عبارات وإشارات.
- ❖ الجزء الثامن: قضايا العرفان الصوفي [١]
- ❖ الجزء التاسع: قضايا العرفان الصوفي [٢]

فلذا قد يجد القارئ الكريم في هذا التقرير حديثًا و إشارةً إلى موضوعات تفرَّقتْ بين أجزاء الكتاب، فما لا يجده في الجزء الأول من الموضوعات المشار إليها في هذا التقرير، فسوف يجده في بقية الأجزاء بإذن الله تبارك وتعالى.

- ◈ الحقيقة.
- ◈ والشريعة.
- ◈ والعقيدة.
- ◈ واللغة.
- ◈ والأدب.
- ◈ والفلسفة.
- ◈ وغيرها من ضروب العلوم والمعارف.

وكل هذا فيض من فيوض هذا العالم العارف بالله الشيخ عبد المحمود الحفيان، وكم تمنَّيتُ لو أضيفت صفحاتٌ إلى هذا الكتاب توضِّح سيرته الذَّاتيّة ودراسته وتدرُّجه العلمي، إلى جانب مكانته في الطريق الصوفي السماني، وهديه وإرشاده لأبناء المسلمين، ومثل هذه السيرة تنبِّه القارئ أنه أمام عالمٍ ثَبْتٍ وعارفٍ مستقيم يتلألأ الحقُّ في سطور ما كتبه.

أما كتاب النظرات فأعتقد أنَّه كتابٌ فريد في مجال التصوف الإسلامي على كثرةِ ما كُتِبَ في التصوف قديمًا وحديثًا، ولا شك في أنَّ هذا الكتاب:

- ⊙ يعبِّر عن فهمٍ رفيعٍ للتصوف الإسلامي كعِلْمٍ حادثٍ في الملَّة الإسلامية.
- ⊙ ويحوي شرحًا وتفصيلاً لتاريخ تطوُّر التصوف منذ نشأته وإلى ظهوره في الشكل الجماعي على يد الشيخ عبد القادر الجيلاني.
- ⊙ كما يؤرِّخ لنشأة التصوف في السودان وأهم رجالاته وآثارهم، وكلُّ ذلك بدقَّةٍ لم يسبق لها مثيل.

⊙ كما يتناول الكتاب مصطلح "صوفي وصوفية" واشتقاقه، ويؤكّد أنّ ظهور المصطلح يعود إلى القرن الهجري الأول.

⊙ كما اهتم المؤلف بروّاد التّصوف في القرون الثلاثة الفاضلة وهي: القرن الأول والثاني والثالث الهجرية، و"الفاضلة" إنما هي إشارة إلى حديث الرسول صلى الله عليه وسلّم :{خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم}. وفي ذلك ردٌّ على مَنْ ادَّعى أنَّ التصوف الإسلامي إنّما ظهر بعد القرون الثلاثة الأولى وأنه بدعة من البدع التي نشأت بعد أفضل القرون. وقد ردَّ المؤلّف [رحمه الله] على ادِّعاء مَنْ ادَّعى ذلك، هذا في الباب الأول.

أما في الباب الثاني فقد تحدَّث المؤلف عن التصوف الإسلامي المعنى وأفاض في الحديث عن معني التصوف الإسلامي مستشهداً:

- بكتاب الله.
- وسنة رسوله.
- وأقوال السلف وأكابر الصوفية.

كما ردَّ فيه على بعض مَنْ يُلصِقُ التصوفَ وظهورَه ومعناه بالرهبنة المسيحية والضلال، واستشهد في ردِّه بآراء ابن تيمية رائد المدرسة السلفية.

وفي الباب الثالث تناول التصوف عبر القرون، واهتم فيه بالتصوف كظاهرة إنسانية، وتطرَّق:

- للباحثين في أصوله وأقسامهم، خاصة من بين المسلمين.
- ومفهوم التصوف الإسلامي، وخصائصه، ونهجه التربوي، الأخلاقي، وتمسُّك أصحابه بالشريعة.

◊ وتناول فيه صلته بالعلم وأدوات الإدراك، مبيّنًا أنَّ الطريق للعلم بالله إنما هو بالروح السَّامي وليس بأدوات الإدراك الحسّي.

واهتم المؤلّف بإرجاع التصوف إلى مصادره الشرعيَّة من الكتاب والسُّنة، فقد تناول المؤلّف:

- ❖ موضوع البيعة في المذهب الصوفي، وأساسها من الكتاب والسنة.
- ❖ ومستلزمات البيعة وقيمتها وأهميتها في الإسلام.
- ❖ كما تناول أيضًا التصوف الفلسفي تناول العارفِ العالِم.
- ❖ وشرح بعناية فائقة وفهمٍ عالٍ خصائصَ هذا النوع من التصوف وقضاياه الشائكة مثل: الاتِّحاد، والحُلول، ووحدة الوجود...الخ.
- ❖ وردَّ على ادِّعاءات خصوم هذا النوع من التصوف، وأعطى فهمًا عميقًا لشرح مفاهيمه ومعانيه، التي اختلطتْ على عقول العلماء أمثال ابن تيمية فأنكروه.

واهتم المؤلّف بالتصوف الإسلامي من ناحية المنهج و العطاء وذلك في عدَّةِ فصول، حيث قدَّم:

- ⊙ فهمًا وشرحًا رصينًا لأركان المنهج الصوفي وعقيدة التوحيد في هذا المنهج.
- ⊙ ومعالم المنهج وعطاء الله لمن وُفّق للاهتداء للطريق الصوفي، ومثال ذلك الكرامات.
- ⊙ وكتب المؤلّف فصلاً قَيِّمًا عن الكرامة والكرامات، ووضَّحَ معناها ودلالاتها وقيمتها وصلتها بالقوانين السَّببيَّة الكونية؛ ولم أجد من

الباحثين مَنْ كتب قديمًا أو حديثًا عن الكرامة بهذا المستوى الرفيع.

وبعد: فإني أجد نفسي عاجزاً كلَّ العجز عن إعطاء صورةٍ متكاملة عن محتوَى هذا الكتاب القيِّم؛ لأنَّ كلَّ مسألة فيه وكلَّ شرحٍ فيه وكلَّ فهمٍ فيه إنما يُعَبِّر عن علمٍ ثرٍّ وغزيرٍ تتقاصرُ العبارة عن تلخيصه وتقديمه للقارئ، وهذا يعني أنه لا غِنَى لباحثٍ عن قراءةِ هذا الكتاب بدقّةٍ وتأنّي.

ومِنْ أهمِّ مميِّزات هذا الكتاب أنه متماسك يشدُّ بعضه إلى بعض بأسلوبه الرائع ومسائله المهمَّة التي تستعرض قضايا التصوف الإسلامي بأسلوبٍ جديد وروحٍ عالية.

وهذا الكتاب يستحقُّ أنْ يُسمَّى **موسوعة التصوف الإسلامي**، لأنه جمع فأوعَى مِن مفاهيم التصوف ومعانيه وتاريخه وأهمَّ رجالاته وشرْحِ آرائهم قديمًا وحديثًا.

وهذا الكتاب بصفةٍ عامة يجمع بين:

- جمال الأسلوب.
- ولباقة الفهم.
- وعلوِّ العبارة.
- واتِّساق المنهج.
- وعظيم المحتوَى.

ولاريب أنَّ مؤلّفه متمكّنٌ راسخ في علم التصوف وعلوم الشريعة على كثرتها، كما أنه بحرٌ زاخر في اللغة والفلسفة والمنطق وأساليب البيان والبلاغة.

وإذا قُدِّر لهذا الكتاب أن يُنشرَ فسيكون له شأن عظيم في تصحيح كثير من الأغلاط والأخطاء التي شاعتْ عند المتقدِّمين والمتأخرِّين عن التصوف الإسلامي، وسيؤدِّي ذلك لإزالة اللبس الذي أدَّى إلى ظهور كثيرٍ من خصوم التصوف والصوفية في القديم والحديث. وهذا يُتيحُ للتصوف والصوفيَّة أنْ يساهموا في دفع مسيرة الأمة الإسلامية بعطائهم الروحي الوافر، الذي يهدف إلى التَّرقية الروحيَّة الأخلاقيَّة، وهي مِن لوازم التَّقرُّب إلى الله تعالى والوصول إليه والظفر برضاه ومحبته.

ولقد اطَّلعْتُ على كثيرٍ من المؤلَّفات في التَّصوف الإسلامي قديمًا وحديثًا. وقمتُ بتدريس مادة التصوف على مدى السنوات الماضية، لكني لم أقف على كتابٍ أعظم من هذا الكتاب في هذا المجال، وأعتقد أن هذا الكتاب يُمثِّل مساهمة علميَّة سودانية أصيلة تضاف بكل جدارة إلى مصاف الكتب العلميَّة الإسلاميَّة الراقية والرفيعة على المستوى العربي الإسلامي والمستوى العالمي.

وختامًا فإنَّ كتاب النظرات يقدِّم تجديدًا للفكر الصوفي لم يسبق إليه مثيل، فهو نظرات عالمٍ عارفٍ متمكّن من علوم الحقيقة والشريعة على مستوى النظر والعمل.

رحم الله الشيخ عبد المحمود الحفيان وأثابه جزيل الثواب على ما قدَّم من جهدٍ علمي فريد.

وجزَى الله خليفته الشيخ الجيلي ونفع به.

وجزَى الله القائمين على طباعة هذا الكتاب ونشره كلَّ خير.

وبالله التَّوفيق والسَّداد.

د. أحمد علي محمد المهدي

نائب عميد كلية الآداب/ جامعة الخرطوم.

١٩٩٦/١١/٣٠م



المؤلف

نسبه:

هو الشيخ عبد المحمود "الحفيان" بن الشيخ عبد القادر الجيلي بن الأستاذ الشيخ عبد المحمودبن الشيخ نور الدائم بن القطب الأكبر الشيخ أحمد الطيب بن الشيخ البشير.

ميلاده:

وُلِدَ رضي الله عنه في مدينة "طابت الشيخ عبد المحمود" بأرض الجزيرة بالسودان في يوم الأربعاء: ٢٨ ربيع أول ١٣٣٧ هـ الموافق ١ / ١ / ١٩١٩ م.[1]

حفظه القرآن:

حفظ القرآن الكريم بمسجد جده الأستاذ الشيخ عبد المحمود وهو دون الخامسة عشرة من عمره بقراءة أبي عمرو ابن العلاء البصري[1] - رواية حفص بن عمر الدوري[2] على الشيخ فضل المولى بن خليفة الجموعي المُقْدَابي[3].

---

[1] / وقد وُجِدَ بخط والده "سيِّدي الشيخ عبد القادر الجيلي" ﷺ ما نصُّه: [وُلِدَ ولدُنا عبد المحمود سَمِيُّ الأستاذ الوالد رضي الله عنه:

- ليلة الأربعاء نصف الليل سنة ١٣٣٧ هـ ٢٨ ربيع الأول - أول يناير ١٩١٩م.
- عند اتِّصال عُطَارِد بالقمر.
- ومقابلة المُشتَرِي للشمس.
- عشرة أيام من برج الدالي.

ونسأله تعالى أنْ يطيل بقاه ويُسبغ عليه سيبَ برِّه ونداه، وأن يُدخله مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً]. **عبد القادر الجيلي بن الشيخ عبد المحمود الطيبي السمّاني القادري.**

[1] / **أبو عمرو بن العلاء**: هو أبو عمرو زبان بن عمار التميمي المازني البصري، أحد القراء السبعة، ولد بمكة سنة:٧٠ هـ ، ونشأ بالبصرة. وقرأ على الحسن البصري وعاصم وابن كثير وغيرهم. وروى عنه الأصمعي وسيبويه والدوري وغيرهم. قال أبو عبيد: كان أعلم الناس بالأدب والعربية والقرآن والشعر. مات بالكوفة سنة: ١٥٤ هـ. [الأعلام للزركلي، ج: ٣ ص: ٤١].

[2] / **الدُّوري**: هو إمام عصره في القراءة، وشيخ وقته في الإقراء: أبو عمر حفص بن عمر بن عبد العزيز بن صهبان النحوي الدوري، نسبة لموضع قُرْب بغداد، ولد [سنة:١٥٠ هـ] قرأ على الكسائي، وإسماعيل بن جعفر، ويحيى اليزيدي، وحدَّث عن طائفة، وقال: أدركتُ حياة نافع، ولو كان عندي شيء لرحلت إليه. وكان صدوقاً، قرأ عليه خلقٌ كثير، وصنَّف في القراءات، وهو أول مَن جمع القراءات السبع واقرأ بها، وقد أخذ قراءة أبي عمرو بن العلاء البصري عن يحيى اليزيدي. توفي الإمام الدوري [سنة: ٢٤٦ هـ]. وله ست وتسعون سنة. [شذرات الذهب، ج: ٢ ص: ٢٢٩- ٢٣٠]. و[القراءات المتواترة، ص: ٢١٢].

[3] / **الشيخ فضل المولى بن خليفة**: هو الشيخ فضل المولى بن خليفة بن محمد بن عبد الله الجعلي الجموعي المُقْدابي، ولد بـ"قليعة المُقداب" غرب جبل أولياء سنة: ١٨٧٠م، وتربى علي يد والده وأخذ العلم على الفكي علي ود حمد والشيخ محمد ود الدَّاقريس المقدابي، ثم هاجر إلى الأستاذ الشيخ عبد المحمود بن الشيخ نور الدائم بطابت فأخذ عليه الطريقة السمانية، وأكمل حفظ القرآن بطابت على يد الشيخ عبد القادر الجيلي بن الشيخ عبد المحمود، ثم رجع إلى المقداب سنة: ١٩٣١م، وقد تزوج السيدة دار النعيم بنت الأستاذ الشيخ عبد المحمود وله منها أبناء.

توفي الشيخ فضل المولى سنة: ١٩٨٦م عن أكثر من مائة سنة، وخلفه ابنه الشيخ محمد. [موسوعة القبائل والأنساب بالسودان، للدكتور عون الشريف قاسم، ج:٤ ص: ١٧٨٨ – ١٧٨٩].

دراسته العلم:

- التحق بمعهد طابت العلمي الذي أنشاه والده العلاّمة الشيخ عبد القادر الجيلى بن الشيخ عبد المحمود بن الشيخ نور الدائم عام ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٧ مـ وقد التحق الأستاذ المؤلّف بهذا المعهد عام إنشائه، وكان عمره يومذاك ثمانية عشر عاماً.
- لزم حلقة والده العلمية التي كان يعقدها عصر كلّ يوم حيث تخرّج عليه فى علوم الفقه والحديث واللُّغة.
- جالس العلاّمة الشيخ عبد الله الخبير[١] فى زيارته للعلاّمة الشيخ الجيلى وأفاد منه فى علم الأصول و العقيدة.
- جالس العلاّمة العارف بالله الشيخ محمد الحافظ بن سالم التجاني[٢] [المصري] عام زيارته لطابت عام ١٩٤٨ مـ. وقد أجاز الشيخُ محمد الحافظ المؤلّفَ في مرويّاته في علمي الفقه والحديث.

---

[1] / **الشيخ عبد الله الخبير:** ولد الشيخ عبد الله الخبير بقرية "ود الخبير" سنة: ١٢٨٥هـ، وحفظ القرآن بمسجد عمه الشيخ محمود الخبير وتعلم العلم على الشيخ المضوي عبد الرحمن الأزهري بالعيلفون، ثم على شيخ الإسلام الشيخ محمد البدوي، وأخذ التجويد وعلوم القرآن عن الشيخ النذير خالد الفتّايابي، ثم التحق بالمعهد العلمي وتم تعيينه مدرسًا به عام: ١٩١٨م إلا أنه استقال عام: ١٩٢٣م وتفرغ لتدريس العلم بود الخبير حتى وفاته سنة: ١٩٥٢هـ. له من المؤلفات كتاب "السور الحصين جامع نسب الجعليين" وقد طبع. وله رسالة في مناقب عبد الرحمن النجومي. [موسوعة القبائل والأنساب، ج:٢ ص:٧٤٢].

[2] / **الشيخ محمد الحافظ التجاني:** من مشايخ الطريقة التجانية البارزين، له إسهامات مقدرة في الدعوة والإرشاد، وله عدة مؤلفات. ولد سنة: ١٣١٥هـ / ١٨٩٧مـ، وتوفي سنة:١٣٩٨هـ / ١٩٧٨مـ.

✧ أجازه العلاّمة الشيخ محمد مصطفى المراغي[1] شيخ الجامع الأزهر عام ١٩٤٨م فيما أجازه فيه مشائخه.

✧ منحته جامعة النيلين درجة الدكتوراه الفخريَّة في الثقافة الإسلامية، تقديراً لإسهامه المتميُّز في مجال الثقافة الإسلامية.

عمله بالتدريس:

❖ عمل مدرسًا فى معهد طابت العلمي [الأوسط] ابتداءً من عام ١٩٤٩م حتى عام ١٩٦٥ م. وكان يدرِّس الفقه المقارن، أصول الفقه، الحديث.

❖ حلَّ مَحلَّ والده العلاّمة الشيخ الجيلي في حلقة العلم منذ عام ١٩٥٩م. ولم يزل يفيدُ الطلاب فيها حتى عام ١٩٧٢م قبل وفاته بعامٍ واحد، وكانت دروسه في الحلقة العلميَّة: الفقه المقارن، الحديث، التصوف الإسلامي.

---

[1] / الشيخ المراغي: هو الشيخ محمد بن مصطفى بن محمد بن عبد المنعم المراغى، ولد بالمراغة من "جرجا" في الصعيد، سنة: ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م. وتعلم بالقاهرة، وتتلمذ للشيخ محمد عبده. وكان من دعاة التجديد والاصلاح، عارفًا بالتفسير، وولي أعمالا منها القضاء الشرعي بمصر، ثم قاضي القضاة في السودان (سنة ١٩٠٨ - ١٩١٩) وتعلم الانجليزية في خلالها. وعين شيخا للأزهر سنة ١٩٢٨ فمكث عاما. وأعيد سنة ١٩٣٥ فاستمر إلى أن توفى بالاسكندرية سنة: ١٣٤٦هـ / ١٩٤٥م. ودفن في القاهرة.

له تآليف، منها: "بحث في ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الاجنبية "، و"تفسير سورة الحجرات"، و"تفسير سورة الحديد وآيات من سورة الفرقان"، و"تفسير سورتي لقمان والعصر"، و"الدروس الدينية " عدة رسائل، و"بحوث في التشريع الإسلامي"، و"كتاب الأولياء والمحجورين". [الأعلام للزركلي، ج: ٧ ص: ١٠٣].

❖ وقد آلت إليه الخلافة على مشيخة الطريق السماني بعد وفاة والده سيدي إمام الدين الشيخ عبد القادر الجيلي عام ١٩٦٥ مـ.

وقد كان سيِّدي الشيخ الحفيان - كما وصفه خليفتُه الوارث الشيخ الجيلي - نغماً جديداً، شَدَا به فَمُ الزمان في طربٍ وحُبور، وفجراً جديداً أشرق بنور المعارف فاكتستْ به رياضُ القلوب منظراً بَهِيًّا وأرَجاً زكيًّا، أنبأ عن ثمرٍ دانٍ، وقَطفٍ كريم مِن جنات الخلد يُغذِّي الأرواحَ ويُحيي القلوب، ولا غرو فقد:

شهدتْ له عصبُ المكارم أنه ... هو ربُّها مِن بعد ذي الآلاء
الفخرُ مفتخرٌ به وبه نما ... وإليه حين نما إلى العَلياء
وإذا التباسُ الرأي أورثَ حَيْرةً ... أوفَى عليه بأرشد الآراء
رجلٌ بَدَا مَلأَ المشارقَ نورُه ... مُتهلِّلاً كالجُونة البيضاء
أنْسَى الملمَّةَ عند وقت حُلولها ... فهو الدَّواء النَّاتق الأدواء
وتبسَّمَ العقلُ ابتسامَ أقاحِهِ ... متزاهراً عن باكر الأنداء
وسرَى به نجمٌ يوافق نجمَه ... فمحَى الظلامَ بطلعة الزهراء
ورثَ النَّدَى وحوَى النُّهَى وبنَى العُلى ... وجلَى الدُّجَى ورمَى الفضا بهُداء
هاتيك يا مستفهمي أشكاله ... ووراثة الأجداد والآباء

وراثةٌ تجلَّت مظاهرُها في مختلف المجالات، وبدتْ آياتُها في العديد من التَّجلِّيات. تلك المجالات والتَّجليات التي كان شيخُ الطريق يُخفيها في تكتُّم شديد رحمةً بها، وغيرةً عليها مِنْ مَنْ لم يعرف في [الحفيان] إلا رجُلاً يفيضُ سماحةً وبِشراً وطيبةً، مِن غير تصوُّرٍ لعقليَّةٍ جبَّارةٍ، وقلمٍ قويِّ الشَّفرةِ، وروحٍ

عالي يضمُّها هذا الشيخ، الذي ترك لنا من الآثار الكثير في مختلف مجالات المعرفة من نظم ونثار، مع نَفَسٍ طويلٍ وأسلوبٍ مميَّزٍ متين ورصين.

مؤلَّفاته:

ألَّفَ الشيخُ عبد المحمود الحفيان عدداً من المؤلَّفات على تنوُّعٍ في المجال ومِن هذه المؤلفات:

١. كتاب "الوصية".

٢. إجالة الفكر: وقد أعيدت طباعته.

٣. الشيخ عبد القادر الجيلي حياته وآثاره: طبع الجزء الأول وأُعيدت طباعته.

٤. النَّظم البديع: ديوان شعر.

٥. موسوعة نظرات في التصوف الإسلامي: في تسعة مجلدات، صدر منها:

- ❖ التصوف الإسلامي المصطلح والمفهوم. وهده طبعته الثالثة.
- ❖ أطوار التصوف الإسلامي.
- ❖ البيئة والسماع.
- ❖ طهر وصلاة (عبارات وإشارات).

والتي تحت الطبع مِن هذه الموسوعة:

- ✧ أعراف ومواسم.
- ✧ التصوف الإسلامي (المنهج).
- ✧ التصوف الإسلامي (العطاء).
- ✧ قضايا العرفان الصوفي"١".

✧ قضايا العرفان الصوفي "٢".

✧ والمجلد العاشر لموسوعة النظرات الفهارس الفنية.

ومن المخطوطات:

٦. الشيخ محمد عبد الكريم السمان حياته وآثاره.

٧. الشيخ أحمد الطيب بن البشير حياته وآثاره.

٨. الشيخ عبد المحمود الشيخ نور الدائم حياته وآثاره.

٩. أصول الفقه رؤية معاصرة جزءان.

١٠. ثاني اثنين.

١١. دوران الفلك بإضاءة الحلك بجواز رؤية النبي والملك.

١٢. في سبيل الحق سؤال وجواب.

١٣. أقباس من المعرفة.

١٤. القديم الجديد.

١٥. أنتم الأعلون.

١٦. حديث الأبرار.

١٧. حلية العرفان.

١٨. شرح قصيدة السير بالأرواح.

١٩. أفضل الكلم.

٢٠. الشِّرعة والمنهاج.

٢١. الدُّر النفيس في شرح رسالة فضل أهل الحديث.

٢٢. أمر الحاكم وأثره في التشريع.

٢٣. النِّيات وأثرها في الأعمال.

٢٤.البسملة وأحكامها.

٢٥.نسمات الأسحار: ديوان شعر.

وفاته:

انتَقل الشيخ عبد المحمود الحفيان إلى جوَار رَبِّه في يوِم الجُمُعَةِ ٩ شَعْبَان عام ١٣٩٣ هـ. مَا يُوافِق ٧ سبتمبر ١٩٧٣ مـ. وخلفه ابنُه الوارث الشيخ الجيلي أمدَّ الله في أيامه ونفع به العباد.

المدخل



كتبه: الخليفة الشيخ
الجيلي بن الشيخ عبد
المحمود الحفيان

... ولما كان التَّصوف الإسلامي هو حركة السَّالك بالفكر والذكر في طريق العِرفان، فإنَّ عدداً مِن الباحثين قد أسهموا في رصد هذه الحركة واستقرائها وتقويم آثارها الظاهرة وهم خارجها، على تفاوتٍ في الموقع بين مراقبٍ على درجةٍ مِن القُرب وجدانًا وفكراً، وبين آخر قد نأى موقعُه وجدانًا وفكراً، ومِن ثَمَّ يمكن تقييم التَّعبير الذي يعطيه كلٌّ مِن موقعه.

فإذا جاء مَن عاش الحَدَثَ وكابدَ السَّير سالكًا طريق التصوف وقد وصل إلى العالي مِن دَرَجِه، ليصف ما عايشه ويُجلِي بعضَ مُدركاته ومَداركه، ويعبِّر عن وجوده ببعض مواجيده، فإنَّه لابدَّ مِن الالتفات إليه والوقوف عنده بعناية، لأنَّه يُعطي وصفًا دقيقًا لحركة التصوف مِن داخلها، وعلى ذلك فهو الأقدر على إعطاء الحقائق الداخليَّة لهذه الحركة، كما أنَّه الأكثر دقَّةً حينما يصفُ الآليات الفكريَّة والروحيَّة لحركة التصوف التي يعيشها، وهو الأقوم قِيلاً عندما يُخبر عن آثارِ ناشئة الليل في طريق الرُّجعَى إلى الله، لاسيَّما والليلُ حاجبٌ لمَن يرصدون الحركةَ ظاهراً.

بسم الله الرحمن الرحيم :

الكتابةُ في التَّصوف الإسلامي والكتابةُ عن التَّصوف الإسلامي امران مختلفان اختلافًا نوعيًّا. اما إذا وردَ اختلافٌ بين مَنْ يكتب في التصوف أو مَنْ يكتب عن التَّصوف فهو لا يعدو أنْ يكون اختلافًا في الدَّرجة.

والفرقُ بين اختلاف النوع واختلاف الدرجة - في مضامين الأفكار ذات النسق الواحد:

⊙ انَّ الأول يُفضِي إلى التَّضاد والصِّراع والتَّعصُّب وهو أمرٌ ممقوت في منهج الإسلام.

⊙ أما الثاني فيُفضِي إلى تعدُّدِ وِجهاتِ النَّظر بتعدُّدِ درجات الفهم والتَّفكير وارتقاء بعضها.

واختلاف الدرجة في جملته يُثري ساحَ المعرفة بقويم الأنظار وسديد الأفكار، الأمر الذي يُتيح للمُتَلقِّي خيارات عديدة، يأخذ بأيُّها شاء دون حَجْرٍ ولا عَزْلٍ ولا تفنيد.

والكاتب في التَّصوف الإسلامي إنسانٌ عاش حياة التصوف وخَبِر مدارج السلوك بما فيها من قبض وبسط وجمال وجلال، وبما تُعطيه من مواجيد وأذواق، كلُّ ذلك في:

✧ إطار مِن حَقِّ الإيمان.

✧ وحقيقة التوحيد.

✧ مع عقل نفّاذ.

✧ وقلب منير.

لتمتاز آثار الكاتب بهذا الاعتبار بالصِّدق وحرارة التَّعبير، وأعني بالصِّدق في هذا السِّياق صدق الشعور وصدق الموقف وصدق الكلمة.

أما الكاتب عن التصوف الإسلامي فهو إنسان يعتمد الرَّصد والاستقراء والتَّحليل، وهي مِن أدوات المنهج التَّاريخي من مناهج البحث، وهو منهجٌ يلزم أنْ يكون مَنْ يكتب عنه خارج أحداثه، حتى تكون أحكامُه وتقييماته موضوعيَّة، لأنَّ صُنَّاع التَّاريخ ليسوا في الغالب مِن كَتَبَتِه.

وإذا كان الحدث التاريخي هو عبارة عن حركة الأحياء والأشياء في الزمكان[1]، فإنه يلزم لرصد هذه الحركة واستقراء ظواهرها وآثارها ومدَى سرعتها أنْ يكون مَن يقوم بهذا التَّتَبُّع والاستقراء خارج هذه الحركة وهذا من الأمور المسلَّمة.

ولما كان التَّصوف الإسلامي هو حركةُ السالك بالفكر والذكر في طريق العرفان، فإنَّ عدداً من الباحثين قد أسهموا في رصد هذه الحركة واستقرائها، وتقييم آثارها الظاهرة وهم خارجها، على تفاوتٍ في المواقع:

- بين مراقبٍ على درجةٍ من القُرب وجدانًا وفكرًا.
- وبين آخر قد نأى موقعُه وجدانًا وفكرًا.

ومِن ثَمَّ يمكن تقييم التَّعبير الذي يعطيه كلٌّ مِن موقعه.

---

[1] / الزمكان: الزمان والمكان.

وصف حركة التصوف من الداخل:

فإذا جاء مَن عاش الحدَث، وكابدَ السَّير سالكًا طريقَ التصوف، وقد وصلَ إلى العالي مِنْ دَرَجِه:

- ليصف ما عايشه.
- ويُجْلِي بعضَ مُدْرَكاته ومَداركه.
- ويعبِّر عن وجوده ببعض مواجيده.

فإنَّه لابدَّ مِن الالتفات إليه والوقوف عنده بعنايةٍ، لأنَّه يُعطي وصفًا دقيقًا لحركة التَّصوف مِن داخلها، وعلى ذلك فهو:

- الأقدر على إعطاء الحقائق الداخليَّة لهذه الحركة.
- كما أنَّه الأكثر دقَّةً حينما يصف الآليات الفكريَّة والروحيَّة لحركة التَّصوف التي يعيشها.
- وهو الأقوم قيلاً عندما يُخبرُ عن آثارِ ناشئة الليل في طريق الرُّجعى إلى الله، لاسيَّما والليل حاجبٌ لِمَنْ يرصدون الحركة ظاهراً.

وما أقدِّمه مِن دراسةٍ بهذا المدخل هي كتابةٌ "**في التَّصوف الإسلامي**" وتعبيرٌ عن حركةٍ عاش صاحبُها في الصَّميم منها، وقد وفَّق الله هذا السَّالك العارف بالله أنْ يُعبِّر عن معطيات السَّير والمراقبة والشهود فيما عاش مِن حياةٍ، فكان حَرِيًّا بالدَّارسين للتَّصوف الإسلامي والرَّاصدين لحركته أنْ يقفوا عند هذا العَلَم الذي أرسَى في طريق الرُّجعى إلى الله العديد من معالم السَّير والسلوك، سواءً في مجال التَّزكيةِ والإرشاد، أو في مجال أدب التَّصوف وآثاره العلميَّة.

بين التَّحامل على التصوف والانحياز له:

ولكن قد يواجهنا البعضُ بإشكالٍ في سياق هذا الأسلوب التَّقريري، وهو المصداقية، إذ أنَّ الغالب على مَنْ كَتَبَ في التصوف الانحياز التَّام له واغضاء الطَّرف عن كلِّ سلبيَّاته ومثالبه، وهذا موقف يَبْعُدُ بصاحبه عن الصِّدق!! خصوصًا أمام باحثٍ يريد أنْ يدرس التَّصوف في حَيْدَةٍ ونَصَفَةٍ.

كما أنَّ الكثير ممَّن كتب عن التَّصوف وهم الذين يرصدون حركته من خارجه، قد تحامل على التَّصوف الإسلامي وصوَّره بصورةٍ تَجعلُه رِجْسًا مِن عمل الشيطان يلزم اجتنابه!!.

وبين الانحياز للتَّصوف مِن الموالين، والتَّحامل عليه مِن المعارضين تغيبُ الحقيقة التي يبحث عنها الباحثون، المتجرِّدون لها المنصفون في تقريرها؛ وهذا بحقٍّ إشكالٌ صَرَفَ العديدَ مِن أهل الفكر والنَّظر عن التصوف الإسلامي سلوكًا ودراسة.

بيد أنِّي أقول في إيجازٍ مستخدمًا بعضَ مصطلحات أصول الفقه: إنَّ مفسدة الانحياز أخفُّ وأصغرُ مِن مفسدةِ التَّحامل، الذي يُفضي في كثيرٍ مِن الأحيان إلى الافتراء والبهتان، وقد تُقْبَلُ مفسدةُ المنحازين دَرْأً لمفسدةِ المتحاملين، ومَنْ عَلِم حُجةٌ على مَنْ جَهِل.

معيار الحق الكتاب والسنة:

ولعلَّ مما يَرفع الإشكالَ ويزيل الحيرةَ، أنْ يدخل مَنْ يريد البحث في مجال التصوف وقضاياه، وهو يحمل في يده نورَ الهداية ومعيار الحقِّ في

مضمار النِّزاع، وهو القرآنُ والسُّنَّةُ بأقسامها الثلاثة[1] متى صَحَّتْ عن الرسول الكريم ﷺ، وهي مَرْجعيَّة يلزم أهلَ الحقِّ الالتزام بها في مَجاليْ النظر والعمل، وذلك التزامًا بأمر الله تبارك وتعالى الذي يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩].

ولا يخفَى أنَّ الردَّ فيما تنازع فيه العلماء من الأنظار إلى الله ورسوله ﷺ، إنما هو كنايةٌ عن الردِّ إلى القرآن والسنة المطهَّرة، ومِن لوازم ذلك أنْ يعلم المتنازعان وهما يردَّان ما تنازعا فيه إلى القرآن والسنة أنَّ لكلٍّ من القرآن والسنَّة فهمين:

١. الأول: فهم الرواية.

٢. الثاني: فهم الدراية.

وصاحب الفهم الأول قارئ، وصاحب الفهم الثاني فقيه.

ومِن الفقه التَّدبُّر في آيات الله وسنَّة رسوله ﷺ. ومعلوم أنَّ الأدبار غيرُ الظواهر.

1/ اقسام السنة الثلاثة هي: السنة القولية، والسنة الفعلية، والسنة التقريرية.

وقد حثَّ الحقُّ تبارك وتعالى المسلمين بتدبُّر القرآن وسَبْر أغواره[1]، وعدم الوقوف عند ظاهره فحسب، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩] وقد نَعَى الحقُّ تبارك وتعالى على المنافقين والذين في قلوبهم مرضٌ عدمَ نظرِهم إلى القرآن ببصائرهم، واكتفاءهم بظاهر النظر، يقول تبارك وتعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [سورة محمد: ٢٣- ٢٤]

ومِن المَلاَحظ البيانية في الدلالة، التي يمكن استخلاصها مِن هذه الآيات أنَّ وسيلةَ التَّدبُّر والفهم عند الله في بيانه الكريم هي اللُّب والقلب، وهما مُدْرِكان باطنان يختصَّان بالتَّفاعل مع البواطن، مما يؤكِّد أنَّ للقرآن ظهرًا وبطنًا[2]، والاختلاف بينهما اختلافٌ في الدَّرجة لا في النوع، كما أنَّ الاختلاف بين اللُّب والقلب اختلافٌ في درجةِ وسيلة الإدراك لا في نوعها.

---

[1] / سبر أغواره: السبر التجربة، واستخراج كنه الأمر. وسبر الجُرح: نظر مقدارَه وقاسه ليعرف قدره. ومَسْبُرَتُهُ: نهايَتُه. وفي حديث الغار: قال أبو بكر ﷺ للنبي ﷺ (لا تَدْخُلْه حتى أَسْبِرَه قَبْلَك). أي: أَخْتَبِرَه وأَنظرَ هل فيه أَحد أَو شيء يؤذي. [لسان العرب لابن منظور، ج: ٤ ص: ٣٤٠].

[2] / أخرج ابن حبان: عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ { أُنزل القرآن على سبعة أحرف لكلِّ آية منها ظهر وبطن}. [صحيح ابن حبان ج: ١ص: ٢٧٦الحديث رقم ٧٥]. وروى الطبراني في الكبير عن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: { انزل القرآن على سبعة أحرف، لكل حرف منها ظهر وبطن، ولكل حرف حدٌّ، ولكل

والدّراسة التي أُقدِّم لها بهذا المدخل كتابة "في التصوف الإسلامي" لم تَفُتْهَا درايةُ القرآن وتدبُّره ورعاية القرآن ومتابعته، ولا جرم فقد أعدَّها العارف بالله الشيخ عبد المحمود الحفيان بن الشيخ الجيلي[1] بن الشيخ عبد

حدٍّ مطلع}. وأورده السيوطي في الجامع الصغير وحسنه [الجامع الصغير الحديث رقم ٢٧٢٧]. ورواه البغوي في شرح السنة عن الحسن وابن مسعود مرفوعاً. وانظر [التمهيد لابن عبد البر، ج: ٨ ص: ٢٨٢].

قال المناوي في فيض القدير: فظهره ما ظهر تاويله وعُرِفَ معناه، وبطنه ما خفي تفسيره وأشكل فحواه. {ولكل حرف حد} أي منتهَى فيما أراد الله من معناه {ولكل حدٍّ} من الظهر والبطن{مطّلَع} أي مصعد وموضع يطلع عليه بالترقي إليه فمطلع الظاهر التمرن في فنون العربية وتتبع أسباب النزول والناسخ والمنسوخ وغير ذلك ومطلع الباطن تصفية النفس والرياضة والعمل بمقتضاه. [فيض القدير بشرح الجامع الصغير، ج:٣ ص:٥٤].

وقال ابن الأثير: ظهره ما استوى المكلفون فيه من الإيمان والعمل بمقتضاه وبطنه ما وقع التفاوت في فهمه بين العباد على حسب مراتبهم في الأفهام والعقول وتباين منازلهم في المعارف والعلوم، وفيه تنبيه على أن كلاً منهم إنما يطلب بقدر ما انتهَى إليه من علم الكتاب وفهمه.

[1] / **الشيخ عبد القادر الجيلي**: والد المؤلِّف ﷺ وُلِدَ عام[١٢٩٥ هـ / ١٨٧٨ م]. حفظ القرآن بخلوة الفكي عبد الماجد بقرية الخيران بالنيل الأبيض، وقرأ علوم الآلة [اللغة العربية] على والده، ثم أرسله والده إلى أم درمان، فأخذ عن شيخ الإسلام الشيخ محمد أحمد البدوي. وفي عام ١٣١٨ هـ. اقامه والده مقامه في حلقة الدرس واستقبال العلماء والمباحثة معهم وتلقِّي الفتاوى والإجابة عنها والقيام بشأن الفقراء والمريدين.

وفي عام ١٣٢٣ هـ توفي والده الأستاذ الشيخ عبد المحمود فجلس مكانه في الخلافة والإرشاد. انتقل الشيخ عبد القادر الجيلي إلى رحمة ربِّه في ١٣من ربيع الأول لعام ١٣٨٥ هـ الموافق ١٩٦٥/٧/١٢ م. انظر كتاب [الشيخ عبد القادر الجيلي - حياته وآثاره - للأستاذ المؤلف].

المحمود [1] بن الشيخ نور الدائم [2] بن سيدي القطب الشهير الشيخ أحمد الطيب بن الشيخ البشير[3]. وهذا تسلسلٌ له في التصوف وأدبه، والعلم

[1] / الأستاذ الشيخ عبد المحمود: ولد الشيخ عبد المحمود بن الشيخ نور الدائم بجزيرة أم طريفي بولد رملي في عام ١٢٦١ هـ. بدأ حفظ القرآن على أخيه الشيخ الصديق الشيخ نور الدائم ثم ارتحل مع والدته إلى الشيخ القرشي بن الزين ﷺ ولازمه إلى أن حصَّل عليه حفظ القرآن في أقرب مدة من الزمان وعمره احد عشر عاماً، ثم من بعد فراغه من قراءة القرآن المجيد اشتغل بقراءة العلم الشريف على العالم العلامة الفقيه الورع الزاهد الشيخ محمد زروق حيث اجازه في جميع مروياته وأجلسه في محله الذي كان يدرّس فيه ليلقي على الطلبة الدروس بحضوره فدرَّسهم وأتى بما يبهر الألباب من حسن التعبير ولطف التحرير والتقريرات التي يقصر عنها كل ماهر نحرير.

سلك الطريق السماني على يد الشيخ القرشي بن الزين خليفة سيدي أحمد الطيب في تلك المنطقة. وأجازه شيخه الشيخ القرش بعد أن رأى فيه معالم الفتح وعلامات الوراثة. ترك آثاراً علمية كثيرة في مختلف جوانب العلم والمعرفة حيث تجاوزت مؤلفاته الخمسة وثمانين كتابًا. كانت وفاته ﷺ ظهر الأربعاء ١٤ربيع ثاني ١٣٣٣ هـ./ ٣ مارس ١٩١٥ م.

[2] / الشيخ نور الدايم: ولد الشيخ نور الدايم بن الشيخ احمد الطيب سنة ١٢١٣ هـ، وقرأ القرآن على الفقيه زين العابدين بالدَّبة، وقرأ من الفقه ما لا بدَّ منه. وكان أشبه اولاد سيدي احمد الطيب به خَلقاً وخُلقاً وطريقة. انتفع به عدد كبير إلا أنَّ أكثر إرشاده في أولاده مباشرة، وهو شاهد بشارة والده له بأنَّ البركة فيه وفي ذريته من بعده. توفي الشيخ نور الدايم في يوم الأربعاء لتسع وعشرين من شوال سنة: [١٢٦٨ هـ/١٨٥٢/٨/١٢ م]. [ازاهير الرياض للأستاذ الشيخ عبد المحمود نور الدايم ص٢٤٩].

[3] / الشيخ احمد الطيب بن البشير: ولد رضي الله عنه بقرية أمَّرحي شمال أم درمان سنة ١١٥٥ هـ/١٧٤٣ م . حفظ القرآن الكريم بمسجد الشيخ احمد الفزاري الفرضي بقرية أم طلحة، ثم سافر إلى الحجاز وعمره سبعة عشر عاماً فأدَّى فريضة الحج، ثم سافر إلى المدينة المنورة لزيارة المصطفى ﷺ.

ومداركه نسبٌ عريق ومنارٌ رفيع، وقلَّ أنْ تصدر دراسةٌ عن التَّصوف الإسلامي في السودان بعد القرن الثالث عشر الهجري ولا تتضمن الإشارة بإيجازٍ أو إطنابٍ لِعَلَمٍ من أعلام البيت الطَّيِّبيِّ السمَّانِي.

والدراسة التي أقدِّم لها بهذا المدخل تدور على محاور سبعة هي بلُغَةِ الشيخ المؤلِّف أبواب تضمُّ فصولاً تتفرَّع مباحثَ، ولعله مما تتمُّ به الفائدة أنْ نستعرض هذه المحاور في إيجاز يُعنَى باستقراء هذه المحاور دون الدخول في دراستها وتحليلها وتقويمها أو تقييمها، لأنَّ كلَّ ذلك مِن مَهام القارئ الناقد، ولا أريد أنْ أَحُولَ بين عقلِ القارئ والفهمِ المباشر لِمَا قرأ، لأنَّ التفكير والإدراك جَهْدٌ ذاتيٌّ، وبمقدار معاناته ومكابدته تكن مُتعة المُفَكِّر، كما أنِّي لا أقول بالتفكير عن الغير ولا أدعو إلى الفهم والإدراك نيابةً عنهم إلا أنْ يكونوا مِن عوام الناس.

وأقام بالمدينة ملازماً للشيخ محمد بن عبد الكريم السمان سبعة أعوام، لجنى فيها ثمرات طرائقه الخمس: القادرية والخلوتية والنقشبندية والأنفاسية والأسمائية، سلوكًا وتحقيقًا، وذوقًا وتدقيقًا، حتى صار في جميعها قطباً فريداً، واستاذاً مفيداً، فبعد ذلك أجازه الشيخ في جميع طرائقه، وأمره بالتوجه إلى بلده لتربية المريدين]. فعاد[من روضة المصطفى ﷺ يحمل بين جوانحه نوراً من سماء الطارق بالخير والإحسان والرشد، حيث طلعتْ شمسه بافق أمُرحي العالي فبسطتْ الوقت بسطاً كالمكان، وغدا يومها مفروقاً مِن أمسِ الزمان].
عاد مُجازاً من المدينة المنورة وأقام بأمُرحي، ونشر الطريقة السمانية في السودان ومصر والحبشة والصومال ونيجيريا وغيرها من البلدان، توفي رحمه الله يوم الأثنين ٢٢رجب سنة ١٢٣٩ هـ. / ٢٢مارس ١٨٢٤ مـ [أزاهير الرياض للأستاذ الشيخ عبد المحمود نور الدايم]. و [والمدخل الذي كتبه الخليفة الأستاذ الشيخ الجيلي بن الشيخ عبد المحمود الحفيان لكتاب " الشيخ عبد القادر الجيلي ـ حياته وآثاره" للأستاذ المؤلف].

المحاور التي تدور فيها هذه الدراسة:

و تدور هذه الدِّراسةُ في سبعة محاور تَرِدُ على النَّسقِ التالي:

المحور الأول:

وقد استقرأ المؤلِّف في هذا الفصل النشأة التاريخية لمصطلح التصوف وأثبتَ فَرْضيَّةَ مَرْجعيَّةِ معرفة هذا المصطلح إلى أواخر القرن الهجري الأول، كما أثبتَ المؤلِّف أنَّ ذيوع وانتشار هذا المصطلح قد تمَّ خلال القرن الثاني الهجري، أما تقعيد قواعده وإقامة معالمه ووضع مصطلحاته وإبرازه كعِلْمٍ من علوم الإسلام فقد تمَّ خلال القرن الثالث، مُشيراً بذلك إلى أنَّ التصوف علمٌ من علوم الإسلام التي عُرِفتْ وانتشرتْ وتحدَّدتْ معالمُها خلال القرون الثلاثة الفاضلة.

والمؤلِّف يُخَالِف بذلك تلك الفرضيَّة القلقة التي تزعم أنَّ التصوف لم يُعْرَف إلا بعد نهاية القرون الهجرية الثلاثة الفاضلة.

كما ينحاز المؤلِّف إلى صِحَّة نسبةِ المصطلح إلى لُبْسِ الصوف، وقد وَجَّه هذه النسبة توجيهًا جيِّدًا، مُستأنسًا في ذلك بقاموس إسلامي صريح، مستخدمًا معرفته الواسعة بالقرآن وعلومه، إلى جانب نظره في تراث مَنْ كَتَبَ في هذا المجال مِن عُلماء الصوفيَّة.

والمؤلف في سبيل إثبات فرضيَّة أنَّ التصوف الإسلامي عِلْمٌ مِن علوم الإسلام عُرِفَتْ معالمُه ومقوِّماتُه باكراً، قد عَمَدَ إلى استعراضِ حيوات عددٍ مِن أعلام التَّصوف الإسلامي، الذين انحصرتْ سِنَي وفيَّاتهم في القرون الثلاثة الفاضلة، حتى يؤكِّد مِن خلال ذلك استقرار مصطلحات التصوف

الإسلامي وتداولها بين علمائه منذ ذلك الزمن الذي وصفه رسولُ الإسلام ﷺ بـ"الخَيْر"[1].

المحور الثاني:

عقد المؤلّف هذا الفصل للحديث عن معنَى التَّصوف، كما قال به رُوَّاد المدرسة الصوفية وعُلماءُ هذا المذهب، وقد بَدا جهدُ المؤلّف واضحًا في تقريب هذه المعاني إلى الأذهان، بما أورد فيها من تبيين وتوضيح ما فيها من إشارات لها من الدلالات ما هو واسع وعميق.

وقد حاول المؤلّفُ - في توفيقٍ ظاهرٍ- أنْ يربط هذه المعاني بجذورها الشرعيَّة.

وقد يُلاحِظ القارئ أنَّ المؤلّف قد أورد المعاني التي كانتْ تدور بين علماء الصوفية حتى نهايات القرن الثالث الهجري، وفي هذا إمْعَانٌ في التَّأصيل التاريخي لهذه المعاني.

أما التَّأصيل الشرعي للتصوف الإسلامي ومَقولاته ومُقوِّماته العلميَّة والعمليَّة فقد أفْرَدَ لها المؤلّف البابين الرابع والخامس مِنْ مؤلّفه هذا.

[1] / القرون الثلاثة الفاضلة: أخرج البخاري: عن عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ {خَيْرُكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ} قَالَ عِمْرَانُ لاَ أَدْرِي أَذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدُ، قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلاثَةً. انظر[صحيح البخاري، ج:٢ ص:٩٣٨ الحديث رقم ٢٤٥٧]. و[صحيح مسلم، ج:٤ ص:١٩٦٤ الحديث رقم ٤٦٠١.] و[سنن الترمذي، ج:٤ ص:٥٠٠ الحديث رقم ٢١٤٧]. و[السنن الكبرى للنسائي، ج:٣ ص:١٣٥الحديث رقم ٣٧٤٩].

المحور الثالث:

وهو الباب الثالث وقد خصَّصه المؤلِّف للحديث عن أطوار التَّصوف الإسلامي وأصوله، وقد أورد في بداية هذا الباب تصنيفاً عامًّا للمدارس الفكرية، التي كَتبتْ في التصوف الإسلامي أو عنه، وقد كان موضوعيًا في تقييمه لبعض هذه المدارس كما أنَّه بدا قاسيًا نوعًا ما على المدرسة الوهابيَّة التي تنتسب إلى السَّلف، وعلى بعض الدائرين في فلكها مِن الباحثين، إلا أنَّها قسوةٌ لم تَبْعُد عن النَّصَفَة.

وقبل أنْ يتعمَّق الشيخ المؤلِّف في الحديث عن أصول التصوف الإسلامي ومرجعيَّته إلى شريعة الإسلام، أورد بين يدي ذلك حديثًا واسعًا عن مفهوم التَّصوف الإسلامي كما عايشه، وقد أعطَى مِن خلال ذلك مفهومًا للتَّصوف الإسلامي، راعَى فيه أنْ يكون مفهومًا جامعًا مانعًا، وقد حلَّلَ جزئيَّات هذا المفهوم، بما جعل الهدف منه واضحًا جليًّا.

ويلفتُ النظر في هذا المفهوم الذي ساقه الشيخ المؤلِّف للتصوف الإسلامي، أنَّه مفهوم يربط بين العلم والعمل، وقد جعل الشيخ المؤلِّف عِلْمَ التصوف مُتعلِّقاً بثلاثة مقاصد:

- علم بالطريقة.
- علم بالنَّفس.
- علم بالله.

وقد تحدَّث بإيجاز عن متعلِّقات كلِّ علم من هذه العلوم، ثم مضى في تحليل ودراسة ما ساقه من مفهومٍ للتصوف الإسلامي مستأنسًا في توجيهه لهذا

المفهوم بالعديد من الأدلة الشرعية ومقولات السلف الصالح، التي تدعم ما ذهب إليه من مفهوم.

ثُمَّ أورد الشيخ المؤلف في نهايات هذا الباب تلخيصًا مُركّزاً، يعود بالمفهوم الذي ساقه للتصوف الإسلامي إلى أصوله الراسخة من الكتاب والسنة، حتى يقوم بناء التصوف الإسلامي على أرضٍ صلبةٍ مِن المشروعيَّة.

المحور الرابع:

وهو باب ناقش فيه الشيخ المؤلّف أمرين يُشكّلان هَمًّا أساسيًّا من هموم الباحثين، سواءً كانوا يبحثون مِن داخل المذهب الصوفي أو مِن خارجه:

- **الأمر الأول التصوف الإسلامي بين النَّظريَّة المثاليَّة والواقع التَّطبيقي:**

وقد تعرَّض الشيخ المؤلّف في هذا الباب إلى مَبْحَثٍ هام، هو أثر البيئة في تشكيل الواقع الصوفي ومِن ثَمَّ اختلاف قَسَمَات المظاهر الصوفية من بيئةٍ لأخرى، وتأثير ذلك على مشروعيَّة هذه المظاهر والظواهر الصوفيَّة.

- **الأمر الثاني التَّصوف الفلسفي:**

وهو أمرٌ شغل العديد من العلماء فأثْروا السَّاحة العلميَّة بالعديد من الأنظار، التي تباينتْ وجهاتها بين التَّطرُّف والاعتدال رفضًا وقبولاً.

وأحسبُ أنَّ الشيخ قد سلك في ذلك منهجًا وسطًا، حَرَّرَ مِنْ خلاله مَواطن الخلاف، بتحقيق مَنَاط المصطلحات الواردة في هذا السِّياق وتقريب معانيها للأذهان، حتى يمكن الحُكْم لها أو عليها بعد معرفتها والتَّبصُّرِ بها.

وقد أظهر المؤلّف وهو يُحلّل مقولات العلماء في هذا المضمار موضوعيَّة ورصانةً هو حَرِيٌّ بها، لأنَّه يصدر في ذلك عن نظرٍ كُلّيٍّ شاملٍ، وقلبٍ مُنيرٍ فسيحٍ لا يضيق ولا يتحرَّج بضيق هذه المسالك الفلسفيَّة!! ولا يخفى أثرُ ذلك

العقلُ النَّفاذ، الذي لا يعجز عن التَّفريق بين المتشابه مِن الدّلالات والخفيّ مِن الإشارات في توجيه بعضٍ تلك المصطلحات الفلسفيَّة، توجيهًا يعود بها إلى دائرة المفهوم الإسلامي، بعد أنْ رَسَخَ في عديدٍ مِن أذهان الباحثين والعلماء أنّها مصطلحاتٌ ومقولاتٌ مَنكورةٌ لا مكان لها في السِّياقِ الشَّرعي[1].

المحور الخامس:

وهو بابٌ بحث فيه الشيخ المؤلِّف الأصيلَ والدَّخيلَ مِن المَقولات الصوفيَّة، مستهدفًا تنقيةَ التَّصوُّف الإسلامي ممَّا عَلِقَ به مِن شوائب الفكر المُنحرفِ والعُرْفِ الفاسد، حتى لا يُحَاكَمَ التَّصوفُ الإسلامي بما ليس منه، مستهدفًا وَضْعَ التَّصوفِ الإسلامي موضعَه الرَّائد بين علوم الإسلام التي لا غنَاء للمجتمع الإسلامي عنها.

المحور السادس:

وقد جاءتْ فصولُ ومباحثُ هذا الباب عند المؤلِّف لتناقش موضوعَ البيعة في الطريق الصوفي، وهو موضوعٌ يدخل في صميم الممارسات الصوفيَّة، إلى جانب أنَّه يُشكِّل الأصل في مشروعيَّة الانتماء إلى الطريقة الصوفية.

والبيعةُ بهذا الاعتبار تمثِّل كُلِّيَّةً من كُليَّات العمل الصوفي، التي يلزم بحثُها وتحديدُ موقعها في بناء الطريقة، التي تُعتبر تطوُّراً لاحقًا في مسيرة التَّصوف عبر القرون.

هذا وقد تعرَّض مصطلح البيعة عند الصوفية إلى نقدٍ عنيف من بعض الباحثين في أيَّامنا هذه واصفًا هذه البيعة بالبدعة الضلالة، ويبدو لي أنَّ هذا الباحث قد تعجَّل هذا الحُكم الذي فاته الكثير من الدقَّة، وكان من لوازم البحث الجادِّ في مثل هذه الموضوعات الاستقراء الدقيق والموازنة

والتقويم ومن ثمَّ التقييم، ولو بذل هذا الباحث المتعجِّل جَهْداً في هذا المضمار لما وصل إلى هذا الحكم الذي تحامل فيه على الطرق الصوفية دون بُرهان ولا حُجَّةٍ ولا كتاب منير.!!

وأيًّا ما كان الأمر فقد أشبع الشيخ المؤلِّف هذا المصطلح البيعة الصوفية بحثًا وتحليلاً بعد استقراءٍ جامعٍ، ولعَلَّه قد وصل إلى نتيجة راجحة في ميزان البحث العلمي يُرْجَى أنْ تعيد التَّوازن الفكريَّ لدَى بعض الباحثين، الذين تتغلَّب فيهم نزعةُ التَّعصُّب المذهبي على حَيْدَةِ ونزاهةِ البحث العلمي!!.

المحور السابع:

وهو الباب الأخير من أبواب هذه الدِّراسة التي أقدِّم لها بهذا المدخل، وقد جاءتْ فصولُ ومباحث هذا الباب تحت عنوان التصوف الإسلامي منهج وعطاء، وقد ركَّز المؤلِّف البحث في هذا المحور في المنهج الصوفي باعتباره طريقًا يَصِل بسالكيه إلى الله عزَّ وجلَّ، ولا يخفَى أنَّ الوصول إلى اللهِ عزَّ وجلَّ وطَلَبه من الغايات السَّامية التي استهدفها الإنسانُ، فجاءتْ الرسالاتُ السَّماويَّة لتُرْشِد الإنسان طريق الوصول وفق منهج ربَّاني ارتضاه الحقُّ طريقًا للوصول إليه.

وقد جاءت عباراتُ المؤلِّف حافلةً بما يُنير هذا الطريق ويُضيئ مدارجَه ويُبيِّن معالمه ويُرشِد إلى أركانه، مستهدفًا إقامةِ هذه الأركان على أسُسِها القويَّة من شرعة الله ومنهاجه، حتى يَتسنَّى له أنْ يشير إلى بناء المذهب الصوفي على هذه الأركان والدَّعائم، التي استقرَّتْ على الثابت من الأدلَّة والسَّاطع مِن البراهين.

وبعد أنْ أشبع المؤلِّف منهج التَّصوف الإسلامي بحثًا ودراسةً في موضوعيَّةٍ ودقَّةٍ وشُمولٍ، انتقل في هذا المحور للحديث عن عطاء هذا المنهج الصوفي وثِمَاره التي يجنيها الواصلون عبر هذا الطريق إلى الله عزَّ وجلَّ.

وقد ركَّز الأستاذ المؤلف في لغةٍ وَضيئة وأسلوبٍ رصينٍ على أنواع من العطايا والثَّمرات، التي فَازَ بها أهلُ هذا الطَّريق، وذكَر من هذه الثمرات أنَّ السالك لهذا الطريق بصِدقٍ وعزيمةٍ وهِمَّةٍ عاليةٍ ومَعرِفةٍ رفيعةٍ لابد أن يُحْظَى بثمار معاني الإسلام في حقائقه العُليا!!!.

وربَّما تسأل عن المُراد بـ"معاني الإسلام في حقائقه العُليا" فَيُجيبُك الأستاذ المؤلِّف بما لا أودُّ أنْ أستعرضه، حتى لا أَحُولَ بين القارئ وما يمكن أنْ يتذوَّقه من هذه الثمرات!! إلاَّ أنِّي أُنبِّه إلى أنَّ العطايا والثمرات في طريق الهُدَى تتوالَى على الصَّادقين من السَّالكين، في تَنَوُّعٍ يُثْرِي ساحَ التصوف الإسلامي بسَنِيِّ البصائر وقَويمِ الأنظار.

ومن ثمرات المنهج التي قدَّمها الأستاذ المؤلِّف لِمَنْ يقرأ هذا الأثَرَ مِن آثاره، إلى جانب معاني الإسلام في حقائقه العُليا وذلك على سبيل المثال لا الحصر سبعٌ من الثِّمار هي:

- المكاشفة.
- المطالعة.
- التَّقريب.
- المجالسة.
- الأُنس.
- الودُّ (المحبة).

◈ الكرامة وهي درجتان التُخلُق والتحقُق.

ويَعْقُبُ الكرامة التَّحلّي بمعطياتها، والمتحلّي بالكرامة على ما أورد الأستاذ المؤلّف بين أمرين:

١. مأذون بالتَّحلّي بما أُكرم به من حلْيَة. وهذا وليٌّ مُرشد.
٢. غيرُ مأذونٍ بالتُّحلّي لغلبةِ جذبات أنوارِ التُّحقُّق وفنائه في شُهُودِ الله، حتى غدا مُراداً لحضرة القُدْس. وهذا وليٌّ كاملٌ ولكنه غيرُ مُرشد.

فالأول على قَدَمِ الرِّسالة، والثاني على قَدَمِ النُّبوَّة. كما ذَكَرَ الأستاذ المؤلّف ﷺ.

وربما تجدُ مَنْ يتساءلُ مُخلِصًا ما حاجةُ الإنسان المسلم إلى كلِّ هذا الحديث الذي ليس له أيُّ مردودٍ عمليٍّ؟!! وهذا تساؤلٌ لا يخلو من أثرِ المذهب النَّفْعي، الذي نمتْ جذورُه في أرض الماديَّة الرأسماليَّة، التي لا تعرف نفعًا للقِيَمِ والأخلاقِ والمبادئ.!!

إلاَّ أنَّنا نقول: **[إنها حاجةُ العقل الذَّكيِّ إلى الاتِّصال بالقلب الزَّكيِّ، بل إنها حاجة اللُّبِّ الحكيم في الالتقاء بالشَّرع القويم]**. ولا يخفَى أنها حاجةٌ شغلتْ العديدَ مِن نوابغ الإسلام وحُكمائه، ولا تزال من الحاجات الْمُلِحَّة في سياق الفكر الإسلامي، الذي يُعاني من تلك الشُّقَّة الواسعة بين مُعطيات العقل وأشواق الروح في واقع التَّديُّن المعاصر.

وإنها لدعوةٌ إلى تكامل القُوَى الإنسانية في سير البشرية في طريق الرُّجْعَى إلى الله، ولا يخفَى ضرورةُ هذا التَّكامل في هذا المضمار، الأمر الذي يُكْسِب هذه الدِّراسة درجةً ساميةً مِن الأولويَّة والموضوعيَّة بعيداً عن

التَّسكُّع في درجات الجدَل الفلسفي، والاسترخاء في حيَاض التَّرف الذِّهني أو الركوض في دائرة التَّعصب المذهبي.

وبعدُ: فهذه محاورُ الدِّراسة التي أُقدِّم لها بهذا المدخل، واحْسَبُ أنَّها مِن الدراسات الجادَّة، التي يمكن أنْ تُسهم في إثراء الأنظار العديدة في ساحِ التصوف الإسلامي، لاسيَّما وقد جاءتْ حافلةً بالعديد من جديد الفكر والعبقريِّ مِن عطاء الوجدان المتجدِّد والروح المُشاهِد لمجالي الحقِّ في مدارجه العُليا. وقد ساق الشيخُ المؤلِّفُ دراستَه بأسلوبٍ رفيعٍ ولغةٍ مُتَخَيَّرة، إلاَّ أنَّها لا تخلو مِن الغريب أحيانًا، ولا احْسَبُ أنَّه عَمَدَ في ذلك إلى التَّباصُرِ بالغريب من اللفظ والحُوشِيِّ[1] مِن المفردات، بقدر ما قصد أنْ يُشير إلى قاموسٍ لُغَويٍّ رصينٍ[2] أصيلٍ، كاد أبناءُ العربيَّة وورثةُ ديوان العرب وأوعية القرآن الكريم أنْ ينسوه، وهم يتلقَّون في كلِّ لحظةٍ سيلاً مِن لغةِ الصَّحافة ولَحْنِ الناس! حتى لا يكادُ العليمُ أنْ يُقيمَ لسانًا.!!

ثم إنَّ مِنْ عملي في هذه الدِّراسة أنِّي علَّقتُ على ما يحتاج إلى تعليقٍ مِن عبارات الشيخ المؤلِّف، شرحًا لغامضٍ وتوضيحًا لمُشْتَبِهٍ، إلى جانب عَزْوِ

---

[1] / الحُوشِيُّ: الغامضُ من الكلام، وغريبه. ويقال: فلان يَتَتَبَّعُ حُوشِيَّ الكلام ووحْشِيَّ الكلام وعُقْمِيَّ الكلام بمعنىً واحد. وفي حديث عمر: [لم يَتَتَبَّعْ حُوشِيَّ الكلام]. أي: وحْشِيَّه وعَقِدَه والغريب المُشْكِلَ منه. [النهاية في غريب الحديث لابن الأثير الجزري، ج: ٢ ص: ٢٥٩] ولسان العرب لابن منظور، ج: ٦ ص: ٢٩٠].

[2] / الرَّصين: المُحَقَّق من الكلام، المحكم الثابت. [مختار الصحاح لأبي بكر الرازي، ص: ٢٤٥].

الآيات إلى مواقعها من سور القرآن الكريم، وتخريج الأحاديث الواردة في مَتْن هذه الدِّراسة، مع وضع فهارس الموضوعات وقائمة المراجع.

وأسأل الله في ختام هذا المدخل أنْ ينفعنا بهذا العمل، وأنْ يجعله في ميزان حسناتنا يوم القيامة، وأنْ يوفِّقنا إلى ما يُحِبُ ويرضَى. إنَّه سميعٌ قريبٌ مجيبُ الدعاء وهو الهادي إلى سواء السَّبيل.

الفقير إلى الله

الجيلي الشيخ عبد المحمود "الحفيان"

طابت: الجمعة ١٤ ربيع أول ١٤١٣ هـ.

الموافق ١١/٩/١٩٩٢ مـ.

[illegible]

المقدّمة

..... إلاّ أنَّ الهدف الأساسي الذي يمثل الغاية مِن تدوين هذه النظرات، هو **الوصول بالإنسان إلى مدارج السُّموّ الرَّباني بعد نُضج وكمال مقوِّمات البناء الإنساني بكلّ مجالاته**، ذلك باعتبار أنَّ دعوتنا إلى التَّصوف إنما هي في حقيقة أمرها دعوة إلى مذهبٍ إسلاميّ عَمليّ. والإسلامُ كما هو معلوم دينٌ شاملٌ يضُمُّ في أطواته مقوِّمات الوجود بما فيه حياة الإنسان مِن جميع جوانبها الروحيَّة والماديَّة بما تشتمل عليه مِن جزئيَّات اجتماعيَّة واقتصاديَّة ومدنيَّة وأخلاقيَّة. فالإسلام بهذا الشُّمول دينٌ مهيمنٌ على هذه الحياة ظاهراً وباطناً، يوجِّهها نحو الرُّقيّ والسُّمُوّ والكمال، رابطاً حياةَ الفرد بالجماعة وحياة الجماعة بالكون كلّه، مع ربطه الكون بمقتضيات الإرادة الإلهية والقضاء الرَّباني، الذي جاءت أقدارُ الحقّ تنفذُه وفقًا للوقائع والأحداث، وفي ذلك ما يُبرهن على خُضُوع جميع الكائنات لإرادة الله التي تتجلّى في نواميس الحقّ الوجوديَّة وسننه الكونية. ولا يخفَى على أهل النَّظر أنَّ هنالك نواميس عُليا ونواميس دنيا تحكم هذا الوجود.

المقدمة:

الحمد لله المتجلّي على أوليائه بجمال الجلال، المفيضِ عليهم شُرْبَ المحبة مِن عين الوصال، الذين قرَّبهم إلى حضرته ووهبهم من عطائه قُدسيًّا عينًا يشرب بها عباد الله يفجّرونها تفجيراً.

والصَّلاة والسلام والبركات على سيِّد السَّادات، ومَظهر تجلّي الرحمات، والمَجْلَى الأتم الأكمل لمظاهر الأسماء والصِّفات، الذي أرسله الحق تبارك وتعالى شاهدًا ومُبشّرًا ونذيراً وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وعلى آل بيته المُكرمين الأطهار، وصحابته المقرَّبين الأبرار، ومَنْ تبعهم بإحسانٍ إلى يوم القرار.

أمـا بعـد: فهذه وارداتٌ كُتِبَتْ وشاردات قُيِّدَتْ في طريق القوم تُشَكِّل:

- كلماتُ السَّلف الصَّالح مرجعًا أساسيًّا فيها.
- وتقف نصوصُ الشَّريعة معالمَ برهانيَّة وحُجَجًا ربَّانية، تدلُّ على صِدْقِ الوِجْهَة وصدق العطاء بإذن الله.

وإنّي لأرجو أنْ يكون عطاءَ صحوٍ بالله بعد سُكرٍ به، وفي كلٍّ عِلْمٌ يعرفه أهلُه. ومعلومٌ عند أهل هذا المذهب أنَّ كلَّ سُكرٍ وصحوٍ لا يتبعه عِلمٌ فليس لله فيه نصيبٌ!! وإنما هو سُكْرٌ وصَحْوٌ نفسيٌّ أو عقليٌّ لا يسمو فوق حاجِ الحياة الدنيا!!.

وما كَتَبْتُه في هذه الطُّرُوس نظرات في طريقة الحقّ، انتجتْ هذه الأنظار التي تَصرَّف فيها البيانُ بين ظهورٍ وغموض تبعًا لمسالك النَّظر وطبيعة المنظور.

الهدف من تدوين هذه النظرات:

إلاّ أنَّ الهدف الأساسي الذي يمثِّل الغاية مِن تدوين هذه النظرات هو: الوصول بالإنسان إلى مدارج السُموِّ الربَّاني بعد نُضجٍ وكمالِ مقوّمات البناء الإنساني بكلِّ مجالاته.

ذلك باعتبار أنَّ دعوتنا إلى التَّصوف إنَّما هي في حقيقة أمرها دعوةٌ إلى مذهب إسلاميٍّ عمليٍّ. والإسلام كما هو معلوم دينٌ شاملٌ يضُمُّ في أطوائه مقوِّمات الوجود، بما فيه حياة الإنسان من جميع جوانبها الروحية والمادية، بما تشتمل عليه من جزئيات اجتماعية واقتصادية ومدنية وأخلاقية.

فالإسلام بهذا الشمول دينٌ مهيمنٌ على هذه الحياة ظاهرًا وباطنًا، يوجِّهها نحو الرُقِيِّ والسُّمُوِّ والكمال، رابطًا حياةَ الفرد بالجماعة وحياة الجماعة بالكون كلّه مع ربطه الكون بمقتضيات الإرادة الإلهيَّة والقضاء الربَّاني، الذي جاءتْ أقدار الحقِّ تنفذُه وفقًا للوقائع والأحداث، وفي ذلك ما يُبرهن على خُضُوعِ جميع الكائنات لإرادة الله، التي تتجلَّى في نواميس الحقِّ الوجوديَّة وسُنَنِه الكونيَّة.

ولا يخفَى على أهل النظر أنَّ هنالك نواميس عُليا ونواميس دنيا تحكم هذا الوجود!. وأعني بالنواميس الدنيا تلك القوانين الطبيعية الظاهرة والمُسْتَكِنَّة في مسارب الكون وأغوار الوجود المادي، والتي بموجبها تتحرَّك المادَّةُ لصالح الحياة في نَسَقٍ مُطَّردٍ وانسجامٍ ونظامٍ وتسخير، يُخْبِرُ عن حكمةٍ راشدةٍ وخِبْرَةٍ عالية وعِلمٍ مُطْلَقٍ وغاية ربَّانيةٍ نبيلة استهدفها الخالقُ الحكيم.

وقد شُغِلَ العقلُ الإنساني باسْتِكْنَاهِ الكونِ واستكشاف قوانينه، وضرب في ذلك بنصيبٍ من العلم قليل!! كما أخبر بذلك البارئ العليم.

ومن العقول ما حداه التّوفيقُ فَلاحَتْ له الحكمةُ الرّاشدة، وبانتْ له الغايةُ السّامية الوضيئة، فعرفَ هنالك الحقّ وآمن بوجود الله ووحدانيّته، وأذعن لأمره فعاد من المسلمين.

والتّفكُّرُ وإعمالُ العقل ضربٌ مِن التّربية الفكريّة والتّديُّن العقلي، دعا له الإسلام وجعل له مِن ساحِ الكونِ مجالاً، وفتح كتاب الأحياء والأشياء لتقرأه الإنسانيّةُ في تَدبُّرٍ وبصرٍ، حتى تصل إلى الإيمان بوجود الواحد الأحد.

وقد يُلاحَظُ على مجتمعِ اليوم - والمسلمون منه - أنّ النواميس الدنيا وأخلاقيّاتها هي التي تُسيطرُ على الأذهان في الغالب، احتجاجًا بالموضوعيّة تارةً وبالواقعيّة ومواكبة العصر تارةً أخرى، وهي مقولات إنْ صدقتْ في الغرب أو الشرق باعتبار أنّ الصليبيّة والصهيونيّة عقيدتان تنفصلان عن أصولهما الربّانيّة، وبذلك فَهُما تفصلان بين الدِّين والعلم من ناحية، وبين الدين والحياة الاجتماعية من ناحية أخرى، الأمر الذي أنشأ ذلك الانفصام النَّكِد بين البشرية ومصدر الحياة الحقّة، التي تزداد عطاءً حينما تكتشف القوانين العليا وتعيشها، ولئن صدق هذا الانفصام فيما حولنا من معطيات حضاريّة ماديّة، فإنّ هذا لا يصدق على المفهوم الإسلامي الذي يمتاز بخصوصيّة الشمول في الخطاب، والموضوعيّة في التّكاليف، والربّانية في التّوجُّه، والتّنوُّع في المنهج.

ومـن مـنهج الإسـلام في تربيـة الإنـسان ذلـك الاهتمـام والحـرص علـى العناية بالقوانين العليا أكثر من عنايته بالقوانين الدنيا، ذلك لأنَّ القوانين العُليا هي قوانين الذات وما عداها هي قوانين الغير.

وأعني بالقوانين العُليا تلك الضوابط التي تُنَمّي وتُنَظّم العلاقةَ بين الإنسان وخالقه، وفقًا لمفهوم الأخلاق الرَّاشدة والفضيلة النَّاجزة، فتحقيق العبودية لله وحده وكمال الأخلاق الفاضلة وتمامها هما الهدفان السَّاميان لهذه القوانين العُليا، بل قُلْ هُمَا هدف الإسلام الأساسي وقصده الغائي، الذي جاءتْ شريعةُ الإسلام لتصل بالإنسانية إليه من خلال تركيزها على هذا المقصد في خطابها المعصوم.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)﴾ [التوبة:٣١]

ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البيّنة:٥]

ويقول جلَّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)﴾. [البقرة: ٢١]

ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ

بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ [النساء: ٣٦].

ويقول تبارك وتعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة: ٧٢].

ويقول جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٦- ١١٧].

ويقول عز وجل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾

[النحل: الآية ٣٦].

ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. ويقول تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾. الذاريات: ٥٦.]

وهكذا يتوارد البيان القرآني ليشير في تنوُّع دلالي إلى أنَّه استهدف من خَلْقِ العُقلاء أنْ يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، ومِن ثَمَّ أرسل الرسل مبشرين ومنذرين.

ثم جاء سيدنا محمد رسول الله الخاتم صلى الله عليه وسلم داعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيراً، يدعو إلى جانب توحيد الله وعبادته إلى السُّمو الروحي والكمال الأخلاقي، فيقول عليه أفضل الصلاة والسلام: [إنما بُعِثْتُ لأُتمِّم مكارم الأخلاق][1]

---

[1] / حديث: { إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق } : أخرجه البيهقي في السنن الكبرى من حديث أبي هريرة ﷺ والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، [السنن الكبرى للبيهقي ج١٠ ص١٩١] و[نوادر الأصول في حديث الرسول للحكيم الترمذي ج٢ ص٢١٢] وانظر لمسند الشهاب للقضاعي ج٢ ص١٩٢].

وأخرجه الإمام أحمد بلفظ: { إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق} [مسند أحمد ، الحديث رقم ٨٥٩٥] وقال الحاكم في المستدرك: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.[المستدرك على الصحيحين ج: ٢ ص: ٦٧٠ الحديث رقم ٤٢٢١] وانظر لمصنف ابن أبي شيبة ج: ٦ ص: ٣٢٤ الحديث رقم ٣١٧٧٣].

قال الهيثمي في مجمع الزوائد : رجال أحمد رجال الصحيح ، ورواه الطبراني عن جابر بلفظ { إن الله بعثني بتمام مكارم الأخلاق} [مجمع الزوائد ج: ٨ ص: ١٨٨].

ويقول صلوات الله وسلامه عليه: [ألا أخبركم بأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقًا الموطَّأون أكنافًا الذين يألفون ويؤلفون] ١. إلى غير ذلك من جوامع الكلم النبوي والهدي القرآني، الذي جاء يحمل في أضاميمه مقوِّمات بلغتْ من السُّمُوِّ والكمال درجةً لا تُنال، وهي ما أشرتُ إليه بالقوانين العُليا التي تضبط العلاقة بين الإنسان وخالقه جلَّ وعَلا.

وإذا ثبت أنَّ القوانين العُليا هي الأصل والأساس، وإذا ثبت أنها تخاطب الإنسان ذاتًا كُلِّيَّةً وتهتم به وتقوِّيه وترشده وتنحو به نحو الكمال، فإنَّه لابدَّ أنْ يتَّضح ما لهذه القوانين العُليا من الخطر والأهميَّة وبُعْد الأثر، الأمر الذي لا يمكن لبشرٍ أنْ يستقلَّ به لأنَّه سنَن الحقِّ في كونه وقانونه في خلقه فيتولَّى الله تبارك وتعالى - وهو الخالق الحكيم الذي يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور ولا يعزب عن علمه شيء وهو الولي الحميد -

---

١ / حديث: {الا اخبركم باقربكم مني مجلساً يوم القيامة}: رواه البيهقي في شعب الإيمان من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، ولفظه { الا اخبركم بأكملكم إيماناً أحاسنكم اخلاقاً الموطؤون اكنافاً الذين يألفون ويؤلفون} [شعب الإيمان ج٦ص٢٧٠ حديث رقم ٨١١٨]. وللطبراني في الصغير والأوسط بلفظ {إنَّ احبكم إليَّ}. وفي رواية للإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: {الا اخبركم باحبكم إليَّ واقربكم مني مجلساً يوم القيامة .... احسنكم خلقاً} [مجمع الزوائد ج: ٨ص: ٢١].

قال المناوي: الموطؤون أكنافاً بصيغة اسم المفعول من التوطئة وهي التمهيد والتذليل، وفراش وطئ: لا يؤذي جنب النائم. والأكناف: الجوانب، أراد الذين جوانبهم وطيئة. [فيض القدير ج٣ ص٤٦٤].

تشريعَ هذه القوانين وإنزالها لتميةِ وتنظيم المقوِّمات الإنسانية، فجاءت كلمةً مقدسةً في القرآن الكريم وقولاً جامعًا معصومًا في السنَّة المطهرة، مكوِّنة وسائل التَّزكية وأدوات التَّهذيب ومسالك السُّمو الروحي والكمال الأخلاقي، منزَّهة من الانحراف والفساد والبطلان، تَنَزُّه غاياتها السامية ومقاصدها الرفيعة عن ذلك بورودها في الذكر الحكيم.

وهذا أمر من لوازمه التفات العقلِ الإنساني بعامَّة وعقل المسلم بخاصَّة إلى مكانة الإنسان عند الله تبارك وتعالى، حيث لم يرض أنْ يَكِلَ أمرَ تنمية المدارك الإنسانية وتزكية الرُّوح البشرية وتجديد الوجدان للبشر، لعلمه بقصور مدارك الإنسان وجهل مسالكه، فوضع له من النُّظُم والقوانين ما هو كفيل بتربية الإنسان تربيةً كاملة وتأديبه أدبًا حسنًا، وذلك بكلمات الحقِّ الذي أنزل هذه القوانين لسياسة مَنْ خَلَقَ، إلى جانب أنَّه قد ترك للعقل الإنساني الحرية بعد تزويده بمقوِّمات الإدراك، حتى يفكِّر فيبدع ويستكشف من النواميس الكونية ما تصل إليه قدراتُ العقل الإنساني، الذي مهما استحصد[1] وقَوِيَ، فإنه لن يتجاوز في مدركاته ظاهر الحياة الدنيا بمعرفته للقوانين الدنيا.

وقد جاء الوحي عبر الرسالة الخاتمة ليرشد العقل الإنساني إلى ما وراء الحياة الدنيا وظواهرها من نواميس وقوانين تتعلَّق بمعرفة خالق الكون

[1] / استحصد: استحكم، ورجلٌ مُحْصَدُ الراي: أي محكمه سديده. قال لبيد:

وخَصْمٍ كنادي الجنِّ أسقطتُ شاوهم بمُسْتَحْصِدٍ ذي مِرَّةٍ وضُروع.

أي برأي محكم وثيق[لسان العرب، ج: ٣ ص: ١٥٢].

والتَّعَبُّد له، ومعرفة الإنسان نفسَه عبدًا وعابدًا، ولنْ يعرف الإنسانُ اللهَ في الكون حتى يعرفه في نفسه من خلال معرفته للقوانين العُليا، وهي "قوانين الذات الإنسانية" في علاقتها بالله عزَّ وجلَّ.

التربية الصوفية دعوة إلى العلم والربَّانية:

وتربيتنا الصوفية في حقيقتها:

- دعوةٌ إلى التَّعرُّف على قوانين الذات الإنساني في مجال الحضور مع الله في النفس والمجتمع.
- كما أنها دعوة إلى معايشة هذه القوانين العُليا والالتزام بها في الحياة بعد معرفتها والإيمان بها.

هي باختصار دعوةٌ إلى العلم والربَّانية[1]، بمعنى أنها دعوة للعامَّة وصولاً بهم إلى العلم والعمل وفقًا لهذا العلم، كما أنها دعوة للعلماء وصولاً بهم إلى الربَّانية والحضور مع الله.

وتأصيلاً لهذا الذي نقول نورد من القرآن ما يقوم دليلاً.

[1] / ربَّانية: قال الإمام السيوطي في تفسير قوله تعالى:﴿ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾: [آل عمران:الآية ٧٩]. أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله {رَبَّٰنِيِّـۧنَ} قال: حلماء علماء حكماء. وقال الإمام القرطبي: الربَّانيون أحدهم ربَّاني منسوب إلى الرب، والرباني العالم بدين الرب الذي يعمل بعلمه. [الدر المنثور في التفسير بالمأثور]. و[الجامع لأحكام القرآن ج٤ ص١٢٢].

قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) ﴾ [آل عمران: ٧٩].

ويقول تبارك وتعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢) ﴾. [الجمعة: ٢]

وفي هذه الآية من سورة الجمعة منهجٌ عام للتَّربية الصوفية بما يشتمل عليه مِنْ عِلْمٍ يسمو بالمدارك الإنسانية، وترويضٌ عملي تربوي يُهذِّب السلوك ويرقِّقُ الحواشي ويُتمِّم مكارم الأخلاق، وصولاً إلى التَّزكية بكلِّ ما تحمل من معاني الطهر والنقاء والوضاءة ونماء مشاعر الخير ووسائل الإخاء والتَّوادُ.

الدعوة إلى الله بين شهادات الأوراق وشهادات الأذواق:

وبهذا يتَّضح أنَّ المعرفة بالنصوص وحدها لا تكفي، كما أنَّ شهادة الأوراق وهي بمعزل عن الأخلاق لا تؤهِّلُ صاحبَها ليكون مِن دُعاةِ الإسلام!! بل لابدَّ من شهادة الأذواق الرفيعة التي يعطيها القلب المنير من مقام الروح الكامل، حينما يبلغ مقام الرضا بالسمو والتزكية.

والآية الكريمة ـ كما هو ملاحظ ـ لم تقصر غاية الرسالة الإسلامية على تعليم الكتاب [القرآن] والحكمة [السنة] هؤلاء الأميين، بل جعلتْ تنمية مشاعر الإيمان وتجديد الوجدان وتهذيب النفوس وتقويم الأخلاق وتقوية أواصر الإخاء بإثارة بواعث التَّوادّ والتَّعاطف والمرحمة في الإنسان. وكل ذلك من مشمولات التزكية. مقدَّمة في السِّياق القرآني على فقه الكتاب

والسنَّة، لأنك كثيراً ما تجد في رحاب العمل الإسلامي فقيه اللسان لَحِناً[1] شديد العارضة إلاّ أنه جهول النفس غليظ القلب أعشَى البصيرة!!!. وما أصيب العمل الإسلامي في مجال الدعوة والتّذكير والإرشاد في طول ما ألَمَّ به مِن نقائص وسلبيَّات في التاريخ بمثل إصابته بدُعَاةٍ جعلوا عقولهم وراء ألسنتهم والغرض الدنيوي نصبَ أعيُنِهم!! فسلكوا للدعوة إلى الله وصراطه المستقيم سُبُلاً جائرةً وطرائقَ مُعوجَّة، وذلك حين جعلوا في اعتقادِ راسخ الجفاءَ والغلظة في الخطاب غَيْرةً على الحق، وقسوةَ القلب وسوء الأدب وعدم توقير الكبار قوةً في الحق، وانحطاط الخُلُق وبذاءة اللسان والكذب والبهتان كيداً للأعداء وغيظًا للكفار!!. والعجيب أنَّ كلَّ هذا الجهد المُجانب لمنهج الإسلام يُشَكِّل خطابًا للمسلمين وفي أرض الإسلام بعيداً عن معارك الإسلام في مواجهة أهل الكفر البواح من المشركين والمغضوب عليهم والضالين!!!.

وبسبيل التَّوازن في الموقف التَّقييمي للتصوف الإسلامي كعِلم من علوم الإسلام - فيما نرَى - جاءتْ هذه النظراتُ التي تبدو فاحصةً دقيقةً في بعض فصول هذه الدراسة، كما تبدو نظرات عَجْلَى في فصول أخرى، وهذه نظرات أمْلَتْهَا التَّجربة العمليَّة، وفرضها واقعُ الحركة الصوفية المعاصرة، التي تواجهُ معارضةً مُنَظَّمة وبإمكانيات فنِّيَّةٍ ومادية وبشرية وافرة.

1/ لَحِناً: اللَّحَنُ: الفِطنَةُ، لحِنَ الرجلُ فهو لَحِنٌ، إذا فهم وفطن لما لا يفطن له غيره. من باب طَرِبَ، وفي الحديث: {ولعلَّ أحدكم ألحن بحجته من الآخر}. أي أفطن لها. [مختار الصحاح، ص: ٥٩٤].

ولعلَّ مِنْ أكبر مثارات هذه الدِّراسة التي أقدِّم لها بهذه الصفحات وأهمها، ما يبدو على هذه المعارضة من جهلٍ بخصائص ومقوِّمات المذهب الصوفي في الإسلام أحيانًا، ومِن تَحامُلٍ وتعصُّبٍ ضدَّ هذا المذهب في كثير من الأحايين، فجاءتْ هذه النظرات إسهامًا متواضعًا في تَجْلِيَةِ جوانب من علم التصوف الإسلامي.

أبوابُ الكتاب:

وقد قَسَّمتُ نظراتي[1] في التَّصوف الإسلامي ـ وهي تنتقل من طور الفكرة الشَّاردة والوارد اللَّحْظي إلى تسجيلٍ موضوعي قد انفصلَ عن الذَّات ليكون تحت تصرُّف القارئ الكريم ـ إلى: مقدِّمة وسبعة أبواب وخاتمة.

---

[1] / يُرجَى الانتباه عند قراءة هذه الموسوعة إلى أنَّ تقسيمَ الموسوعة إلى عشرة مجلَّدات ذُكِرَتْ في بداية هذا الكتاب، وذلك بعد عمل التَّعليقات اللازمة في الحواشي السُّفلية من: شروحٍ توضيحيَّة، وعزوٍ للآيات القرآنية إلى مواقعها من سور القرآن الكريم، وتخريجٍ للأحاديث، وعمل تراجم للأعلام والأماكن وبعض الكتب و المصنَّفات من ما رجع إليها المؤلِّف وتحقيق النقول عنها، وعمل فهارس وثبت للمراجع، كلُّ ذلك وغيره اقتضَى إعادة تقسيم الكتاب من غير تقيُّدٍ بما جاء من تقسيمٍ في مقدِّمة المؤلِّف سيِّدي الحفيان ﷺ.

الباب الأول:

وقد حاولتُ في هذا الباب أنْ أثبتَ مَرجعيَّة مصطلح التَّصوف الإسلامي إلى ظرفه الباكر في زمانِ الوجود الإسلامي خلافًا للدراسات التي تزعم غير ذلك.

الباب الثاني:

وقد جاء ليعالج مُشكِل النظر السَّطحي للتصوف الإسلامي، ذلك النَّظر الذي حصر التَّصوف كعِلْمٍ في حدود المصطلح، ومِن ثَمَّ دارتْ الكثير من المعارك الفكريَّة حول هذا المصطلح، دون وقوفٍ عند معاني ومفاهيم هذا المصطلح.

وتركيزاً للقاعدة العلميَّة التي تقول (لا مشاحة في المصطلحات) جاء هذا الفصل كاشفًا لما وراء لفظ التصوف من معاني ومفاهيم، هي مضمون هذا العلم كما أنها الحَرِيَّةُ بالمحاكمات الفكرية والتَّقويم والتَّقييم الشَّرعي.

الباب الثالث:

وقد عُنيتُ فيه بتأصيل التَّصوف الإسلامي وإرجاعه إلى مصادره الشَّرعية، وذلك من خلال تعريفٍ جامعٍ مانعٍ للتصوف الإسلامي كما عِشْتُه!! واحسبُ أنَّ هذا الباب من الأبواب المهمَّة في هذه الدِّراسة، لأنَّ الحديث عن المشروعيَّة في كلِّ علمٍ أو عملٍ هو حديثٌ عن الأساس، الذي إذا رَكَزَ وثَبتَ قام عليه البناءُ المراد إنشاؤه، وإذا انهار الأساس أو لم يوجد أصلاً فلا مجال لحديثٍ عن بناء علمي أو عملي يقوم على جُرُفٍ هار، وقد

حرَّرتُ مواطن النِّزاع في هذا المضمار، بتجلية مفهوم التصوف الإسلامي ليكون التَّأصيل مختصًا بالمحتوَى والمضمون وهو ما يلزم البحث عن مشروعيَّته.

أما المصطلحُ فقد اتَّفقتْ كلمةُ العلماء بأنه **لا مشاحة فيه**. ومع ذلك فقد وقفتُ عند مصطلح التصوف الإسلامي قليلاً في أول فصول هذه الدِّراسة، كما أنِّي قد سُقتُ بين يدي مصادر التصوف شيئًا من الحديث عن أطوار التصوف، منذ بواكيره الأولى وإلى نهايات القرن السادس الهجري، حيث استقرَّ التَّصوف على طوره الجماعي الذي تجلَّى في الطرق الصوفيَّة.

الباب الرابع:

وقد عُنيتُ فيه بأمرين هما:

١) **البيئة وأثرها** على المذهب الصوفي، وما نتج عن ذلك مِن تنوُّع مظاهر التَّصوف في واقع الحياة، وقد بحثتُ مدَى قُرْب هذه المظاهر البيئية أو بُعدها عن قواعد ومقوِّمات وخصائص الطريقة الصوفية قياسًا على البراهين الشَّرعية، وقد يكون في بعض ما أوردتُ في هذا الفصل نقداً للذَّات، وتنقيةً للمحيط الصوفي مما قد علِقَ به مِن شوائب الواقع، وما ران عليه من صدأ الأهواء ونوازل الحياة رغبًا أو رهبًا، حتى يتجلَّى معدنُ التصوف الأصيل، فيراه الباحثُ المتجرِّد للحقِّ على حقيقته.

وأحسبُ أنَّ هذا الأمر من الأهمية بمكان لأنَّ التصوف فيما أعلم حركةٌ جامعة نحو الكمالات والمُثُل العليا، وقد تستصحبُ الحركةُ في مضمارها ما ليس منها من تأويل جاهلٍ أو انتحال مُبطلٍ أو تحريف غالٍ،

ولعلّه من لوازم تجديد هذا العلم وإبراز جوهره، أنْ يقوم العلماء الربَّانيون من أهل هذا الشأن بتنقية المحيط الصوفي مما ذكرتُ حتَّى لا تُشَكِّل هذه المعوقات - إذا أُقِرَّت - حُجُبًا تَحُولُ بين جوهر التصوف الإسلامي والمخلصين من طالبي الحقيقة في مراقي الطريقة الحقَّة.

٢) **التصوف الفلسفي** وقد جاءتْ العنايةُ في هذا الأمر بتحرير معنى الفلسفة لتحقيق مناطها للمقارنة بين هذا المناط ومقصد المذهب الصوفي، ثم تدرَّج البحثُ في هذا الأمر للحديث عن بعض القسمات الفلسفية في التراث الصوفي من أمثال:

- ❖ الاتحاد.
- ❖ الحلول.
- ❖ وحدة الوجود.
- ❖ الإشراق المعرفي.
- ❖ الإنسان الكامل.
- ❖ الحقيقة المحمدية.
- ❖ النور المحمدي.

وغيرها مما سيرد الحديث فيه متَّصلاً في هذا الكتاب، وقد اختلفتْ أنظارُ علماء الرواية وبعض علماء الدراية كثيراً حول مفاهيم هذه المصطلحات ودلالاتها، وقد شَنَّ العديدُ من العلماء هجومًا عنيفًا على مَنْ يقول أو يدافع عن هذه المقولات، وقد جاء على رأس هؤلاء العلماء الإمام أحمد بن عبد

الحليم المشهور بـ[ابن تيمية الحراني][1] وهو من كبار روّاد المدرسة السلفيّة في القرن السابع الهجري، وقد تبعه وقال بقوله عددٌ من علماء السلفية، التي صارتْ في أيامنا هذه مذهبًا بعد أنْ كانت صفةَ فعلٍ ظرفي لِمَنْ مضَى مِن الناس، كما أنَّ الخلف صفة فعل ظرفي لمن جاء بعد هذا السلف.

---

[1] / ابن تيمية: هو الشيخ، الإمام، العلامة، الحافظ، الناقد، الفقيه، المجتهد، المفسر البارع، علَم الزهاد، ونادرة العصر، تقي الدين أبو العباس أحمد بن المفتي شهاب الدين عبد الحليم بن الإمام المجتهد شيخ الإسلام، مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحرّاني أحد الأعلام. ولد في ربيع الأول سنة [٦٦١ هـ] وسمع ابن أبي اليسر، وابن عبد الدايم، وعدَّة، وعُنِيَ بالحديث، وخرَّج وانتقى، وبرع في الرجال وعلل الحديث، وفقهه، وعلم الكلام وغيره، وكان من بحور العلم، ومن الأذكياء المعدودين، والزُهاد والأفراد. ألَّفَ ثلاثمائة مجلدة وامتُحن وأوذي مراراً.

قال ابن مفلح الحنبلي: وله اختيارات غريبة، "ولقد قام عليه جماعة مراراً بسبب أشياء انكروها عليه من الأصول والفروع، وعقدت له بسبب ذلك عدَّة مجالس بالقاهرة، وذلك لأنه خالف جميع المسلمين في مسائل كثيرة منها: تحريم شد الرحال إلى قبور الأنبياء، وقصر الصلاة في كل ما يطلق عليه أنه سفر. وأن سجود التلاوة يصح بدون وضوء. وأن من أفطر في رمضان عمداً أو ترك الصلاة بلا عذر، لا قضاء عليه [لأنه كان كافراً]. وأن من حلف بالطلاق لا يقع عليه، بل يخرج عنه كفارة يمين. في مسائل كثيرة منثورة في كتبه.

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: والحاصل أنهم ألزموا ابن تيمية بتحريم شد الرحل إلى زيارة قبر سيدنا رسول الله ﷺ وانكرنا صورة ذلك، وهي من أبشع المسائل المنقولة عنه. مات رحمه الله في العشرين من ذي القعدة سنة [٧٢٨ هـ] انظر: [طبقات الحفاظ للسيوطي ج١ ص٥٢٠- ٥٢١] . ولفتح الباري، ج: ٣ ص: ٦٦]. و [البداية والنهاية، ج: ١٤ ص: ١٤٣]. و[المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد لبن مفلح ج: ١ ص: ١٣٨].

أما أنْ تكون السَّلفية مذهبًا يُسمَّى أتباعُه بالسَّلفيين، ويكون لهم قواعدُهم ونظمُهم وضوابطهم، التي يفرقون بها بين السّلفي وغير السّلفي، فهذا ما لا يعرفه الإسلام في عصوره الثلاثة الخيِّرة، بل يمكن القول إنَّ السَّلفية كنحلة لم تُعْرَف في العالم الإسلامي إلا في القرن السابع الهجري، ووَصْفُ أحدٍ مَا بأنه سلفي لا يعني أكثر من أنَّه يلتزم في مجال العقيدة بما قال السلف، وبهذا المفهوم فإنَّ العدد الأكبر من أئمة التصوف الإسلامي من السَّلفيين! بل إنَّ سيِّدي الشيخ عبد القادر الجيلاني[1] رائد التصوف الجماعي

---

[1] / الشيخ عبد القادر الجيلاني: هو الشيخ، الإمام، العالم، العارف، القدوة، شيخ الإسلام، علم الأولياء، محيي الدين عبد القادر بن أبي صالح عبد الله بن جنكي دوست الجيلي الحنبلي، مولده بجيلان في سنة [٤٧١ هـ]. وقدم بغداد شاباً فتفقه على أبي سعيد المُخَرِّمِي، وصحب الشيخ حماداً الدبَّاس، وكان يسكن بباب الأزج في مدرسة بُنِيَتْ له، قال السمعاني: [مضينا لزيارته فخرج وقعد بين أصحابه، وختموا القرآن فألقى درساً ما فهمتُ منه شيئاً، وأعجب من ذا أن أصحابه قاموا وأعادوا الدرس، فلعلهم فهموا لإلفهم بكلامه وعبارته].
وقال ابن الجوزي: كان أبو سعيد المُخَرِّمي قد بنى مدرسة لطيفة بباب الأزج ففوضت إلى عبد القادر، فتكلم على الناس بلسان الوعظ، وظهر له صيت بالزهد، وكان له سمت، وصمت، وضاقت المدرسة بالناس فكان يجلس عند سور بغداد مستندا إلى الرباط ويتوب عنده في المجلس خلق كثير، فعمرت المدرسة ووسعت].

وقال الشيخ موفق الدين بن قدامة - صاحب كتاب المغني - : أدركنا الشيخ عبد القادر في آخر عمره، فأسكننا في مدرسته، وكان يعنى بنا، وربما أرسل إلينا ابنه يحيى فيسرج لنا السراج، وربما يرسل الينا طعاماً من منزله، وكان يصلي الفريضة بنا إماماً، وكنت أقرأ عليه من حفظي من كتاب الخِرَقِي غدوة، ويقرأ عليه الحافظ عبد الغني من كتاب الهداية في الكتاب، وما كان أحد يقرأ عليه في ذلك الوقت سوانا، فأقمنا عنده شهراً وتسعة أيام ثم مات، وصلينا عليه ليلاً في مدرسته، ولم أسمع عن أحد يحكى عنه من الكرامات أكثر مما يحكى عنه، ولا رأيت أحداً يعظمه الناس للدين أكثر منه]. قال الذهبي: عاش الشيخ

في طوره اللاحق يصف نفسه في كتابه "الغُنْيَة" بأنه سلفي العقيدة مما يجعل السلفية صفة يمكن أنْ تنطبق حتى على أئمة المذهب الصوفي مثل سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني صاحب أول طريقة صوفية جماعية في العالم!!.

بَيْدَ أنَّ ابتداع المذهب السلفي وتحامل أهله على المذهب الصوفي لا يحول بيننا وبين العدل والنَّصَفَة، فنعطي إمامًا مثل العلامة الحُجَّة ابن تيمية وقبله العلامة ابن الجوزي[1] حقَّهما من الإكرام والاحترام والتَّرَضِّي عليهما. فقد كان الإمام ابن تيمية بحر علمٍ لا يُنْزَفُ[2] وطود[3] معرفة لا يُسَامَى، وقد كان له في مضمار التصوف قدمٌ راسخة إلاَّ أنه كان مِن **"عقلاء العلماء"** فجعل العقل معياراً لمعطيات التصوف الإسلامي في مقامات الوجود وأحوال الوجد، وليس العقلُ بالحَكَمِ التُّرْضَى حكومتُه في هذه المقامات، كما أنَّ إنكار الإمام ابن تيمية رضي الله عنه للتأويل - وإنْ كان سائغًا- جعله محصوراً في ظواهر النصوص، فأنكر ما وراء الظاهر من الدلالات والمعاني

عبد القادر تسعين سنة، وانتقل إلى الله في عاشر ربيع الآخر سنة [٥٦١ هـ] وشيعه خلق لا يحصون، ودفن بمدرسته رحمه الله تعالى. [سير أعلام النبلاء ج: ٢٠ ص: ٤٣٩-٤٥٠].

1/ ابن الجوزي: هو الشيخ، الإمام، العلامة، الحافظ، المفسر، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي التَّيْمِي البكري البغدادي الحنبلي الواعظ. ولد سنة :[٥١٠ هـ] وكان رأساً في التذكير، وهو حامل لواء الوعظ والقيِّم بفنونه، وكان بحراً في التفسير، علاَّمة في السير والتاريخ. وجد بخطه قبل موته أنَّ تواليفه بلغت مائتين وخمسين تأليفاً. توفي سنة [٥٩٧ هـ]. [سير أعلام النبلاء ج٢١ص٣٦٥].

2/ لا ينزف: نزفت ماء البئر نزفاً إذا نزحته، وفي الحديث { زمزم لا تُنْزَفُ ولا تُذَم} .أي لا يفنى ماؤها على كثرة الاستقاء. [النهاية، ج: ٥ ص: ٤١].

3/ طود: الطَّوْدُ الجبل العظيم. [النهاية، ج: ٣ ص: ١٤١].

ورفض الكثير من المجازات، فتقاصر به هذا المذهب الذي رضيه لنفسه عن إدراك الكثير من قمم المعارف الربانية، التي كانت من نصيب "حكماء العلماء"، الذين أدركوا بقلوبهم ومعارج أرواحهم وقَبُولِهِم للتأويل ما لم يدركه الإمام ابن تيمية في حدَّة ذهنه وعلوِّ هِمَّتِه واتِّساع محفوظه وعطائه الموسوعي في علوم الإسلام؛ وعلى أثر هذا الإمام جرَى مَن جرَى من العلماء والباحثين بعده، ولنا في هذه المصطلحات وما أنكره الإمام ابن تيمية رضي الله عنه وقفة، نستجلي فيها معاني هذه المقولات ونحقّق مناطها، فنقرِّب دلالاتها للعقول لتعرف مقتضياتها، حتى يصدر التقييم والحكم على كلٍّ بمقتضاه.

الباب الخامس:

وقد خصَّصتُ هذا الباب للبحث في توجيه الأصيل من مقولات التصوف، التي حسبها عدد من الباحثين من دخيل الفلسفة المعارضة لمنهج الإسلام في علم الصوفية، مبرهنًا على أصالة هذه المقولات بما تواضع عليه العلماء من أنواع البراهين، مع إقراري بالدخيل منها وإبعاده، مستهدفًا بذلك وضعَ التصوف الإسلامي موضعَه الرائد بين علوم الإسلام، التي لا يستغني عنها المجتمع الإسلامي بحال.

وبينما جاء البحث في الفصل الرابع مُركّزاً على استقراء دلالات المصطلحات الفلسفية وتحليلها، وبعض ما أورده الربَّانيون من العلماء بشأنها جاء هذا الفصل ليُركِّز على الأصيل، مُثبتًا إيَّاه موجِّهًا له مستدلاً على مشروعيته بما هو مقبول من الأدلة والبراهين، مع إبعاد الدخيل من هذه المقولات وردِّها إلى مرجعيتها المعارضة لمنهج الإسلام من المذاهب الفلسفية.

الباب السادس:

وقد عنيت فيه بالبيعة في المذهب الصوفي، والبيعةُ مصطلح له دلالة تعاقدية توجب على طرفي هذه البيعة الوفاء بهذا العقد الذي ينشأ عنه التزامٌ واجبُ النَّفاذ، متى تحقَّقتْ الشروط وانتفتْ الموانع، ولا يخفَى أنَّ البيعة في مصطلحها الصوفي تُشكِّل أساس مشروعيَّة الانتماء إلى سلاسل الإسناد في الطريقة الصوفية. وقد تشابهت ألفاظ البيعة على اختلاف أسانيدها إلاّ بعض العبارات التي قد تُفهم عند بعض الباحثين في مجال التَّصوف الإسلامي فهمًا غير صحيح، وقد وقفتُ عندها قليلاً حتى أوجِّهها التَّوجيه الشَّرعي، الذي ربما يفوت على الباحث المتعجل.

ولما كان النَّقدُ موجَّهًا إلى البيعة الصوفية، من حيث إنَّها بيعة غير مشروعة فيما إذا احتكمنا إلى الشَّريعة الإسلامية في نظر مَن يقول بذلك، فإنِّي قد ركَّزتُ الحديث في هذا الجانب محاولاً إثبات أنَّ البيعة مشروعة بالمعيار الشَّرعي، وذلك في سياقٍ طويلٍ مِن الاستقراء والتَّحليل والدِّراسة لمفهوم البيعة وموضوعاتها التَّعاقدية في منهج الإسلام.

هذا وقد جعلتُ صيغةَ البيعة في طريقنا الطيبي السماني - كما جاءت في أدب الطريقة ومراسمها في تاريخها الطويل، وكما هي عندنا حتى اليوم وستظل بإذن الله ومشيئته وتوفيقه - أنموذجًا للدِّراسة والتَّقييم الشَّرعي.

الباب السابع:

ثم جاء الباب السابع ليضم فصولاً تحت عنوان: "**التصوف الإسلامي منهج وعطاء**"، وقد سُقتُ الحديث في هذا الباب وعبر فصول ومباحث متعدِّدة عن منهج التصوف الإسلامي مُركِّزاً القول في: فصلٍ أوَّل على

أركان المنهج ومعالم ذلك الطريق، الذي ارتضاه الحقُّ سبيلاً سالكًا إلى حضرته، على تنوُّعٍ في المشارع والمشارب، تُشكِّلُ عند الربّانيين من علماء هذا الشأن سُبُل الخير وطُرُق الرَّشاد ذات الغاية الواحدة والمقصد المشترك، وإنْ تعدَّدت وسائل الوصول إلى هذه الغاية وذلك المقصد السَّامي. وتعدُّدُ مدارس الإرشاد إلى هذا السبيل لا تعني تفرُّق الكلمة ولا شتات الصف، بقدر ما تعني ثراء الحياة الصوفية بخيارات السلوك، وتنوُّع الوسائل تبعًا لتنوُّع غايات النفس الإنسانية واستعداداتها، وهو أمر طرقته السنة النبويَّة في مضمار الإرشاد والتَّوجيه، كما ستأتي الإشارة إليه في مكانه من هذا الفصل.

هذا وبناءُ منهج التصوف الإسلامي لابد له مِن أُسُسٍ هي أركانه ودعائمه التي يقوم عليها.

وقد اتَّفقتْ كلمةُ المرشدين من علماء الصوفية على أهمية هذه الأسس التي استهدف العلماء في تحديدها ومواصفاتها أنْ تحمي الإنسان، الذي يسلك الطريق من التَّآكل الداخلي بسبب الأمراض الباطنية، التي تؤدِّي إلى موت القلب وضمور الروح، وهما آفتان حذَّر الوحي منهما كثيراً.

وقد حاولتُ في هذه الدِّراسة أنْ أقيم هذه الأسس والأركان على قواعد ثابتة من الشريعة الإسلامية، حتى لا يقوم البناء الصوفي على جُرفٍ هارٍ، لأني على يقين تامٍّ أنَّ المعيار الصَّارم في هذا المضمار هو شريعة الإسلام، التي جاء بها سيِّد الأنام محمد رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين عليه من الله أزكى التَّحيَّات وأكثر الصلوات وأسنَى البركات.

والأصل عندي في طريق القوم وما أُدِينُ به لله: [أنْ لا قَوْلَ ولا حُكمَ لأحدٍ مع قولِ وحُكمِ الله ورسوله ﷺ، وباطلٌ كلُّ قولٍ لا سند له مِنْ شرعةِ الإسلام ومنهاجه].

ثمَّ ورد فصلٌ ثاني في هذا الباب عن عقيدة التوحيد في المنهج الصوفي، وقد عنيتُ في هذا الفصل أنْ أدرأ شُبهةً كثيراً ما يتعلَّق بها المعارضون للمنهج الصوفي، وهي شُبهةُ أنَّ التصوف الإسلامي شِركٌ وضلال وعقيدة مبتدعة تقوم في مواجهة عقيدة التَّوحيد الإسلامية!!.

وقد أوردتُ في هذا الفصل إجماعات أهلِ الطريقة الصوفية على مقوِّمات العقيدة الإسلامية كما قال بها السلف الصالح، وقد سُقْتُ بين يدي هذه الإجماعات مفهومي لعقيدة التَّوحيد، التي عُنِيَ بها علماء التصوف الإسلامي على تنوُّع طرائقه وكثرة مذاهبه، لا بمفهومها المدرسي التَّعليمي الذي درسه فقهاء العقيدة مِن سلفنا الصالح، وإنما بمفهوم "وحدة الخلق والأمر"، التي ترجع في أصلها المعرفي إلى مصدر واحد هو الله عزَّ وجلَّ.

ثمَّ ورد فصلٌ ثالث عن المنهج الصوفي بين الأداة والمؤدَّى، ذلك لأنَّ بعض الباحثين في مجال التصوف الإسلامي قد خلط في تقييمه وحُكمه على المنهج الصوفي، بين أدوات هذا المنهج ومؤدَّاه وأعطَى الكلَّ حُكمًا واحداً، علمًا بأنَّ الأدوات قد تتنوَّع وتتعدَّد مع أنَّ المقصد والهدف واحد، ويمكن أنْ نستأنس في هذا السِّياق بفريضة الحج إلى بيت الله الحرام وزيارة سيِّد الأنام عليه مِن الله أزكَى الصَّلوات وأطيب السلام والبركات، فإننا نرَى أدوات الوصول إلى بيت الله الحرام تتعدَّد وتتنوَّع لتصل إلى هدف واحد.

وفي فصلٍ رابع تحدَّثتُ عن معالم منهجنا الصوفي وما تضمُّه هذه المعالم مِن ضوابط سلوكيَّة يجب التزامها في هذا الطريق.

وفي فصلٍ خامس جاء القول عن توفيق الله لِمَنْ شاء من عباده للاهتداء لهذه الطريقة ومقاماتها.

وفي فصلٍ سادس تحدَّثتُ عن عطاء الله لَمن سلك هذا الطريق، وهو عطاءٌ لا يَقْدِرُه حَقَّ قَدْرِه ولا يعلم مبلغ النِّعمة فيه إلاَّ مَنْ ذاقه!!، وهذا العطاء على رغم خصوصيَّته وذاتيَّة معناه، إلاَّ أنَّ له مردودًا اجتماعيًّا أشرتُ إليه من خلال حديثي عن معاني الإسلام في حقائقه العليا، كعطاءٍ ربانيٍّ لَمَنْ اتَّبع رضوانه فهداه إلى سُبُل السلام، التي تكاثرتْ في تنوُّعٍ يُثري ساحَ القلوب بأنوار الذكر الحكيم، فتنشرح بالإيمان بالحق المبين.

وقد جاءت هذه النظرات في التصوف الإسلامي لِتُقَرِّب معالمَ هذه السُّبُل الخيِّرة وترشد إلى شرائع رضوان الله وشعائره.

وفي فصلٍ سابع جاء الحديث عن الكرامة لا بمفهومها الاصطلاحي فحسب وإنما بمفهومٍ واسع وشامل.

هذا وقد يلاحظ القارئ الكريم أنَّ هنالك العديد من الاستطرادات، التي يحسبها الباحث العلميُّ ضربًا من التَّسيُّب المنهجي إلاَّ أنِّي قد أدفع بأنَّ طبيعة هذا المبحث هي التي اقتضتْ هذا الأسلوب، كما إنِّي أصرِّح بأنَّ كتابة هذه المباحث قد جاءت عفو الوارد في كثير من مجالاتها، والوارداتُ من المعاني الذوقيَّة قد تتأبَّى على القيد اللغوي إلاَّ

بضربٍ مِن الصَّيرورة الدّلاليَّة والإشاريَّة في تنزُّلات البيان العربي، وفي هذا من المعاناة والبُرَحَاء[1] ما لا يعرفه إلاَّ مَنْ ذاقه!!!.

ولهذا قد تَجدُ بعضُ العقولِ نُفُورًا مما جاء في هذا الفصل، وذلك من جرَّاء التَّعصُّب لموروثها العلمي والدفاع عمَّا تعلم من المُسَلَّمَات في سياقاتها اللُّغوية والواقعيَّة. إلاَّ أنَّ هذا لا يعني أنَّ ما نفرتْ منه هذه العقول هو باطلٌ حَنْبَرِيَتٌ[2] لا يُقام له وزنٌ ولا يجهر به حرف، بقدر ما يعني أنَّ هناك أداةً أخرى للتَّلقِّي والفهم يلزم أنْ يُفسَحَ لها المجال إنْ كان ثمَّة، وهي القلب الوضيئ والروح الزَّكي، حتى يستطيع الإنسانُ بذلك أن يتمثَّل ثمرات الأذواق لتشكِّل عنصراً لازمًا من عناصر الغذاء الرُّوحي لديه.

وللقارئ من علماء الأوراق عهدٌ عليَّ ألاَّ أُقدِّمُ له ثمرةً مُرَّةً أو فجَّةً[3].

ومِن ثمرات هذه الأذواق التي غرستْ أشجارَها الطيبة أيدي العزائم مِن أبائي الكرام لاسيَّما خلاصة أرباب الكمالات وميزاب أنوار الجمال

---

1 / البُرَحاءُ: الشِّدَّة والمشقة، وأصل التَّبريح المشقَّة والشدة، يقال بَرَّح به إذا شقَّ عليه. وفي الحديث {ضرباً غيرَ مُبَرِّح}. أي غير شاقٍ. وفي حديث الإفك: {فأخذه البُرَحاء}. أي شدّة الكَرْب من ثِقَل الوَحْي. [النهاية في غريب الحديث والأثر، ج: ١ص: ١١٣]. [لسان العرب، ج: ٢ ص: ٤١٠].

2 / حَنْبَريتٌ: يقال: كَذِبٌ حِبْريتٌ وحَنْبَريتٌ أَي: خالصٌ مُجَرَّد، لا يستره شيء، ويقال: جاء بِكَذِبٍ سُمَّاقٍ، وباءَ بكَذِب حَنْبَريتٍ إذا جاء بكَذِبٍ خالص، لا يُخالِطُه صِدْق. [لسان العرب، ج: ٢ ص: ٢٦].

3 / فجَّة: الفِجُّ كل شيئ من البطيخ والفواكه لم ينضج. [مختار الصحاح، ص: ٤٩١].

والجلال، مَنْبَتُ سِدرةِ أسرار النِّهايات الذي كان ولا زال:

ملاذاً واستاذاً وغوثاً وملجأً ومِنْ فيضِه كلُّ الرِّجال أُمِدَّتِ
جَلا حِندسَ الأوهامِ لحظاً برشده سرَى سِرُّه في كلِّ نفسٍ زكيَّةِ
رقَى لمقامٍ دونه الفكرُ راجعٌ وعن نيله أهلُ العزائم كَلَّتِ
وشاهدَ مِن أعلى عوالم ربِّه مكانًا تناءى عن ملاحظ فكرةِ
عن الحضرة العليا له الإذنُ صادرٌ بيا أيّها المحبوب حدِّث بنعمتي[1]

سيدي القطب الغوث أستاذي ومرشدي الشيخ عبد المحمود بن سيدي الشيخ نور الدائم بن سيدي القطب الغوث الشيخ أحمد الطيب.

وإنِّي بالقطب الطيِّب رَقيتُ، وبالأستاذ عابدِ المحمود شَرِبتُ، وبالبازِ الأشهَبِ (والدي) تأدَّبتُ، ومِنْ ثَمَّ تَحلَّيْتُ في حضرةِ النُّبوةِ بلباسٍ لا يَحُولُ صِبغُه، فعَرَّفني الحقُّ بمعرفتي إيَّاه، فدعاني لحضرته، فخلَّقني وحقَّقني فَعُدتُ بحقيقةِ الحقِّ مَوروثًا، نشرتُ آثارَه ثماراً وشرابًا لِمَنْ تذوَّقه.

أما المؤثر[2] بالحقِّ فعندي أصالةً وعند فرعي - وإنْ سَفَلَ - وِراثةً مالم يَجُرْ عن السَّبيل فينقطع - والله خيرُ حافظ - والمَددُ موصولٌ لمن اتَّصل بإذن الله.

---

[1] / الأبيات للشيخ حامد بن محمد العباسي من قصيدة له في مدح شيخه سيدي الأستاذ الشيخ عبد المحمود بن الشيخ نور الدايم رضي الله عنه. ومطلع القصيدة:

تَبَدَّتْ لِقَلْبِ الصَّبِّ في غَسَقِ الدُّجَا ❋ بَوارِقُ تَذْكَارٍ لِحَيِّ الأَحبَّةِ.

[انظر نفحة الرياض البواسم في مناقب سيدي الأستاذ عبد المحمود نور الدايم، ص٩١].

2/ المُؤثر: الأَثَرَة والمأثَرَة والمأثُرة، : المَكرُمَةُ المتوارثة. لأنها تُؤثر، أَي: تذكر ويأثُرها قرن عن قرن يتحدثون بها. لسان العرب، ج: ٤ ص: ٧].

الخاتمة:

ثم جاءتْ خاتمة هذه النظرات تلخيصًا لما مضَى، واستدراكًا لما فات وتقييمًا لهذه النظرات، وهي تستوعب أفقًا واسعًا تعدَّدتْ مناظرُه، فتنوَّعتْ تبعًا لذلك الأنظار، وهي في جملتها أنظار أنتجتْها انفعالاتُ العقل مع رؤى الفؤاد، في معارج السَّير إلى الله في طريق الرُّجعَى إلى الخالق الحكيم.

وهي بهذا الاعتبار تجربةٌ ذاتيَّة لا تملك مِن خصائص العصمة شيئًا، إلاَّ أنَّها قد جاءتْ بعد جهدٍ واجتهادٍ آملُ أنْ أنالَ ببعضه أجرين- عِدة الحقّ للمجتهد المصيب[1] فإنْ كان الخطأُ فَوَعْدُ الحقِّ قائمٌ بالأجرِ الواحدِ، كفاء حركة العقل في طريق الحق تديُّنًا.

واللّهَ أسال التَّوفيق والسَّداد والقَبول، وأنْ ينفع بهذا الأثر وغيرِه مِن آثاري، التي أرجو من الله أنْ تُكتَبَ عنده في عِلِّيين، إنَّه نِعْمَ المولَى ونِعْمَ النصير، وهو الهادي سواء السَّبيل.

عبد المحمود بن الشيخ الجيلي

طابت

في ٢١ رمضان ١٣٨٩ هـ.

---

[1] / روى البخاري عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ {إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ} اصحيح البخاري ج: ٦ ص: ٢٦٧٦ الحديث رقم ٦٩١٩] وانظر اصحيح مسلم ج: ٣ ص: ١٣٤٢ الحديث رقم ١٧١٦].

الفصل الأول: التطور الاصطلاحي

مباحث الفصل:

١. المصطلح واشتقاقه.

٢. متى عُرِف المصطلح؟

٣. أول دويرة بُنيت للصوفية.

٤. روَّاد التصوف الإسلامي في القرون الثلاثة الفاضلة.

ونخلص مِن كلِّ هذا إلى القول بأنَّ مصطلح الصوفية قد:

- ✧ عُرِف قبل نهاية المائة الأولى مِن الهجرة.
- ✧ واشتُهِر وذاعَ قبل نهاية المائة الثانية.
- ✧ وتقعَّدتْ قواعدُه وحُدِّدَتْ معالمُه وتحدَّث الناسُ عن أدبه وفقهه وأحواله ومقاماته قبل نهاية المائة الثالثة.

فهو يُنسب نشأةً واشتهاراً إلى القرون الثلاثة الفاضلة. ولأجل هذا اعتبره العلماء والمؤرخون في علوم الملّة الإسلامية.

المبحث الأول: المصطلح واشتقاقه

تَصَوَّفَ يتَصَوَّفُ تصوُّفًا فهو صوفيٌّ وهم صوفية، هذا هو المصطلح في جذره اللغوي. وقد تعدَّدتْ أقوالُ العلماء والباحثين في مصدر هذا المصطلح ونسبته، فمنهم مَن جعل أصله:[ص ف و] ليكون مشتقًا مِن الصفاء، ومنهم مَن جعله [ص ف] ليكون مشتقًا مِن الصَّف أو الصُّفَّة، ومنهم مَن جعله [ص و ف] ليكون مشتقًا مِن الصوف أو صوفة القفا أو صوفة بن بشر بن أدّ بن طابخة[1] أو مِن الصوفانة وهي خامة من نبت الصحراء.

اشتقاقه من الصفاء :

وقد ناقش الإمام الكلاباذي[2] في كتابه القَيِّم "التَّعرُّف لمذهب أهل التَّصوُّف" هذه الاشتقاقات فقال: [قالتْ طائفة إنما سُمِّيت الصوفيَّة صوفيَّة لصفاء أسرارها ونقاء آثارها].

---

[1] / صوفة بن بشر: واسمه الغوث بن مرّة بن أد بن طابخة، أبو حَيٍّ من مضر كانوا يخدمون الكعبة ويجيزون الحجاج في الجاهلية - يفيضون بهم من عرفات - وسمّي صوفة بهذا الإسم لأن أمه جعلت في رأسه صوفة وجعلته ربيطاً للكعبة يخدمها [انظر القاموس المحيط للفيروزبادي].

[2] / الكلاباذي : هو تاج الإسلام أبو بكر محمد بن إبراهيم الحنفي له كتاب: "التعرف لمذهب أهل التصوف" وقد اعتنى بشأنه: المشايخ، وقالوا فيه: لولا التَّعرُّفُ لما عُرِفَ التَّصوفُ. وله كتاب: "بحر الفتاوى" و"الأربعين" و "الأشفاع والأوتار" وغيرذلك. توفي: (سنة: ٣٨٠ هـ). انظر [كشف الظنون ج:١ ص: ٢٢٥].

وقال بشر بن الحارث الملقّب بالحافي[1] [الصوفي من صفا قلبه لله]. وقال أبو الحسن الحصري:[2] [التّصوف أنْ يكون قلبك صافيًا مِن كدورة المخالفة]. وقال عبد الله بن محمد المرتعش:[3] [الصوفي مَن صفتْ نفسه من جميع البلايا

---

1 / بشر الحافي: هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء، الإمام المُحَدِّث، العالم الرَّبَّانيُ، القُدْوةُ، شيخ الإسلام، ولد سنة: [١٥٢ هـ] وارتحل في العلم فأخذ عن مالك، وحماد بن زيد، وابراهيم بن سعد، وفضيل بن عياض، وابن المبارك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وعِدَّةٍ. وحدّث عنه أحمد الدورقي، والسري السقطي، وخلق سواهم. وروى له النّسائي في مسند علي، وسئل عنه ثور فقال: زاهد جبل ثقة ليس يروي إلاّ حديثاً صحيحاً. وقد كان رأساً في الورع والإخلاص وكان يعمل المغازل ويبيعها فذاك كسبه، قال إبراهيم الحربي: لو قُسِّمَ عقل بشر على أهل بغداد صاروا عقلاء. مات الإمام بشر الحافي في ربيع الأول سنة: [٢٢٧ هـ] انظر [سير أعلام النبلاء" للإمام الذهبي، ج: ١٠ص: ٤٦٩ ـ ٤٧٦].

2 / الحصري: هو علي بن إبراهيم أبو الحسن الصوفي، كان أحد الموصوفين بالعبادة وشدة المجاهدة وله كلام عن الأحوال دَوَّنَهُ عنه الشيوخ. وحكى عن أبي بكر الشبلي، وروى عنه أبو سعد الماليني وغيره. وقال أبو العباس النسوي كان: الحصري شيخ بغداد في وقته منفرداً بلسان التوحيد لا يدانيه أحد، وكان أوحد زمانه في أحواله. مات ببغداد لسنة: ٣٧١ هـ]. وكان قد نيّف على ثمانين سنة. انظر: لتاريخ بغداد، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت ج: ١١ص: ٣٤٠].

3 / المرتعش: هو أبو محمد عبد الله بن محمد النيسابوري الحيري تلميذ أبي حفص النيسابوري، وصحب أبا عثمان الحيري والجنيد وسكن بغداد. قال أبو نُعَيْم: سمعتُ أبا الحسن بن مقسم يقول: كان أبو محمد المرتعش له اللسان الناطق والخاطر الفائق. وقيل له إن فلانًا يمشي على الماء قال عندي أنَّ من مَكَّنَه الله من مخالفة هواه فهو أعظم من المشي على الماء. وقال الذهبي: كان يقال عجائب بغداد في التصوف ثلاث: نكت أبي محمد المرتعش، وحكايات الخلدي، وإشارات الشبلي. وكان المرتعش منقطعاً بمسجد الشونيزية. مات

وغاب عن جميع العطايا]. وقال أبوعلي الرُّوذْبَارِي[1] [التصوف صفوة القرب بعد كدورة البعد][2] وقال ممشاد الدِّينوري[3] [التَّصوف صفاء الأسرار، وإسقاط الاختيار، والعمل بما يرضي الجبار]. وقال الإمام الجنيد[4] [التصوف تصفية القلوب حتى لا يعاودها ضعفها الذاتي].

المرتعش ببغداد لسنة: ٣٢٨ هـ]. انظر[حلية الأولياء، ج: ١٠ ص: ٣٥٥] و لتذكرة الحفاظ، ج: ٣ص: ٨٤٤] و لسير أعلام النبلاء، ج: ١٥ص: ٢٣٠].

[1] / أبو علي الروذباري: واسمه أحمد بن محمد بن القاسم من كبار الصوفية صحب الجنيد وأبا الحسن النوري وأبا حمزة البغدادي وابن الجلاء وحدث عن مسعود الرملي وغيره. قال أبوعلي الكاتب: ما رأيت أحداً أجمع لعلم الشريعة والحقيقة من أبي علي، وقال أحمد بن عطاء الروذباري: كان خالي أبو علي يفتي بالحديث. انتقل إلى مصر وتوفي بها سنة: [٣٢٢ هـ]. أخذ عنه ابن أخته ومحمد بن عبد الله الرازي ومعروف الزنجاني وآخرون. انظر ترجمته في [حلية الأولياء، ج: ١٠ص: ٣٥٦]. و لسير أعلام النبلاء، ج: ١٤ ص: ٥٣٥]. و[صفوة الصفوة، ج: ٢ص: ٤٥٤].

[2] / انظر: [الرسالة القشيرية، ج: ٢ ص: ٥٥٤]. و[الطبقات الكبرى للشعراني، ج: ١ ص: ١٠٦].

[3] / **ممشاد الدينوري**: كان من كبار المشايخ، صحب يحي بن الجلاء ونظراءه من المشايخ، وكان عظيم المرمى في علوم القوم، كبير الحال، ظاهر الفتوة. مات لسنة: ٢٩٧ هـ]. انظر [الطبقات الكبرى للشعراني]. و[صفوة الصفوة، ج: ٤ص: ٧٨] .

[4] / **الإمام الجنيد**: هوالإمام الجنيد بن محمد بن الجنيد شيخ الصوفية ولد سنة نيف وعشرين ومائتين، وتفقه على أبي ثور، وسمع من السَّرِيِّ السَّقَطي وصَحِبَهُ، ومن الحسن بن عرفة، وصَحِبَ الحارث المحاسبي، وأبا حمزة البغدادي، وأتقن العلم ثم أقبل على شأنه وتألَّه وتعبد ونطق بالحكمة. قال ابن المنادي: سمع الكثير وشاهد الصالحين وأهل المعرفة ورزق الذكاء وصواب الجواب، لم يُرَ في زمانه مثله في عفة وعزوف عن الدنيا. قال أحمد بن عطاء: كان الجنيد يفتي في حلقة أبي ثور، حدث عنه جعفر الخُلْدي، وأبو محمد الجُرِيري، وأبو بكر

وقال أبوبكر الكتاني[1] [التصوف صفاء ومشاهدة]. إلى غير ذلك من التَّعريفات التي جاءتْ تعالج اشتقاق كلمةَ التَّصوف من الصَّفاء.

هذا ومَنْ جعل اشتقاق الصوفية من "الصَّف" فقد نظر إلى أنَّهم في الصَّف الأول بين يدي الله عزَّ وجلَّ، لأرتفاع هِمَمِهِم إليه وإقبالهم بقلوبهم عليه ووقوفهم بسرائرهم بين يديه.

اشتقاقه من الصُّفَّة

ومَنْ نسبَهم إلى أهل الصُّفَّة فقد نظر في ذلك إلى قُرْبِ أوصافهم من أوصاف أهل الصُّفَّة، الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، وقد ردَّ قوم نسبة التصوف إلى الصَّفاء والصَّف والصُّفَّة، باعتبار أنَّ اللغة لا تؤيِّد هذا الاشتقاق، على الرغم من صِحَّة المعاني والدلالات التي أوردها القائلون بهذا القول.

الشبلي، وعِدَّةٌ. مات ﷺ في لسنة: ٢٩٨ هـ. انظر: [الرسالة القشيرية، ج: ١ ص: ٦٨]. ولسير أعلام النبلاء، ج: ١٤ص: ٦٦].

[1] / أبو بكر الكتاني: هو محمد بن علي بن جعفر الكتاني أحد مشايخ الصوفية وكان فاضلاً نبيلاً حسن الشارة وكان أحد الأئمة والسادة، وقد حكي عن المرتعش انه كان يقول: الكتاني سراج الحرم. حكى الكتاني عن أبي سعيد الخراز و إبراهيم الخواص وغيرهما وحكى عنه جعفر الخُلدي ومحمد بن علي التكريتي وابو القاسم البصري وآخرون. ومات الكتاني مجاوراً بمكة لسنة: ٣٢٢ هـ. انظر: لتاريخ بغداد، ج: ٣ص: ٧٤]. ولسير أعلام النبلاء، ج: ١٤ ص:٥٣٣].

اشتقاقه من الصوف

وهذا أمرٌ جعل الإمام القشيري[1] يقرِّر في رسالته الشهيرة بعد أن أورد بعض الأقوال في نسبة التصوف، أنَّ التصوف لقبٌ غلب على هذا العلم وجماعته يقول الإمام القشيري: لوليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق. والأظهر فيه أنه كاللقب، فأما قول مَن قال إنه من الصوف ولهذا

---

[1] / الإمام القشيري : هو الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك الشافعي الصوفي المفسر، ولد لسنة: ٣٧٦ هـ. قال الذهبي: تعاطى الفروسية والعمل بالسلاح حتى برع في ذلك، ثم تعلم الكتابة والعربية وجوّد، ثم سمع الحديث من أبي الحسين أحمد بن محمد الخفاف، ومن أبي نُعَيم عبد الملك بن الحسن الإسفراييني، وعبد الرحمن بن إبراهيم المزكي، وأبي بكر بن فُورَك، والسُّلَمي، وعِدَّة، وحدث عنه أولاده عبد الله وعبد الواحد وأبو نصر عبد الرحيم وعبد المنعم وحفيده أبو الأسعد هبة الرحمن وآخرون، وتفقه على أبي بكر محمد بن أبي بكر الطوسي، والأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني، وابن فورك، وتقدم في الأصول والفروع وصحب العارف أبا علي الدقاق وتزوج بابنته وجاءه منها أولاد نجباء.

قال القاضي ابن خلِّكان: كان أبو القاسم علاَّمة في الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والكتابة، صنف التفسير الكبير وهو من أجود التفاسير وصنف الرسالة في رجال الطريقة وحج مع الإمام أبي محمد الجويني والحافظ أبي بكر البيهقي وسمع ببغداد والحجاز. وذكره أبوالحسن البَاخَرْزِي في كتابه "دُمْيَة القصر" فقال: لو قرع الحجر بسوط تحذيره لذاب، ولو ربط إبليس في مجلسه لتاب.

توفي الإمام القشيري في لسنة: ٤٦٥ هـ. انظر: [سير اعلام النبلاء للإمام الذهبي، ج: ١٨ص: ٢٣٢.٢٢٧]. و[التقييد لمحمد بن عبد الغني البغدادي، ج: ١ص٣٦٦].

يقال تصوَّف إذا لبس الصوف كما يقال تقمَّص إذا لبس القميص فذلك وجه، ولكن القوم لم يختصُّوا بلبس الصوف ... الخ[1].

وقد تعقَّب الشيخ ابن تيمية الإمام القشيري في قوله "ليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق" مقرِّراً أنَّ الاشتقاق الأصغر لا يشهد لهذا ولكن يمكن إجراؤه على الاشتقاق الأكبر.٢

---

[1] / الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود طبعة دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ج٢ ص٥٥٠.

2 / وكتب عبد الجبار المبارك الحفياني:

الاشتقاق: هو استخراج كلمة من كلمة أخرى أو أكثر مع تناسب المشتق والمشتق منه في اللفظ والمعنى. وقد اختلف علماء مدارس اللغة العربية في المشتق منه؛ فقال الكوفيون: المشتق منه هو فعل الكلمة وعلى ذلك غالب علماء اللغة في القديم. وقال البصريون: المشتق منه هو المصدر، وقد جرى اصطلاح علماء اللغة منذ القرن الرابع الهجري على هذا الرأي. ثم أشارت كلمة علماء اللغة المتأخرين إلى تقسيم الاشتقاق إلى ثلاثة أقسام:

- الأول: الاشتقاق الصغير والأصغر؛ وهو استخراج كلمة من كلمة أخرى بتغييرٍ في الصيغة مع تشابه في المعنى واتفاقٍ في الأحرف الأصلية وترتيبها.
- الثاني: الاشتقاق الكبير وهو استخراج كلمة من كلمة أخرى بتغيير بعض أحرفها مع تشابهٍ بينهما في المعنى واتفاقٍ في الأحرف الثابتة الأصلية ومخارج الحروف المغيَّرة أو في صفاتها أو فيهما معاً؛ ويطابق هذا الاشتقاق الكبير مسمى الإبدال اللغوي عند الصرفيين.
- الثالث: الاشتقاق الأكبر وهو استخراج كلمة من كلمة أخرى بتغيير ترتيب بعض أحرفها بتقديم بعضها على بعض، بحيث تصح حروف الأصل المشتق منه أن تكون بداية للكلمات المشتقة؛ ويسمى هذا الاشتقاق عند علماء الصرف بالقلب اللغوي.

هذا وذهب بعض علماء اللغة إلى وجود قسم رابع للاشتقاق وسموه الاشتقاق الكُبَّار. والاشتقاق الكُبَّار هو استخراج كلمة من كلمتين بمزج بعض حروفهما ببعض فتُنطق كلمة واحدة تُغيِّر معنى الكلمتين. والاشتقاق الكبَّار بهذا المفهوم يتطابق مع مفهوم النحت.

هذا ما قاله العلماء في أصل الاشتقاق، وأقسامه، وتعريف كل قسم. وعلى ذلك فإن قول الإمام القشيري ﷺ ومَنْ تابعه من العلماء بنفي أن يكون لفظ صوفي مشتقًا إنما يصح على مفهوم الاشتقاق الصغير والكبير، حيث يشترط في الاشتقاق الصغير ترتيب الحروف الأصلية، كما يشترط في الاشتقاق الكبير اتفاق في مخارج الحروف المغيرة. ولفظ صوفي لا يتأتى اشتقاقه على هذين القسمين، فيكون كلام الإمام القشيري صحيح من هذا الوجه.

ولكن صحة كلام الإمام القشيري بنفي اشتقاق "صوفي" لا تعني نفي اشتقاق كلمة صوفي على الإطلاق الذي يُفهم من عبارته؛ بل الصحيح أيضاً أن كلمة "صوفي" يمكن أن تشهد لها اللغة العربية بالاشتقاق، وذلك بمفهوم الاشتقاق الأكبر كما مرَّ تعريفه. ولبيان ذلك نقول: المصدر هو الأصل في الاشتقاق كما هو مذهب المدرسة البصرية: الخليل بن أحمد الفراهيدي، وسيبويه، وابن جنّي، وغيرهم؛ وهو ما جرى به العمل إلى يومنا هذا. وعلى ذلك فكلمة صوفي إذا جرَّدناها من ياء النسبة لتصل إلى الحروف الأصلية، لوجدناها تتكون من ثلاثة أحرف هي: [ص- و- ف]. ومصادر هذه الكلمة تردُ على النحو التالي:

- صُوفٌ
- صفٌ
- صفوٌ.

ويلاحظ أن حروف الكلمة الأصلية ثلاثة. وقد تكونت المصادر الثلاثة من الحروف الأصلية وكلمة واحدة هي: [ص . و . ف]. ولكن بعد تغييرٍ في ترتيب بعض أحرفها وتقديم بعضها على بعض، مما يسمح به الاشتقاق الأكبر. وقد أرجع علماء العرفان الصوفي مصطلح التصوف إلى هذه المصادر الثلاثة فقالوا الصوفية من الصوف أو من الوصف أو من الصفاء، فقالوا صوفي لما لبس من صوف، وقالوا صوفي لما تحلى به من وصف، وقالوا صوفي لما أكرم به من صفو. والأشهر نسبة التصوف إلى لبس الصوف كما هو مقرر، فيكون التصوف مشتق من لبس الصوف، إلا أن الإمام القشيري يرى أن القوم لم يختصوا بلبس الصوف حتى ينسبوا له، واللغة

لا تساعد فيما يرى على اشتقاق اللفظ من الوصف والصفو. فرأيت أنه من ما تتم به الفائدة تحرير المقال فيما ثبت بخصوص اشتقاق مصطلح الصوفية، تقييداً لإطلاق نفي الإمام القشيري ﷺ اشتقاق لفظ التصوف، ذلك لأن نفي الإمام القشيري ﷺ في هذا المضمار نفي علم لا نفي وجود، لأن الإنسان قد ينفي الشيء لعدم علمه به أو لعدم اعتباره، وهذا منطلق نفي الإمام القشيري رضي الله عنه اشتقاق مصطلح التصوف، وهو اللائق بالإمام رضي الله عنه؛ أما أن ينفي الإمام القشيري وجود اشتقاق مصطلح التصوف فهذا ما لا أقول به، لأن نفي الوجود نفي إمكان ونفي وجود الممكن مستحيل، والإمام القشيري أعقل وأرفع مكانةً من أن ينفي وجود الممكنات؛ هذا وربما نفى الإمام القشيري اشتقاق مصطلح الصوفية من مصادر اللغة أو أفعالها نفي وجود، ذلك لأن علماء اللغة ما كانوا يعرفون إلا الاشتقاق الأصغر والصغير.

أما الاشتقاق الكبير والأكبر فهو من جديد فقه اللغة، حيث لم يعرف علماء اللغة الأوائل من أمثال: أبي عمرو بن العلاء، أبي عبيدة معمر بن المثنى، أبي زيد الأوسي الأنصاري، الأصمعي، الخليل بن أحمد الفراهيدي، يونس بن حبيب الضبي، سيبويه، أبي الحسن الكسائي، أبي الخطاب سعد بن سعدة الأخفش الكبير، ابن دريد، أبي عثمان المازني، أبي زكريا الفراء، أبي حاتم السجستاني، ابن السراج، شيئاً عن الاشتقاق الأكبر.

وعن الاشتقاق الأكبر يقول الإمام جلال الدين السيوطي في المزهر [ج١ ص٣٤٧]: "..وأما الاشتقاق الأكبر فيحفظ فيه المادة دون هيئة الكلمة، وهذا مما ابتدعه الإمام أبو الفتح بن جني، وكان شيخه أبو علي الفارسي يأنس به – يعني الاشتقاق الأكبر- يسيراً، وليس معتمداً أي الاشتقاق الأكبر في اللغة، ولا يصح أن يستنبط به اشتقاق في لغة العرب" اهـ. كلام السيوطي. وقد علل الإمام جلال الدين السيوطي عدم صحة الاشتقاق الأكبر بعلة ذكرها في مزهره، وما ذكره الإمام جلال الدين محل نظر.

هذا ويقول الإمام أبو الفتح عثمان بن جني عن الاشتقاق الأكبر في الخصائص [ج٢ ص١٢٥ - ١٣٦]: "..وأما الاشتقاق الأكبر فهو أن تأخذ أصلاً من الأصول الثلاثية فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنىً يختلف باختلاف هيئةٍ أو كلمةٍ مع بقاء مادتها. وقد يطلق الاشتقاق الأكبر على ما يعقد عليه الأصل الثلاثي في تقاليبه الستة وما يتصرف منها من معنى واحد، فإن

تباعد شيء من المعاني في هذه التقاليب الستة عن المعنى المشترك رُدَّ بلطف الصنعة والتأويل إليه كما يفعل الاشتقاقيون... ويقول من قبل في هذا الاشتقاق الأكبر"..هذا موضعٌ لم يسمه أحدٌ من أصحابنا يعني علماء فقه اللغة العربية غير أن أبا علي رحمه الله –ويريد به الفارسي- كان يستعين به ويخلد إليه مع إعواز الاشتقاق الأصغر، لكنه مع هذا لم يسمِّه(وإنما كان يعتاده عند الضرورة ويستروح إليه ويعلل به، وإنما هذا "التلقيب" يعني الاشتقاق الأكبر لنا نحن، وستراه فتعلم أنه لقبٌ مستحسنٌ"اهـ.

يتضح مما أوردنا أن الاشتقاق الأكبر لم يكُ معروفاً عند من تقدَّم أبا الفتح بن جني من علماء اللغة خلا شيخه أبي علي الفارسي الذي كان يستروح إليه ويعتاده عند الضرورة دون أن يسميه، وبذلك تكون تسمية هذه التقاليب الستة بالاشتقاق الأكبر من أوليات الإمام ابن جني. وقول الإمام جلال الدين السيوطي في الاشتقاق الأكبر "..ولا يصح أن يستنبط به اشتقاق في لغة العرب" قول يلزم تقييده بما ثبت من فعل الإمام أبي علي الفارسي وتلميذه أبي الفتح بن جني، وكلاهما حجة يُصار إلى قوله في الاستنباط، فإذا صحَّ هذا وأحسبه صحيحاً فإن لفظ صوفية يمكن أن يكون لفظاً مشتقاً، وليس لقباً جامداً كما قرر ذلك الإمام القشيري في رسالته الشهيرة، وتبعه بقية الباحثين في المادة من غير سبرٍ واستقصاء. وإليك البيان:

تتكون كلمة "صوفية" من خمسة أحرف، الأصلية منها ثلاثة هي (ص و ف) وهي الكلمة الأصلية وتقاليبها ستة هي: (ص و ف). و(ص ف و). و(ص ف ا). و(ف ص ا). و(ف و ص). و(ف ص و)؛ وبالنظر إلى هذه التقاليب الستة تجد أن كلمة صوفي لا تخرج من معاني التقاليب الثلاثة الأُوَل ومصادرها: هي ((الصوف، والصفاء، والوصف). ولهذا نرى علماء الصوفية من أمثال الطوسي في اللمع يردُّون اشتقاق كلمة صوفي إلى المصدر "صوف" لما يحمل لبس الصوف من معاني الزهد والتقشف، إلا أن الإمام القشيري لا يؤيد هذا الاشتقاق بحجة أن القوم لم يشتهروا بلبس الصوف إذ هم وغيرهم في ذلك سواء؛ ولم يرَ أن اشتقاق لفظ صوفي يمكن أن يجرى على لفظ آخر باعتبار أن الاشتقاق الأكبر لم يكُ شائعاً في زمن القشيري، ولهذا نرى الإمام القشيري يستظهر أن لفظ "صوفي" لقبٌ لا يرجع إلى اشتقاق ولا قياس. هذا وقد تعقَّب الإمام ابن تيمية ما حفظ عن الإمام القشيري في "..وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا

اشتقاق" مقرراً أن الاشتقاق الأصغر لا يشهد لاسم الصوفية باشتقاق ولكن يمكن أن يشهد الاشتقاق الأكبر للصوفية. ثم ترى الإمام يصحّح اشتقاق لفظ الصوفية من كلمة صوف، حيث يأتي مفردها المنسوب صوفي وجمعها صوفية وصوفيون يقول:" واسم الصوفية هو نسبة إلى لباس الصوف، هذا هو الصحيح، وقد قيل نسبة إلى صفوة الفقهاء، وقيل إلى الصفاء، وقيل إلى الصفوة، وقيل إلى الصف المقدَّم بين يدي الله تعالى وهذه أقوال ضعيفة.."اهـ. [مجموع الفتاوى الكبرى ج١١ ص١٩٥].

قد يكون اشتقاق لفظ صوفي من الصفاء والصفوة ضعيفاً بمفهوم الاشتقاق الأصغر الذي يُرجع اشتقاق كلمة صوفي من خلال صيغته إلى كلمة "صوف" فقط، وهو ما صحَّحه ابن تيمية والطوسي وغالب علماء الصوفية، وهو ما اعتمده العارف الحفيان في المرجعية اللغوية لمصطلح الصوفية. إلا أني ألفت النظر إلى أن اشتقاق لفظ صوفي ونسبته إلى الوصف والصفاء والصفوة أمر صحيح هو الآخر وقويٌّ ويشهد على ذلك الاشتقاق الأكبر، حيث ترد اثنان من تقاليب الأصل [ص.و.ف.] وهما يدلان على معاني "الوصف والصفا والصفوة". تقول: [ص. ف. و] تحركت الواو وكان ما قبلها مفتوحاً فقلبت ألفاً فصارت "صفا"؛ ومن الصفو تشتق كلمة صوفي بما يعني الصفاء والصفوة على الاشتقاق الأكبر.

وتقول: [و.ص.ف] وهو ثاني تقاليب الأصل "ص.و.ف"، ليعطي مصدر "الوصف" فيكون الصوفي مصطلحاً مشتقاً من "الوصف" بمكارم الأخلاق وسني الصفات، ويجري هذا الأصل على الاشتقاق الأكبر أيضاً.

وعلى ذلك فإنه من الصحيح أن نقول إن لفظ صوفي مشتق من "الصفو" و "الوصف" كما هو مشتق من الصوف، بيد أن اشتقاقه من "الصفو" و "الوصف" يجري على الاشتقاق الأكبر، ومن ثم يبقى اشتقاق الصوفية من الصوف هو الجاري على الاشتقاق "الأصغر" وهو الذي صحَّحه ابن تيمية، وقد ثبت أن تصحيح اشتقاق لفظ صوفي من الصوف لا يعني خطأ اشتقاق لفظ صوفي من الصفو والوصف، بل الصحيح أن كل هذه المصادر تصلح مراجع لاشتقاق لفظ صوفي على نوعي الاشتقاق الأصغر والأكبر. إلا أنه من اللازم التنبيه على أن علماء فقه اللغة- الإمام أبو علي الفارسي وتلميذه ابن جني- كانوا يميلون إلى أن اللغة سماعية توقيفية، وقد اعتمدوا هذا المنهج حتى عاد المنهج الأشهر والمتَّبع إلى منتصف القرن الرابع

ونجد الإمام أبا القاسم القشيري المتوفى عام [٤٦٥ هـ] لا يأخذ بقول الإمام أبي نصر السرَّاج الطوسي[1] المتوفى عام [٣٧٨ هـ] في كتابه الشهير "اللُّمع" في اعتماده القول الذي يجعل اشتقاق التصوف من الصوف، أو لعله لم يبلغه قول أبي نصر السرّاج الطوسي في هذا المضمار: [إنْ سأل سائل فقال: قد نسبتَ أصحاب الحديث إلى الحديث، ونسبتَ الفقهاء إلى الفقه، فلِمَ قلتَ الصوفية ولم تنسبهم إلى حالٍ ولا إلى علم، ولم تُضِفْ إليهم حالاً كما

الهجري حيث ظهر القول بالقياس في اللغة العربية فجهر به الإمام أبو علي الفارسي ت"٣٧٧"هـ. ثم توسَّع فيه تلميذه الإمام عثمان ابن جني ت"٣٩٢"هـ. وعلى يدي الفارسي وابن جني ظهر القول بالاشتقاق الأكبر في منهجهما التحرري الاجتهادي في استنباط اللغة العربية إثراءً وتوسُّعاً حتى تستجيب لحاجة التخاطب والتواصل المعرفي، وهو منهجٌ أراه صحيحاً وإن عارض منهج محافظي فقهاء اللغة الذين يقولون بأن اللغة العربية توقيفية سماعية ولا يجوز فيها الاجتهاد ولا القياس، كما ثبت ذلك عن فقهاء فقه اللغة الذين سبقوا ابن جني وشيخه الفارسي مثل الإمام أبو سعيد السيرافي المتوفى عام "٢٦٨"هـ. وهو من معاصري الإمام أبي علي الفارسي وقد مات قبله بتسع سنوات، وكان الإمام السيرافي غاليًا في رد ورفض القياس في اللغة.

ويبدو من واقع حركة فقه اللغة أن منهج أبي علي الفارسي وتلميذه ابن جني هو الذي ساد بعد ذلك، حيث انتشر القياس والاشتقاق بأنواعه المختلفة، حتى ظهر ما يسمى بالاشتقاق "الكُبَّار" وهو ما عُرِف عند فقهاء اللغة بـ"النحت" مثل هيللة/ حمدلة/ بسملة/ حيعلة/ وعبدري وعبشمي...الخ. حيث لم يعد أحد من علماء اللغة ينكر القياس فيها. وهذا ما أردت بيانه بحمد الله وتوفيقه. والله أعلم.

[1] / أبو نصر السراج الطوسي: هو أبو نصر عبد الله بن علي الطوسي صاحب كتاب اللمع في التصوف، روى عن جعفر الخُلْدي وأبي بكر محمد بن داود الدُّقي. قال الذهبي: كان المنظور إليه في ناحيته في الفتوة ولسان القوم مع الاستظهار بعلم الشريعة، توفي سنة [٣٧٨ هـ]. [شذرات الذهب ج: ٤ ص: ٤١٢].

أضفتَ الزهد إلى الزهّاد والتوكل إلى المتوكلين، والصبر إلى الصابرين؟ فيقال له: لأنَّ الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع، ولم يترسموا برسم من الأحوال والمقامات دون رسم، وذلك لأنهم معدن جميع العلوم، ومحل جميع الأحوال المحمودة، والأخلاق الشريفة سالفًا ومستأنفًا، وهم مع الله تعالى في الانتقال من حال إلى حال، مستجلبين الزيادة، فلما كانوا في الحقيقة كذلك لم يكونوا مستحقّين اسمًا دون اسم، فلأجل ذلك ما أضفتُ إليهم حالاً دون حال ولا أضفتهم إلى علم دون علم، لأنّي لو أضفتُ إليهم في كلِّ وقتٍ حالاً ما وجدتُ الأغلب عليهم من الأحوال والأخلاق والعلوم والأعمال وسمَّيتهم بذلك، لكان يلزم أنْ أُسمِّيهم في كلِّ وقتٍ باسم آخر، وكنتُ أضيف إليهم في كل وقت حالاً دون حال على حسب ما يكون الأغلب عليهم، فلما لم يكن ذلك نسبتهم إلى ظاهر اللبسة، لأنَّ لبسة الصوف دأبُ الأنبياء عليهم السلام، وشعارُ الأولياء والأصفياء، ويكثر في ذلك الروايات والأخبار، فلمَّا أضفتهم إلى ظاهر اللبسة كان ذلك اسمًا مجملاً عامًّا مُخبراً عن جميع العلوم والأعمال والأخلاق والأحوال الشريفة المحمودة، الا ترى أنَّ الله تعالى ذكر طائفة من خواص أصحاب عيسى عليه السلام فنسبهم إلى ظاهر اللبسة فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ ﴾ الآية "١١٢" من سورة المائدة. وكانوا قومًا يلبسون البياض فنسبهم الله تعالى إلى ذلك، ولم ينسبهم إلى نوعٍ من العلوم والأعمال والأحوال التي كانوا بها مترسمين، فكذلك الصوفية عندي والله أعلم، نُسبوا إلى ظاهر اللباس.[1].

1/ اللمع لأبي نصر السرّاج الطُوسي. بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقي سرور. لص: ٤٠- ٤١ ملتزم الطباعة والنشر دار الكتب الحديثة بمصر، ومكتبة المثنى

القرآن ينسب الحواريين إلى زيّهم :

فالصوفيَّة على رأي الطوسي والكلاباذي مشتقّة من لُبْسِ الصوف، وليست هذه النسبة بجديدة على قاموس الفكر الإسلامي فقد نجد قومًا مشهورين بالصلاح ويتَّصفون بجماع الخير، ثم لا ينسبون إلى أيِّ عمل أو حال أو صفة أو علم وإنما ينسبون إلى زيِّهم، فإنْ أردتَ مثالاً على ذلك فخذ كملة الحواريين فهي مصطلح أطلقه القرآن على مَنْ آمن بنبي الله عيسى عليه السلام ونصره وصدَّقه مِنْ بني إسرائيل. والتحوير في لغة العرب هو التبييض[1] وقد نُسِبَ أتباع سيدنا عيسى عليه السلام إلى هذا المصطلح لأنهم كانوا يلبسون الحواري من الثياب ويصبغونها، فنسبهم الله تبارك وتعالى إلى ظاهر لبسهم فقال تعالى:﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٢] وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى

ببغداد. تاريخ الطبعة ١٣٨٠ هـ. – ١٩٦٠م.

١ / **التحوير**: التبييض، والحواريون القصارون، [أي المبيضون] لتبييضهم [الثياب] لأنهم كانوا قصارين ثم غلب حتى صار كل ناصر وكل حميم حواريًا .(لسان العرب، ج: ٤ ص: ٢٢٠).

2/ سورة المائدة:الآية ١١١.

ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ [1]

فها هو الحق تبارك وتعالى ينسب أنصار الله مَن آمن برسوله سيدنا عيسى عليه السلام إلى لبسهم، ولم ينسبهم إلى صفة كانوا عليها أو إلى علم عُرِفوا به بل إلى عمل عُرِفوا به ولُبسٍ درجوا عليه فسمَّاهم الحواريين. ولقب الحواري الذي ورد في حديث رسول الله {إنَّ لكل نبيٍّ حواريًا وحواريِّيَ الزبير} [2] إنما يراد به التَّشبيه بأتباع سيدنا عيسى عليه السلام بجامع الصدق والنقاء والملازمة في كلٍّ، إلاَّ أنَّ قوم سيدنا عيسى عليه السلام هم أهل السَّبق في إطلاق هذا الاسم عليهم. فهل غريب بعد ذلك أنْ يُنسَب الصوفية إلى لُبْسِ الصوف وهو لبس

---

[1] / سورة المائدة:الآية ١١٢.

[2] / حديث {إن لكل نبي حوارياً }اخرج البخاري عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّه عَنْهما ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:{ مَنْ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ ؟} يَوْمَ الْأَحْزَابِ، قَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا ، ثُمَّ قَالَ: {مَنْ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ ؟} قَالَ الزُّبَيْرُ : أَنَا ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:{ إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ}. [صحيح البخاري، ج: ٣ ص: ١٠٤٧ الحديث رقم ٢٦٩٢]. و[صحيح مسلم، ج: ٤ ص: ١٨٧٩].

وفي رواية لأحمد عن جابر قال: نَدَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ، ثُمَّ نَدَبَ النَّاسَ فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ، ثُمَّ نَدَبَ النَّاسَ فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ {إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ} انظر [مسند أحمد ج:٣ ص:٣٠٧ الحديث رقم: ١٤٣٣٦].

والحواري هنا: الصاحب والنصير .

الأنبياء[1] وكان دأب الصدّيقين وشعار الصالحين المتنسّكين وفي القرآن أسوة واقتداء.

1/ لُبس الصوف دأب الأنبياء:روى البخاري عَنْ الْمُغِيرَةِ بن شعبة رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي سَفَرٍ فَقَالَ{ أَمَعَكَ مَاءٌ؟} قُلْتُ: نَعَمْ، فَنَزَلَ عَنْ رَاحِلَتِهِ فَمَشَى حَتَّى تَوَارَى عَنِّي فِي سَوَادِ اللَّيْلِ ثُمَّ جَاءَ فَأَفْرَغْتُ عَلَيْهِ الْإِدَاوَةَ فَغَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ وَعَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُخْرِجَ ذِرَاعَيْهِ مِنْهَا حَتَّى أَخْرَجَهُمَا مِنْ أَسْفَلِ الْجُبَّةِ فَغَسَلَ ذِرَاعَيْهِ ثُمَّ مَسَحَ بِرَأْسِهِ ثُمَّ أَهْوَيْتُ لِأَنْزِعَ خُفَّيْهِ فَقَالَ {دَعْهُمَا فَإِنِّي أَدْخَلْتُهُمَا طَاهِرَتَيْنِ} فَمَسَحَ عَلَيْهِمَا. [صحيح البخاري ج: ٥ ص: ٢١٨٥ الحديث رقم ٥٤٦٣].

وروى مسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى عَلَى ثَنِيَّةِ هَرْشَى، فَقَالَ: { أَيُّ ثَنِيَّةٍ هَذِهِ ؟} قَالُوا: ثَنِيَّةُ هَرْشَى، قَالَ: {كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى عَلَيْهِ السَّلَام عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ جَعْدَةٍ عَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ خِطَامُ نَاقَتِهِ خُلْبَةٌ وَهُوَ يُلَبِّي} [صحيح مسلم ج: ١ ص: ١٥٢ الحديث رقم: ١٦٦].

وروى الترمذي عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ: { كَانَ عَلَى مُوسَى يَوْمَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ كِسَاءُ صُوفٍ وَجُبَّةُ صُوفٍ وَكُمَّةُ صُوفٍ وَسَرَاوِيلُ صُوفٍ وَكَانَتْ نَعْلَاهُ مِنْ جِلْدِ حِمَارٍ مَيِّتٍ} قَالَ أَبو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لا نَعْرِفُهُ إِلا مِنْ حَدِيثِ حُمَيْدٍ الْأَعْرَجِ، وَالْكُمَّةُ الْقَلَنْسُوَةُ الصَّغِيرَةُ . [سنن الترمذي، ج: ٤ ص: ٢٢٤ الحديث رقم: ١٧٣٤].

وأخرجه الحاكم في المستدرك وقال:وهذا حديث كبير في التصوف والتكلم، ولم يخرجاه، وله شاهد من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، قال : قال رسول الله ﷺ {عليكم بلباس الصوف تجدون حلاوة الإيمان في قلوبكم}. [المستدرك على الصحيحين ج: ١ ص: ٨١ الحديث رقم: ٧٦ والحديث رقم: ٧٧].

وروى البيهقي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: [خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم متوشّحاً بشملة له صغيرة قد عقد طرفيها بين كتفيه فصلّى بنا ليس عليه شيء غيرها].

وعلى ذلك فالراجح عندي نسبة الصوفية إلى لبس الصوف، وإن لم يكن هو الغالب عندهم، إلاّ أنه شعار مُميِّز وزيٌّ ينبئ بالاخشوشان والتَّـقلُّل من الدنيا والإنابة إلى الآخرة، فليكنْ هذا الزِّيّ رمزاً لهذه المعاني، وليكن المتصوِّف هو لابس الصوف بكلٍّ ما يحمل لبس الصوف من مَعَانٍ وإشارات. هذا عن الاشتقاق اللغوي لمصطلح التصوف أو الصوفية.

وبإسناده عن عبادة بن الصامت ﷺ قال: [خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم وعليه جبة صوف رومية ضيقة الكمين فصلى بنا فيها ليس عليه شيء غيرها].

وروى البيهقي أيضاً عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: [كان رسول الله ﷺ يركب الحمار ويلبس الصوف ويعتقل الشاة]. وروى عن سعيد بن أبي عروبة أنه سمع مجاهداً يقول [صلى في هذا المسجد [مسجد الخَيْف] سبعون نبياً لباسهم الصوف ونعالهم الخوص. انظرلسنن البيهقي الكبرى، ج: ٢ ص: ٤٢٠ الأحاديث ٣٩٨٨ و ٣٩٨٩ و ٣٩٩٠].

قال الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [النحل: ٥]. قال: دلت هذه الآية على لباس الصوف، وقد لبسه رسول الله ﷺ والأنبياء قبله كموسى وغيره . قال القاضي ابن العربي: وهو شعار المتقين، ولباس الصالحين، وشارة الصحابة والتابعين، واختيار الزهاد والعارفين، وإليه نسب جماعة من الناس [الصوفية] لأنه لباسهم في الغالب. [الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٠ ص: ٧٠].

المبحث الثاني: متى عُرِف المصطلح؟

في البداية يجدر بنا أن ننبِّه إلى الفرق بين كلمتي [عُرِفَ] و [اشتُهِرَ]، لأن بعض الباحثين قد يخلط بين تاريخ معرفة هذا المصطلح وتاريخ اشتهاره.

فمعرفة المصطلح تعني بداية ظهوره ومعرفة الخاصة به، أما اشتهاره فيعني شيوعه ودورانه على الألْسُنِ حتى يعرفه الخاصة والعامة.

ومعرفة المصطلح تتبع لمصدر اشتقاقه، فمَنْ جعل اللفظ منسوبًا إلى صوفة بن بشر بن أدّ بن طابخة فإنه يرجع في ميلاد هذا المصطلح إلى تاريخ بعيد موغل في الجاهلية، ذلك لأن بني صوفة بطن من العرب كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم، وكانوا نُسَّاكًا يجيزون العرب في حَجِّهم لمكة، فنسب قومٌ الصوفية لهم. ولو كان هذا صحيحًا لعُرِفَتْ هذه النسبة واشتهرت في فجر الإسلام بين الصحابة الذين كان النُّسك ديدنهم، إضافة إلى أنَّ قوم صوفة هؤلاء لم يكونوا مشهورين ولا معروفين عند أكثر النُّسَّاك، وغالبُ مَن تكلَّم باسم الصوفية في القديم لا يعرف هذا البطن من بطون العرب، ولا يرضى الصوفية أن يُنسَبوا إلى جماعة جاهلية لا وجود لها في الإسلام.

أما مَنْ جعل اللفظ منسوبًا إلى الصُّفَّة أو لبس الصوف أو إلى الصفِّ المقدَّم، فهذا يرجع بتاريخه إلى صدر الإسلام لأنَّ الصُّفَّة وأهلها لم يعرفوا إلاّ في الإسلام.

أما مَنْ نسبهم إلى الصوف للبسهم الصوف فقد يرجع بنشأة التصوف إلى مدارس تَمِتُّ إلى النصرانية بشِقّيْها الشرقي والغربي إلاّ أنّها مرجعية غير مانعة، ذلك لأنَّ لبس الصوف لم يكُ قاصراً على رهبان النصارى ومتنسِّكيهم، وإنّما جاءت الآثار الكثيرة تدل على أنَّ بعض صحابة الرسول الكريم سيدنا محمد ﷺ قد كان يلبس الصوف[1] وقد كان لبس الصوف من هؤلاء الصحابة الكرام ملحوظاً فيه عدَّة مضامين منها التقشُّف والزهد والتَّقلل من الدنيا، وهي ذات المضامين التي لحظها الصوفية وهم يلبسون الصوف، بيد أنَّ صحابة الرسول الكريم ﷺ لم يُطلق على مَن لبس الصوف منهم لفظ صوفية، لأنَّ لفظ الصحابي لفظ ذو مضمون رفيع ودلالة مميّزة لايدانيها لفظ الصوفي شرفًا ورفعةً وعزةً، فلا حاجة لهم إلى لفظ مميز فوق صحبة المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم. إلا أنه عندما تفتَّحتْ الدنيا بزهرتها على المسلمين بعد فتوح الأمصار في العصر الأُموي الذي بدأ

1/ **الصحابة يلبسون الصوف:** روي الحاكم في المستدرك بسنده عن الزهري أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه لما حضره الموت دعا بخلق جبة له من صوف فقال: [كفنوني فيها، فإني لقيت المشركين فيها يوم بدر وإنما كنت أخبؤها لهذا اليوم]. انظر [المستدرك على الصحيحين، ج: ٣ ص: ٥٦٧ الحديث رقم: ٦١٠٠].

وروى البيهقي في شعب الإيمان عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ عيينة بن بدر والأقرع بن حابس وذووهم فقالوا يا رسول الله انك لو جلست في صدر المسجد هؤلاء وأرواح جبابهم يعنون أبا ذر وسلمان وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب صوف ولم يكن عليهم غيرها جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك]. فأنزل الله عز وجل ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ [شعب الإيمان للبيهقي، ج: ٧ ص: ٣٣٦ الحديث رقم: ١٠٤٩٤].

بعهد معاوية بن أبي سفيان[1] ﷺ سنة :[٤٠ هـ]. من الهجرة، تنافس الناس الدنيا وأخذوا منها وأخذتْ منهم، غير أن جماعة قد أقبلوا على الآخرة ولزموا العبادة ولبسوا الصوف تقلُّلاً وزهداً في الدنيا ونعيمها فاختصوا باسم الصوفية.

---

[1] / معاوية: هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، وأم معاوية هي هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، ولد معاوية ﷺ قبل البعثة بخمس سنين، وقيل بسبع، وقيل بثلاث عشرة، والأول أشهر كما قال الحافظ في الإصابة. وقيل إنه أسلم قبل أبيه وقت عمرة القضاء وبقي يخاف من اللحاق بالنبي ﷺ من أبيه ولكن ما أظهر إسلامه إلا يوم الفتح، حدث عن النبي ﷺ وكتب له مرات يسيرة، وحدَّث أيضًا عن أخته أم المؤمنين أم حبيبة وعن أبي بكر وعمر. ذكر ابن أبي الدنيا وغيره أن معاوية كان طويلاً أبيض جميلاً إذا ضحك انقلبت شفته العليا وكان يخضب.

وشهد معاوية مع رسول الله ﷺ حنينًا والطائف وأعطاه رسول الله ﷺ من غنائم حنين مائة من الإبل وأربعين أوقية وزنها له بلال، وولاه عمر بن الخطاب ﷺ دمشق بعد أخيه يزيد بن أبي سفيان حين مات يزيد فلم يزل والياً لعمر حتى قتل عمر ﷺ ثم ولاه عثمان ﷺ ذلك العمل وجمع له الشام كلها فلم يزل والياً عليها حتى قتل عثمان ﷺ فكانت ولايته على الشام عشرين سنة أميراً، ثم استمر فلم يبايع علياً، ثم حاربه واستقل بالشام، ثم أضاف إليها مصر، ثم تسمَّى بالخلافة بعد الحكمين، ثم استقل لما صالح الحسن بن علي ﷺ واجتمع عليه الناس فسمي ذلك العام عام الجماعة. فلم يزل خليفة عشرين سنة حتى مات ليلة الخميس للنصف من رجب سنة :[٦٠هـ] وهو يومئذ بن ثمان وسبعين سنة ١٠ [انظر الإصابة، ج: ٦ ص: ١٥١]. و[الطبقات الكبرى، ج: ٧ ص: ٤٠٦]. و[سير أعلام النبلاء، ج: ٣ ص: ١١٩]. و[التاريخ الكبير للبخاري، ج: ٧ ص: ٣٢٦].

قول ابن خلدون ومناقشته :

يقول العلامة ابن خلدون[1] في مقدمته الشهيرة لموسوعته التاريخية المسماة باسم "العِبر وديوان المبتدأ والخبر" عن التصوف: [هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في المِلة، وأصله أنَّ طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن الدنيا وزينتها والزهد فيما يُقْبِل عليه الجمهورُ من لذَّةٍ ومالٍ وجاهٍ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عامًّا في الصحابة والسَّلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجَنَحَ النَّاسُ إلى مخالطة الدنيا اختُصَّ المقبلون على العِبادة باسم الصوفية والمتصوفة][2].

يتحدَّث العلامة ابن خلدون فيما نُقِلَ عاليَه عن اشتهار جماعة من الناس باسم الصوفية، لما اختُصُّوا به من الإقبال على العبادة والتَّجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود، وجَعَل الظرف الزماني لاشتهار هذا المصطلح

---

[1] / ابن خلدون: هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الحضرمي، الإشبيلي الأصل التونسي، قاضي القضاة، ولي الدين أبو زيد المعروف بابن خلدون، نزيل القاهرة وقاضي المالكية بها، وذكر أنه سمع بعض صحيح البخاري على أبي البركات البُلْقيني، والموطأ على ابن عبد السلام، وصحيح مسلم على الوادي آشي، والقراءات على أبي عبد الله بن نزال. وكان بارعًا في الأصول وغيره، أديباً، ولي قضاء الديار مرة في دولة الملك الظاهر برقوق وابنه الناصر فرج، ومات في رمضان سنة: [٨٠٨هـ]. بالقاهرة ومولده في سنة:[٧٣٢هـ]. غرة شهر رمضان منها بتونس أجاز للقاضي ابن حجر ولشيخنا أبي الفتح بن أبي بكر بن الحسين المراغي . [ذيل التقييد لأبي الطيب الفاسي، ج: ٢ ص: ١٠٠].

[2] / انظر مقدمة ابن خلدون ص٤٣٩ طبعة دار الشعب ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.

هـو منتـصف القـرن الثـاني الهجـري؛ بيـد أنَّ الدراسـات تُـثبتُ أنَّ مـصطلح التَّصوف عُرِف في نهايات القرن الأول الهجري، وذلك حينما تحوَّل الزهـد إلى مفهوم التصوف، فظهرت شخصيات صوفية كانت هـي المحور الـذي دارتْ عليه أسانيد المتصوفة واتَّصلتْ به سلاسلهم في الإسناد.

ويعتبر الإمام الحسن بن يسار البصري[1]، في نظـر الصوفية أنفسهم مـن أوائـل أئمـتهم، وذلـك لمـا كـان ينـزع إليـه الإمـام الحـسن مـن حيـاة روحيـة خالـصة

---

[1] / الحسن البصري: هـو الحسن بـن أبـي الحـسن [يـسار] أبـو سـعيد، مـولى زيـد بـن ثابـت الأنصاري، واسم أمه خيرة، وكانت مولاة لأم سلمة أم المؤمنين، ولد الحسن ﷺ لسنتين بقيتا من خلافة عمر. ثم نشأ بوادي القرى وحضر الجمعة مع عثمان وسمعه يخطب وشهد يوم الدار وله يومئذ أربع عشرة سنة، وكانت أم سلمة تبعث أم الحسن في الحاجة فيبكي وهو طفل فتسكته أم سلمة بثديها تعلله به إلى أن تجيء أمه، فدرَّ عليه ثديها فشربه فيرون أنَّ تلك الحكمة والفصاحة من بركة ذلك، وكانت تخرجه إلى أصحاب رسول الله ﷺ وهو صغير فكانوا يدعون له فأخرجته إلى عمر فدعا له وقال [اللهم فقهه في الدين وحببه إلى الناس].

وقال أبو هلال الراسبي عن خالد بن رياح الهُذلي سئل أنس بن مالك ﷺ عن مسألة فقال: سلوا مولانا الحسن، قالوا يا أبا حمزة نسألك تقول سلوا الحسن مولانا، قال: سلوا مولانا الحسن فإنه سمع وسمعنا فحفظ ونسينا.

وعن علي بن زيد قال: لو أدرك الحسن أصحاب رسول الله ﷺ وله مثل أسنانهم ما تقدموه. قالوا وكان سيد أهل زمانه علماً وعملاً، رأى عثمان وطلحة والكبار، وكان جامعاً، عالمًا، عاليا، رفيعاً، ثقةً، مأمونًا، عابداً، ناسكًا، كبير العلم، فصيحًا، جميلاً، وسيمًا، وكان ما أسند من حديثه وروى عمن سمع منه فحسن حجة. (انظر سير أعلام النبلاء، ج: ٤ ٦٣]. و[الثقات لابن حبان، ج: ٤ ص: ١٢٢]. ولتهذيب الكمال للمزي، ج: ٦ ص: ١٠٢.[والطبقات الكبرى لابن سعد، ج: ٧ ص: ١٥٦].

يرفدها[1] علم ربَّاني سامٍ يسمو بالعبادة إلى معارج النُّسُك العالي، الذي يستَرْوِحُ رَوْحَ الحقّ[2] في كل نفس غير قانع بمجرد الصورة الشكليَّة في أداء العبادة.

والإمام الحسن البصري في زهده الإيجابي وكلامه الذي يشبه كلام الأنبياء يُعَدُّ رائداً من روَّاد الطريق الصوفي وقد التفَّ به عددٌ من تلاميذه أطلق عليهم مصطلح الصوفي؛ وكل ذلك قد عُرِف قبل نهاية القرن الإسلامي الأول مما يدلك على أنَّ التصوف كمصطلح قد عُرِف قبل نهاية القرن الهجري الأول لأنَّ الإمام الحسن البصري كان يعرف هذا المصطلح ويطلقه على بعض تلاميذه، وقد مات الإمام الحسن البصري عام (١١٠ هـ) وهذا يعني أنَّ المصطلح قد عُرف قبل هذا التاريخ.

وممن نُسِبَ إلى التصوف مِن علماء السلف وزُهَّادهم ونُسَّاكهم:

١. هرم بن حيان[3] المتوفى عام ٧١ هـ.

---

[1] / يرفدها: الرِّفد الإعانة، رفدته وأرفده إذا أعَنْتُه. (لسان العرب، ج: ٣ ص: ١٨١).

[2] / روح الحق: الرَّوْحُ الرحمة والرزق، وفي الحديث: {الريح من رَوْح الله} أي رحمته بعباده. [النهاية في غريب الحديث والأثر، ج: ٢ ص: ٢٧٢] و(مختار الصحاح لأبي بكر الرازي، ص: ٢٦٢).

[3] / هرم بن حيان: هو هرم بن حيان العبدي ويقال الأزدي البصري أحد العابدين، ذكره ابن الأثير في صغار الصحابة. حدث عن عمر بن الخطاب وروى عنه الحسن البصري وغيره، وولي بعض الحروب في أيام عمر وعثمان ببلاد فارس . وقيل سمي هرما لأنه بقي حملاً سنتين حتى طلعت أسنانه، وكان هرم يخرج في بعض الليل وينادي بأعلى صوته: عجبت من الجنة كيف نام طالبها وعجبت من النار كيف نام هاربها ثم يقول ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ (الأعراف ٩٧) قال ابن سعد: كان عاملاً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان ثقةً له فضلٌ

٢. حبيب بن سالم الراعي[1] المتوفى عام ٨٥ هـ.

٣. أبو حازم سلمة بن دينار[2] المتوفى عام ٩٣هـ.

٤. أبو عبد الله مالك بن دينار[3] المتوفى عام ١٠١ هـ.

٥. الحسن بن يسار البصري المتوفى عام ١١٠ هـ .

وعبادةً ، وقال الحسن البصري : مات هرم بن حيان في غزاةٍ له في يومٍ صائفٍ فلما فرغ من دفنه جاءت سحابة فرشت القبر حتى تروّى لا تجاوز القبر منها قطرة واحدة ثم عادت عودها على بدئها. [انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ج٤ ص٤٨ والطبقات الكبرى لابن سعد ج: ٧ ص:١٣٣] و[أسد الغابة لابن الأثير الجزري ج:٤ ص:٦١٥].

[1] / حبيب بن سالم الراعي: لم أجد له ذكرًا في التابعين فيما لديَّ من مراجع ، وإنما ذكر حبيب بن سالم مولى النعمان بن بشير، وله رواية عند أحمد ومسلم وأصحاب السنن.

[2] / أبو حازم سلمة بن دينار: هو أبو حازم سلمة بن دينار المخزومي مولاهم المدني الأعرج عالم المدينة وقاصُها ، وكان أبوه فارسيًا وأمه رومية. سمع سهل بن سعد الساعدي وسعيد ابن المسيب والنعمان بن أبي عياش وأبا صالح السمان وعدة، وعنه مالك والسفيانان والحمادان وأبو ضمرة وخلق، قال ابن خزيمة :لم يكن في زمانه أحد مثله، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم :ما رأيت أحداً الحكمة أقرب إلى فيه من أبي حازم، ومناقبه كثيرة، وكان ثقةً، فقيهاً، ثبتاً، كثير العلم، كبير القدر. وتوفي أبو حازم في خلافة أبي جعفر المنصور بعد سنة أربعين ومائة، [انظر الطبقات الكبرى لابن سعد - القسم المتمم ج١ ص ٣٣٢]. ولتذكرة الحفاظ لابن طاهر القيسراني ج١ ص١٣٣].

[3] / مالك بن دينار: هو مالك بن دينار من علماء البصرة وزهادها المشهورين ويكنَّى أبا يحيى، وكان من حرس عمر بن عبد العزيز، سمع مكحولاً وعمر بن عبد العزيز وكان ينسخ المصاحف، صدوق وثّقه النسائي وغيره، واستشهد به البخاري واحتج به النسائي وذكره ابن حبان في الثقات، يروي عن أنس بن مالك ، وفي وفاته أقوال أحدها سنة: [١٣٠ هـ] انظر لشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج: ٢ ص: ١١٨]. وميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي، ج: ٦ ص: ٦].

٦. محمد بن واسع[1] المتوفى عام ١٣٢ هـ .

٧. عثمان بن شريك أبو هاشم الصوفي[2] المتوفى عام ١٥٢هـ.

---

[1] / محمد بن واسع: هو محمد بن واسع ابن جابر بن الأخنس، الإمام الرباني القدوة، أبو بكر ويقال ابو عبد الله الأزدي البصري أحد الأعلام، حدث عن أنس بن مالك وعبيد بن عمير ومطرِّف بن الشِّخِّير وعبد الله ابن الصامت وأبي صالح السمان ومحمد بن سيرين وغيرهم وهو قليل الرواية، قال ابن شوذب :لم يكن لمحمد بن واسع عبادة ظاهرة وكانت الفُتْيَا إلى غيره وإذا قيل مَن أفضل أهل البصرة ؟ قيل محمد بن واسع، وقال جعفر بن سليمان: كنت إذا وجدت من قلبي قسوة غدوت فنظرت إلى وجه محمد بن واسع كان كأنّه ثكلى، قال ابن عيينة قال ابن واسع : لو كان للذنوب ريح ما جلس إليَّ أحد ، قال مضر: كان الحسن يسمي محمد بن واسع: زين القراء. أسند محمد بن واسع عن أنس بن مالك وروى عن جماعة من كبار التابعين كالحسن وابن سيرين وتوفي سنة عشرين:[١٢٠ هـ] انظر [سير أعلام النبلاء للذهبي ج٦ ص١١٩-١٢٢] و[صفوة الصفوة لابن الجوزي ج٣ ص٢٧٠].

[2] / أبو هاشم الصوفي : ذكره الحافظ أبو نُعيم في حلية الأولياء ووصفه بأنه من قدماء زهاد بغداد ومن أقران أبي عبد الله البراثي. قال : وبلغني أنه رأى شريك بن عبدالله القاضي خارجًا من دار يحيى البرمكي يطرق بين يديه فقال أعوذ بالله من علم يورث هذا ويفضي بصاحبه إلى ما أرى. ونقل ابن الجوزي بعض أقواله في صفوة الصفوة . وذكر القنوجي في أبجد العلوم أن وفاته كانت سنة: [١٥٠ هـ] انظر: [حلية الأولياء لأبي نُعيم الأصفهاني، ج: ١٠ ص: ١١٢]. و[صفة الصفوة لابن الجوزي، ج: ٢ ص: ١٤٦]. و[أبجد العلوم للقنوجي، ج: ٢ ص: ١٥٤].

قولُ الإمام ابن تيمية والردُّ عليه

وعبر هؤلاء الأعلام وتلاميذهم اشتهر مصطلح الصوفية وذاع لقب الصوفي، مما جعل المصطلح ذائعًا شهيراً بعد المائة الثانية، ولا يُفهم من هذا أنَّ المصطلح لم يعرف ويشتهر إلا بعد المائة الثالثة كما تُوهِمُ بذلك عبارةُ الإمام ابن تيمية التي قال فيها: [أما لفظ الصوفية فإنه لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة وإنما اشتهر الكلام به بعد ذلك، وقد نُقِلَ التَّكلُّمُ به عن غير واحدٍ من الأئمة والشيوخ كالإمام أحمد بن حنبل[1] وأبي سليمان الداراني وغيرهما، وقد روي عن سفيان الثوري[2] أنه تكلم به[3] وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري][1].

---

[1] / ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء عن أبي حمزة البغدادي قال: قال لي أحمد بن حنبل: يا صوفي: ما تقول في هذه المسألة ؟ . [سير أعلام النبلاء، ج: ١٣ ص: ١٦٨]. وانظر:[المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد لابن مفلح، ج: ٢ ص: ٣٣٣].

[2] / **سفيان الثوري**: هو الإمام أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري، الفقيه، ولد لسنة: ٩٥هـ، وكان سيد أهل زمانه علماً وعملاً، روى عن عمرو بن مرة، وسماك بن حرب، وخلق كثير، قال شعبة ويحيى بن معين وغيرهما: سفيان أمير المؤمنين في الحديث، وأثنى عليه أئمة عصره بما يطول ذكره. وكان إماماً مجتهداً صاحب مذهب.

وكان كثير الحط على أبي جعفر المنصور لظلمه، فهمَّ به وأراد قتله فما أمهله الله، وكان سفيان قد أقسم برب البيت أن المنصور لا يدخل الكعبة. وكتب المهدي عهداً لسفيان الثوري على قضاء الكوفة، فخرج سفيان فرمى بالكتاب في دجلة، وهرب، ومات لسنة: ١٦١هـ بالبصرة متوارياً. لشذرات الذهب، ج: ١ ص: ٢٥٠- ٢٥١].

[3] / عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال النَّبيَّ ﷺ {خيركم قرني ثمَّ الَّذين يلونهم ثمَّ الَّذين يلونهم}. قال عمران لا أَدري أَذكر النَّبيَّ ﷺ بعد قرنين أَو ثلاثة. انظر: [صحيح البخاري ج: ٢

وقولُ الإمام ابن تيمية إنَّ التصوف لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة قول غير صحيح، ولعلَّه هدف من تقريره هذا الأمر أنْ يقول إنَّ القرون الثلاثة هي القرون الفاضلة التي جاء الحديث يخبر عن أنها خير القرون، وإذ لم يشتهر هذا المصطلح في خير القرون، فهذا يعني أنه من البدع التي ينبغي أنْ يتجافاها الناس! وقد فهم الوهابية هذا الفهم من عبارة ابن تيمية.

إلا أنَّ الواقع التاريخي للصوفية يؤكد من خلال كُتُبِ الطبقات الخاصة بهم، أنَّ لفظ الصوفية اشتهر قبل نهاية القرن الثاني الهجري كما تشير بذلك سني وفيات أعيان الصوفية، وقد ذكرتُ منهم فيما مضَى سبعة من شيوخهم كلُّهم ماتوا قبل دخول النصف الثاني من المائة الثانية إلا أبا هاشم الصوفي.

وقد ذكر الإمام ابن تيمية أنَّ التكلُّم في المصطلح قد نُقِل عن غير واحد من الشيوخ، وذكر الإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة [٢٤٠ هـ] والإمام أبا سليمان الداراني المتوفى سنة [٢١٥ هـ]. وقد فات على الإمام ابن تيمية أنْ يذكر أنَّ التكلُّم في مصطلح الصوفية قد نُقِلَ قبل الإمام أحمد والإمام الداراني بما يزيد على مائة عام!! إذْ كان الحسن البصري يعرف هذا المصطلح ويتكلَّم به وقد مات عام [١١٠ هـ].

ص: ٩٣٨ الحديث٢٥٠٨]. و[صحيح مسلم ج: ٤ ص: ١٩٦٤ الحديث رقم٢٥٣٥]. و[سنن الترمذي، كتاب الفتن، الحديث رقم ٢١٤٧].

1/ التصوف والصوفية لشيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب وتحقيق: محمد طاهر الزين. ص: ٨

وإيراد هذا الأمر بصيغة التمريض في سياق لفظ الإمام ابن تيمية لا ينفي صدقَه وصحَّته، بل مِن الحق أن نقول إنَّ القرون الثلاثة لم تنقضِ إلا وقد رَستْ أركانُ التصوف وشمخَ عِلمُه وذاعَ صيتُه وكَتبَ فيه أئمَّتُه أمثال المحاسبي والسَّقطي وأبو تراب النخشبي وعمرو بن عثمان المكي وأبو سليمان الداراني وسفيان الثوري والفضيل بن عياض، وتركوا لتلاميذهم ثروة ضخمة في علم السُّلوك وتربية النُّفوس وفقه السَّيْر إلى الله، حتى أفضَى الأمر إلى الإمام الجنيد فوَسَّع حياضَه ووطَّأ أكنافَه وحَلَّ رموزه وربط مواجيده ودقائقه بأمراس[1] الشريعة، رابطًا بينها وبين الحقيقة في لفظ بليغ ونظمٍ مُنَسَّقٍ لما تناثر من آدابه وضوابطه وأحكامه، فَقَعَّدَ القواعد ووضع المراسم وبيَّنَ للناس منهج التصوف، فاستحقَّ أن يكون إمام الصوفية وشيخها. بيد أنَّ هذا لا يعني أنَّ التصوف لم يشتهر قبله كما يفهم ذلك بعضُ الباحثين.

ونخلص مِن كلِّ هذا إلى القول بأنَّ مصطلح الصوفية قد عُرِف قبل نهاية المائة الأولى من الهجرة، واشتهر وذاع قبل نهاية المائة الثانية، وتقعَّدتْ قواعدُه وحُدِّدتْ معالمُه وتحدَّث الناس عن أدبه وفقهه وأحواله ومقاماته قبل نهاية المائة الثالثة. فهو يُنسبُ نشأةً واشتهاراً إلى القرون الثلاثة الفاضلة.

ولأجل هذا اعتبره العلماء والمؤرِّخون من علوم المِلة الإسلامية. وقد نتحدَّث عن الدَّخيل من التَّصوف في معرض حديثنا عن المفهوم.

---

[1] / المَرَسَةُ: الحبل لِتَمَرُّس الأيدي به، والجمع: مَرَس وجمع الجمع أمراس. [انظر القاموس المحيط للفيروزابادي] و(لسان العرب لابن منظور، ج: ٦ ص: ٢١٦).

المبحث الثالث: أول دويرة بُنيت للصوفية

ومما تتم به الفائدة أن نتعرَّض بشيء من الإيجاز إلى بواكير تجمُّعات الصوفية ونشأة دويراتهم [التَّكايا والزَّوايا]، وهو أمر ذو صلة حيوية ببحثنا في نشأة مصطلح الصوفية وتطوره.

وقد اتَّفقتْ كلمة علماء اللغة على أنَّ الدويرة تصغير للدارة وجمعها دارات وجمع التَّصغير دويرات. وقد عَرَّفَ الباحثون في مجال الخطط والآثار هذه الدويرات بأنها بنايات يأوي إليها العُبَّاد والزهَّاد والنسَّاك من بواكير الصوفية، وهم قوم تجرَّدوا عن الدنيا وتجافوا عنها وأنابوا إلى دار الخلود تائبون عابدون سائحون في الأرض، يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا، لم تُلْهِهم أموالٌ ولا أولادٌ عن ذِكْرِ الله.

وقد أشارتْ المصادر التاريخية التي تحدَّثتْ عن أوليَّة هذه الدارات إلى شخصيَّتين صوفيَّتين نُسِبَ إلى كلٍّ منهما بناءُ أول دويرةٍ للصوفية في البلد الذي عاش فيه. وأول هاتين الشخصيتين هو:

١. **عبد الواحد بن زيد**: وهو من مشاهير تلاميذ الإمام الحسن بن يسار البصري، الذي كان من كبار روَّاد الصوفية في الإسلام، وتلميذه عبد الواحد بن زيد أول مَنْ بنَى دويرةً للصوفية في البصرة من بلاد العراق، كما تشير إلى ذلك المصادر التي تحدَّثتْ في هذا الشأن، إلا أنَّ الإمام ابن تيمية قد جعل أحد تلاميذ عبد الواحد بن زيد هو الذي بنى أول دويرة للصوفية في البصرة.

٢. **الإمام أبو هاشم الصوفي**١: ويسمَّى عثمان بن شريك، وبعض المصادر تسمِّيه خالد بن يزيد بن معاوية٢ وقد اشتهر بكنيته أبو هاشم وهو كوفي الأصل بصري النشأة، وقد جعل الشام مستقرًّا له بعد عام (١٢١هـ)، وكان

1/ **أبو هاشم الصوفي**: لقد اقتصرت جميع المراجع التي وقفتُ عليها على ذكره بكنيته ونسبته إلى لبُس الصوف [أبو هاشم الصوفي] ولم أجد ذكراً لاسمه في واحد منها ، ومن المصادر التي ورد ذكره فيها:

- حلية الأولياء لأبي نُعيم الأصفهاني. ج١٠ ص١١٢ .
- صفة الصفوة لابن الجوزي. ج٢ ص٣٠٦.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير لعبد الرءوف المناوي. ج٤ ص٣٢٧.
- كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة. ج١ ص٤١٤.
- أبجد العلوم للقنوجي. ج٢ ص١٥٤.

2/ **خالد بن يزيد**: خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، أبو هاشم الأُموي الدمشقي، وكان عالماً، شاعراً، ونُسب إليه شيءٌ من علم الكيمياء، وكان يعرف شيئاً من علوم الطبيعة، ومنه أخذ جابر بن حيان الصوفي المتوفى سنة: [١٦٠هـ]. قال الذهبي: وكان من نبلاء الرجال ذا علمٍ وفضلٍ وصوم وسؤدد. وقال ابن خلّكان: كان من أعلم قريش بفنون العلم. قال أبو زُرعة: كان هو وأخوه معاوية من خيار القوم، وهو الذي بنى جامع حمص. ومن كلامه: أقرب شيء الأجل، وأبعد شيء الأمل، وأرجى شيء العمل، وقد امتدحه بعض الشعراء فقال:

سألت النَّدا والجود حُرَّان أنتما ... فردًا وقالا إنَّنا لعبيد

فقلتُ ومَن مولاكما فتطاولا ... علي وقالا خالد بن يزيد

ومات خالد بن يزيد (سنة ٩٠هـ). [البداية والنهاية لابن كثير، ج: ٩ ص: ٨٠]. و[سير أعلام النبلاء، ج: ٩ ص: ٤١١]. لا يبدو من سياق حديث المؤلِّف ﷺ أنَّ خالد هذا هو المقصود، ولكننا إذ لم نجد إلا هذا، أوردنا ما وجدناه ليستأنس به القارئ من ذوي الاهتمام حتى يكون له دافعًا للبحث عن المقصود مما يطابق سياق ما جاء للمؤلِّف ﷺ.

من كبار تلاميذ الإمام الحسن بن يسار البصري، وكان مشهوراً بالزهد والنُّسك والتَّقلُّل من الدنيا، يتَّخذ من الصوف جلبابًا طويلاً يديم لبسه حتى نُسبَ إليه، فسمَّاه الإمام الحسن البصري بـ(الصوفي) فكان أول من تسمَّى بالصوفي من أهل السنة١.

ويبدو أنَّ هناك عدداً من النُّسَّاك والزُّهَّاد والعُبَّاد كانوا يختلفون إلى أبي هاشم الصوفي في مدينة الرملة، فبنَى لهم زاوية يأوون إليها ويمارسون فيها أذكارهم وأورادهم، فكانت أول خانقاه بُنيت للصوفية في فلسطين من بلاد الشام. وقد عُدَّ أبو هاشم هذا معاصراً للإمام سفيان الثوري وقد قال الإمام الثوري في أبي هاشم الصوفي [لولا أبو هاشم ما عرفت دقائق الرياء]٢، وهذا قولٌ من الإمام الثوري يرتقي بأبي هاشم الصوفي إلى درجٍ رفيع في مقامات الصدق وخلوص النية ودقة الالتزام بمقتضيات الإيمان في كسوب التديُّن خلال تدافع الإرادات البشرية في مباشرتها للحياة وشؤونها، ويكفي هذا الصوفي شرفًا ورِفعة مقامٍ في معارج القدس وسني حال في مدارج النفس أن يعرف منه الإمام الثوري - وهو مَنْ هو في مضمار فقه الإسلام والعمل به والغيرة عليه - دقائق الرياء، مما يدل على بُعْدِ هذا الصوفي عن أصغر الشرك ناهيك عن صغيره.

1 / أول من سمي بالصوفي أبو هاشم الصوفي المتوفى سنة:[١٥٠هـ]. انظر كتاب كشف الظنون لحاجي خليفة ج١ ص٤١٤ وأبجد العلوم للقنوجي ج٢ ص١٥٤.

2/ انظر حلية الأولياء ج١٠ ص١١٢ وصفة الصفوة ج٢ ص٣٠٦.

وقومٌ هذا وصفُ أحدِ رُوَّادهم، لا يتأتَّى لمنصفٍ أنْ يَزِنَهم[1] بكفرٍ أو شركٍ أو ابتداع. هذا وقد مات أبو هاشم الصوفي عام [١٥٢ هـ].

سُقتُ هذا القول عن أبي هاشم الصوفي [عثمان بن شريك] الكوفي كما سقتُ الحقيقة التي تقول بأنه أول مَن بنى دويرة [خانقاه] للصوفية في منطقة الرملة من بلاد فلسطين وعلى هذه النقول اجتمعت المصادر، إلا أنّي عجبت جدًّا مما أورده بعض الباحثين [أن المسيحية شجعت عند المسلمين هذا النوع من التَّصوف الإشراقي الفلسفي، حتى وجدنا أنَّ أول خانقاه أسست لمتصوفة المسلمين كانت بالرملة في فلسطين قبل نهاية المائة الثامنة الميلادية على ما يظهر .. وأن مؤسسها كان راهبًا مسيحيًّا]. وقد أحال الباحث في هذا البند من نقله إلى مقدمة الدكتور أبي العلاء عفيفي[2] لدراسة الأستاذ رينولد نيكولسون[1]، ومصدر العجب في كلام هذا الباحث أمران:

---

[1] / يزنهم: يقال : زنّه بكذا وأزنّه إذا اتهمه به وظنّه فيه. وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما يصف علياً ﷺ لما رأيت رئيساً مِحْرياً يُزَنُّ به] أي يتهم . ومنه شعر حسان بن ثابت ﷺ في عائشة رضي الله عنها :

حَصَانٌ رَزَانٌ لا تُزَنُّ بريبةٍ وتُصبحُ غَرْثَى مِنْ لحُومِ الغَوافِلِ

[2] / الدكتور أبو العلاء عفيفي باحث له عدة مؤلفات منها : كتاب الملامتية وأهل التصوف كما قام بدراسة تحليلية قيمة لكتاب الشيخ الأكبر ابن عربي الحاتمي لفصوص الحكم] ، كما ترجم الكثير من كتب الفلسفة وأعلامها، وعلّق على كثير من الكتب والرسائل التي

الأول: هو عدم دقة ألفاظه وإيرادها في لفظ فضفاض مثل ذلك قوله عن أول خانقاه أُسِّستْ لمتصوفة المسلمين قبل نهاية المائة الثامنة الميلادية على ما يظهر، والتعبير بـ(قبل نهاية المائة الثامنة) يفيد أنَّ الحدث قد جاء قريبًا من هذه النهاية، بما لا يتجاوز بضع سنوات أو العقد من الزمان إنْ تطاول، ولا أقل من نصف القرن إنْ بلغ المدى في تطاوله، لأنَّ الأحداث إذا وقعتْ في منتصف القرن نُسبتْ إليه، وإذا كان ظرفها الزماني قبل ذلك نسبت إلى صدر القرن أو بداياته، ولا يضاف الحدث إلى نهايات القرن إلا إذا وقع خلال الثلث الأخير من القرن.

والمعلوم أن أول من بنى خانقاه للصوفية قد مات عام [١٥٢هـ] الموافق [٧٦٧ م]، فإذا افترضنا أنه بناها قبل موته بـ٢٠ سنة فهذا يعني أنه بناها سنة [١٣٢

صدرت عن المستشرقين من أمثال أستاذه البريطاني رينولد نيكلسون. توفي أبو العلاء عفيفي سنة ١٩٦٧ م.

[1]/ نيكلسون: مستشرق إنجليزي يُعَدُّ - بعد ماسينون - أكبر الباحثين في التصوف الإسلامي، ولد (سنة: ١٨٦٨م). درس اليونانية واللاتينية و الفارسية والعربية بجامعة أبردين ثم كلية الثالوث في كمبردج وعمل أستاذًا للغة الفارسية. ويدور إنتاجه العلمي حول التصوف الإسلامي خصوصًا، لكنه اهتم أيضًا بالأدب العربي والشعر الفارسي.

وأعظم أعماله نشره لديوان [مثنوي معنوي] للشاعر الفارسي الأكبر جلال الدين الرومي، مع ترجمة وشرح في [٨] مجلدات (١٩٢٥ – ١٩٤٠) ضمن سلسلة حب. ويتلوه في الأهمية كتابه " تاريخ العرب الأدبي" وقد ترجم فيه بعض القصائد من العربية إلى الإنجليزية، وله مقالات عديدة في التصوف الإسلامي نشرها في "دائرة معارف الدين والأخلاق" و" دائرة معارف الإسلام" وجمع بعضها في مجلد بعنوان " دراسات في التصوف الإسلامي" (كمبردج ١٩٢١م وتوفي نيكلسون (سنة: ١٩٤٥م).

هـ/ الموافق [٧٤٧ م/] وهذا يعني أنه بناها قبيل منتصف المائة الثامنة الميلادية، وبهذا يتضح عدم دقة لفظ الباحث في التعبير عن الظرف الزماني الذي بُنيتْ فيه هذه الخانقاه.

الثاني: من مصادر العجب قول الباحث [وأنَّ مؤسسها كان راهبًا مسيحيًا] وقد سبق القول بأنَّ أول مَن بنَى خانقاه للصوفية هو أبو هاشم الصوفي [عثمان بن شريك/]، وبعض الروايات تجعله عبد الواحد بن زيد وكلاهما من تلاميذ الإمام الحسن بن يسار البصري المشهورين، وعلى كثرة المصادر والمراجع في هذا الشأن فإنّي لم أجد مَن نسب أبا هاشم الصوفي أو عبد الواحد بن زيد إلى المسيحية ناهيك عن أن يكون راهبًا مِن رهبانها.

وقد أشار الباحث في هوامشه إلى مقدمة الدكتور أبي العلاء عفيفي كمصدر من مصادر معلوماته، ومصدر عجبي وقد رجعتُ إلى مقدمة الدكتور عفيفي لدراسات نيكولسون في التصوف الإسلامي وتاريخه "بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة [١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م/]" فلم أجد فيما كتب الدكتور أبو العلاء عفيفي ما زعمه الباحث الكريم، ولا أدري والحال كذلك من أين أتى هذا الباحث بهذه المعلومة التي عارض بها الثابت من المعلومات التي زخرتْ بها المصادر التي تطرَّقت إلى هذا الأمر، ولم يَرِدْ فيما تحت يدي من مصادر أنَّ راهبًا مسيحيًا قد بنَى خانقاه لمتصوِّفة المسلمين في الرملة.

ويبدو أنَّ غرض الباحث في إثبات أنَّ التصوف الإشراقي تصوف دخيل قد طغَى عنده على ضوابط البحث العلمي في التَّثبُّت والتَّمحيص، وقد كان في إمكانه أنْ يورد مِن قسمات وخصائص التَّصوف الإشراقي الفلسفي ما

يحقق به غرضه ويبرهن به على فرضه، بدلاً من إيراد معلومات واهنة لا تثبت عند التَّمحيص.

قول العلامة المقريزي

هذا وقد طالعنا المَقْرِيزي[1] في خططه[2] لص ٤١٤] بقول يشير إلى مرجعية ذات سبق زماني في تحديد تاريخ أول دارة بُنيت للصوفية، يقول:

[أول من اتخذ بيتًا للعبادة زيد بن صوحان بن صبرة[3] ويُكنَّى بأبي سليمان من بني عبد القيس، عاش في البصرة ثم استوطن الكوفة في عهد سيدنا علي بن أبي طالب[1].

---

[1] / المَقْرِيزي: هو تقي الدين أحمد بن علي المَقْرِيزي، مؤرخ مصري وأصله مَقْرِيز محلة من بعلبك وإليها نسب، ولد سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٥ مـ وكان من أكابر علماء عصره، له مؤلفات عديدة أهمها " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " المعروف بخطط المقريزي، واتعاظ الحنفاء والإشارة والإعلام ببناء الكعبة والبيت الحرام، والإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، وغير ذلك . توفي سنة ٨٤٥ هـ /١٤٤١ مـ انظر: لكشف الظنون، ج: ١ ص: ٩٧، ١٦٦، ١٢٨ وكتاب " من أعلام الفكر العربي في العصر العثماني الأول" د. ليلى الصباغ ص٣١٩.

[2] / هو كتاب [المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار]. والخطط جمع خطة بمعنى محلة أو بلد لأنه يخطط عند التحديد.

[3] / زيد بن صوحان: هو أبو سليمان زيد بن صوحان بن حجر بن الحارث ، أدرك النبي ﷺ وصحبه بالإجماع، قال الخطيب: نزل الكوفة وروى عن عمر وعلي وغيرهما ، روى عنه أبو وائل وجماعة. وفي مسند أبي يَعْلَى المَوْصِلي من طريق الهذيل بن بلال عن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال:{من سره أن ينظر إلى رجل سبقه بعض أعضائه إلى الجنة فلينظر إلى زيد بن صوحان.} وروى حنبل في فوائده من طريق عمارة الدهني قال: وَطَّأَ عمر بن الخطاب لزيد بن صوحان راحلته وقال[هكذا فاصنعوا بزيد]. قال أبو يعلى قُطعتْ يدُه في جهاد المشركين يوم

وكان لَسِنًا[2] مبينًا وخطيبًا مُصقعًا حضر يوم الجمل مع سيدنا عليٍّ[1] بن أبي طالب فلمَّا حمي الوطيس قال لأصحابه شدُّوا عليَّ ثيابي ولا تغسلوا عني دمًا ولا تنزعوا عني ثوبًا، فإنا قوم مخاصمون فقُتِل ذلك اليوم سنة ست وثلاثين (٣٦ هـ). وفي سياق خبر بنائه لأول دويرة للعُبَّاد والنُسَّاك يقول المقريزي: "وذلك أنه عمد إلى رجال من أهل البصرة قد تفرَّغوا للعبادة والنُسك وليس لهم تجارات ولا غلاَّت، فبنَى لهم دوراً وأسكنهم فيها وجعل لهم ما يقوم

جلولاء، ثم شهد الجمل مع علي بن أبي طالب فقتل ذلك اليوم سنة ست وثلاثين [٣٦ هـ] انظر: [مشاهير علماء الأمصار، ج: ١ ص: ١٠١ و لتعجيل المنفعة، ج: ١ ص: ١٤٢]. و[الإصابة لابن حجر العسقلاني، ج: ٢ ص: ٦٤٦-٦٤٨].

[1] / أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: هو أبو الحسن علي بن أبي طالب [عبد مناف] بن عبد المطلب. وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، أسلمت وهاجرت. أسلم وهو ابن سبع سنين، وكان غزير العلم، وشهد المشاهد كلها، ولم يتخلف إلا في تبوك فإن رسول الله ﷺ خلفه في أهله، أخرج الإمام أحمد، والشيخان، عن سهل بن سعد، ان رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: {لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله عليه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله} فاعطاها علي. وعن سعيد بن المسيب قال: كان عمر يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن. وروى ابن سعد في الطبقات عن أبي جعفر محمد بن علي انه سئل عن صفة علي فقال: رجل آدم شديد الأدمة ثقيل العينين عظيمهما ذو بطن أصلع إلى القصر أقرب، وروى الخطيب عن أبي معشر قال: وقتل علي بن أبي طالب في رمضان يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة من رمضان سنة [٤٠ هـ] وكانت خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر. [صفوة الصفوة، ج: ١ ص: ٣٠٨-٣١١]. و[الطبقات الكبرى، ج: ٣ ص: ٢٧]. و[تاريخ بغداد، ج: ١ ص: ١٣٤-١٣٦].

[2] / لسناً : اللَّسَنُ: الفصاحة، يقال رجلٌ لَسِنٌ بَيِّنُ اللَّسَنِ، إذا كان ذا بيانٍ وفصاحةٍ. ويقال فلانٌ لسان القوم، إذا كان المتكلم عنهم. انظر: (مختار الصحاح، ص: ٥٩٨).

بمصالحهم، من مطعم ومشرب وملبس وغيره - وهي نفس وظيفة التكيَّة الخاصة بفقراء الصوفية في الأزمان اللاحقة – فجاء يومًا ليزورهم فإذا عبد الله بن عامر قد دعاهم، وعبد الله بن عامر[1] بن ربيعة، العنزي قبيلةً، العدوى حِلفًا، رأي النبي ﷺ وهو طفل صغير، ومات عام: [٨٩ هـ] بالمدينة رضي الله عنه وقد كان عام [٣٣ هـ] عاملاً لسيدنا عثمان بن عفان[٢] الخليفة الراشد رضي الله عنه على البصرة، وقد دعا أهل دويرات زيد بن صوحان من العُبَّاد الذين انقطعوا إلى الله وتخلّوا عن علائق الدنيا فاستجابوا لدعوته، فأتاه زيد بن صوحان فقال له "يا ابن عامر ما تريد من هؤلاء القوم"؟! قال أريد أنْ أقرِّبهم فيشفعوا فأشفِّعهم ويسألوا فأعطيهم ويشيروا عليَّ فأقبل منهم، فقال لا ولا كرامة، تأتي إلى قوم قد انقطعوا إلى الله تعالى فتدنِّسهم بدنياك وتشركهم في أمرك حتى إذا ذهبتْ زينتهم أعرضتَ عنهم فطاحوا لا إلى

---

[1] / عبد الله بن عامر: هو عبد الله بن عامر بن ربيعة. قال أبو زُرعة: أدرك النبي ﷺ وقال ابن حبان لما ذكره في الصحابة[أتاهم النبي ﷺ في بيتهم وهو غلام] وأشاروا كلهم إلى الحديث الذي أخرجه أحمد والبخاري في التاريخ وابن سعد والطبراني من طريق محمد بن عجلان عن زياد مولى عبد الله بن عامر قال: دخل رسول الله ﷺ على أمي وأنا غلام فادبرتُ خارجًا فنادتني أمي: يا عبد الله تعال أعطك هاك، فقال لها النبي ﷺ { ما تعطينه؟} قالت: أعطيه تمراً، قال {أما أنك لو لم تفعلي لكتبت عليك كذبة} ورواية البخاري مختصرة جاء رسول الله ﷺ إلى بيتنا وأنا صبي . مات عبد الله بن عامر بن ربيعة بالمدينة سنة خمس وثمانين في خلافة عبد الملك بن مروان (الإصابة ج٤ ص١٣٩ والطبقات الكبرى - القسم المتمم - ج١ ص٤١٠

الآخرة، قوموا وارجعوا إلى دويراتكم؛ فقاموا وأمسك عبد الله بن عامر فما نطق بلفظ].

وبهذا الذي أوردناه من القول يمكننا أن نزعم أنَّ البصرة قد عرفت بواكير الصوفية من العُبَّاد والنُسَّاك الذين انقطعوا لله في التكايا في زمن يسبق ما يقرِّره بعض الباحثين بزمن يقارب القرن من الزمان، وفي هذا دلالة واضحة على تأسِّي هولاء العُبَّاد والنُسَّاك واقتدائهم بسلفهم من أهل الصفة من فقراء الصحابة، الذين عاشوا صدر حياتهم وهم يدعون ربهم بالغداة والعَشِيِّ يريدون وجهه، دون أن تكون لأحدهم وسيلة لكسب العيش إلا ما جاد به أهل الطَّوْلِ من الصحابة على رسول الله ﷺ أو عليهم رضي الله عنهم أجمعين، ودون أن يُشْغَلوا بشيءٍ سوَى ذكر الله وما والاه مِن عملٍ صالح.

وفي هذه السابقة التاريخيَّة في خير القرون ملحظ تشريعي، يجيز هذا العمل في القرون اللاحقة، الأمر الذي سنتعرض له بالبحث في الفصل التالي فنشير فيه إشارة عابرة إلى رُوَّاد المنهج الصوفي في القرون الثلاثة الفاضلة.

المبحث الرابع

روّاد التصوف الإسلامي في القرون الثلاثة الفاضلة

التصوف كما قد مرَّ عِلمٌ يهتم بالصفاء والسلوك الرفيع وتجديد القلب، حتى يكون أهلاً لِتَلقّي الأنوار الربَّانية، مع التَّجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود، ولا يخفَى على الدَّارس المنصف أنَّ للصوفية - الذين انقطعوا لله وداموا على ذكره ولم تشغلهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله- سلفًا كريماً وقدوةً صالحةً تتمثل في أهل الصفة الذين عاتب الله رسولَه الكريم ﷺ مِن أجلهم، وذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

أهل الصُّفَّة

وأهل الصُّفَّة كما هو معلوم هم فقراء الصحابة وزُهَّادُهم، الذين لم يتَّخذوا منازل فيها يسكنون، وإنما آووا إلى مسجد رسول الله ﷺ، إنْ جاءهم شيء من الطعام أكلوا وشكروا وإلا صاموا وصبروا، لا يُرَى الواحد منهم إلا صائمًا نهارَه قائمًا ليلَه، فإنْ دعا مؤذن الجهاد نفَروا خِفافًا،

يجودون بالأرواح والمُهَج في سبيل الله، لأنهم الأحرار الذين لم يستعبدهم من الدنيا وملذاتها شيء[1]، وهم الذين سلكوا بالمسلمين نهج التصوف الربَّاني[2] وأعطوا من أنفسهم المثل الحي والقدوة الصالحة والأسوة الحسنة في سلوك طريق الرُّجعَى إلى الله جلَّ شأنه. وأشهر أهل الصُّفة من الفقراء أهل النُّسك والعِبادة والذكر:

١. بلال بن رباح[3] مؤذن رسول الله ﷺ.

---

[1] / أهل الصفة: روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الصّفة أضياف أهل الإسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال، والله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع وأشد الحجر على بطني من الجوع.[سنن الترمذي، ج: ٤ ص: ٦٤٨ الحديث رقم: ٢٤٧٧] و [المستدرك على الصحيحين، ج: ٣ ص: ١٧ الحديث رقم: ٤٢٩١].

وروى البخاري عنه أيضاً قال: لقد رأيت سبعين من أصحاب الصّفّة ما منهم رجل عليه رداء إمَّا إزار وإمّا كساء قد ربطوا في أعناقهم فمنها ما يبلغ نصف السّاقين ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورتهُ. [صحيح البخاري، ج: ١ ص: ١٧٠ الحديث رقم: ٤٣١] وانظر [المستدرك على الصحيحين، ج: ١ ص: ١٨ الحديث رقم: ٤٢٩٢]. و[سنن البيهقي الكبرى، ج: ٢ ص: ٢٤١ الحديث رقم: ٣١٢٠].

[2] / قال الحاكم: لتأملت هذه الأخبار الواردة في أهل الصفة فوجدتهم من أكابر الصحابة رضي الله عنهم ورعاً وتوكُّلاً على الله عزَّ وجلَّ، وملازمة لخدمة الله ورسوله ﷺ، اختار لهم الله تعالى ما اختاره لنبيه ﷺ من المسكنة والفقر، والتفرع لعبادة الله عزَّ وجلَّ، وترك الدنيا لأهلها، وهم الطائفة المنتمية إليهم الصوفية قرنًا بعد قرنٍ، فمن جرى على سنتهم وصبرهم على ترك الدنيا، والأنس بالفقر، وترك التَّعرُّض للسؤال، فهم في كل عصر بأهل الصفة مقتدون، وعلى خالقهم متوكلون. [المستدرك على الصحيحين ج١ ص١٨].

[3] / بلال بن رباح: مؤذن رسول الله ﷺ ومن السابقين الأولين الذين عُذِّبوا في الله، شهد بدراً وشهد له ﷺ بالجنة، وقال عمر:[أبو بكر سيدنا أعتق بلالاً سيدنا]. وعاش بضعاً وستين سنة. روى الواقدي عن مكحول قال حدثني من رأى بلالاً رجلا آدم شديد الأدمة نحيفا طُوالاً أجنأ

٢. سلمان الفارسي[1].

٣. أبو عبيدة عامر بن الجراح[2].

له شعر كثير وخفيف العارضين به شمط [أي شيبا] كثير وكان لا يُغَيِّر، وفي وفاته أقوال: أحدها بداريًا في سنة: [٢٠ هـ] قال سعيد بن عبد العزيز: لما احتضر بلال قالت امرأته: واويلاه فقال :[وا فرحاه غدًا نلقي الأحبة محمداً وحزبه]

توفي بلال سنة عشرين بدمشق. قال الواقدي: ودفن بباب الصغير وهو ابن بضع وستين سنة، [سير أعلام النبلاء ج١ ص٣٤٧].

[1] / سلمان الفارسي: هو أبو عبد الله سلمان الفارسي، وكان اسمه الأول على ما حكى الحافظ أبو نُعيم[ماهويه] وكان من أهل أصبهان، ويقال من رامَهُرْمُز، وقد تداولته أيدٍ كثيرة بعد ما استرق إلى أن أتى رسول الله ﷺ في السنة الأولى من الهجرة وأسلم، وقصة إسلامه تروى بطرق كثيرة مطولة ومختصرة، وأول مشهد شهده سلمان الخندق، ويقال إن حفر الخندق كان بإشارة منه. وخرج سلمان ﷺ مع الصحابة والتابعين إلى العراق وحضر فتح المدائن، وكان والياً بالمدائن وبها توفي في خلافة عثمان ﷺ وقيل في خلافة علي ﷺ سنة: [٣٦ هـ] قال أهل العلم بالسير كان سلمان من المعمرين أدرك وصي عيسى بن مريم عليه السلام وعاش مائتين وخمسين سنة ويقال أكثر. [الثقات، ج: ٣ ص: ١٥٧]. و [التدوين في أخبار قزوين، ج: ١ ص: ٧٨]. و [صفوة الصفوة، ج: ١ ص: ٥٥٥].

[2] / أبو عبيدة بن الجراح: اسمه عامر بن عبد الله بن الجراح، أمين الأمة وأمير الفتوح الشامي واحد العشرة، قال النبي ﷺ {لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح} وقال فيه الصديق يوم السقيفة:[قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين عمر بن الخطاب وأبي عبيدة] وقال صفوان بن عمرو عن شريح بن عبيد وراشد بن سعد وغيرهما قالوا: لما بلغ عمر سرغ وحدث أن بالشام الوباء فقال [إن أدركني أجلي وأبو عبيدة حي استخلفته] توفى في طاعون عمواس بالشام سنة: [١٨هـ]. في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ [مشاهير علماء الأمصار لأبي حاتم، ج: ١ ص: ٨]. و [طبقات المحدثين للذهبي، ج: ١ ص: ١٨]. و [التاريخ الكبير للبخاري، ج: ٦ ص: ٤٤٤].

٤. سالم مولى أبي حذيفة[1].

٥. عمّار بن ياسر[2].

٦. عتبة بن مسعود[3].

---

[1] / سالم مولى أبي حذيفة: من السابقين الأولين البدريين المقربين العالمين، وقال ابن أبي مُلَيْكَةَ عن القاسم بن محمد أنَّ سهلة بنت سهيل أتت رسول الله ﷺ وهي امرأة ابي حذيفة فقالت: يا رسول الله إن سالمًا معي وقد ادرك ما يدرك الرجال فقال {أرضعيه فإذا أرضعته فقد حرم عليك ما يحرم من ذي المحرم}. قالت أم سلمة أبى أزواج رسول الله ﷺ أن يدخل أحد عليهن بهذا الرضاع وقلن إنما هي رخصة لسالم خاصة.

وعن ابن عمر قال كان سالم مولى أبي حذيفة يؤم المهاجرين الذين قدموا من مكة حين قدم المدينة لأنه كان اقراهم. وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ سمعه يقرأ القرآن فقال: {الحمد لله الذي جعل في أمتي مثلك}. إسناده جيد. وكانت معه راية المهاجرين يوم اليمامة وقتل يومئذ شهيداً. لسير أعلام النبلاء ج١ ص١٦٧].

[2] / عمار بن ياسر: هو عمار بن ياسر أبو اليقظان مولى بني مخزوم وأمه سميه بنت خياط وكانت أمة لأبي حذيفة بن المغيرة، أسلم بمكة قديما هو وأبوه وأمه وكانوا ممن يعذب في الله فمرَّ بهم النبي ﷺ وهم يعذبون فقال{صبراً آل ياسر فإنَّ موعدكم الجنة} وقتل ابو جهل سمية طعنها بحرية في قبلها فكانت أول شهيد في الإسلام. شهد عمار بن ياسر بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وهاجر إلى أرض الحبشة ثم إلى المدينة، وفيه أنزل الله عز وجل ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ (النحل ١٠٦) وعن أبي إسحاق عن هانئ بن هانئ استأذن عمار على عليٍّ فقال :ائذنوا له مرحبًا بالطيب المطيب سمعت رسول الله ﷺ يقول{ إن عماراً ملئ إيماناً إلى مشاشه} لتهذيب الكمال للحافظ المِزّي ج٢١ ص٢٢١].

[3] / عتبة بن مسعود: هو عتبة بن مسعود الهذلى حليف لبنى زهرة أخو عبد الله بن مسعود شقيقه، هاجر مع اخيه عبد الله ابن مسعود إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ثم قدم المدينة فشهد أحداً وما بعدها من المشاهد، روى عبد الرزاق عن معمر قال سمعت الزهري يقول: ما عبد الله عندنا بأفقه من عتبة ولكن عتبة مات سريعًا. ولما مات عتبة بن مسعود بكى عليه

٧. خبَّاب بن الأرتّ[1].

٨. صهيب بن سنان[2].

٩. أبو ذر جندب بن جنادة الغفاري[1].

عبد الله فقيل له: أتبكي؟ قال: نعم أخي في النسب وصاحبي مع رسول الله ﷺ وأحب الناس إليّ إلا ما كان من عمر بن الخطاب ﷺ. ومات عتبة ابن مسعود بالمدينة وصلى عليه عمر بن الخطاب ﷺ [الاستيعاب لابن عبد البر، ج: ٣ ص: ١٠٣٠].

[1] / خباب بن الأرتّ: هو خبَّاب بن الأرتّ بن جندلة ، كان من السابقين الأولين، حالف بني زهرة، وأسلم قديماً وكان من المستضعفين. وروي أنه أسلم سادس ستة، و أظهر إسلامه وعذب عذاباً شديداً لأجل ذلك، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين جبر بن عتيك، وروى الطبراني من طريق زيد بن وهب قال: لما رجع عليٌّ من صفين مرَّ بقبر خباب فقال:[رحم الله خبابًا، أسلم راغبًا، وهاجر طائعًا، وعاش مجاهدًا، وابتُلي في جسمه أحوالاً، ولن يضيِّع الله أجرا]. وشهد خباب بدراً وما بعدها ونزل الكوفة ومات بها سنة: [٣٧هـ]. وكان يعمل السيوف في الجاهلية ثبت ذلك في الصحيحين وثبت فيهما أيضًا أنه تمول وأنه مرض مرضاً شديداً حتى كاد أن يتمنى الموت. روى مسلم من طريق قيس ابن أبي حازم قال: دخلنا على خباب وقد اكتوى فقال [لولا أن رسول الله ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به] ويقال إنه أول من دفن بظهر الكوفة، ذكر ذلك الطبري بسند له إلى علقمة بن قيس النخعي عن إبْنٍ لخبَّاب، قال: وعاش ثلاثا وستين سنة. [الإصابة، ج: ٢ ص: ٢٥٨].

[2] / صهيب الرومي: هو صهيب بن سنان بن مالك بن النمر بن قاسط، سُبي وهو غلام فنشأ بالروم فابتاعته منهم كَلْبٌ [قبيلة] فقدمت به مكة فاشتراه عبد الله بن جدعان فأعتقه، أسلم قديمًا وكان من المستضعفين المعذبين في الله تعالى ثم هاجر إلى المدينة وشهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وهو من السابقين الأولين، وهو سابق الروم، وأمره عمر أن يصلِّي بالناس في زمن الشورى فقدَّموه فصلَّى على عمر، توفي صهيب بالمدينة في شوال سنة: [٣٨ هـ] وهو ابن سبعين سنة. [صفوة الصفوة لابن الجوزي، ج: ١ ص: ٤٣٠-٤٣١].

١٠.مسعود بن الربيع القاري[2].

١١.أبو مَرْثَد كَنَّاز بن الحصين الغَنَوي[3].

[1] / أبو ذر الغفاري: واسمه جُنْدَب بن جنادة على الصحيح، أحد السابقين الأولين من نجباء أصحاب سيدنا محمد ﷺ. أسلم في أول المبعث خامس خمسة ثم رجع إلى بلاد قومه ثم هاجر إلى المدينة، وكان رأساً في العلم والزهد والجهاد وصدق اللهجة والإخلاص، وكان آدم جسيمًا كث اللحية، وكان لا يدّخر مالاً ويصدع بالحق وإن كان مُرًّا، ومناقبه شهيرة منها قول النبي ﷺ {ما أظلّت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر} وكان يفتي في خلافة أبي بكر وعمر، ولقوته في الحق ولأخلاقه نهى عن الفتيا فانقطع بالرَّبَذَة سنوات حتى توفي سنة: [٣٢ هـ] رضي الله عنه. [تذكرة الحفاظ، ج: ١ ص: ١٧]. و[الاستيعاب، ج: ١ ص: ٢٥٢].

[2] / مسعود بن الربيع القاري: هو مسعود بن الربيع بن عمرو ويُكْنَى: أبا عُمَيْر. وأسلم مسعود بن الربيع القاري قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين عبيد بن التيهان، وشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ومات سنة: [٣٠ هـ]. وقد زاد في سنه على الستين [الطبقات الكبرى، ج: ٣ ص: ١٦٨]. و[الإصابة لابن حجر،

[3] / أبو مَرْثَد الغَنَوي: واسمه كنَّاز بن حُصَيْن، وهو من كبار الصحابة شهد بدراً هو وابنه مَرْثَد، واستشهد ابنه مرثد بن أبي مرثد في حياة رسول الله ﷺ، وهما حليفا حمزة ابن عبد المطلب رضي الله عنه، ومات أبومرثد رضي الله عنه سنة: [١٢ هـ] وهو ابن ست وستين سنة [الإستيعاب ج٣ ص١٣٣٢]. و[الطبقات لابن خياط ج١ ص٨].

١٢.أبو الدرداء عويمر بن عامر[1].

١٣.الحُبَابُ بن المنذر[2].

١٤.عبد الله بن بدر الجهني[3].

---

1 / **أبو الدرداء:** هو عويمر أبو الدرداء مشهور بكنيته وباسمه جميعاً. أسلم يوم بدر وشهد أحداً وأبلى فيها قال صفوان بن عمرو عن شريح بن عبيد قال رسول الله ﷺ يوم أحد{ نعم الفارس عويمر} وقال {عويمر حكيم أمتي } وقال الأعمش عن خيثمة عن أبي الدرداء قال: [كنت تاجرًا قبل البعث ثم حاولت التجارة بعد الإسلام فلم يجتمعا] وقال ابن حبان: ولاه معاوية قضاء دمشق، مات أبو الدرداء لسنتين بقيتا من خلافة عثمان ﷺ، [الإصابة ج٤ ص٧٤٧] و[الإستيعاب ج٤ ١٦٤٦].

2 / **الحباب بن المنذر:** هو الحُبَاب بن المنذر بن الجموح بن زيد أبو عمرو شهد بدراً وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، هكذا قال الواقدى وغيره، وكلهم ذكروه في البدريين إلا ابن إسحاق فى رواية سلمة عنه. كان يقال له: ذو الرأي وهو الذي أشار على رسول الله ﷺ أن ينزل على ماء بدر للقاء القوم، قال ابن عباس: فنزل جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ فقال {الرأي ما أشار به حباب}. وشهد أحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وهو القائل يوم السقيفة: [أَنَا جُذَيْلُهَا الْمُحَكَّكُ وَعُذَيْقُهَا الْمُرَجَّبُ مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ]. قال الحافظ في الفتح : وشرحُ هاتين الكلمتين ان العذيق: تصغير عذق وهو النخلة والمرجب: أي يدعم النخلة إذا كثر حملها، والجديل: عود ينصب للابل الجرباء لتحتك فيه، فأراد انه يستشفي برأيه. مات الحباب بن المنذر فى خلافة عمر ﷺ [الإستيعاب لابن عبد البر، ج: ١ ص: ٣١٦]. و[الإصابة لابن حجر العسقلاني، ج: ٢ ص: ١٠] وانظر: [فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر، ج: ٧ ص: ٣١].

3 / **عبد الله بن بدر الجهني:** هو عبد الله بن بدر الجهني ،كان اسمه عبد العزى فسماه النبي ﷺ عبد الله، يكنى بأبي بعجة، وكان ينزل البادية بالقبلية من بلاد جهينة .وقد أخرج ابن شاهين عن علي بن عبد الله بن بعجة الجهني قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة وفد إليه عبد العزى بن بدر، فقال له النبي ﷺ:{ ما اسمك؟} قال: عبد العزى، قال:{ انت عبد الله}

وغيرهم كثير كما جاءت بهم كتب أخبار الصحابة، ولم يكن الإحصاء مقصداً في هذه الدراسة، وإنما أردتُ الإشارة إلى سلفٍ صالح قد عمَروا الديوان بذكر الرحمن، ووقفوا معالم بارزة في الطريق لله، هُداةً يُقتدَى بهم وأئمةً يُسترشَد بهم، وكلُّ مَن ذكرتُ منهم رضوان الله عليهم قد انتقل إلى الرفيق الأعلى قبل نهاية القرن الإسلامي الأول.

روَّاد التصوف من التابعين

ثم جاء بعدهم مِن روَّاد علم السير والسلوك، في مضمار التزكية الروحية وإصلاح النفوس وإنارة القلوب، من صالحي التابعين وزُهَّادهم ونُسَّاكهم وعُبَّادهم، ممن اشتهر بعِلمِ التَّزكية الروحيَّة وفقه الباطن، حتى أخذ الأمرُ طابع التَّخصُّص عندهم، ومِن أئمة النُسَّاك وعلماء التَّربية الروحيَّة من التابعين سادتنا:

١. أُوَيْس القَرَني[١].

وأعطاه لواء جهينة يوم الفتح. وكان شهد معه أُحداً، وخطَّ له النبي ﷺ بالمدينة، وهو أول من خط مسجداً بها. وقال ابن سعد: مات في خلافة معاوية ﷺ. [تعجيل المنفعة لابن حجر العسقلاني، ج: ١ ص: ٢١٢].

[١] / أُوَيْس القَرَني: روى مسلم عن أُسير بن جابر، قال: كان عمر بن الخطّاب ﷺ إذا أتى عليه أَمداد أَهل اليمن سألهم أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس فقال: أَنت أويس بن عامر؟ قال: نعم، قال مِن مراد ثم من قرن؟ قال: نعم، قال: فكان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم، قال: لك والدة؟ قال: نعم، قال: سمعت رسول اللهِ ﷺ يقول {يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم له والدةٌ هو بها برٌّ لو أَقسم على الله لأَبرَّه فإنْ استطعتَ أنْ يستغفر لك فافعل}. فاستغفر لي فاستغفر لَه. قال لَه عمر: أَين تريد؟ قال: الكوفة، قال: ألا أَكتب لك إلى

٢. هرم بن حيان

٣. أبو حليمة حبيب بن سالم الراعي

٤. أبو حازم سلمة بن دينار

٥. مالك بن دينار

٦. الحسن بن يسار البصري

٧. أيوب بن كيسان السختياني[١].

عاملها؟ قال: أكون في غبراء الناس أحب إليَّ. [صحيح مسلم ج٤ ص١٩٦٩الحديث رقم ٢٥٤٢].

وروى عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول :{ إنَّ خير التَّابعين رجل يقال له أُوَيْس وله والدة وكان به بياض فمروه فليستغفر لكم } [صحيح مسلم ج٤ ص١٩٦٨الحديث رقم٢٥٤٢].

وروى أحمد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: نادى رجل من أهل الشَّام يوم صفِّين أفيكم أُوَيْسٌ القَرَنِيُّ؟ قالوا: نعم، قال: سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول: {إنَّ من خير التَّابعين أُوَيْسًا القَرَنِيَّ}. [المسند للإمام أحمد، مسند المكيين الحديث رقم ١٥٣٧٧].

وروى الحاكم عن عبد الله بن أبي الجدعاء أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: {يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من بني تميم} قال الحسن [إنه أويس القرني] قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه [المستدرك ج٣ ص٤٦١ الحديث رقم٥٧٢٩].

[١] **أيوب السَّختياني**: هو ابو بكر أيوب بن[أبي تميمة] كيسان السختياني البصري الحافظ أحد الأعلام، رأى أنساً، وروى عن سالم بن عبد الله وسعيد بن جبير والأعرج وعطاء بن أبي رباح ونافع مولى ابن عمر، وعنه ابن علية وابن عيينة والثوري ومالك وخلق كثير، قال شعبة : كان أيوب سيد العلماء ، وقال الحسن : أيوب سيد شباب أهل البصرة ، قال ابن سعد : كان ايوب ثقةً، ثبتاً في الحديث، جامعاً، كثير العلم، حجةً، عدلاً ، وقال مالك : كنا ندخل على أيوب فإذا ذكرنا له حديث النبي ﷺ بكى حتى نرحمه. وعن هشام بن حسان قال حج أيوب السختياني اربعين حجةً. وكان يقول: ليتق الله رجل وإن زهد فلا يجعلن زهده عذابا على الناس، وقال حماد : ما رايت رجلا قط أشد تبسُّماً في وجوه الناس من ايوب . مات أيوب سنة:

٨. محمد بن واسع.

٩. عبد الله بن المبارك[1].

١٠.عبد الواحد بن زيد بن محمد

١١.عتبة الغلام[2].

[١٣١هـ] في الطاعون وله ثلاث وستون سنة. [تذكرة الحفاظ لمحمد بن طاهر القيسراني، ج: ١ ص: ١٣٠] و [طبقات الحفاظ للسيوطي، ج: ١ ص: ٥٩].

[1] / عبد الله بن المبارك: هو عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي التميمي مولاهم أبو عبد الرحمن المروزي أحد الأئمة الأعلام، روى عن حميد الطويل وحسين المعلم وسليمان التيمي وخلق، وعنه معمر والسفيانان وفضيل بن عياض وجعفر بن سليمان الضبعي ويحيى القطان والوليد بن مسلم وخلق، قال ابن مهدي: الأئمة أربعة سفيان ومالك وحماد بن زيد وابن المبارك. وقال أحمد: لم يكن في زمان ابن المبارك أطلب للعلم منه، وكان صاحب حديث حافظاً. وقال ابن معين: ما رأيت مِن مُحدِّثٍ لله إلا ستة منهم ابن المبارك، وكان ثقة، عالماً، متثبتاً، صحيح الحديث . مات منصرفًا من الغزو سنة: [١٨١هـ]. وله ثلاث وستون سنة [طبقات الحفاظ للسيوطي، ج: ١ ص: ١٢٣].

[2] / عتبة الغلام: هو عتبة بن أبان بن صمعة البصري الأنصاري، من عبَّاد أهل البصرة وزهادهم، يصوم الدهر ويأوي السواحل والجبانة، وكان يشبه في حزنه بالحسن البصري، وهو ممن جالس الحسن البصري وأخذ هديه في العبادة ودله في التقشف، وإنما سمي بالغلام لجده واجتهاده لا لصغر سنّه، وقال رياح القيسي: كنّا نسميه الغلام لأنه كان في العبادة كأنّه غلام رهان. وقال أبو عمر البصري كان رأس مال عتبة فلسا يشتري به خوصا يعمله ويبيعه بثلاثة فلوس فيتصدق بفلس ويتعشى بفلس، وفلس رأس ماله. وذكر مخلد بن الحسين عتبة الغلام وصاحبه يحيى الواسطي فقال: كأنما ربَّتْهُم الأنبياء.

وأبوه أبان بن صمعة من كبار المحدثين، حدث عن والدته عن عائشة، وعن عكرمة وأبي الوازع جابر بن عمرو وجماعة، وحدث عنه يحيى بن سعيد القطان وأبو عاصم النبيل ومحمد بن عبد الله الأنصاري وسهل بن يوسف وآخرون، مات سنة: [١٥٣هـ]. انظر: [حلية الأولياء لأبي

١٢.الإمام جعفر الصادق[1].

١٣.أبو هاشم الصوفي عثمان بن شريك

١٤.الإمام إبراهيم بن أدهم[2].

١٥.الإمام سفيان الثوري

١٦.الإمام داؤد بن نُصَيْر الطائي[1].

نعيم الأصفهاني، ج: ٦ ص: ٢٢٦]. [الثقات لأبي حاتم بن حبان، ج: ٧ ص: ٢٧٠] [صفوة الصفوة لابن الجوزي، ج: ٣ ص: ٣٧٠]. لسير أعلام النبلاء، ج: ٧ ص: ٦٢]. و [رجال مسلم لابن منجويه، ج: ١ ص: ٦٩].

[1] / الإمام جعفر الصادق: هو جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أحد السادة الأعلام، وابن بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر، وأمُّ أمِّه: أسماء بنت عبد الرحمن ابن أبي بكر، فلذلك كان يقول: ولدني أبو بكر الصديق مرتين. ولد سنة: [٨٠هـ] . فالظاهر أنه رأى سهل بن سعد الساعدي. وقال أبو حنيفة: لما رأيت أفقه من جعفر بن محمد]. ومناقبه جمة ومن أحسنها رواية حفص بن غياث أنه سمعه يقول: ما أرجو من شفاعة عليٍّ شيئًا إلا وأنا أرجو من شفاعة أبي بكر مثله لقد ولدني مرتين. توفي سنة: [١٤٨هـ] لتذكرة الحفاظ لمحمد بن طاهر القيسراني، ج: ١ ص: ١٦٦].

[2] / إبراهيم بن أدهم: هو إبراهيم بن أدهم ابن منصور بن يزيد بن جابر القدوة الإمام العارف سيد الزهاد أبو إسحق العجلي ، مولده في حدود المئة ، قال البخاري قال لي قتيبة : إبراهيم بن ادهم تميمي يروي عن منصور قال ويقال له العجلي، قال النسائي هو ثقة مأمون أحد الزهاد، وعن يونس البلخي قال: كان إبراهيم بن أدهم من الأشراف، وكان أبوه كثير المال والخدم والمراكب، فبينا إبراهيم في الصيد على فرسه يركضه إذا هو بصوتٍ من فوقه يا إبراهيم: ما هذا العبث ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ (المؤمنون ١١٥) اتق الله عليك بالزاد ليوم الفاقة، فنزل عن دابته ورفض الدنيا، توفي ابن أدهم سنة: [١٦٢هـ] وقبره يزار، وترجمته في تاريخ دمشق في ثلاثة وثلاثين ورقة. لسير أعلام النبلاء للذهبي] ج٧ص٣٨٧ـ٣٩٦] [التاريخ الكبير للبخاري ج١ ص٢٧٣].

١٧. الشيخ الزاهد فرقد السَّبخي[٢].

١٨. الإمام أبو علي الفضيل بن عياض[٣].

---

[1] / داود الطائي: هو داود بن نُصَيْر الطائي العابد، كنيته أبو سليمان، من أهل الكوفة و كان ممن تخلّى وتزهّد وتجرّد فتعبّد وقنع بلزوم الفقر الجهيد والحمل على النفس بالجهد الشديد. قال أبو نعيم قال احمد بن أبي الحواري حدثني بعض اصحابنا قال: إنما كان سبب داود الطائي انه كان يجالس ابا حنيفة فقال له أبو حنيفة يا ابا سليمان: أما الأداة فقد أحكمناها، فقال داود: فأيُّ شيء بقي؟ قال: بقي العمل به، ثم عزم على العبادة فجرَّب نفسه على السكوت فكان يحضر المجلس وهم يخوضون وهو لا ينطق فلما اتى عليه سنة وعلم انه يصبر على أن لا يتكلم في العلم غرّق كتبه في الفرات ولزم العبادة. وورث عشرين ديناراً أكلها في عشرين سنةٍ، ثم مات ولم يأخذ من السلطان عطية ولا قبل من الإخوان هدية. مات سنة: [١٦٠هـ] [حلية الأولياء لأبي نُعيم، ج: ٧ ص: ٢٤٠] [مشاهير علماء الأمصار لأبي حاتم بن حبان، ج١: ص: ١٦٨] (الثقات لأبي حاتم، ج: ٦ ص: ٢٨٢].

[2] / فرقد السبخي: هو فرقد بن يعقوب السبخي قال الذهبي: منسوب إلى سبخة بالبصرة فما أدري لم حرك في النسبة ؟ وقال المزي: نسب إلى سبخة بالبصرة، وقال قعنب بن المحرر: فرقد السبخي من سبخة الكوفة ليس من سبخة البصرة والمشهور الأول. وكان فرقد حائكا من نصارى أرمينية،. قال عثمان بن سعيد سألت يحيى بن معين عن فرقد السبخي فقال: ثقةٌ، وسئل عنه أحمد بن حنبل فقال: فرقد رجل صالح وليس هو قوي في الحديث، لم يكن صاحب الحديث. قال محمد بن سعد: قالوا مات أيام الطاعون بالبصرة سنة: [١٣١هـ] روى له الترمذي وابن ماجة لتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، ج: ٨ ص: ٢٣٦]. [المقتنى في سرد الكنى للحافظ للذهبي، ج: ٢ ص: ١٥٦]. لتهذيب الكمال للمزي، ج: ٢٣ ص: ١٦٤]. [التاريخ الكبير للبخاري، ج: ٧ ص: ١٣١].

[3] / الفضيل بن عياض: هو الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي ابو علي احد العباد، روى عن الأعمش ومنصور وجعفر الصادق وسليمان التيمي وحميد الطويل ويحيى الأنصاري وخلق، وعنه الشافعي والسفيانان وابن المبارك ويحيى القطان وبشر الحافي والسري السقطي وخلق، ولد بخراسان بكورة أبيورد وقدم الكوفة وهو كبير فسمع

١٩.الشيخ شقيق البلخي[1].

٢٠.الشيخ أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي[2].

الحديث من منصور وغيره، ثم تعبد وانتقل إلى مكة إلى أن مات بها سنة: [١٨٧هـ]. وكان ثقةً، ثبتاً، فاضلاً، عابداً، ورعاً، كثير الحديث، [الطبقات الكبرى لابن سعد، ج: ٥ ص: ٥٠٠]. [طبقات الحفاظ للسيوطي، ج: ١ ص: ١١٠]. [صفة الصفوة لابن الجوزي، ج: ٢ ص: ٢٣٧].

[1] / **شقيق البلخي**: قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: هو الإمام أبو علي شقيق بن إبراهيم الأزدي البلخي شيخ خرا سان، صحب إبراهيم بن ادهم وروى عن كثير بن عبد الله الأيلي وإسرائيل بن يونس وعباد بن كثير، وحدث عنه عبد الصمد بن يزيد مرذويه ومحمد بن أبان المستملي والحسين بن داود البلخي وغيرهم، وهو نزر الرواية، روي عن علي بن محمد بن شقيق قال: كانت لجدي ثلاثمائة قرية ثم مات بلا كفن، قال وسيفه إلى اليوم يتباركون به. وكان من كبار المجاهدين رحمه الله تعالى، استشهد في غزوة كولان سنة: [١٩٤هـ]. لسير أعلام النبلاء، ج: ٩ ص: ٣١٣]. ولسان الميزان، ج: ٣ ص: ١٥١].

[2] / **معروف الكرخي**: قال الذهبي: معروف الكرخي عَلَمُ الزُّهاد بركةُ العصر أبو محفوظ البغدادي، واسم أبيه فيروز وقيل فيرزان من الصابئة وقيل كان أبواه نصرانيين فأسلماه إلى مؤدب كان يقول له قل: ثالث ثلاثة، فيقول معروف: بل هو الواحد، فيضربه فيهرب، فكان والداه يقولان: ليته رجع، ثم إن أبويه أسلما. ذُكر معروف عند الإمام أحمد فقيل: قصير العلم، فقال: امسك، وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف؟. قال إسماعيل بن شداد قال لنا سفيان بن عيينة: ما فعل ذلك الحبر ببغداد ؟ قلنا: مَن هو ؟ قال: أبو محفوظ معروف، قلنا: بخير، قال: لا يزال أهل تلك المدينة بخير ما بقي فيهم، وأفرد الإمام أبو الفرج بن الجوزي مناقب معروف في أربع كراريس، وعن إبراهيم الحربي قال: قبر معروف الترياق المجرب. يريد إجابة دعاء المضطر عنده لأن البقاع المباركة يستجاب عندها الدعاء. قال أبو جعفر بن المنادي وثعلب: مات معروف سنة: [٢٠٠هـ]. قال الخطيب: هذا هو الصحيح، وقال يحيى بن أبي طالب: مات سنة: [٢٠٤هـ]. لسير أعلام النبلاء للذهبي، ج: ٩ ص: ٣٣٩].

ولكل واحد من هؤلاء الأعلام دوره الإيجابي وتراثه النافع في مضمار تزكية الروح وتجديد الوجدان وتنوير القلوب، وقد تتراحب جوانب هذا البحث إذا ذهبتُ أنقّبُ عن هذه الآثار العطرة، لسبر أغوارها ١ وتقريب شواردها إلى العقول والأذهان، وهو أمر خارج عن إطار هذا الفصل من هذه الدراسة، التي تهدف إلى تجلية حقيقة تاريخية ثابتة، وهي مرجعية التصوف الإسلامي كمصطلح له معانيه ومفاهيمه إلى القرن الأول والثاني الهجريين، ولا تُخطيء عينُ الدّارس لتاريخ ونشأة علم التصوف مكان هؤلاء الأعلام في الظرف الزماني الذي عمر بهم، كما لا تخفَى عن الفكر المتجرِّد لمعرفة الحق مَكَانَتُهُم في مقامات مدارج السالكين طريق الزكاء والسُّمو الروحي.

أعلام التصوف في القرن الثالث

فإذا استأنسنا بإيراد هؤلاء الأعلام كدليل على معرفة التصوف الإسلامي واشتهاره في القرنين الأول والثاني من الهجرة النبوية الكريمة، وجئنا مِنْ ثَمَّ لنتابع حركةَ تجديد القلوب وتنويرها عبر أئمة هذا الشأن في القرن الثالث الهجري، لوجدنا عدداً من أئمة التصوف الإسلامي الذين تتفق كلمة الباحثين والدارسين لعلم التصوف أنّهم من كبار أهل الأنظار في مضماره، كما أنّهم من أكابر وُرَّاث النبوة في هديها السُّلوكي العملي وسَمْتِهَا الأخلاقي التربوي.

ومن هؤلاء الأعلام في القرن الثالث الهجري السادة الأئمة:

---

1 /السَّبْرُ: التجربة واستخراج كنه الأمر، وفي حديث الغار قال أبو بكر رضي الله عنه للنبي ﷺ: [لا تدخله حتى أسبُره قبلك] أي أختبره. [النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، ج: ٢ ص: ٣٣٣].

١. عبد الرحمن بن عطية الداراني الشامي[1].

ويُكَنَّى بأبي سليمان، ونسبته إلى داريًا[2] من أعمال دمشق وبها عُرِفَ وكانت وفاته عام [٢١٥ هـ].

٢. بشر بن الحارث الحافي.

وكنيته " أبو نصر"، ولد في مرو ورحل إلى بغداد وعاش ومات فيها عام [٢٢٧هـ].

٣. أحمد بن أبي الحواري[3].

---

[1] / عبد الرحمن بن عطية: هو الإمام الكبير زاهد العصر أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد، وقيل عبد الرحمن بن عطية، وقيل ابن عسكر العنسي الداراني. ولد في حدود سنة: [١٤٠ هـ] وروى عن سفيان الثوري وعبد الواحد بن زيد البصري، وروى عنه تلميذه أحمد بن أبي الحواري وهاشم بن خالد، توفي سنة: [٢١٥هـ]. وقال ابن الجوزي : توفي سنة: [٢٠٥هـ]. وقال أبو عبد الرحمن السلمي: سنة: [٢١٥هـ]. والأول أصحّ [صفوة الصفوة لابن الجوزي، ج: ٤ ص: ٢٢٣]. ولسير أعلام النبلاء للذهبي، ج: ١٠ ص: ١٨٢].

[2] / داريًا: بلدة بالشام والنسبة داراني على غير قياس [القاموس المحيط].

[3] / أحمد بن أبي الحواري: من قدماء مشايخ الشام تكلم في علوم المحبة والمعاملات وصحب أبا سليمان الداراني وأخذ طريقة الزهد من أبيه أبي الحواري ولأحمد ابن يقال له عبد الله قد روى عن أبيه وكان من الزهاد أيضا، وكان الجنيد يقول: أحمد بن أبي الحواري ريحانة الشام . وقال ابن معين: أظن أهل الشام يسقيهم الله به الغيث. وقال ابن أبي حاتم: سمعت أبي يحسن الثناء عليه ويطنب في مدحه. روى عن ابن نمير وسليم بن مطير وابن عيينة والوليد بن مسلم وحفص ابن غياث وأبي معاوية وخلق، وحدث عنه سلمة بن شبيب وأبو زُرْعَة الدمشقي وأبو زرعة الرازي وأبو داود وابن ماجه في سننهما. قال أبو زرعة الدمشقي حدثنا أحمد بن أبي الحواري قال قال لي أحمد بن حنبل: متى مولدك ؟ قلت: سنة: [١٦٤هـ] قال: وهي مولدي، قال أبو زرعة: ومات أحمد بن أبي الحواري مدخل رجب سنة: [٢٤٦هـ] [تهذيب الكمال، ج: ١ ص: ٣٧٣]. و[سير أعلام النبلاء، ج: ١٢ ص: ٨٥]. و[تهذيب التهذيب، ج: ١ ص: ٤٣].

وكنيته أبو الحسن من أهل دمشق وقد وصفه الجنيد ﷺ بأنه ريحانة الشام وقد مات عام [٢٣٠هـ].

٤. الحارث بن أسد المحاسبي[1].

ويكنى بأبي عبد الله وله في هذا الطريق منار رفيع وحال شريف وآثار باقية، فيها من نور النبوة وسناء الإرشاد ما يقف للمسترشيدين معلمًا بارزاً، وقد ولد أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي في البصرة وعاش في بغداد ومات بها عام [٢٤٣ هـ]. وما نقله ابن الجوزي في تلبيسه عن هذا العالم العامل ليس فيه من الحق شميم وعلى كريمٍ قَدمَ والموعد الله.

٥. ثوبان بن إبراهيم المصري[2].

المشهور بذي النون المصري، يقال إنه من مواليد حلفا من بلاد النوبة والمشهور أنَّه من مواليد أخميم، وقد أثرى الأدب الفكري الصوفي بكثير

---

[1]/الحارث بن أسد المحاسبي: هو أبو عبد الله الحارث بن أسد، أحد من اجتمع له الزهد والمعرفة بعلم الظاهر والباطن وحدث عن يزيد بن هارون وطبقته روى عنه أبو العباس بن مسروق الطوسي وغيره وللحارث كتب كثيرة في الزهد وفي أصول الديانات والرد على المخالفين من المعتزلة والرافضة وغيرهما وكتبه كثيرة جمة المنافع ومات سنة: [٢٤٣ هـ]. لتاريخ بغداد، ج: ٨ ص: ٢١١].

[2] / ذو النون المصري: هو ذو النون بن إبراهيم أبو الفيض، أصله من النوبة، وكان من قرية من قرى صعيد مصر يقال لها إخميم فنزل مصر. ويقال: اسمه الفيض، ويقال ثوبان وذو النون لقب، أسند ذو النون أحاديث كثيرة عن مالك والليث وسفيان بن عيينة و الفضيل ابن عياض وابن لهيعة وغيرهم، قال ابن الجلاَّء: لقيت ستمائة شيخ ما لقيت فيهم مثل أربعة أحدهم ذو النون. وتوفي بالجيزة، وحمل في مركب إلى الفسطاط خوفًا عليه من زحمة الناس على الجسر، ودفن في مقابر أهل المعافر وذلك في يوم الاثنين لليلتين خلتا من ذي القعدة من سنة: [٢٤٦ هـ] صفوة الصفوة ج: ٤ ص: ٣١٥].

من النظريات والأعمال، التي وقفتْ شاهدة على صدق قَدَمِه في هذا الطريق، ومِن أقواله الثابتة في هذا المجال قوله لمن علامات المحب لله عزَّ وجلَّ متابعة حبيبه ﷺ في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه]. وقد مات ذو النون المصري عام [٢٤٥ هـ].

٦. السَّرِيُّ بن المغلّس السقطي[1].

خال الجنيد وأستاذه، وله في علم التصوف قدم راسخ، وله في معارج الروح القدس مقام عالٍ.

عرَّف الصوفي تعريفًا منيرًا صار من ضوابط التصوف وسنتعرض لتعريفه للتصوف حين حديثنا عن التصوف المعني. وقد توفي السَّري السَّقطي عام [٢٥٧ هـ]. ومن المعلوم في تاريخ التصوف الإسلامي أن الإمام السري السقطي خال الإمام الجنيد قد تتلمذ على الإمام معروف بن فيروز الكرخي، والإمام الكرخي من موالي الإمام علي الرضا بن موسى الكاظم[2]، وقد أخذ عن

---

[1] / **السَّري السَّقطي**: أبو الحسن السري بن المغلس السقطي خال أبي القاسم الجنيد وأستاذه، أسند سري عن هشيم وأبي بكر بن عياش ويزيد بن هارون وغيرهم، وصحب معروفاً الكرخي ودعا له معروف الكرخي وقال: أغنى الله قلبك، فوقع الزهد في قلبه حينئذٍ، وعن الجنيد قال: ما رأيت أعبد لله من السري السقطي، أتت عليه ثمان وسبعون سنة ما رئي مضطجعًا إلا في علة الموت . قال أبو عبيد علي بن الحسين بن حرب القاضي: توفى سري بن المغلس يوم الثلاثاء لست خلون من رمضان سنة: [٢٥٣ هـ] وعن أبي الحسن بن مقسم المقري قال: مات سري سنة إحدى وخمسين ومائتين. [٢٥١ هـ] وقال المصنف: [ابن الجوزي] رحمه الله: والأول أصح [صفوة الصفوة ج: ٢ ص: ٣٧١. ٨٥٣].

[2] / **الإمام موسى الكاظم**: هو الإمام موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الإمام الشهيد الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ، قال أبو حاتم: ثقة صدوق إمام من أئمة المسلمين،

الإمام علي الرضا هذا العلم بشقّيه النظري والسلوكي، وقد تتلمذ الإمام علي الرضا على والده الإمام موسى الكاظم، وهو ابن وخليفة الإمام جعفر الصادق المتوفى عام [١٤٨ هـ] كما مرّ، وقد كانت وفاة الإمام معروف الكرخي في نهايات القرن الثاني الهجري كما قد مرّ قريباً.

٧. أبو زكريا يحي بن معاذ الرازي[1] نسبة إلى الري، وقد ولد ونشأ بها وقد كان عَلَماً بارزاً من أعلام التصوف الإسلامي، وله فيه قدم صدقٍ عالٍ وله لسان حال عظيم يُعرف من خلال أقواله الرفيعة ذات الحكمة والإرشاد العالي، وقد توفي الإمام الرازي عام [٢٥٨ هـ].

ولد الإمام الكاظم سنة ١٢٨ هـ وتوفي سنة ١٨٣ هـ. [سير أعلام النبلاء للذهبي، ج: ٦ ص: ٢٧٠].

[1] / يحيى بن معاذ الرازي: هو يحيى بن معاذ أبو زكريا الرازي الواعظ، سمع إسحاق ابن سليمان الرازي ومكي بن إبراهيم البلخي وعلى بن محمد الطنافسي، وروى عنه الغرباء من اهل الري وهمذان وخراسان أحاديث مسندة قليلة، وكان قد انتقل عن الري وخرج الي بلخ وأقام بها اياماً، ثم رجع منها إلي نيسابور إلي أن توفي بها سنة: [٢٥٨ هـ] وله من الكتب كتاب المريدين. انظر [الفهرست لابن النديم، ج: ١ ص: ٢٦٠] و [تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ج: ١٤ ص: ٢٠٨].

٨. أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي[1] إمام من أئمة التصوف الإسلامي وله في الطريق كلمات جياد، كان ذا حال عظيم ونَفَس صادق، بيد أنَّ ذوي الغرض من دارسي التصوف قد نسبوا إليه عبارات ليس فيها من كلامه شميم مما يعرف أهل الذوق من كلام الربانيين، ويكفي أنَّ مراجع الأثبات من المؤرخين قد أجمعتْ على أنه القائل [لو نظرتم إلى رجلٍ أُعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا تفتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وآداب الشريعة][2]، ورجل يقول مثل هذا القول لا يُتصوَّر أن يصدر منه ما يهدم حدود الشريعة أو يُخلُّ بأدبٍ من آدابها. وقد مات أبو يزيد رضي الله عنه عام [٢٦١ هـ] وقيل [٢٤٤ هـ][3].

---

[1] / أبو يزيد البسطَامي: هو أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شروسان البسطامي، سلطان العارفين. قال الذهبي في ميزان الاعتدال: البسطامي شيخ الصوفية له نبأ عجيب وحال غريب، وهو من كبار مشايخ الرسالة، وما أحلى قوله: [لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تفتروا به حتى تنظروا كيف هو في الأمر والنهي وحفظ حدود الشريعة] قال السلمي في تاريخ الصوفية: توفي أبو يزيد عن ثلاث وسبعين سنة وله كلام حسن في المعاملات، ثم قال: ويحكى عنه في الشطح أشياء منها ما لا يصح أو يكون مقولاً عليه، وكان يرجع إلى أحوالٍ سَنِيَّةٍ. وقال ابن الجوزي : توفي أبو يزيد سنة: [٢٦١ هـ] وله ثلاث وسبعون سنة. [سير أعلام النبلاء ج: ١٣ ص: ٨٩] [ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي ج: ٣ ص: ٤٧٤] و [صفوة الصفوة لابن الجوزي ج: ٤ ص: ١١٤].

[2] / انظر حلية الأولياء ج١٠ ص٤٠ وميزان الاعتدال في نقد الرجال ج٣ ص٤٧٤.

[3] / والراجح أن وفاة أبي يزيد البسطامي ﷺ كانت في عام: [٢٦١ هـ]. كما ثبت في المصادر التالية:

١. [سير أعلام النبلاء ج١٣ ص٨٩].
٢. [ميزان الاعتدال ج:٣ ص:٤٧٤].

٩. أبو محمد سهل بن عبد الله التُّستَري[1] من أئمة الصوفية وعلمائهم وكان فائقاً في الورع والتزام منهج التُّقَى، وقد لقي ذا النون المصري بمكة واخذ عنه بعض دقائق هذا العلم وقد مات سهل ﷺ عام [٢٧٣ هـ].

---

٣. [صفوة الصفوة ج:٤ ص:١١٤].

٤. [لسان الميزان ج:٣ ص٢١٤:].

[1] / سهل بن عبد الله التُّستَرِي: هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس التستري الصوفي شيخ العارفين، صحب خاله محمد بن سوار، ولقي في الحجِّ ذا النون المصري وصحبه ، روى عنه الحكايات عمر بن واصل وأبو محمد الجُرَيري وعباس بن عصام ومحمد بن المنذر الهجيمي وطائفة، له كلماتٌ نافعةٌ، ومواعظُ حسنةٌ وقدمٌ راسخٌ في الطريق . قال الذهبي: قيل توفي سهل بن عبد الله في سنة: [٢٧٣ هـ وليس بشيء، بل الصواب موته في المحرم سنة: [٢٨٣ هـ ويقال عاش ثمانين سنة أو أكثر. وقال ابن النديم في الفهرست: : وله من الكتب كتاب رقائق المحبين، وكتاب مواعظ العارفين، وكتاب جوابات أهل اليقين. انظر ترجمته في لسير أعلام النبلاء للذهبي، ج: ١٢ ص: ٣٣٠ - ٣٣٣] و [الفهرست لابن النديم، ج: ١ ص: ٢٦٣].

١٠. أبو سعيد أحمد بن عيسى[1] المشهور بالخرّاز ويعرف عند الصوفية بالسان التصوف] صحب ذا النون المصري وبشر الحافي وسري السقطي وكان له لسان صدق في الآخرين[٢]، كما أنه عاش حياة مرتبطة بمنهج الحق في استقامة بيّنة على الجادة وقد خلّف تراثًا صوفيًا رائعًا من مأثور الأقوال وحكيم العبارات ومن ذلك قوله: [كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل][3] ، وهي دعوة صريحة لترك الرياء والبعد عن النفاق، وقد كانت حياته ﷺ ترجمة عملية للصدق في كل شيء حتى لحق بالرفيق الأعلى عام [٢٧٧ هـ].

---

1 / **أبو سعيد الخراز:** هو أبو سعيد أحمد بن عيسى البغدادي الخراز شيخ الصوفية القدوة، أخذ عن إبراهيم بن بشار الخراساني ومحمد بن منصور الطوسي، روى عنه علي بن محمد الواعظ المصري وأبو محمد الجُرَيْري وعلي بن حفص الرازي ومحمد بن علي الكتاني وآخرون، وقد صحب سريًا السَّقَطي وذا النون المصري. ويقال إنه أول من تكلم في علم الفناء والبقاء، قال السلمي: هو إمام القوم في كل فن من علومهم، له في مبادىء أمره عجائب وكرامات، وهو أحسن القوم كلامًا خلا الجنيد فإنه الإمام. وعن المرتعش قال: الخلق عيال على أبي سعيد الخراز إذا تكلم في الحقائق. وقال الكتاني: سمعت أبا سعيد يقول:[من ظن أنّه يصل بغير بذل المجهود فهو متمني ومن ظن أنه يصل ببذل المجهود فهو متعني] وقال ابن الجوزي: وتوفي سنة: [٢٧٧ هـ] وقيل: [٢٨٦ هـ]. لسير أعلام النبلاء للذهبي، ج: ١٢ ص: ٤١٩ - ٤٢١] و [صفة الصفوة لابن الجوزي، ج: ٢ ص: ٤٣٨].

2/ **لسان صدق:** قال الله تعالى في سورة الشعراء على لسان أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ (الشعراء ٨٤). قال مجاهد: هو الثناء الحسن. انظر[الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج: ١٣ ص: ١١٢].

3 / انظر سير أعلام النبلاء للذهبي، ج: ١٣ ص: ٤١٩.

١١. أبو عبد الله عمرو بن عثمان المكي[1] له في علوم التصوف ومقاماته قدم راسخ، يعتبر عند الصوفية إمامًا في أصول الطريقة وفروعها، وله في هذا المضمار آثار عطرة يفوح منها أريج الوصل وشذى التَّجليات الربَّانية على العروش الإنسانية، كل ذلك في التزام بحدود الشريعة وتقيُّد بأدب الطريقة، مما جعل منه إمامًا مرشداً من أئمة الصوفية ملتزمًا بمنهج الحق والصدق، حتى لحق بالرفيق الأعلى عام [٢٩١ هـ].

١٢. أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الخواص، من أئمة الصوفية الكبار وممن يُقتدَى به في هذا الشأن، مرشد عارف له في قَدْعِ النَّفْسِ[2] عن الملذات والقيام بأدب الرياضات قدم راسخ، وقد كان ﷺ حُجَّة في فقه التوكُّل والتأدُّب في حضرة الوكيل، وله في العلم كلمة باقية وهي قوله ليس العلم بكثرة

---

[1] / عمرو بن عثمان المكي: هو ابو عبد الله عمرو بن عثمان المكي، سكن بغداد وسمع عمرو من يونس بن عبد الأعلى والربيع بن سليمان بن سيف الحراني وغيرهم، وكان يقول ما صحبت احدًا كان أنفع لي صحبته ورؤيته من ابي عبد الله الساجي. وعن أبي بكر محمد بن احمد القناديلي قال: قال عمرو بن عثمان المكي: لقد وبخ الله التاركين للصبر على دينهم بما اخبرنا عن الكفار أنهم قالوا ﴿ آمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ (ص آية ٦) فهذا توبيخ لمن ترك الصبر من المؤمنين على دينه، وقال: المروءة التغافل عن زلل الإخوان. توفي عمرو بن عثمان المكي ببغداد سنة: [٢٩٦ هـ] وقيل: [٢٩٧ هـ]. قيل: [٢٩١ هـ]. ويقال مات بمكة، والأول أصح. [صفوة الصفوة، ج: ٢ ص: ٤٤٠].

[2] / قدع النفس: كفها وكبح جماحها. قال ابن الأثير: ومنه حديث الحسن (اقدَعُوا هذه النُّفوس فإنها طُلَعَة). ومنه حديث الحجّاج (اقْدَعوا هذه الأنْفسَ فإنها أسألُ شيء إذا أُعْطيَت، وأمنعُ شيء إذا سئلت) اي كُفُّوها عمَّا تَتطلَّع إليه من الشهوات. (النهاية، ج: ٤ ص: ٢٥).

الرواية وإنما العالم من اتَّبع العلم واستعمله واقتدَى بالسُّنَنِ وإنْ كان قليل العلم[1] وقد انتقل إلى الرفيق الأعلى وهو في منطقة الري عام [٢٩١ هـ].

١٣. أبو الحسين أحمد بن عبد الصمد[2] المشهور بـ[النوري]، بَغَوِيُّ الأصل بغدادي المولد والمنشأ، من كبار تلاميذ السَّرِيِّ السَّقَطِي ومن أقران الإمام الجنيد، من علماء الصوفية وأئمتهم الكبار، وله في أدب المعاملة مع الحق والخلق قدم راسخ، وقد أكرمه الله بحسن أدبه في المعاملة معه بلسان عالٍ في التَّعبير عن حقائق السَّير وفرائد التَّجلي.

ومن أقواله الخالدة [صنفان من الناس عزيزان عالم يعمل بعلمه وعارف ينطق عن حقيقة][3] ومن أقواله المرشدة [مَن رأيته يدَّعي مع الله

---

[1] / انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ج١ ص١٣٦.

[2] / أبو الحسين النوري: وهو احمد بن محمد الخراساني البغوي شيخ الطائفة بالعراق وأحذقهم بلطائف الحقائق، وله عبارات دقيقة ، صحب السري السقطي وغيره. وقد ساح النوري إلى الشام وأخذ عن أحمد بن أبي الحواري، وقال ابو نُعيم: سمعت عمر البناء البغدادي بمكة قال: نسبوا الصوفية إلى الزندقة فأمر الخليفة المعتمد في سنة: [٢٦٤ هـ] بالقبض عليهم، فأخذ في جملتهم النوري فأدخلوا على الخليفة فأمر بضرب أعناقهم، فبادر النوري إلى السياف، فقيل له في ذلك فقال: آثرت حياتهم على نفسي ساعة، فتوقف السيَّاف عن قتله، ورفع أمره إلى الخليفة، فردَّ الخليفة أمرهم إلى قاضي القضاة إسماعيل بن إسحاق، فسأل أبا الحسين النوري عن مسائل في العبادات فأجاب، ثم قال: وبعد هذا فلله عباد ينطقون بالله ويأكلون بالله ويسمعون بالله، فبكى إسماعيل القاضي وقال: إنْ كان هؤلاء القوم زنادقة فليس في الأرض موحد!؟ فأطلقوهم. توفي النوري سنة: [٢٩٥ هـ] وقد شاخ رحمه الله . لسير أعلام النبلاء للذهبي ج: ١٤ ص: ٧٠- ٧٦] و[حلية الأولياء لأبي نُعيم ج: ١٠ ص: ٢٥١

[3] / وفي الرسالة القشيرية [قال النوري: أعزُّ الأشياء في زماننا شيئان: عالم يعمل بعلمه، وعارف ينطق عن حقيقة.] الرسالة القشيرية ج١ ص١١٢].

حالة تخرجه عن حدِّ العلم الشرعي فلا تقربنَّ منه![1] وقد لحق بالرفيق الأعلى عام [٢٩٥ هـ].

١٤. أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي أصله من نهاوند، ولد ونشأ بالعراق، كان فقيهًا على مذهب أبي ثور[2] الذي تتلمذ عليه في الفقه فأجازه الإمام أبو ثور بالفتوى في حضرته ولم يتجاوز الإمام الجنيد العشرين من عمره.

تتلمذ في علم الطريقة على خاله الإمام السري السقطي والإمام الحارث بن أسد المحاسبي والإمام محمد بن على القصَّاب وقد كان الإمام الجنيد:

- مقبولاً عند علماء الشريعة وعلماء الطريقة.
- كاملاً في فِقْهَيْ الظاهر والباطن.
- ثقة في التوحيد.
- ضابطاً عدلاً في السنة.
- عاليَ العبارة.

---

[1] / انظر الرسالة القشيرية ج١ ص١١٢.

[2] / أبو ثور: هو الإمام المجتهد الحافظ إبراهيم بن خالد البغدادي، حدَّث عن سفيان بن عيينة، وعبيدة بن حميد، وأبي معاوية، ووكيع، والشافعي، وطبقتهم. وحدث عنه أبو داود، وابن ماجه، ومحمد بن إسحاق السرَّاج، وخلق. قال أبو بكر الأعين: سألت أحمد عنه فقال: أعرفه بالسُّنة منذ خمسين سنة. وقل ابن حبان: كان أحد أئمة الدنيا فقهاً وعلماً وورعاً وفضلاً، صنَّف الكتب وفرَّع على السنن وذبَّ عنها، مات في سنة: [٢٤٠ هـ.انظر] تذكرة الحفاظ لمحمد بن طاهر القيسراني، الطبعة الأولى، دار الصميعي، الرياض ١٤١٥هـ تحقيق حمدي عبد المجيد. ج٢ ص٥١٢].

⊙ صادق القدم.

⊙ كامل الحال.

⊙ وطّأ للمسترشدين آداب الطريق وأقام لهم معالمه العلمية وقواعده السلوكية على عمادٍ من الشريعة متين، فاعترف له الصوفية دون منازع بإمامة الطريقة وسيادة الطائفة الصوفية، وله في معاني التصوف كلمات باقية يفوح منها عطر المحبين وتضوع شذى بعَرْفِ العارفين سنتعرض لها بالتفسير حين الحديث عن "التصوف المعنى" من دراستنا هذي. وقد انتقل الإمام الجنيد رضي الله عنه إلى الرفيق الأعلى عام [٢٩٧ هـ].

هذا وقد هدفتُ مِن إيرادي لهؤلاء الأعلام من أئمة الصوفية، إلى التَّدليل على أنَّ التصوف عِلْمٌ من علوم الإسلام التي نشأت واشتهرت في وقت باكر لم يتجاوز القرون الثلاثة الفاضلة، بل إنَّ التصوف كعِلمٍ مُخْتَصٌ بالنُّسك والسُّمو الروحي قد عُرِفَ قبل أنْ تُعرف علوم الفقه وعلوم مصطلح الحديث وعلم العقيدة بمصطلحاتها التي نعرفها اليوم.

وعن المصطلح أقول في إيجاز: إنَّ لُبْسَ الصُّوف الذي نُسِبَ إليه القوم فعرفوا به، لا يعدو أن يكون رمزاً للعديد من المعاني الشريفة والمقامات المنيفة والحقائق العالية والأذواق الحالية، إلى جانب أنَّ لبس الصوف أمرٌ جاءتْ الآثار باستحبابه، وإذا رجعت إلى مستدرك

الحاكم[1] وسنن البيهقي[2] وجامع السيوطي[3] [الجزء الثاني ص ١٢٤] تجد حديثاً شريفاً من رواية سيدنا أبي أمامة الأنصاري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: {عليكم بلباس الصوف تجدون حلاوة الإيمان في قلوبكم}[4]، وقد أخرج ابن عساكر[1] من أقوال أبي أيوب الأنصاري

---

1 / الحاكم: هوابو عبد الله محمد بن عبد الله محمد بن حمدويه النيسابوري صاحب "المستدرك على الصحيحين"، و"التاريخ"، و"علوم الحديث"، و"المدخل"، و"الإكليل"، و"مناقب الشافعي"، وغير ذلك. ولد في ربيع الأول سنة: [٣٢١ هـ] وطلب الحديث صغيراً باعتناء أبيه وخاله، رحل وجال في خراسان ما وراء النهر فسمع من الفي شيخ حدث عنه الدارقطني وابن أبي الفوارس والخليلي وخلائق وتفقه بأبي سهل الصعلوكي وابن أبي هريرة. وكان إماماً في الحديث عارفاً به حق معرفته صالحاً ثقة. توفي سنة خمس واربعمائة [٤٠٥ هـ]. انظر [طبقات الحفاظ ج: ١ ص: ٤١١].

2 / البيهقي: هو الإمام الحافظ العلامة شيخ خراسان أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى ولد سنة أربع وثمانين ثلاثمائة [٣٨٤ هـ] ولزم الحاكم وتخرج به وأكثر عنه جداً، وبرع وأخذ في الأصول وانفرد بالإتقان والضبط والحفظ، وعمل كتباً لم يسبق إليها كالسنن الكبرى، والصغرى، وشعب الإيمان، والأسماء والصفات، ودلائل النبوة، والبعث والآداب، وغير ذلك مما يقارب ألف جزء. وبورك له في علمه لحسن قصده وقوة فهمه وحفظه، وكان على سيرة العلماء قانعاً باليسير مات بنيسابور في عاشر جمادى الأولى سنة: [٤٥٨ هـ].انظر [طبقات الحفاظ ج: ١ ص: ٤٣٢].

3 / السيوطي: هو الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن محمد بن سابق الدين بن عثمان السيوطي، ولد سنة ٨٤٩ هـ ونشأ يتيماً وحفظ القرآن وهو دون الثامنة، له مؤلفات كثيرة في شتى العلوم والفنون، ذكر صاحب كشف الظنون الكثير منها . توفي السيوطي سنة ٩١١ هـ.

4 / حديث {عليكم بلباس الصوف} : رواه أبو عبد الله الحاكم بسنده عن أبي أمامة الباهلي ﷺ، [المستدرك على الصحيحين ج: ١ ص: ٨١ الحديث رقم٧٧]. ورواه البيهقي في شعب الإيمان ج ٥ ص ١٥١ الحديث رقم ٦١٥٠ .

ﷺ أنه قال كان النبي ﷺ يركب الحمار ويخصف النعل ويرقع القميص ويلبس الصوف ويقول {مَن رغب عن سنتي فليس مني}[٢].

---

[1] / ابن عساكر: الإمام الحافظ الكبير محدث الشام فخر الأئمة ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين الدمشقي الشافعي صاحب التصانيف والتاريخ الكبير ولد في أول سنة: [٤٩٩ هـ] وسمع باعتناء أبيه وأخيه الإمام ضياء الدين هبة الله وعدد شيوخه ألف وثلاث مائة شيخ، ونيف وثمانون امرأة، سمع منه يعمر بن الفاخر وأبو العلاء الهمذاني وأبو سعد السمعاني والكبار. وقال ولده المحدث بهاء الدين القاسم: كان أبي رحمه الله مواظباً على الجماعة والتلاوة يختم كل جمعة ويختم في رمضان كل يوم ويمتكف في المنارة الشرقية وكان يحاسب نفسه على لحظة تذهب، لم أر مثله ولا من اجتمع فيه ما اجتمع فيه من لزوم طريقة واحدة مدة أربعين سنة من لزوم الصلوات في الصف الأول إلا من عذر والاعتكاف في شهر رمضان وعشر ذي الحجة وعدم التطلع إلى تحصيل الأملاك وبناء الدور قد أسقط ذلك عن نفسه وأعرض عن طلب المناصب من الإمامة والخطابة وأباها بعد أن عرضت عليه وأخذ نفسه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا تأخذه في الله لومة لائم. توفي الحافظ ابن عساكر سنة ٥٧١ هـ [تذكرة الحفاظ ج: ٤ ص: ١٣٢٨].

[2] / حديث {كان يركب الحمار ويلبس الصوف} : عزاه السيوطي في الجامع الصغير إلى تاريخ ابن عساكر ورمز لضعفه. وقال المناوي في شرح الجامع الصغير: ورواه أبو الشيخ في كتاب الأخلاق، وقال الزين العراقي: فيه يحيى بن يعلى الأسلمي ضعفوه، وكذا شيخه المختار التيمي ضعيف. ا هـ [الجامع الصغير للسيوطي ج١ ص٣٠٦]. وانظر [فيض القدير شرح الجامع الصغير ج٥ ص٢١٦].

ورواه البيهقي في السنن الكبرى من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ قال: [كان رسول الله ﷺ يركب الحمار ويلبس الصوف ويعتقل الشاة]. قال البيهقي: هو بهذا المحفوظ لسنن البيهقي الكبرى ج ٢ ص٤٢٠ الحديث رقم ٣٩٨٩]. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ورواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، ورواه البزار باختصار. [مجمع الزوائد، ج: ٩ ص: ٢٠].

وإذا كان الأمر من سنة المصطفي ﷺ في باب العادات والمباحات فلا جرم أنْ يتأسّى القومُ بالرسول الكريم عليه افضل الصلاة واتم التسليم.

بيد أنَّ الصوفية من الإكرام بحيث لا يحتاجون إلى رداء من الصوف أو مرقعات من القطن، ذلك لأنَّ الصوفي الحق مَن كان من أهل الصفاء، والصفاء من الله إكرام وإنعام.

ولبس الصوف أو المتروزة[1] أو المرقّعات يعتبر عند ائمة القوم قميص وفاء لأهل الصفاء، يتجرَّدون بلبسها عن الكونين وينقطعون عن المألوفات، والقوم عند ما يلبسون الصوف تختلف درجاتهم وتتنوَّع أهدافهم، فربما كان لبس الصوف أو المرقّعات أو المتروزة على اختلاف ألوانها خضراء، سوداء، بيضاء، حمراء أو صفراء لبعضهم صفاء، ولبعضهم عطاء، ولبعضهم غطاء ولرابع وطاء[2].

---

[1] / المتروزة: أصل الكلمة بالطّاء من الطّراز لفارسيّ معرّبا، وهو عَلَمُ الثوب، ويقال: طَرَّزَ الثوبَ، فهو مُطرّز.

[2]/ وكتب عبد الجبار بن المبارك الحفياني:

هذه الكلمات التي أوردها الشيخ العارف المؤلف تمييزًا لمَن لبس الصوف او جلباب الصوفية، تحتاج إلى تفسير حيث ذكر المؤلف أنَّ لبس جبة الصوفية قد تكون لبعض لابسيها:

❖ صفاء: والمراد بالصفاء تجرُّد القلب عن مرادات النفس ورغباتها وشهواتها، والنفس تشتهي بطبعها ما لان ورقَّ من الملبوس فإذا سكنت واطمانت وقد لبس صاحبها الصوف وغليظ (الجباب) فسكونها موذن بتجرُّدها وصفائها، لأنَّ الأشكال والصور وما عليها

من هندام لا يعتدُّ به كثيرًا عند أهل الصفاء، الذين نظروا إلى موضع نظر الله فيهم فطهَّروه من دنس الأغيار وصفُّوه عن ذميم الخواطر والأفكار.

❖ عطاء: والعطاء الذي قصده المؤلف نوعان:

- عطاء حسِّي.
- عطاء معنوي.

فمَن جعل لبس [جبة الصوفية] وسيلة لعطاء حسي فهذا من أهل المسألة والكديا بلسان حال لبسته، ومثل هذا من سقوط الهمة والتبطل، وهو أمر مذموم.

أمَّا العطاء المعنوي لِمَن لبس جبة الصوفية فإنَّه لا يُتَاحُ إلاَّ للفقراء الذين لا يملكون شيئًا ولا يملكهم شيءٌ، فإذا رأيت ذا طول من المريدين يلبس جبة الفقراء فاعلم أنَّه يشير بذلك إلى عطاء معنوي اقتضاه فقر الممكن في ظل عطاء واجب الوجود. وهذا عطاء محمود وثوب مُكَرَّمٌ ذو قدر شريطة الاَّ يكون ثوب شهرة، لما فيه من رؤية النفس، والفقير لا نفس له حتى يراها أو يرائي بها.

❖ غِطاء: والغطاء هو الستر، والستر نوعان:

- ما يستر عورة الإنسان الحسية.
- ما يستر عوراته وسوءاته الأخلاقية.

واحسب أنَّ الشيخ العارف لم يقصد بأنَّ جبة الصوفية لبعض لابسيها غطاء، ذلك الغطاء الحسي الذي يستر عورة الجسد لأنَّ الصوفية وغيرهم في ذلك سواء. بل إنَّ المقصود هو تغطية السوءات الأخلاقية، فإنَّ غطى المريد وهو يلبس المُرَقَّعة أو المتروزة أو الصوف ما ساء من أخلاقه وسلوكه حقيقة بحيث ستره الله فأبدله عن كل خلق ذميم خلقًا كريمًا ثمَّ جعل هذا المريد ما لبس من جبة الصوفية [ظاهرًا] علامة ودلالة على ما لبس من ثياب التقى [باطنًا] فهذا غطاء محمود مطلوب ومرغوب.

أمَّا إذا كانت الجبة الصوفية غطاءً حسيًّا يخفي وراءه سلوكًا معوجًا هابطًا، وخُلقًا سيِّئًا ذميمًا فهذا هو الغطاء المذموم عُرفًا وشرعًا وعقلاً، لما فيه من غش الناس وخداعهم، وكم كان أبو تراب النخشبي حكيمًا حين قال: [كن كما تُري الناس و إلاَّ فأرِيهم ما تكون].

وأهل الحقائق من العارفين مكاشفون بكل نوع من هذه الأصناف حتى يتم العمل بناءً على الأمل.

❖ وِطاء: أن تكون الجبة الصوفية لمن لبسها وطاء: والوطاء هو السهولة واليسر، ومنه (الموطأ) وهو السهل الميسر. والفراش الوطيء: السهل الممهد الذي لا خشونة فيه.

أمَّا أن تكون جبة الصوفية لمن لبسها وطاءًا فهذا يعني أنَّ لابسها سهل عليه قطع مشاق الطريق، وتيسر له السير في أوديته في سهولة ويسر مثمر.

ولا يلبس المريد جبة الصوفية غطاءًا ثم عطاءًا ثم وطاءًا ثم صفاءًا إلاَّ بإشارة وإذن من شيخ عارف مكاشف. ولهذا ترى الشيخ العارف المؤلف الأستاذ (الحفيان) يربط معرفة لابس جبة الصوفية من الناس بأهل الحقائق المكاشفين حتى يتم العمل (المعاملة) مع أي منهم بقدر ما قصد وحقق من أمل وهو يلبس جبة الصوفية على تنوعها.

أمَّا الوطاء والغطاء بالمعنى اللُّغوي المتبادر إلى الأذهان فهو معنىً قريب قد يجري به عرف بعض أهل النُّسك والعبادة من أهل السِّياحة والفرَّة من الفقراء.

الفصل الثالث: مفهوم التصوف الإسلامي

وقد قصدتُ من إيراد هذا المفهوم أن يكون جامعاً لمذهب التصوف وعلمه على السواء، لا كما هو واقعٌ بنسبٍ متفاوتة في التاريخ القديم والمعاصر، بل كما يلزم أن يكون، ليس باعتبار ذلك ضرباً من أشواق الروح وأماني الفؤاد التي لا حظَّ لها من الواقع، وإنما باعتباره مثالاً واقعيًّا عاشه سلفٌ صالحٌ، ورثنا عنهم آثاراً حيَّةً تنطق بعلم باصر وهدى قويم وسلوك رفيع، فهو إذن مفهوم مثالي في عالمنا المعاصر نريد له أن يكون واقعيًّا، كما كان العهد به عند السلف. وإنْ كانت الشقّة بين الأمل والعمل بعيدة، فجهدنا أن ندوِّن أنظارنا الآملة، فإن ارتقت إلى مصافِّها الهممُ العاملة، فذاك من توفيق الله وهو الغاية التي نبغي، أما إذا قصرت الأعمالُ في واقعها الحياتي عن الآمال في مراقيها النظرية، فليبقَ لنا أننا جلَّينا وجوه الأنظار الصوفية على منصَّات الأدلة الشرعية، حتى تشكِّل معالم منيرة لمن أراد سلوك الطريق حتى يطابق بين الأمل والعمل، وما ثمة إلا الله والعبودية وبينهما العبادة.

مباحث الفصل :

١. في مفهومنا للتصوف الإسلامي.
٢. التصوف الإسلامي علم وعمل.
٣. العلم بالطريقة.
٤. العلم بالنفس.
٥. العلم بالله وأدوات الإدراك.
٦. التصوف الإسلامي منهج تربوي.
٧. التصوف الإسلامي طريق الحق.

المبحث الأول : التصوف ظاهرة إنسانية

التَّصوف ظاهرة إنسانية وهو بهذا الاعتبار، استبطانٌ منظَّم للتجربة الدينية التي يعيشها الإنسان، وهي في هذا المضمار تجربةٌ ذات طابع روحي عام لا تحدُّه حدودٌ زمانية أو مكانية، وبالتالي فليس التصوف وقفًا على أمَّةٍ دون أمَّة، ولا على جنسٍ دون جنس، وإنما هو نتاج حركة الروح الإنساني في مضمار التَّسامي، انطلاقًا من الموروثات العقائدية والبيئية للإنسان.

وحركةُ الروح الإنساني في مضمار التَّسامي يستهدف الحقيقة المطلقة وهي واحدة في الوجود، ودونها حقائق نسبيَّة مرتبطة بالزمان والمكان؛ فإنْ تشابه العطاء الصوفي باعتباره نزعةً إنسانيَّة، فمَردُّ ذلك إلى وحدة الحقيقة، التي تستهدفها مذاهب السُّمو الروحي على اختلاف وسائلها، التي قد تترادف كما أنها قد تتوارد دون أنْ يكون للسَّابق منها تأثير على اللاحق.

وعلى ذلك يَرِدُ القول بأنَّ نسبة التصوف باعتباره ظاهرة إنسانية إلى بعض الأديان السَّماويَّة أو النِّحل الأرضية أمرٌ لا يدل - ضربة لازب- على تأثير السابق على اللاحق من أنماط التَّصوف:

فهناك التَّصوف الحنيفي، نسبة إلى الحُنفاء من قوم إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام.

١. وهناك التصوف اليهودي.
٢. وهناك التصوف المسيحي.
٣. وهناك التصوف الإسلامي.

٤. وهناك التصوف المجوسي.

٥. وهناك التصوف الزرادشتي.

٦. وهناك التصوف البوذي.

٧. وهناك التصوف الهندوسي.

٨. والتصوف اليوناني.

وقد ذهب عددٌ من الباحثين في أصول التصوف الإسلامي ونشأته، إلى تلاقح هذه الأنماط من التصوف وتأثير السابق منها على اللاحق، بل ذهب بعض الباحثين المحدثين ممَّن تأثَّر بالفكر الوهابي إلى إنكار التصوف الإسلامي جملةً وتفصيلاً، وذهبوا إلى القول بأن التصوف والإسلام نقيضان لا يجتمعان البتة!! وأحسب أنَّ ما ذهبوا إليه مقولة قلقة لا تثبت أبداً أمام البحث الجاد والبرهان الساطع.

هذا وعندما ننسب التصوف باعتباره ظاهرة إنسانية عامة إلى الإسلام "التَّصوف الإسلامي"، إنما نشير بهذه النسبة إلى مرجعية التصوف في العالم الإسلامي – على اختلاف قومياته وأرضه – إلى أصول الإسلام وقيمه وآدابه.

والتصوف الإسلامي بهذا الاعتبار في نظرنا أمرٌ من أمور دين الإسلام. وقد خصَّصنا هذا الباب من أبواب الدراسة لتحقيق فرضيَّتنا التي زعمنا فيها ارتباط التصوف الإسلامي بالمنهجية الإسلامية ارتباطًا عضويًا، وإيراد البراهين على جعل هذه الفرضية حقيقة دينية يلتزم بها المسلمون، استناداً على الأدلة التي تدل عليها البراهين التي تؤكِّدها والحُجج التي تدعمها.

أقول هذا وفي ذهني أنماطٌ من صور التصوف الدخيل فكراً وعملاً، وهو ليس أمرًا من أمور دين الإسلام، وهذه الأنماط من التصوف الدخيل على المنهجية الإسلامية، لا تجد عندنا قبولاً ولا يصحُّ نسبتها إلى الإسلام بحالٍ، وقد نتطرق إلى هذا الجانب في بابه من هذه الدراسة بإذن الله وتوفيقه.

قول الدكتورمحمد إقبال:

وقبل أن نطرق باب أصول التصوف الإسلامي، يبدو لي أنه مما تتم به الفائدة أن نتطرق وفي شيء من الإيجاز، إلى إيراد أقوال الباحثين حول أصول التصوف الإسلامي، وبين يديْ ذلك يأتي قول الدكتور الشاعر الصوفي محمد إقبال[1] في دراسته الممتازة "ظاهرة التصوف الإسلامي في بلاد فارس"، يقول الدكتور إقبال: لوليس من الصواب أن نُرجع كل ظاهرة في بيئة ما إلى عوامل خارجة عنها، فنهمل بذلك العوامل الداخلية، فإنه لا توجد فكرة من الأفكار القيِّمة، والتي يكون لها سلطان على نفوس الناس، إلا إذا كانت هذه الفكرة تمتُّ إليهم بصلة، فإذا جاء عامل خارجي أيقظ هذه الفكرة الموجودة أصلاً، ولكنه لا يخلقها خلقًا، وعندما بحث المستشرقون أصل التصوف الإسلامي، ذهبوا في مَردِّه إلى هذا العامل الخارجي أو تلك

---

[1] / الدكتور محمد إقبال: ولد الدكتور محمد إقبال في بلدة سيالكوت بإقليم البنجاب في الهند في ٢/٢٢ / ١٨٧٣ م، واسم أبيه محمد نور. من أسرة تنتمي إلى سلالة البراهمة واعتنقت الإسلام على يد أحد رجال الصوفية في كشمير. تخرج في جامعة لاهور، ودرس بجامعة لندن سنة ١٩٠٥ م، واشترك في مؤتمر المائدة المستديرة في لندن ١٩٣٢ م. مات في ٢١/ ٤/ ١٩٣٨ م [رواد الوعي الإنساني في الشرق الإسلامي للدكتور عثمان أمين].

المـؤثرات الأجنبيـة، ونـسوا أن أيَّـةَ ظـاهرة عقليـة أو تطـوُّر سـلوكي أو نهـج أخلاقي تربوي في أيِّ أمة، لا يكون لـه معنـى ولا فهـم، إلا في ضـوء مقوِّمـات هذه الأمة، وظروفهـا العقليـة والدينيـة والسياسية والاجتماعيـة، التي عاشـت فيها هذه الأمة قبل نشوء هذه الظاهـرة وظهورها].

أوردتُ هذا القول الصائب للدكتور إقبال بين يدي هـذا الفصل المخصَّص لبحث أصول التصوف الإسلامي وأطواره، توطئةً لمناقشة أقوال البـاحثين في أصـول التـصوف الإسـلامي؛ مـن أولئـك الـذين وقعـوا في إسـار تقليـد المستـشرقين، ونقْل مـا قـالوه في هـذا المجـال، فلـم يـأتوا بجديـد في مـضمار بحـوثهم، اعتمـاداً واكتفـاءً بنقـولٍ مـن تـراث الاستـشراق، دون سـبرٍ لأغـوار التـصوف في أصـول الإسـلام وقيمـه، ودون تَحَـرٍّ لمظـاهر التـصوف ومقوِّماتـه ومبادئه وآدابه ومقاماته تحت مختلف المسمَّيات خلال تطور العلوم الإسلامية.

المبحث الثاني

اقسام الباحثين في أصول التصوف الإسلامي

الباحثون في أصول التصوف الإسلامي أربعة أقسام:

القسم الأول: علماء الصوفية

وقد جعل هذا القسم مرجعية التصوف الإسلامي في جانبه النظري والعملي مرجعية إسلامية خالصة، تتمثل في أصول الإسلام [الكتاب والسنة والإجماع والاجتهاد]، ومن ثمَّ اعتبر التصوف الإسلامي بهذه المرجعية روح الإسلام النابض بالحياة الربانية.

وغالب مَنْ ذهب إلى هذا المذهب من الصوفية أنفسهم مثل:

١. أحمد بن محمد بن عبد الصمد المشهور بأبي الحسين النوري [ت٢٩٥هـ].

٢. محمد بن علي بن عطية وقد اشتهر بـ"أبي طالب المكي"[١]، وقد كان عالماً بأصول التصوف وفروعه، وله في القلب دراسات خلدت في تاريخ العلوم الإسلامية، منها "قوت القلوب" و "علم القلوب"، وقد مات أبو طالب المكي في بغداد سنة [٣٨٦هـ]

---

[١] أبو طالب المكي: محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب المكي، قال الخطيب: كان من أهل الجبل، ونشأ بمكة. وروى بالإجازة عن عبد الله بن جعفر بن فارس، وسمع صحيح البخاري من المروزي. وله أربعون حديثا أخرجها لنفسه. وكان على مذهب أبي الحسن بن سالم، وكان مجتهداً في العبادة حدث عنه عبد العزيز الأزجي وغيره مات في جمادي الآخرة سنة [٣٨٦هـ] [سير أعلام النبلاء، ج: ١٦ ص: ٥٣٦] و[لسان الميزان، ج: ٥ ص: ٣٠٠].

٣. أبو سعيد أحمد بن عيسى المشهور بـ"الخراز"، وهو من أهل بغداد من تلاميذ بشر الحافي وذي النون المصري، كان يلقب بـ"لسان التصوف" مات سنة [٢٧٧ هـ].

٤. أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد [الخواص] المتوفى عام [٢٩١ هـ].

٥. أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد القواريري البغدادي، ولد ونشأ في العراق. عَدَّه الأستاذ عبد الكريم بن هوازن القشيري [صاحب الرسالة القشيرية] إمام الطائفة الصوفية، له عديد من الأقوال والآثار العلمية، متفرِّقة في بطون الكتب ومن أقواله الراشدة الجامعة قوله [الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على مَنْ اقتفَى أثر الرسول ﷺ]، وقد مات عام [٢٩٧ هـ].

هذا ويقول الإمام أبو بكر محمد بن إبراهيم الكلاباذي المتوفى عام [٣٨٠ هـ] في كتابه الشهير "التعرُّف لمذهب أهل التصوف": لفيمن صنَّف في المعاملات ونشر علوم الإشارة كتباً ورسائل: الحارث ابن أسد المحاسبي ويحيى بن معاذ الرازي وأبو عبد الله محمد بن علي المشهور بالحكيم الترمذي[1] وأبو بكر محمد ابن عمر بن الفضل المشهور بـ[الورّاق][1].

[1] / الحكيم الترمذي: هو الإمام أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر الحافظ المؤذن صاحب التصانيف، روى عن أبيه، وقتيبة بن سعيد، والحسن بن عمر ابن شقيق، وصالح بن عبد الله الترمذي، وطبقتهم، وعني بهذا الشأن، ورحل فيه. روى عنه يحيى بن منصور القاضي، والحسن بن علي، وعلماء نيسابور فإنه قدمها في سنة [٢٨٥ هـ] قال التاج السُّبكي: إنه لما صنَّفَ كتاب [ختم الولاية] وكتاب[علل الشريعة]. أخرجوه من

وأبو عبد الله محمد بن الفضل وشقيق البلخي وأبو عليٍّ الجوزجاني، وأبو القاسم إسحاق بن محمد الحكيم السمرقندي[2]. وهؤلاء هم المذكورون المشهورون المشهود لهم ومن سبق ذكرهم بالفضل من الذين جمعوا علوم المواريث [علم الكتاب والحكمة] إلى جانب علوم الاكتساب، سمعوا الحديث وجمعوا الفقه والكلام واللغة وعلم القرآن، تشهد بذلك كتبهم ومصنَّفاتهم] اهـ.

ثم جاء بعد هؤلاء الأعلام الأئمة:

ترمذ وشهدوا عليه بما لا ينبغي ذكره في مثله، ولا شك أنَّه مقتضى التعصب القديم بين الفريقين]. قال الحافظ ابن طاهر في تذكرة الحفاظ: عاش نحواً من ثمانين سنة.[كشف الظنون لحاجي خليفة ج١ ص ١٩ وانظر تذكرة الحفاظ لابن طاهر القيسراني ج ٢ ص ٦٤٥].

[1] / الوراق: هو أبو بكر محمد بن عمر الحكيم الوراق، أصله من ترمذ، وأقام ببلخ. لقي أحمد بن حضرويه، وصحب محمد بن سعد الزاهد، ومحمد بن عمر البلخي. له التصانيف المشهورة في أنواع الرياضات والآداب والمعاملات. [الطبقات الكبرى للإمام عبد الوهاب الشعراني ج١ ص٩١-٩٢].

[2] / الحكيم السمرقندي: هو القاضي أبو القاسم إسحاق بن محمد بن إسماعيل الحنفي الشهير بالحكيم السمرقندي. ولقب بالحكيم؛ لكثرة حكمته ومواعظه. روى عن عبد الله بن سهل الزاهد، وعمرو بن عاصم المروزي. روى عنه عبد الكريم بن محمد الفقيه السمرقندي، في جماعة. وتولى قضاء سمرقند، وحمدت سيرته، من كتبه: "الصحائف الإلهية" و"السواد الأعظم" في التوحيد. و هو مشتمل على أسئلة و أجوبة في أصول الدين وقد طبع في بولاق سنة ١٢٥٣هـ. مات الحكيم السمرقندي في المحرم، يوم عاشوراء، سنة: ٣٤٢ هـ بسمرقند، رحمه الله تعالى. هـ. [الطبقات السنية في تراجم الحنفية، ج: ١ ص: ١٦٨] والأعلام، ج:١ ص: ٢٩٦].

١. أبو محمد الجُرَيْرِي.

٢. أبوبكر الكتَّاني[1].

٣. أبو علي الرُّوذَبَاري.

٤. أبو عبد الله بن خفيف[2].

---

[1] / أبو بكر الكتاني: هو محمد بن على بن جعفر أبو بكرا لكتاني أحد مشايخ الصوفية سكن مكة وكان فاضلاً نبيلاً حسن الشارة، حكي عن ابى سعيد الخراز والجنيد بن محمد وغيرهما. اصله بغدادي أقام بمكة ومات بها، وكان أحد الأئمة والسادة، حُكِيَ عن المرتعش انه كان يقول: [الكتاني سراج الحرم]. وقال أبو بكر محمد بن داود: كنت عند محمد بن على الكتاني فسئل: أيش الفائدة في مذاكرة الحكايات ؟ فقال [الحكايات جند من جنود الله يقوى بها ابدان المريدين] فقيل له هل لهذا من شاهد ؟ قال نعم قال الله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ (هود ١٢٠) وقال الحسين بن احمد الرازي: سمعت محمد بن على الكتاني يقول: [التصوف خلق من زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف] انظر [تاريخ بغداد ج: ٣ ص: ٧٤] [سير أعلام النبلاء ج: ١٤ ص: ٥٣٣].

[2] / ابن خفيف: هو ابو عبد الله محمد بن خفيف بن اسفكشار الشيرازي، الشيخ، الإمام، العارف، الفقيه، القدوة، ذو الفنون، شيخ الصوفية. ولد قبل السبعين ومائتين، وحدث عن حماد بن مدرك، وهو آخر أصحابه، وعن محمد بن جعفر التمار، والحسين المحاملي، وجماعة، وتفقه على أبى العباس بن سريج، وحدث عنه أبو الفضل الخزاعي، والحسن بن حفص الأندلسي، وإبراهيم بن الخضر، والقاضي أبو بكر بن البا قلاني، ومحمد بن عبد الله بن باكويه. قال السلمي: هو اليوم شيخ المشايخ، ولم يبق للقوم اقدم منه، ولا اتم حالاً. صحب رويم بن أحمد، وابن عطاء، ولقي الحلاج، وهو من أعلم المشايخ بعلوم الظاهر، متمسك بالكتاب والسنة، فقيه شافعي. قال الحافظ أبو نُعيم : توفي (سنة: ٣٧١ هـ). [حلية الأولياء، ج: ١٠ ص: ٣٨٥]. [سير أعلام النبلاء، ج: ١٦ ص: ٣٤٢].

ثم حفظت لنا المكتبة الإسلامية دراسات ممتازة في مجال تأصيل التصوف الإسلامي، وذلك مثل كتاب "اللمع" لأبي نصر السرّاج الطوسي وكتاب "قوت القلوب" لأبي طالب المكي وكتاب "كشف المحجوب" للهجويري[1]، وكتابات أبي حامد الغزالي[2] "المنقذ من الضلال" و "إحياء علوم الدين"،

1/ كتاب " كشف المحجوب لأرباب القلوب" في التصوف، للشيخ أبي الحسن علي بن عثمان الغز نوي المتوفى سنة٤٦٥ هـ [كشف الظنون لحاجي خليفة].

2 / **أبو حامد الغزالي:** هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي، ولد سنة [٤٥٠ هـ] وتفقه على إمام الحرمين وبرع في علوم كثيرة و له مصنفات منتشرة في فنون متعددة وكان من اذكياء العالم في كل ما يتكلم فيه، وساد في شبيبته. حتى انه دَرَّس بالنظامية ببغداد في سنة [٤٨٤ هـ] وعمره [٣٤ سنة]. فحضر عنده رؤس العلماء، وكان ممن حضر عنده أبو الخطاب وابن عقيل وهما من رؤس الحنابلة فتعجبوا من فصاحته وإطلاعه. قال ابن الجوزي وكتبوا كلامه في مصنفاتهم. وأخذ في تأليف الأصول والفقه والكلام والحكمة فأدّاه نظره في العلوم وممارسته لأفانين الزهديات إلى رفض الرئاسة والإنابة إلى دار الخلود، والتألّه، والإخلاص، وإصلاح النفس، فحج من وقته وزار بيت المقدس، وصحب الفقيه نصر بن إبراهيم بدمشق، وراض نفسه وجاهدها وطرد شيطان الرعونة، ولبس زيّ الأتقياء، قال عبد الغافر: ولقد زرته مراراً وما كنت أحدس في نفسي مع ما عهدته عليه من الزَّعَارَة [أيْ شَرَاسَةُ الخُلُقِ] والنظر إلى الناس بعين الاستخفاف وطلب العلو أنّه صار على الضد، وتصفّى عن تلك الكدورات، فتحققت بعد السَّبْرِ والتنقير أنَّ الأمر على خلاف المظنون، وأنَّ الرجل قد افاق بعد الجنون، فابتدأ بصحبة الشيخ أبي علي الفارمذي، فأخذ منه استفتاح الطريقة وامتثل ما كان يأمره به. ثم بعد سنوات سار إلى وطنه لازمًا لسننه، حافظاً لوقته، مكبًّا على العلم. واقبل على تلاوة القرآن وحفظ الأحاديث الصِّحاح وكانت وفاته في يوم الإثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة:[٥٠٥ هـ] ودفن بطوس رحمه الله تعالى. وقد سأله بعض أصحابه وهو في السياق فقال: أوصني فقال: عليك بالإخلاص، ولم يزل

وكتابات شهاب الدين عمر السُهْرَوَرْدي[1] ولاسيَّما [عوارف المعارف].
وكتابات أبي صالح عبد القادر الجيلاني مثل [الغُنْية] و [الفتح الربَّاني].
وكلُّها جاءت بتأصيل التُّصوف الإسلامي وإرجاعه إلى مصادره الإسلامية،
وقد تتابعتْ آثارٌ ودراسات مرشدي التصوف الإسلامي على هذا النَّهج إلى يومنا هذا، مع الحرص من بعضهم على نفي الدَّخيل والزائف من الأفكار والأعمال التي عَلِقتْ بالتصوف.

القسم الثاني: علماء فقه الشريعة

باحثون فرَّقوا بين التصوف في مرحلة النُّسُك والعبادة والزهد - وهي مرحلة تستهدف قِيَمًا تربوية عالية، وروحًا ربانيًّا زاكية، وقلبًا خاشعًا منيراً، وعقلاً ارتبط وميضُ فكره بنور الحقِّ فعاد نزَّاعًا إلى الخير والحق والجمال- وبين التصوف في مرحلة التَّفلسف، فأرجعوا التصوف في مرحلته الأولى إلى مصادر إسلامية وعدُّوه من علوم الإسلام وأموره التي جاءت بها شريعة الإسلام في منهاجها القويم، وذلك لما وجدوه في مصادر التشريع الإسلامي من مؤيِّدات وبراهين. أما التصوف الفلسفي وما نتج عنه من أقوال

يكررها حتى مات. انظر: [سير أعلام النبلاء، ج: ١٩ ص: ٣٢٣]. و[البداية والنهاية لابن كثير، ج: ١٢ ص: ٢١٤- ٢١٥].

[1] / السُهْرَوَرْدي: هو شهاب الدين أبو حفص وأبو عبد الله عمر بن محمد ابن عبد الله القرشي التيمي البكري السهروردي، ثم البغدادي، شيخ الصوفية، ولد في رجب سنة: [٥٣٩هـ] وقدم من سُهْرَوَرْد وهو شاب أمرد، فصحب عمه الشيخ أبا النجيب ولازمه واخذ عنه الفقه والوعظ والتصوف، وصحب قليلاً الشيخ عبد القادر الجيلاني. توفي الشيخ شهاب الدين رحمه الله ببغداد في أول ليلة من سنة: [٦٣٢هـ]. [سير أعلام النبلاء ج: ٢٢ ص: ٣٧٤].

وأحوال فقد أنكروه جملةً وتفصيلاً، ونفوا أنْ يُمتَّ هذا التصوف إلى الإسلام بصلة أيًا كانت، وشدَّدوا النَّكير على فلاسفة الصوفية وبدَّعوهم وكفَّروهم وضيَّقوا عليهم، حتى أفضَى الأمرُ ببعضهم إلى القتل مثل الحلاج[1] وشهاب الدين يحيى بن حبش بن أميرك السَهروردي[2]. ومن هذا

---

[1] / الحلاج: هو ابو منصور الحسين بن أبي بكر بن عمر، ينتهي نسبه إلى الصحابي الجليل أبى أيوب الأنصاري رضي الله عنه. كنيته أبو مغيث ولقبه الحلاج، قيل: كان حلاج الأسرار، يعني يظهرها. ولد سنة: [٢٤٤هـ] بالطور في الشمال الشرقي من البيضاء على نحو ثلاثين كيلومترًا شمال مدينة شيراز بإيران. وحفظ القرآن بواسط وهو في سنّ العاشرة، وتتلمذ على سهل بن عبد الله التُستَري سنتين، ثم سافر إلى بغداد فصحب الجنيد والنُوري وعمرو بن عثمان المكي وغيرهم، واختلف الناس في شانه فأفتى كثير من العلماء بإباحة دمه، وتوقَّف آخرون منهم الإمام أبو العباس ابن سريج الذي قال: [أمَّا أنا فأراه حافظًا للقرآن، عالمًا به، ماهرًا في الفقه، عالمًا بالحديث والأخبار والسنَّة، صائم الدَّهر، قائمًا بالليل، يعظ ويبكي ويتكلم بكلام لا أفهمه فلا أحكم بكفره]. وقتل الحلاج في ٢٤ ذي القعدة سنة ٣٠٩هـ [إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ج٨: ص:٢٥٠]. وانظر: [اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، للدكتور علي الخطيب ص:١٧٧وما بعدها].

[2] / يحيى السُّهروردي: هو العلاَّمة الفيلسوف المنطقي، شهاب الدين يحيى بن حبش بن اميرك السهر وردي، ولد سنة: [٥٥٠ هـ]. قال ابن خلِّكان: قرأ الحكمة واصول الفقه على الشيخ مجد الدين الجيلي بمدينة مراغة - من أعمال أذربيجان - إلى أن برع فيهما.اهـ. وكان شافعي المذهب، ويلقب بالمؤيد بالملكوت، وكان واحد أهل زمانه في حكمة الأوائل، بارعاً في أصول الفقه، مفرط الذكاء، وكان فصيحاً، صحيح العبارة، وله القصيدة المشهورة:

أبــداً تحــن إلــيكم الأرواح ... ووصــالكم ريحانهــا والــراح

ثم إنه ناظر فقهاء حلب فلم يجاره أحد، فطلبه الظاهر وعقد له مجلساً فبان فضله فقربه الظاهر واختص به، فشنَّعوا عليه وعملوا محاضر بكفره وبعثوها إلى السلطان صلاح الدين وخوفوه أن يفسد اعتقاد ولده، فكتب إلى ولده يأمره بقتله حتمًا، فلما لم يبق إلا قتله خيَّره

القسم يبرز أئمة أعلام في فقه الشريعة مثل العلامة أبي الفرج بن الجوزي في كتابه الشهير "تلبيس إبليس"، والإمام شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه المشهور "التصوف وهو الجزء الحادي عشر من مجموع فتاويه" وتلميذه أبو بكر بن قيم الجوزية[1] في كتبه "مدارج السالكين" و "طريق الهجرتين" و "الروح"؛ وغيرهم من فقهاء الشريعة الذين امتازوا بنظر فسيح وعقل حصيف وتجرُّد ونصَفة، وإنْ فاتهم معرفة مصطلح القوم ودلالته فيما أوردوه من سياق.

السلطان فاختار لنفسه ان يموت جوعًا فمنع الطعام حتى مات. وكان ذلك في أواخر سنة ٥٨٦هـ] بقلعة حلب وعاش ستا وثلاثين سنة. لسير أعلام النبلاء ج: ٢١ ص: ٢٠٧. وشذرات الذهب لابن العماد ج:٦ ص:٤٧٦- ٤٧٧].

[1] / ابن قيم الجوزية : هو الإمام محمد بن ابي بكر بن ايوب بن سعد الزرعي الدمشقي الشهير بابن قيم الجوزية . سمع من القاضي تقي الدين سليمان، وفاطمة بنت جوهر، وأبي بكر ابن عبد الدايم، وجماعة. وتفقه في المذهب الحنبلي، وافتى. ولازم الشيخ تقي الدين ابن تيمية واخذ عنه، وتفنن في علوم الإسلام . كان عارفاً بالتفسير وبأصول الدين والفقه، وله اعتناء بعلم الحديث، والنحو، وعلم الكلام، والسلوك. توفي في رجب سنة ٧٥١هـ.

القسم الثالث: مفكروا الحركة الإسلامية

باحثون ومفكّرون وعلماء أقرُّوا التصوف كمنهج سلوكي قويم وأسلوب تربوي حكيم، يسمو بالروح في عالم الملكوت ويطهِّر النفوس من الأدران ويربط المجموع البشري برباط معنوي رفيع يتجاوز الأواصر الدنيوية، ليعطي المجتمع الإسلامي من خلال هذا المنهج عمقًا وجدانيًا، ينمِّي معاني الإيمان في القلوب ويسمو بمشاعر الإحسان في البنية الإنسانية بمختلف أجوائها وجوانبها، ذلك أنَّ محبة الله ورسوله ﷺ والإخلاص والتقوى والورع وخشية الله مع الصدق والصبر، تُعَدُّ من أركان شعب الإيمان، وليس مجهولاً أنَّ هذه المعاني الباطنة كانت مضماراً لحديث طويل الأنفاس معطار الشذى لدى الصوفية، ولا غرو أنْ يكون في تحرير هذه المعاني وضبطها وتأصيلها وشرحها وجعلها معالم ومقاصد لسالكي طريق الحق خدمة جليلة للإسلام. والصوفية رغم عاطفتهم الحرَّى ورغبتهم العميقة في القرب من الله وشوقهم الحار للقاء الحق، بدافع من حُبِّ الله وحبِّ رسوله ﷺ تكاد تلمسه في كلِّ بادرةٍ مِن تراثهم، مع صدق الوجهة وقوة الالتزام، إلا أنَّ المؤسف في أمرهم أنَّ الكثرة منهم يغلب عليها الجهل، ويشينها العكوف على الخرافات والبطالات، ويُعجِزُها أنْ تستوعب أحكام الإسلام وإنزالها على الواقع الاجتماعي، وقد استعلنت في دين الله أدلتها، اكتفاءً بحبٍّ سلبي وقعود خلاف المجاهدين في سبيل الله لإعلاء كلمة الله في

الآفاق. ويدخل في هذا القسم جُلُّ مفكري الحركة الإسلامية الحديثة: بدءً من:

1. جمال الدين الأفغاني[1]
2. ومحمد عبده[2].
3. وحسن البنا[3].

---

[1] / الأفغاني: ولد بأسعد أباد من أعمال كابل في بلاد الأفغان، وبدأ دراسته في أفغانستان وإيران، ثم سافر إلى الهند، ثم إلى مكة لأداء فريضة الحج سنة ١٨٥٧ مـ، ثم عاد إلى افغانستان والتحق بخدمة الأمير دوست خان، ثم استوزره الأمير محمد اعظم بن دوست خان. ولما هزم الأمير هاجر جمال الدين إلى الهند سنة١٨٦١ مـ، ثم رحل إلى السلطان عبد الحميد باستنبول، ثم عاد إلى مصر سنة ١٨٧١ مـ. ثم سافر إلى أوربا، ثم عاد إلى استنبول حيث انتهت حياته بها سنة ١٨٩٧ مـ . وفي سنة ١٩٤٤ مـ نقل رفاته إلى بلاد الأفغان . (رواد الوعي الإنساني في الشرق الإسلامي) دكتور عثمان أمين.

[2] / الشيخ محمد عبده: ولد الشيخ محمد عبده سنة ١٨٤٩ مـ وتخرج من الأزهر سنة ١٨٧٧ مـ وعمل محرراً بجريدة الوقائع المصرية، ثم حكم عليه بالنفي ثلاث سنوات بعد ثورة أحمد عرابي فرحل إلى سوريا، ثم إلى باريس، وهنالك عمل مع الأفغاني على تأسيس جريدة العروة الوثقى، ثم عاد عام ١٨٨٨م فعين قاضياً بالمحاكم الشرعية، ثم مفتياً للديار المصرية ستة ١٨٩٩ مـ . وتوفي سنة ١٩٠٥ مـ.

[3] / حسن البنا: هو حسن بن أحمد عبد الرحمن البنا، مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، ولد بالمحمودية "قرب الإسكندرية" سنة ١٩٠٦ مـ . تخرج في دار العلوم ثم عمل مدرساً بالإسماعيلية، وفيها بدأ نشاطه، ثم تمَّ تحويله إلى القاهرة، وانشأ في القاهرة دار الإخوان وبدأ الاتصال بالجيش وتنظيم الضباط ويحض الإخوان على التدريب والتسلح، وشاركت بعض عناصر تنظيمه في حرب فلسطين سنة ١٩٤٧ مـ. قتل في ١٩٤٩/٢/١٢ مـ [من تاريخ الحركة الإسلامية د. صادق أمين ص١٠٩].

٤. وسعيد النورسي.

٥. ومروراً بأبي الحسن الندوي.

---

[1] / سعيد النورسي: يلقب ببديع الزمان. ولد في نورس، وهي قرية من قرى إسبارتة التابعة لولاية (بتليس) التي تضم ديار بكر في تركيا. وإلى مسقط رأسه نورس نسب بديع الزمان فاشتهر ببديع الزمان النورسي.

وكان مولده عام ١٢٩٢هـ ١٨٧٦ م ووالده هو ميرزا بن علي بن خضر بن ميرزا خالد بن ميرزا رشان، وهو كردي فكري، ينتسب والده إلى الطريقة النقشبندية. أما بديع الزمان النورسي فقد جمع إلى النقشبندية الطريقة القادرية.

يقول عن نفسه: (وعلى الرغم من أنني منتسب إلى الطريقة النقشبندية بثلاث جهات فإنّ محبة الطريقة القادرية ومشربها يجري في حكمه دون اختيار مني). توفي النورسي ودفن في قرية (أورفة) من بلاد تركيا عام ١٣٧٨هـ ما يوافق ١٩٦٠ م وهو في الثالثة والثمانين من عمره.

ومن أهمّ آثاره: رسائل النور: وقد ترجمت كليات رسائل النور إلى اللغة العربية وقامت شركة سوزلر بنشرها في طبعة ثانية بمطبعة شنتي في مدينة نصر بالقاهرة عام ١٤١٩هـ الموافق ١٩٩٨ م. كما كوّن لجماعة النور التي تأثرت بمنهجية الحركة الإسلامية الحديثة في بدايات القرن العشرين. وقد كان لجماعة النور أثر فاعل في المحافظة على روح الإسلام في تركيا. ونشأ على منهجيتها الحركية الصوفية الإسلامية العديد من شباب الحركة الإسلامية في تركيا. ويبدو أنّ جماعة النور وعضويتها المنتشرة في تركيا هي العامل الأول لإنشاء وفوز الحزب الإسلامي في تركيا بكل أسمائه وواجهاته الحركية في الحياة السياسية التركية المعاصرة، وقد فاز الحزب الإسلامي بالموقع الأول في السياسة التركية على الرغم من علمانية الدستور التركي والقانون الصادر بموجبه. وفي هذا ما يدل دلالة واضحة على أن القوة بمعزل عن القلوب. وقوة الحق هي الغالبة مهما تغلّب حق القوة في البلاد.

[2] / أبو الحسن الندوي: من مشاهير دعاة الإسلام ومفكريه في شبه القارة الهندية، له آثار باقية في مجال الفكر الإسلامي والدعوة والأدب. كان ينزع إلى مفاهيم الحركة الإسلامية الحديثة في خشية وورع مع توازن في فكره ومواقفه. وقد عاش في بيئة صوفية حيث كان

٦. والشهيد سيد قطب[1].

أثرها عليه واضحًا. ولم يعجبه وصف الصوفية من خصومها بأنّها "رهبانية" فأعدّ رسالة جيدة في الدفاع عن الصوفية والردّ على من وصفهم بالرهبنة، تحت عنوان" ربانية لا رهبانية" وقد طبعت هذه الرسالة عدّة طبعات.

والشيخ أبو الحسن الندوي من المعاصرين إذ مات في عام ١٩٩٩ مـ. وله عدد من المؤلفات في مختلف مجالات الأدب والدعوة الإسلاميين.

[1] **سيِّد قطب**: سيد قطب بن إبراهيم، رائد من رواد حركة الإخوان المسلمين، ولد في قرية (موشا) في أسيوط سنة: ١٩٠٦ مـ، وتخرج في كلية دار العلوم بالقاهرة سنة: ١٩٣٤مـ. وكان في صدر شبابه أديبًا شاعرًا مداومًا على حضور ندوة الأستاذ العقاد في صالونه الشهير، وقد كان طرفًا منحازًا إلى العقاد في بعض معاركه الأدبية.

انتمى سيد قطب في آخر فترة شبابه لحركة الإخوان المسلمين حيث انضم إليهم سنة: ١٩٥٣ مـ فترأس قسم نشر الدعوة وتولى تحرير جريدتهم (١٩٥٣ - ٥٤) وسجن معهم، فعكف على تأليف الكتب ونشرها. ونشط في مجال التنظير والتخطيط الفكري للحركة وتغلبت النزعة السياسية على إنتاجه الفكري في كهولته مما عرّضه لكثير من الملاحقات من السلطة المصرية حيث تم سجنه وتعذيبه أكثر من مرة، وكتب وهو في السجن كتابه " في ظلال القرآن" فجاء أثرًا رائعًا وجيّدًا في مجال التصوير الفني للبيان القرآني. ولا تخلو بعض آثاره الفكرية من غلو دفع إليه ما عاشه سيد قطب من بيئة غير سوية فجاءت معالم الطريق عنده معالم فيها من مخاشنة الواقع ومحاربة السلطان ما جعله بعض الغلاة المحرفين ذريعة لاستحلال حرمات المسلمين، على سوء فَهْمٍ مما كتب سيد قطب. قُتِلَ - رحمه الله- شنقًا بعد مدةٍ في سجون النظام الناصري في مصر، وكان ذلك في يوم الثلاثاء ٢٩ أغسطس ١٩٦٦ مـ. وأحسبه من شهداء كلمة الحق وإرساء معالمه في واقع الحياة.

القسم الرابع: المستشرقون

باحثون مستشرقون وآخرون من دونهم مستغربون، جرّدوا التصوف الإسلامي من أصالته وأنكروا نسبته إلى مصادره الإسلامية، فأرجعوه إلى مصادر يونانيّة وفارسية وهندية ومسيحية، ومن أبرز هؤلاء المستشرقين:

١. ألفريد رولاند ديك ثولك الذي ذهب إلى فرضيَّة ترجع بالتصوف الإسلامي إلى أصول مجوسية، وذلك بأثرٍ من البيئة الفارسية في شمال إيران، والتي تم فتحها باكراً، وقد استند ثولك في دعم هذه الفرضية إلى دعاوى كثيرة وهي في جملتها ضحلة متهافتة ليس لها حظٌ من النظر.

٢. ثم ألفرد فون كريمر[1] وقد ذهب في دراسته للتصوف الإسلامي إلى أنّ التصوف الإسلامي مرّ بمرحلتين:

الأولى: مرحلة الزهد والنسك والفرار من الدنيا، وأرجع هذا المنحى في التصوف الإسلامي إلى مصدر مسيحي تغذّيه الرهبانية والكهانة.

الثانية: مرحلة الاستبطان الداخلي للقيم الصوفية، مثل الحب الإلهي والفناء والاتّحاد ووحدة الوجود والإشراق الباطني، وأرجع فون كريمر هذه المرحلة في التصوف الإسلامي إلى مصدرين:

- ✧ مصدر هندي بوذي.

---

[1]/ ألفرد فون كريمر: مستشرق نمساوي ولد في فينا -سنة: ١٨٢٨مـ). أتقن اللغة العربية تحدثًا وكتابًا وعمل قنصلاً لبلاده في مصر وبيروت ودمشق، له كثير من الدراسات باللغة العربية أشهرها: "عبد الغني النابلسي وشعره" إلى جانب تفننه في مقاربة الفكر الإسلامي في تنوع شمل الشعر، البلدان، الأحكام السلطانية، إلى جانب دراسة في الأدب الصوفي ولاسيّما في مجال الشعر. توفي (سنة: ١٨٨٩م).

✧ مزيج من الأفلاطونية المحدثة والزرادشتية، وإلى هذا المزيج ترجع الفلسفة الإشراقية عبر رائدها المقتول يحيى بن حبش السُهروردي.

هذا ويقول الدكتور أبوالعلاء عفيفي في مقدمته لطائفة من الدراسات التي نقلها إلى العربية من تأليف أستاذه البروفسور رينولد نيكولسون البريطاني: [لقد شهدت أخريات القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين جيلاً جديداً من الباحثين في التصوف، خطوا بدراسته خطوات واسعات، ووضعوا الأسس الحقيقية التي تستطيع الأجيال المقبلة أنْ تبني عليها، وأشهر رجال هذا الجيل على الإطلاق اثنان، هما:

١. الأستاذان لويس ماسينيون.[1]

٢. و رينولد نيكولسون.

وإن كنا نستطيع أن نذكر غيرهم من كبار المستشرقين الذين أدخلوا التصوف في نطاق دراساتهم الإسلامية الكثيرة، وإن لم يتخصصوا فيه، وذلك أمثال:

---

[1]/ لويس ماسينون: مستشرق فرنسي ولد (سنة: ١٨٨٣م). في ضاحية من ضواحي باريس. ودرس اللغة العربية في المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية وحصل منها على دبلوم في اللغة الفصحى والعامية ومن ثم بدأ حياته الاستشراقية.

له بحوث ودراسات عن الكثير من الشخصيات الإسلامية، والصوفية مثل ابن سبعين وابي الجسن الششتري، كما عني بالبحث عن آثار الصحابي الجليل سلمان الفارسي ﷺ وقد نشر كتاب الطواسين للحلاج سنة١٩١٣م النص مع الترجمة الفارسية تبعًا لمخطوطات في استانبول ولندن مع دراسة قدم بها بين يدي النشرة، وله دراسة بعنوان "عذاب الحلاج شهيد التصوف الإسلامي" وله بحث حول نشأة المصطلح الفني في التصوف الإسلامي" توفي ماسينون في ٣١ أكتوبر ١٩٦٢م

١. العلامة جولد سيهر[١].

٢. والأستاذ إدوارد قرانفيل براون[٢].

---

[1]/ جولد تسيهر: مَجَري الجنسية، ولد (سنة: ١٨٥٠م). حصل على الدكتوراه من جامعة ليبستك بإشراف أستاذه في الدراسات الشرقية وقام برحلة إلى الشرق العربي حيث زار فلسطين وسوريا ومصر، وعُيِّن أستاذًا للدراسات الإسلامية في جامعة بوادبست عام ١٨٩٤ بعد أن نشر أبحاثًا قيِّمة في مجال الدراسات الإسلامية:

له عدة أبحاث منها: "دراسات إسلامية" في جزاين، وقدم لكتاب (فضائح الباطنية) للإمام أبي حامد الغزالي، وكتابه المشهور "محاضرات في الإسلام" وقد ترجمه بعض علماء الأزهر إلى اللغة العربية تحت عنوان " العقيدة والشريعة في الإسلام". ويُعَدُّ هذا الكتاب من أهم آثار جولد تسيهر وأكثرها تأثيرًا في دراسات الباحثين في القرن العشرين، وقد تم طبع هذا الكتاب في لغته الأصلية عام ١٩١٠. ثم طبعت ترجمته العربية عام١٩٦٤م. وكتابه " اتجاهات تفسير القرآن عند المسلمين" وتعرض فيه بإيجاز للتفسير الإشاري عند السلمي والقشيري والقونوي وقد طبع هذا الكتاب في لغته المجرية عام ١٩٢٠م. وفي عام ١٩٢١مات جولد تسيهر في بوادبست وعمره إحدى وسبعون سنة.

[2]/ إدوارد قرانفيل: مستشرق إنجليزي ولد (سنة: ١٨٦٢ م). بدأ دراسة الطب في جامعة كمبردج عام ١٨٧٩م ثم أبدى ميولاً وتوجُّهًا نحو دراسة اللغات الشرقية فدرس الهندية والفارسية، ثم تفرغ لدراسة الطب في جامعة كمبردج نفسها وأكمل دراسته الطبية حيث حصل على بكلاريوس الطب في عام ١٨٨٧م. ثم انصرف لدراساته الشرقية ولم يمارس مهنة الطب، فدرس اللغة التركية، واللغة العربية. ثم عُيِّن في عام ١٨٨٨ مدرسًا للغة الفارسية في جامعة كمبردج. ثم تم تعيينه عام ١٩٠٢ أستاذًا للغة الفارسية في جامعة كمبردج.

ترك براون آثارًا قيمة في مجالين بلغ درجة التخصص فيهما في دراساته الشرقية وهما:

١. مجال الأدب الفارسي.

٢. الفرق الفارسية ولاسيِّما (البابية) وما تولد عنها من الفرقة البهائية.

٣. وماكس هورتن.

٤. وريتشارد أسْبن.

٥. والأستاذ ماكدونالد[١].

٦. والبارون كاراديفو[١].

ويعتبر كتابه " التاريخ الأدبي الفارسي" من اهم ما ترك من آثار علمية حيث صار هذا الكتاب المرجع الأهم في تاريخ الأدب الفارسي بمختلف دوراته التاريخية. توفي (سنة: ١٩٢٦م).

[١]/ **دانكن بلاك ماكدونالد**: مستشرق أمريكي بريطاني الأصل ولد (سنة: ١٨٦٣مـ). وهاجر إلى أمريكا مفتتح القرن العشرين. درس العربية وآدابها في أكسفورد، ثم واصل دراسته للغة العربية حتى تمكن منها. اختير عضواً في المجمع العلمي العربي في دمشق، وكتب غالب دراساته باللغة الإنجليزية، ومن أهم دراساته:

١. أوجه الإسلام) وقد بحث فيه مذاهب علم الكلام منحازاً لمذهب الاعتزال واصفاً هذا المذهب بالعقلانية والاتساق المنهجي في التفكير، وقد نشر كتابه هذا عام ١٩١١ في نيويورك.

٢. التَّدين الانفعالي في الإسلام وتأثره بالسماع، وهو دراسة عن السماع عند المتصوفة وآثار هذا السماع عندهم من حيث السلوك والأخلاق والمعرفة بوصفها مظاهر للتدين. ثم طور مقالته هذه لتصبح كتاباً طبع في نيويورك عام ١٩١٧م.

٣. الحياة الدينية في الإسلام وهو دراسة عُنِيَ فيها ماكدونالد بالجانب الاجتماعي والعبادات في الإسلام، وهي دراسة متوازنة ولكن تنقصها الخبرة الكافية بخصائص الحياة الدينية الحقّة وقيم الدين التي تحكم هذه الحياة، ولعلَّ مردّ هذا النقصان أن ماكدونالد لم يك من المستشرقين الذين تأتى لهم أن يزوروا البلاد العربية أو الإسلامية عدا دمشق التي زارها مرة واحدة ثم اعتمد على المراسلة في عضوية المجمع العلمي العربي. توفي (سنة: ١٩٤٣م).

٧. والأستاذ مرغوليوث.

٨. والأسقف أسين بلاثيوس.[1] وغيرهم].

---

[1]/ البارون كاراديفو: مستشرق فرنسي ولد في باريس عام ١٨٦١م. ودرس اللغة العربية وآدابها في المعهد الكاثوليكي في باريس.

تم تعيينه في عام ١٨٩٥ مدرسًا للغة العربية وآدابها في المعهد الكاثوليكي في باريس. وكان معنيًا في بدايات حياته العلمية بالعلوم والرياضيات حيث نشر عددًا من المؤلفات في هذا المجال مثل:

١. شرح كتاب الكرويات، تصحيح يحيى بن محمد المغربي.

٢. نشر كتاب الآلات والحيل، تأليف هيرون.

٣. الآلات المائية ومضاغط الهواء لفيلون البيزنطي.

وبدأ في مفتتح القرن العشرين بنشر دراساته عن الشخصيات الفلسفية في الإسلام حيث أصدر دراساته عن:

١. الشيخ الرئيس ابن سينا عام ١٩٠٠م.

٢. أبي حامد الغزالي عام ١٩٠٢م.

٣. يحيى بن حبش السُهروردي. عام ١٩١٠م.

بدأ في الربع الأول من القرن العشرين دراسات متخصصة في الفلسفة والفلاسفة المسلمين حيث أصدر ثلاثة كتب اعتبرها الباحثون مراجع هامة في بابها وهي:

- الحكمة المشرقية.
- ترجمة تائية ابن الفارض.
- مفكروا الإسلام [خمسة أجزاء].

وقد عاش كاراديفو حياته باحثًا في الفلسفة والفكر الإسلامي حتى مات عام ١٩٢٣م وهو في الثانية والستين من العمر.

[2]/ آسين بلاثيوس: مستشرق أسباني ولد (سنة: ١٨٧١مـ). في مدينة سرقسطة، وبدأ عمله الديني كاهنًا في كنيسة سان كياتو بمدينة سرقسطة عام ١٨٩٥ فور تخرجه من المعهد

المجمعي الديني وأمضى عامًا واحدًا. وحصل على الدكتوراه عام ١٨٩٦ بدرجة ممتاز وكانت دراسته عن الإمام أبي حامد الغزالي.

أصدر عام ١٩١٩م دراسته الإسلامية تحت عنوان " الأخرويات الإسلامية في الكوميديا الإلهية". وقد كانت الكوميديا الإلهية لمؤلفها دانتي من أهم الآثار التي بحثت الأخرويات في منظور مسيحي وقد جاءت كوميديا ساحرة بأسلوب دانتي ذي القدرة العالية على التصوير الفني حتى نعت نقاد الأدب الأوربي الكوميديا الإلهية بأنها من الروائع الخالدة في الآداب الأوربية باعتبار أن دانتي قد كان أصيلاً مبدعًا فيها. ولكن بصدور دراسة بلاثيوس " الأخرويات الإسلامية في الكوميديا الإلهية" وهي دراسة ناقدة لكوميدية دانتي حيث جرد آسين بلاثيوس دانتي من الأصالة والإبداع وجعل الكوميديا الإلهية الذائعة الصيت صدى عن أصداء الأخرويات الإسلامية، لاسيما حديث المعراج النبوي ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري.

وقد كانت ردود فعل قول بلاثيوس بتأثر دانتي بالأخرويات الإسلامية وهو يكتب الكوميديا الإلهية بما تصور من مشاهد القيامة عنيفة جدًا وذلك بما جملته من مفهوم تأثر ديانة دانتي المسيحية بما جاء به الإسلام من تصورات وحقائق عن اليوم الآخر وتأثر دانتي بالإسلام وديانته المسيحية بالرؤى الأخروية الإسلامية هو الذي أثار ثائرة الأوساط العلمية ليس في أوربا وحدها وإنما في كافة أرجاء العالم، وصدر العديد من الدراسات من مختلف المحافل العلمية المنحازة للمفهوم المسيحي عن الآخرة تحمل بين طواياها نقدًا متحاملاً وعنيفًا على بلاثيوس ووصفته بعضها بالهرطقة والافتراء والتدجيل، ولم يشفع لبلاثيوس أنه كان أبًا في الإكليريوس اليسوعي أو لعل مكانته الدينية وموقعه كأبٍ هو الذي أثار عليه هذه الثائرة التي خرجت من إطار النقد الأدبي لنص ناقد لتدور في عنف في محور ديانة بلاثيوس والتشكيك في إخلاصه فيها. وقد كان ردُّ فعل بلاثيوس على تلكِ الحملة العالمية الجائرة التي واجهها وهو ينقد الكوميديا الإلهية نقدًا علميًا وأدبيًا رصينًا أنْ زاد صلابةً في موقفه المؤيد لتأثير الإسلام على أوربا المسيحيَّة وعكف في جدٍّ ومثابرةٍ على جمع مقالاته التي بحث فيها تأثير الإسلام في المسيحية بعامة وفي أوربا بصفة خاصة، في مجلد ضخم أصدره عام ١٩٤١م تحت عنوان " تأثيرات الإسلام". ويعتبر كتاب تأثيرات الإسلام من أهم الآثار التي تركها هذا المستشرق المنصف.

ويلاحظ أنَّ معظم الدراسات التي عاصرت هؤلاء المستشرقين أو جاءتْ بعدهم. قد اعتمدت على فرضيَّاتهم، التي أرجعوا فيها أصل التصوف الإسلامي إلى مصادر يونانية وفارسية وهندية ومسيحية.

وقد فرَّق نيكولسون بين الزهد والتصوف كما فعل جولد سيهر من قبل، فأرجع الزهد إلى مصادره الإسلامية، أما التصوف الإسلامي فهو في نظره يعود في مصدره إلى الافلاطونية المحدثة ولاسيما الجانب النظري منه يعني التصوف الفلسفي: ويقول نيكولسون في ذلك إنني على يقين من أننا إذا نظرنا إلى الظروف التاريخية التي أحاطت بنشأة التصوف بمعناه الدقيق -النظري- استحال علينا أنْ نردَّ أصله إلى عامل هندي أو فارسي، ولزم أن نعتبره وليداً لاتحاد الفكر اليوناني والديانات الشرقية، أو بعبارة أدق وليدًا لاتحاد الفلسفة الأفلاطونية الحديثة والديانة المسيحية والمذهب الغنوصي).

هذا وقد نحا معظم الباحثين في تاريخ التصوف الإسلامي ومصادره من المعاصرين نحو المستشرقين، وأخذوا بفكرة التأثير والتأثر التي تعتبر من المزالق الخطيرة في البحوث، التي تتصدَّى لدراسة المنهجيات الفكرية والمذاهب السلوكية، لاسيَّما إذا قال بها مَنْ لا يملك مِن الأدلة والبراهين ما يقيم حُجَّته على ما ذهب إليه من فرضية التأثير والتأثر.

وعلى كثرة تتبعي لدراسات الباحثين الذين نقلوا عن المستشرقين فرضية المصادر الأجنبية للتصوف الإسلامي، إلا أني لم أقف على رأي

وقد ذاع صيت هذا الكتاب في الدوائر ذات الأداء الرصين المتميز في أوربا. توفي بلاثيوث (سنة: ١٩٤٤م).

يمكن أن يكون مقنعًا ببراهينه وأدلته، وبالتالي فهي لا تشكل اضافة في هذا المجال وإنْ صدرت من باحثين جادّين من أمثال:

١. الدكتور زكي مبارك.
٢. والدكتور عبد الرحمن بدوي.
٣. والدكتور عبد القادر محمود.
٤. والدكتور عمر فروخ.

هذا وقد نجد بعض الباحثين في مجال التصوف الإسلامي ومصادره عالة على أقوال المستشرقين الذين مرَّ ذكرهم، لا بمنطق البحث العلمي والالتزام بحقائقه الموضوعية كما يلزم أن تكون البحوث الجادة، وإنما بدافعٍ من مذهبية متعصبة وخطة سياسية موضوعة، فجاءتْ هذه البحوث وهي خالية من الموضوعيَّة والجدِّيَّة والصدق خلوَّها من الفقه والورع ومعاني الايمان.

ويستوقفنا في هذا المضمار بحوث صدرت باسم السلفية ومدرستها، والسلف الصالح منها براء ومن هذه البحوث:

١. مصرع الشرك والخرافة.
٢. مصرع التصوف: لبرهان الدين البقاعي – تحقيق – عبد الرحمن الوكيل.
٣. التصوف والمتصوفة: لعبد الكريم الخطيب.

وهذه البحوث وإنْ حاول بعض مؤلّفيها الظهور بمظهر الباحث العلمي المتجرِّد، إلا أنَّها تتفق جميعُها على هدفٍ واحد، هو رفض التصوف الإسلامي وإبعاده عن مصادره الإسلامية، في اعتدالٍ وهدوءٍ مِن بعضهم وفي صخبٍ وجلَبةٍ وتهويلٍ وتعصُّبٍ من بعضهم الآخر.

المبحث الثالث

معاني التصوف الإسلامي عند أئمته

يرتكز مصطلح التصوف الإسلامي على عدة معاني جرتْ على ألسنة أئمة الصوفية ومن ذلك:

قول معروف الكرخي المتوفى عام [٢٠٠ هـ]

"التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق"[1]. وهذا القول يذهب بالتصوف إلى معنى اليقين والعفة استغناء بالله.

❖ قول أبي سليمان الداراني المتوفى عام [٢١٥ هـ]

"التصوف هو إخفاء المنازلات والتكتُّم على الحالات حتى لا يعلم بها إلا رب البرية".

قول بشر بن الحارث الحافي المتوفى عام [٢٢٧ هـ]

"التصوف صفاءُ القلب".

قول ذي النون المصري المتوفى عام [٢٤٥ هـ]

"التصوف إيثار الله على كل شيء ليؤثرك الله على كل شيء".

وقوله "التصوف أن يكون كلامك عين حالك وأن يكون حالك ناطقاً بقطع العلائق الدنيوية". وهذا القول يذهب إلى جعل التصوف منهاجًا سلوكيًّا يتطابق فيه القول والعمل، وتضيق فيه الشقة بين الكلمة ومثالها الواقعي، حتى يعبِّر واقع المتصوف عمًّا يُكنُّه في قلبه من كريم المشاعر

---

[1] الرسالة القشيرية ج٢ ص٥٥٢.

ليكون بذلك فاعلاً بما يقول منفعلاً بما يسمع من الحق وآية ذلك [التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود][1] ، كما جاء في الأثر، وهو ذات المعنى الذي عبَّرَ عنه ذو النون حينما وصف حال المتصوف بأنه [ناطق بقطع العلائق الدنيوية].

قول أبي تراب النخشبي[2] المتوفى في عام [٢٤٥هـ].

[الصوفي لا يكدُره شيء ويصفو به كل شيء][3] ، وفي هذا المعنى ملحظ يجعل التصوف منهجًا متساميًا لا تلحق به كدورات الطبع، ولا دنسُ النفس

---

[1] / حديث:{ التجافي عن دار الغرور}: اخرج الحاكم عن ابن مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ (الأنعام ١٢٥) قال: {إن النور إذا دخل الصدر انفسح } فقيل يا رسول الله هل لذلك من علم يعرف به؟ قال: {نعم، التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله} . [المستدرك على الصحيحين ج:٤ ص:٣٤٦ الحديث رقم ٧٨٦٣]. و[شعب الإيمان للبيهقي ٣٥٢/٧] و[الزهد لابن المبارك ١٠٧/١] و[نوادر الأصول للحكيم الترمذي ج ١ص٤١٥].

[2] / أبو تراب النخشبي: واسمه عسكر بن الحصين، و يقال: عسكر بن محمد بن حصين، كان كثير السفر إلى مكة المكرمة وقدم مرة واجتمع بها مع الإمام أحمد بن حنبل، قال أبو نُعيم في الحلية : كان أحد أعلام المتوكلين، وإمام المتجردين، له الرياضات المشهورة، والسياحات المذكورة، دخل أصبهان وسمع من عبد الله بن محمد بن زكريا، ومحمد بن عبد الله ابن مصعب، وصحبه جدي محمد بن يوسف بمكة وبالحجاز مدة مديدة، وكذلك صحبه أبو بكر احمد ابن عمرو بن أبي عاصم النبيل بالبادية . وقال أبو عبد الله بن الجلاء: لقيت ستمائة شيخ ما رايت فيهم مثل اربعة أولهم ابو تراب . أسند أبو تراب عن محمد بن نمير و يعمر بن حماد و غيرهما، و توفي بالبادية في سنة: [٢٤٥هـ] [صفوة الصفوة ج: ٤ ص١٧٤] وانظر [حلية الأولياء ج: ١٠ ص: ٤٥] [تاريخ بغداد ج: ١٢ ص: ٣١٥].

[3] / الرسالة القشيرية ج٢ ص٥٥٥.

ولا شهوات التركيب الجسماني، ذلك لأنه تعاملٌ مع النور المحض والمعدن الصدق الذي لا يكدره شيء ويصفو به كلُّ شيء.

قول الحارث بن أسد المحاسبي المتوفى عام [٢٤٣ هـ]

[التصوف إخراج الخلق من معاملة الله تعالى والنفس أول الخلق]. وهذا قول يعود بالتصوف إلى معنى الإخلاص وترك الهوى، وهما أفضل صفات المؤمنين.

قول السَّري السَّقطي المتوفى عام [٢٥٧ هـ]

[التصوف اسم لثلاثة معانٍ تقوم بالصوفي:

١. ألا يطفيء نورُ معرفته نورَ ورعه.
٢. ولا يتكلم بباطن علمٍ ينقضه عليه ظاهرُ الكتاب والسنّة.
٣. ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله].

وفي هذه المعاني الثلاثة التي أشار إليها السري السقطي في معرض تعريفه للتصوف إشارات عرفانية، تنزع بصاحبها نحو الربَّانية السَّامية، وتضم في أطوائها أدب السلوك إلى الله كأحسن الأدب. ففي المعنى الأول نجد أن الصوفي مهما فتح الله عليه من مغاليق المعرفة وأمدَّه من حياض العلم، وأمكنه من تصريف القول واستنباط ما جَدَّ من المعاني ينبغي أن يكون ورِعًا حتى لا يطفيء نورُ عقله نورَ ورعه فيغدو بذلك نظَّاراً قويًا دون روح سامٍ وقلب متفتِّح، لأن قوة التفكير ومَضَاءَ العقل[1] دون ورع قد تُفضي بصاحبها

[1] / مَضَاء العقل: حِدَّته.

إلى الابتداع والقول على الله بغير علم، وهو أمر هلك في دركاته كثير من أذكياء البشر الذين طغى نورُ معرفتهم على نورِ ورعهم.

كذلك المعنى الثاني الذي جاء يحمل معنى الالتزام التام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. فلا يحقُّ للمتصوف بهذا المعنى أنْ يطلق كلمات يزعم لها من الدلالات الباطنية ما يعارض الشريعة في مصدريها التوقيفيَّين، لأن الله لم يضمن العصمة لقول أحد من البشر خلا الرسل؛ وقد جاء القرآن والسنة معصومان وهما عروة الإسلام وسناده، ولا يُسأل المرءُ عند الله إلا عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والسَّري السَّقطي يُحذِّر الصوفية بهذا المعنى من خطر الباطنية، الذين يلحدون في أسماء الله وصفاته ويزعمون أنهم على حقائق ودقائق من دين الإسلام، والحال أنَّ ظاهر القرآن والسنَّة ينقض ما قالوا ويبطل ما زعموا.

ثم يأتي المعنى الثالث ليجعل البُعد عن محارم الله صفة ملازمة للصوفي. فلا ينتهك هذه المحارم، وفي كلام السقطي ردٌّ على مَن يزعم القُرب من الله والكرامة عنده بخرق العوائد وهو لا يتورَّع عن الوقوع في محارم الله، فتراه يشرب الخمر أو يزني أو يأتي المنكرات ثم يشاع عنه أنه من أهل الكرامات، أيُّ كرامة هذه التي لا تكرم صاحبها بإبعاده عن الخبائث والفجور والموبقات!!، وما أحسب هذا الضرب من الناس وإن جرَى على يديه ما يخرق العادة إلا مفتونًا مستدرجًا من حيث لا يعلم، فليتَّقِ الله ربَّه وليلتزم شرعة الله ورسوله ﷺ وليستقم كما أُمر، فالاستقامة خير من ألف كرامة. وقد نبَّه الإمام السري السقطي إلى هذا المعنى قبل ألف عام، فهلاً تورَّعَ الخائضون في محارم الله باسم التَّصوف والتَّصوف منهم براء!!.

قول أبي حفص الحداد[1] المتوفى عام [٢٦٥ هـ]

[التصوف تمام الأدب]. وهذا معنىً شامل متَّسع ليستوعب كلَّ علاقات الإنسان. وأشرف الأدب ما كان في المعاملة مع الحق ثم المعاملة مع الخلق، لأنَّ تمام الأدب مع الحق من كمال المعرفة، وتمام الأدب مع الخلق من كمال الأخلاق، ومن كَمُلتْ معرفته بربه واكتملتْ أخلاقُه فإنَّه من السُّعداء.

قول سهل بن عبد الله التُّسْتَرِي المتوفى عام [٢٨٣ هـ]

[التصوف: الصفاء من الكدر، والامتلاء من الفِكَر، والانقطاع إلى الله من البشر، وأنْ يستوي في نظر صاحبه الذهب والمدر[2]].

وهذه معانٍ في التصوف تجعل المتصوف طاهر القلب سليمه سامي الروح وضيء النفس ساكن الفؤاد ذكي العقل زاكي النِّجار[3]، وهي معاني عبَّر عنها التستري بقوله [الصفاء من الكدر].

أما [**الامتلاء من الفِكَرْ**] فهو إعمال العقل في ملك الله وإعمال الروح في ملكوته وصولاً إلى التَّدبُّر والتَّعقُّل عن الله جلَّ شأنه الذي بثَّ معالم وجوده، وآيات حكمته، ودلائل خلقه وعظمته، في آيات جعلها في الآفاق

---

[1] / أبو حفص الحداد: قال أبو نعيم في الحلية :هو عمر بن سلمة النيسابوري، كان أحد المتحققين له الفتوة الكاملة، والمروءة الشاملة، تخرج به عامة الأعلام النيسابوريون منهم أبو عثمان النيسابوري وشاه الكرماني ، صحب عبد الله الأبيوردي ، وكان من رفقاء أحمد ابن حضرويه المروزي . توفي سنة سبع وقيل أربع وستين ومائتين [٢٦٤] [حلية الأولياء ج ١٠ ص٢٢٩].

[2] / المَدَرُ: قِطَعُ الطين اليابس.

[3] / النِّجارُوالنَّجْرُ : الأصلُ والحسبُ.

وفي الأنفس دالة على عظيم خلقه وعلى حكمته وواسع خبرته وعلمه ودقيق صنعه. ومقصود الإنسان من التفكر في هذه المعاني هو إذعان هذا الإنسان لعظمة الربوبية وجلال الألوهية، وهذا من مدارج العبودية الصّدْق للرُبوبيَّة الحقِّ، وهكذا ينبغي أنْ يكون الصوفي.

أما [الانقطاع إلى الله من البشر] فهذا معنى ملحوظٌ فيه الخلوة الشُعوريَّة بالله، حيث تنسجم ملكات الإنسان في توجُّهها إلى الله بعيداً عما يشغلُ الإنسان أو يشتِّتُ انتباهه عن أدب الحضور مع الله خلال تعامل هذا الإنسان في الحياة، والخلوة الحِسِّيَّة المؤقتة تعتبر وسيلة فاعلة في الوصول إلى هذه الخلوة الشعورية، وفي مشروعيَّة الاعتكاف تأصيلٌ لهذا الأمر.

أما "استواء الذهب والمدر" في نظر الصوفي فهذا يعني تمام الزهد في الدنيا بحيث لا يهمُّ الصوفي من المال شيء، وسواءٌ عنده افتقرَ أو اغتنَى، لأن لوازم كلٍّ من الغنى والفقر ينبغي الوفاء بها، فالصوفي إنْ أعطاه الله من فضله شكر ومظهر شكر النعمة الإنفاق منها ابتغاء وجه الله، وآية الإخلاص في الإنفاق سماحة النفس به وانشراح الصدر له حتى يكون المال في يد الصوفي يوجِّهه أنَّى اقتضتْ إرادة الله ومرضاته، أما إن قُتِّر عليه فقَدَر عليه رزقه فليكن صابراً تحت مجاري الأقدار من غير تبرُّم ولا تَسَخُّط، حامداً الله على كل حالٍ أوجده الله عليها شاكراً لأنْعُمه التي لا تُحصَى، وقد يأتي في مرتبة أرفع ومقامٍ أعلى مَنْ إذا أعطاه الله آثرَ، وإذا قَتَّر عليه رزقَهُ شكَر.

قول أبي سعيد الخرَّاز المتوفى عام [٢٦٨ هـ]

[الصوفي مَنْ صَفَّى ربُّه قلبه فامتلأ قلبُه نوراً، ومَنْ حلَّ في عين اللذة بذكره الله]، وهذا معنى ينحو بالتصوف مَنْحًى يجعله صيقلاً[1] للنفس ونوراً للقلوب، حيث تصفو لربها فيصفّيها الله من كدر الأغيار، فيغدو العبد مُحَرَّراً خالصًا لوجه الله الكريم متعرِّضًا للنفحات الرحمانية حتى يغدو نوراً.

وقوله أيضًا: [التصوف مصافاة الله والحلول في عين اللذة بذكر الله]، وهو معنى جليل يهدف إليه الإسلام في كلِّ تعاليمه، ذلك لأنَّ مصافاة الله تعني إخلاص العبودية له بروح سام وقلب طاهر مِنْ رقِّ الأغيار. والمعاملة الصافية من شوب المخالفات تُورثُ القلبَ نوراً والروحَ سموًّا والعقل مضاءً والجسم نضارةً.

أما الحلول في عين اللذة بذكر الله فهذا معنى يجعل الذاكر من أهل شهود الجمال الإلهي، الذي تجلَّى للذاكر فعاش في عين اللذة الروحية بمشاهدة هذه المرائي الجمالية التي تُقِرُّ العين وتُريح القلب وتجعل الروح الإنساني في تسامٍ إلى عالم الملكوت الطاهر، حيث الجمال والكمال المطلق، الذي يبعث في الوجدان لذَّةَ الأُنس في حضرة اللقاء، وهل شيء أعظم وأجمل وألذَّ من لقاء الله الحبيب، وقد ثبت قوله جلَّ شأنه في الحديث القدسي: {أنا جليس من ذكرني}[2]، وقوله تبارك وتعالى في القرآن: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ

---

[1] / صيقلاً: الصَّيْقل، شحَّاذ السيوف وجَلاَّؤُها. والجمع صياقل وصياقلة. [لسان العرب لابن منظور].

[2] / حديث: {أنا جليس من ذكرني}: أخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن كعب الأحبار، قال: قال موسى عليه السلام :{أي رب اقريب انت فاناجيك أم بعيد

أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾[1] فمجالسة الله في الذكر هو ما عناه هذا العارف بقوله [الحلول في عين اللذة بذكر الله].

قول عمرو بن عثمان المكي المتوفى عام [٢٩٢ هـ]

[التصوف أن يكون العبد في كل وقت مشغولاً بما هو أولى في الوقت][2]، وهذا المعنى يعطي التصوف دلالة الالتزام بمنهج العبودية والعمل على تحقيق متطلبات هذا المنهج، ذلك لأنَّ ما هو أولى بالعبد في كل وقت، أن يعمل على تحقيق عبوديته للرحمن، باعتباره الغاية

فأناديك } قال ﴿ يا موسى أنا جليس من ذكرني ﴾ قال {يا ربِّ فإنا نكون من الحال على حالٍ نعظِّمك أو نجلُّك أن نذكرك عليها } قال ﴿ وما هي ﴾ قال { الجنابة والغائط } قال ﴿ يا موسى اذكرني على كل حال ﴾ قال المناوي: [اذكرني على كل حال] أي بالقلب كما تقرر. قال الأشرفي: الذكر نوعان قلبي ولساني والأول أعلاهما وهو المراد في الحديث وفي قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب ٤١) وهو أنْ لا ينسى الله على كل حال، وكان للمصطفى ﷺ حظ وافر من هذين النوعين إلا في حالة الجنابة ودخول الخلاء، فإنه يقتصر فيهما على النوع الأعلى الذي لا أثر فيه للجنابة، ولذلك كان إذا خرج من الخلاء يقول {غفرانك}. وقال غيره لا ينافيه حديث كرهت أن أذكر الله إلا على طهر وتوضأ لرد السلام لكونه ذكر الله لأنه أخذ بالأفضل والأكمل.انظر [فيض القدير ج١ ص٣٠٤] و[مصنف ابن أبي شيبة ج: ١ ص: ١٠٨ الحديث رقم ١٢٢٤] و [مصنف ابن أبي شيبة ج: ٧ ص: ٧٣] و[الجامع الصغير للسيوطي ج: ١ ص: ٣٠٤] و[شعب الإيمان للبيهقي ج١ ص٤٥١ الحديث رقم ٦٨٠].

[1]/ البقرة:الآية ١٥٢.

2/ الرسالة القشيرية ج٢ ص٥٥٢.

والمقصد الذي خلق الله الإنس والجن لتحقيقه يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1] ولما كان الزمن والوقت ظرفًا لمجريات الأحداث، فالتصوف في نظر المكي، هو أن يملأ العبد هذا الوقت بما يقرِّبه إلى الله زُلفى وبما يحقِّق مواصفات العبودية، وأهم هذه المواصفات الإيمان والعمل الصالح، وهما أمران ينبغي ألا يُشغَل الصوفي بغيرهما، ووقتٌ ملأه العبد وشغله بالإيمان والعمل الصالح لهو زمن شريف ووقت نفيس، وذلك لأنّه وقتٌ محرَّر خالص له، وبمقدار قُرب الوقت من نَفَسِ الرحمن تتقدَّس آثار صاحبه.

قول أبي الحسين النوري المتوفى عام [٢٩٥ هـ]

[التصوف:

١. الحرية.

٢. والكرم.

٣. وترك التكلُّف.

٤. والسخاء].

وهذا معنى يقيم التصوف على أربع دعائم:

أولها: الحُرِّيَّة: وتعني في هذا السياق أنْ يتحرَّر المتصوف عن كل ما سوى الله، فلا يستعبده مخلوق، ذلك لأنَّ كمال العبودية يقتضي أنْ يكون العبد

---

[1]/ الذاريات: الآية [٥٦].

متحرراً عمَّا يشغله من الوفاء بلوازم هذه العبودية، ولعلَّ أكثر ما يشغل العبد عن الوفاء بلوازم العبودية أربعة أشياء:

١. حب النفس بداعية من الهوى.

٢. حب المال بداعية من شهوة الامتلاك.

٣. حب الجاه والمنصب بداعية من شهوة التسلُّط ونفوذ أمره.

٤. حب الحياة بداعية من تحقيق اللّذات.

فإذا سيطر حبُّ هذه الأشياء على العبد استعبدته، فصار عبداً للهوى وعبداً للمال وعبداً للجاه وعبداً للحياة.

والتصوفُ بنظر "النوري" هو تحرير الإنسان من هذه العبودية، ليكون الإنسان عبداً خالصاً للرحمن.

والحريةُ بهذا المفهومَ الصوفي ينبوع عطاءٍ ومعينٌ ثرٌّ بقيَم ومبادئ تستعلي على كلِّ مظاهر الاستكبار، وتتسامَى عن كل صنوف الاستعباد: لتكون حرية العطاء الإيجابي في تنزُّهٍ عن الأثرة، أو الركون إلى الشهوة وإنْ كانت خفيَّة.

ثانيها: الكرم:

والكرم في سياق لفظ النوري يأتي بمعنيين هما:

- التجاوز أو الصَّفح.
- الفضل.

فكان الصوفي في المعنى الأول هو الذي يمتاز بصفة الصفح عن زلات الآخرين والتجاوز عن عثراتهم، وهذا مفهوم يرتقي بصاحبه درجات عالية في

مراقـي الأخـلاق الحـسنة، وإتمـام مكـارم الأخـلاق تَـرِدُ في هـذا الـسياق كهدف أساسي من أهداف رسالة الإسلام.

أما الكرم بمعنى الفضل، ويأتي الكريم منه بمعنى الفاضل، والمُكرَم بمعنى المفضَّل فإنه إشارة إلى أنَّ المتصوف مكرم عند ربه مأثور لديه، يغضب لغضبه ويعلن الحرب على مَن آذاه، وهذا معنى يجعل جانب الصوفي جانبًا حميًّا، لأنَّ اعتماد الصوفي على الله وتحرُّره عمًّا سواه، يجعله مستنداً في حياته على قوةٍ لا تُقهر، محاطًا بكنف الله الذي لا يرام، ومحفوظًا بعزِّه الذي لا يُضام، ذلك لأنَّ المتصوف قد اقتعد مقام التقوى والحق تبارك وتعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾[1] وتعني (أَكْرَمَكُمْ) أفضلكم ليعود معنى التصوف إلى هذا المدلول في الآية الكريمة وهو ما هدف إليه النوري في قوله [التصوف ..والكرم].

---

[1]/ الحجرات: ١٣.

ثالثها: ترك التكلف:

والتكلف هو تحمُّل ما يشقُّ على الإنسان بداعٍ مِن حُبِّ الظهور أو حُبِّ الثناء.

والصوفي بحكم المنهج والهدف يلزمه أنْ يكون على مبعدة من الهوى والميل إلى الأغراض الدنيوية.

وترك التكلف تعبيرٌ سلوكيٌّ عن بساطة المعاملة وانشراح الصدر بما قسم الله من الرزق.

والتكلُّفُ مشقّةٌ تنقض ظهر الفقير بما لا قِبَل له به، فيلزم الصوفي أنْ يترك هذا التكلف الذي يثقل على قلبه فيشغله عما هو أولى به في الوقت.

رابعها: السخاء:

والسخاء ضرب من الجود تهتزُّ به مشاعر الكريم من الناس، فيسخو بالعطاء، وليس بالضرورة أن يكون العطاء ماديًّا.

ومن السخاء طلاقة الوجه وحُسن الخلُق.

والصوفي جواد سخي وفقًا للمنهجية الصوفية التي فهم الصوفي من خلالها أنّه مستخلف عن الله في كل ما خوّله من عطاء، ويلزم من ذلك أن يكون سخيًّا بالعطاء في وجوه البر والخير.

وعلى ذلك فإنَّ البخل والتصوف لا يجتمعان أبداً، ومَن كان قابضًا كزًّا[1] من الناس بَعُدَ عن مدارج التصوف الحق.

---

[1] / كزًّا: الكَزَازَةُ والكُزُوزَةُ: اليُبْسُ، والانْقِبَاضُ ورجلٌ كَزُّ اليَدَيْنِ: ذُو كَزَزٍ، اي: بُخْلٍ.

قول الإمام أبي القاسم الجنيد المتوفى عام [٢٩٧ هـ]

التصوف:

- ذكرٌ مع اجتماع.
- ووجدٌ مع استماع.
- وعملٌ مع اتباع.

والذكر مع الاجتماع بالمذكور يورث الحضور ومِن لوازمه الأدب.

والوجد مع الاستماع يورث الأُنس ومِن لوازمه طمأنينة القلب والسُّكون تحت مجاري الأقدار.

والعمل مع الاتِّباع يورث الحب ومِن لوازمه القرب.

والإمام الجنيد رضي الله عنه يشير بهذا التعريف للتصوف إلى أنَّه منهج يفضي بمن سلكه إلى الأدب مع الله والأنس بالله والقرب من الله، وكلُها معانٍ جاءتْ بها شريعة الإسلام في الوحي المعصوم.

فعمل الصوفي يلزم أنْ يكون على منهج الإسلام اتِّباعًا لما جاء به رسول الإسلام سيدنا محمد رسول الله ﷺ، فإذا خالف عمل الصوفي منهج الإسلام ولم يكن متَّبعًا للمصطفى ﷺ فليس بصوفي.

وعندما نقول إنَّ العمل مع الاتباع يورث الحب فإنما نلحظ في ذلك البيان القرآني الذي جاء فيه قول الله تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]

---

[1]/ آل عمران: ٣١.

وقوله تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾[1]

كما نلحظ في ذلك الحديث القدسي الصحيح الذي جاء فيه {ما تقرّب إليّ عبدي بأحب مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه}[2] الحديث.

وفي هذا الذي أوردناه تأصيلٌ لقولنا بأنّ العمل مع الاتّباع يورث حبّ الله عبده المطيع المتَّبع لمنهجه القويم وصراطه المستقيم. على قدم الرسول الكريم سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ. ومن لوازم الحب الإلهي لمن أحب الله من عباده أن يقرِّبه إليه نجيًا. وليس ثمة جدال ولا خلاف في أنّ القرب من لوازم الحب، وليس بمقرَّبٍ من كان بغيضًا.

والحبُّ مقام فوق القرب كما هو معلوم لأهله. لأنه يورث المعيّة في حضرتيْ الإطلاق والتَّقييد.

---

[1] / النساء: ٨٠ .

[2] / حديث {ما تقرب إلي عبدي بأحب مما افترضته عليه} روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ قالَ قال رسول الله ﷺ: {إنّ الله قال مَن عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضتُ عليه وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنّوافل حتى احبّه فإذا احببته كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينّه ولئن استعاذني لأعيذنّه وما تردّدتُ عن شيء أنا فاعله تردُّدي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته}. [صحيح البخاري ج: ٥ ص: ٢٣٨٤ الحديث رقم ٦١٣٧] و[مسند أحمد ، باقي مسند الأنصار الحديث رقم ٢٤٩٩٧].

أما الذِّكر فهو إشارة على طرف البعد لاستحضار المذكور. فإنْ وفى الذاكر بشروط الذكر تَمَّ له الاجتماع بالمذكور، ولا يكون اجتماع إلا بحضور تام من الذاكر، فإنْ تم حضور الذاكر بكليَّته في حضرة الحق اجتمع به، ومِن اللوازم الأساسية للاجتماع بحضرة الحق الأدب. ومن مقتضيات كمال الأدب وحسنه العلم، وكلما ازداد الصوفي علماً بحضرة الله ازداد حضوراً وخشيةً، وكلما ازداد حضوراً وخشيةً ازداد أدبًا، سيَّما في لحظة التَّجلِّي الإلهي في كُلِّ شأن يُبديه الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾[1] فالذكر مع الاجتماع بهذا المفهوم يعني أن التصوف أدبٌ حَسَنٌ كاملٌ يتجدَّدُ بتجدد العلم بشئون الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾. ولذا لزم تواضع الأديب من الصوفية حتى يرفعه الله في مدارج العرفان. ولا حدّ لكمال الأدب ولا تمام للعلم في حضرة الله، لأنها حضرة إطلاق. وهيهات أن يُعلَم الله، لا يعلم الله إلا الله، وصدق الله القائل: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾[2]

---

[1] / سورة الرحمن:الآية٢٩.

[2] / آية ١١٠ من سورة طه.

وثمة ملحظ آخر في الذكر وهو أنَّ مَنْ ذكر الله ذكره الله تبارك وتعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[1] فمن سمع ذكر الله إيَّاه اعتراه "الوجد"، وهو نشوة تعتري الذاكر حينما يسمع ذكر الله إيَّاه في حضرة الحق حيث يتم له الوجود، ولهذا اختار الإمام الجنيد أن يكون الوجد مع الاستماع، وكل وجد لا استماع معه فهو تواجد لا وجد!!.

❖ قول الإمام أبو محمد الجُرَيْرِي:

وفي ختام هذا الفصل "التصوف المعني" نورد المعنى الذي أورده الإمام أبو محمد الجريري[2] المتوفى عام ٣١١ هـ وهو قوله: [التصوف هو الدخول في كل خُلُقٍ سني والخروج من كل خُلُقٍ دني][3].

وهو معنى ينحو بالتصوف إلى مكارم الأخلاق، ذلك لأنَّ الخُلُق السني هو الخُلُق المشرق الجميل الذي يُعلِي مِن قدر صاحبه عند الله وعند الناس.

وقد جاء التصوف الإسلامي ليجعل هذا المعنى واقعًا مُعاشًا ونهجًا يسلكه المريدون، بعد خروجهم - بمجاهدة هذه النفس والشيطان- من الأخلاق

---

[1] / سورة البقرة:الآية ١٥٢.

[2] / **أبو محمد الجريري**: شيخ الصوفية قيل اسمه أحمد بن محمد بن حسين وقيل عبد الله بن يحيى وقيل حسن بن محمد لقي السري السقطي والكبار ورافق الجنيد فلما توفي الجنيد أجلسوه مكانه وأخذوا عنه آداب القوم حج في سنة إحدى عشرة فقتل في رجوعه يوم وقعة الهبير وطئته الجمال النافرة فمات وذلك في أوائل المحرم سنة اثنتي عشرة [أي ٣١٢هـ] وهو في عشر التسعين. (سير أعلام النبلاء ج: ١٤ ص: ٤٦٧).

[3] / الرسالة القشيرية ج٢ ص٥٥١.

الدنيئة التي تشدُّ صاحبها إلى سفاسف الأمور ودرك الشهوات الوضيعة.

والتصوف بهذا المعنى يعبِّر أصدق تعبير عن المقصد الأساسي لشريعة الإسلام التي بُعث بها الرسول الكريم سيدنا محمد رسول الله ﷺ ليُتمِّم مكارم الأخلاق، وقد أصَّل لهذا المعنى في قوله ﷺ {إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق}[1].

وانظر معي إلى التعبير النبوي بلفظ (إنما) الذي يفيد الحصر، فكأنَّ مقاصد رسالة الإسلام محصورة في إكمال مكارم الأخلاق وفي إطار العبودية الصدق للربوبية الحق، ومن نظر في تراث الصوفية التربوي بتجرُّد ونَصَفَة، وجده يدور على هذا المعنى ويهدف إلى هذا الهدف السامي والمقصد الكريم، فلا جرم أنْ يقرِّر أبو محمد الجريري هذا المعنى ليجعله تعريفاً للتصوف، فهو بحقٍّ تعريف جامع.

---

[1] / حديث { إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق } :أخرجه بهذا اللفظ البيهقي في السنن الكبرى، والبزار، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة. ورواه الطبراني عن جابر بلفظ {إن الله بعثني بتمام مكارم الأخلاق}.

ورواه مالك في الموطأ بلاغاً عن النبي ﷺ، وقال ابن عبد البر: هو متَّصل. وأخرجه أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ {إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ} قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجال أحمد رجال الصحيح. انظر (سنن البيهقي الكبرى ج١٠ ص١٩١) و (مسند الشهاب للقضاعي ج٢ ص ١٩٢) و(نوادر الأصول للحكيم الترمذي ج٢ ص٢١٢). و(سنن البيهقي الكبرى ج١٦ ص٢٥٤). (كشف الخفاء للعجلوني ج: ١ ص: ٢٤٠) و(التمهيد لابن عبد البرج١٦ ص٢٥٤) (مسند أحمد ج: ٢ ص: ٣٨١ الحديث رقم ٨٩٣٩) ، (مجمع الزوائد ج: ٨ ص: ١٨٨).

هـذا وقـد حرصـتُ أنْ تكـون المعـاني المعروضـة للتـصوف في هـذه الدراسة ذات سبق زمانيٍّ لا يعدو القرون الثلاثة الفاضلة، مشيراً بذلك إلى شيوع التصوف بمعانيه الدقيقة، التي لا تخرج على أمرٍ من أمور ديـن الإسـلام ولا تـصادم نـصًا مـن نـصوص الـشريعة، مؤكّداً مـن خـلال هـذه الإشـارة أنَّ التصوف علمٌ من علوم الإسلام، متى دار في رحاب هـذه المعـاني الفِسَاح الـتي الحقـتُ كـلاًّ منهـا بعبـارات مـوجزة اسـتهدفت تقريـب معانيهـا وكـشف غوامضها وتوضيح دلالاتها.

المبحث الرابع

أقوال بعض الكتاب عن التصوف والرد عليها

وعلى الرغم من توافر المصادر الصوفية وغير الصوفية، التي أوردت حقيقة أن التصوف بمعناه الاصطلاحي قد اشتهر وشاع منذ بدايات القرن الثاني الهجري، واستقرتْ قواعدُه وأصولُه كعِلمٍ من العلوم الإسلامية قبل نهاية القرن الثالث الهجري. إلا أنَّ هناك كُتَّابًا تحاملوا على التصوف والمتصوفة فأوردوا من الأقوال ما يطعن في كفاءة هؤلاء الباحثين في الخوض في مثل هذه المباحث، التي تُلْزِمُ أهلها من الباحثين الجادِّين بالتَّجرُّد والنَّصَفَة وإيراد الحُجج والبراهين، دون ما إثارةٍ للعواطف بإرسال الحُكم قاطعًا كأنه تنزيل من التنزيل لا يقبل ردًّا ولا تعقيبًا.

ومِنْ بين الكُتَّاب الذين تحدَّثوا في أمر التصوف الإسلامي بجرأة فاتها الكثير من التَّثبُّت والعلم والورع بدافعٍ من الغرض، الأستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابه "التصوف والمتصوفة في مواجهة الإسلام"، يقول: اكلمة التصوف لم تدخل في قاموس اللغة العربية، ولم تَجْرِ على ألسنة العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ومدة عصر الخلافة الأموية لفظة التصوف، فهي كلمة ولدتْ فيما وُلِدَ واستُحدِثَ من كلماتٍ في العصر العباسي الأول، حيث اشتَّدَّ اختلاط المسلمين من الفرس والروم بالعرب، وامتزجوا بهم وأصهروا إليهم، ثم اتَّسع نفوذهم السياسي والاجتماعي، حتى اصطبغت الدولة بالصبغة الفارسية في أنظمتها السياسية، وفي مظاهر حياتها الاجتماعية، وحتى كادت الخلافة أنْ تتحوَّل إلى الفرس على يد

البرامكة في خلافة الرشيد، لولا أنْ تنبّه لهم وفتك بهم، في هذا الجو وُلدتْ كلمة التصوف، تلك الكلمة الوافدة على اللغة العربية، ولم يرد لها ذكرٌ في كتاب الله ولا على لسان رسول الله ﷺ، ولا على السنة الصحابة والتابعين[[1]].

ملاحظات على أقوال عبد الكريم الخطيب

ولنا على كلام عبد الكريم الخطيب عدّة ملاحظات:

الملاحظة الأولى:

قوله [التصوف كلمةٌ وُلِدَتْ فيما وُلِدَ واستُحدث من كلمات في العصر العباسي الأول] فالتعبير بـ"وُلدت" يعني عدم وجود هذه الكلمة قبل العصر العباسي الأول، وهو قول خاطئ، إذ الثابت - كما ذكرنا من قبل- أنَّ كلمة صوفي قد عُرفتْ قبل نهاية القرن الهجري الأول. ونادى بها الإمام الحسن البصري المتوفى عام ١١٠ هـ بعضَ تلاميذه "عبد الواحد بن زيد"، وقد نقل أهل العلم بهذا الشأن عن الإمام الحسن البصري رضي الله عنه قوله "رأيت صوفيًا في الطواف فأعطيته شيئًا فلم يأخذ وقال: لمعي أربعة دوانق يكفيني ما معي[[1]]. والمعلوم في سيرة الحسن البصري أنَّ آخر حَجَّاته كانتْ عام (٩٥ هـ) وقد كانت كلمة صوفي معروفة بالدرجة التي يمكن أنْ يوصف بها مَنْ تحقّق بها، ويؤيِّد هذا الذي نقول قول الإمام سفيان الثوري: [لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفتُ دقائق الرياء] وهذا يدل على أنَّ هذا الإسم - التصوف- كان يُعرف قديمًا.

الملاحظة الثانية:

قوله «لم يرد لها ذكر»... ولا على السنة الصحابة والتابعين. ونقول: بل قد ورد ذكرها والتابعون متوافرون، وهل كان الحسن البصري إلا تابعيًا متوسطًا!! وقد ثبت أنه عرف هذه الكلمة وجرتْ على لسانه عند عن التراث قبل خمسين عامًا من تاريخ وفاة بعض التابعين. مثل هشام بن عروة بن الزبير[1] المتوفى عام (١٤٦هـ)، وعبد الرحمن بن الحارث المخزومي[2] المتوفى

---

[1] / هشام بن عروة: هو هشام بن عروة بن الزبير بن العوام، سمع عمه عبد الله بن الزبير، وابن عمر، ورأى جابر بن عبد الله، وأباه، والزهري، ووهب بن كيسان. وعنه وعنه أبو حنيفة، ومالك، وشعبة، وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة وحماد بن سلمة وخلق. وقال ابن سعد: كان ثقة، ثبتًا، كثير الحديث، حجة. مات سنة خمس وأربعين ومئة (١٤٥هـ). (التاريخ الكبير للبخاري ج: ٨ ص: ١٩٣) (الكنى والأسماء لمسلم ج: ١ ص: ...) (مولد العلماء ووفياتهم لابن زبر الربعي ج١ ص٣٤٢)و(طبقات الحفاظ للسيوطي ج: ١ ص: ...).

[2] / عبد الرحمن بن الحارث: هو عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، القرشي، المخزومي، أبو محمد، المدني. ولد في زمن النبي ﷺ وهو أحد الرهط الذين أمرهم عثمان بكتابة المصاحف، روى عن أبيه الحارث بن هشام. وذكوان مولى عائشة، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، وأبي هريرة، وحفصة، وعائشة، وأم سلمة. وروى عنه عامر الشعبي، وعبد الله بن عبيد بن عمير، وعبد الرحمن بن سعد المقعد، وابناه: عكرمة بن عبد الرحمن، والمغيرة بن عبد الرحمن. وهشام ابن عمرو الفزاري، ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، وابنه أبو بكر بن عبد الرحمن، وأبو عياض. وأبو قلابة الجرمي. قال محمد بن سعد: ومات أبوه الحارث بن هشام في طاعون عمواس سنة ثماني عشرة، فخلف عمر بن الخطاب على امرأته فاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وهي أم عبد الرحمن بن الحارث، فكان عبد الرحمن في حجر عمر. وكان يقول: ما رأيت ربيبًا خيرًا من عمر بن الخطاب. وتوفي عبد الرحمن بالمدينة في خلافة معاوية. وكان رجلاً

عـام (١٤٣ هـ)، وعبـد الله بـن هرمـز المتوفى عـام (١٤٨هـ)، ويزيـد بـن أبـي عبيد مولى سلمة بن الأكوع[١] المتوفى عام (١٤٦هـ).

كل ذلك تجاهله عبد الكريم الخطيب، حتى يتـأتّى لـه أنْ يقـول مـا قال، دون اعتبارٍ لأمانة العلم وعدالة التَّحمُّل فيما ينقل من خبر.

الملاحظة الثالثة:

قوله لتلك الكلمة الوافدة على اللغة العربية ولم يرِد لها ذكـر في كتـاب الله ولا على لسان رسول الله ﷺ ولا على ألسنة الصحابة].

لعلَّ عبد الكـريم لا يعلم أو لعلّه يعلـم ويتجاهـل، أنَّ اللغـة العربيـة في جـذرها اللغوي تعتمد على مصدرين تستمد منهمـا كلماتهـا وهمـا السـماع والقيـاس، والقيـاسُ في اللغـة العربيـة بـاب واسـع يـضم في رحابـه "الاشـتقاق والنحـت والنسبة"، وهي مصادر أولية لإثراء اللغة العربية بالجديد من المفردات، حتى

شريفاً سخيًّا، وكان قد شهد الجمل مع عائشة، وكانت عائشة تقول: لأن أكون قعدت في منـزلي عن مسيري إلى البصرة أحب إليَّ من أن يكون لي من رسول الله ﷺ عشرة من الولد كلهم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام. قال أبو حاتم ابن حبان في التابعين من كتاب الثقات: مات سنة ثلاث وأربعين روى له الجماعة سوى مسلم (تهذيب الكمال للحافظ المِزّي ج: ١٧ ص:٣٩ ـ ٤٣) و(جامع التحصيل لأبي سعيد العلائي ج: ١ ص: ٢٢١) و (الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ج: ٥ ص: ٢٢٤).

[١] / يزيد بن أبي عبيد: هو يزيد بن أبي عبيد المدني، من التابعين الثقات، حدَّث عن مولاه سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، وعن عمير مولى أبي اللحم. وعنه حاتم بن إسماعيل، ويحيى القطان، وحماد بن مسعدة، وأبو عاصم النبيل، ومكي بن إبراهيم، وآخرون. وثّقة أبو داود، وحديثه من عوالي البخاري الثلاثيات توفي سنة سبع وأربعين (١٤٧هـ) (سير أعلام النبلاء للذهبي ج: ٦ ص: ٢٠٦).

تُجاري ما يَستجِدُّ من المعاني والمسمَّيات. والمراجع تؤكد أنَّ التصوف مشتق من كلمة "ص و ف" وتصوَّف فلان إذا لبس الصوف. كما أنَّ المعاني التي يرجع إليها التصوف مثل الصفاء والصُّفَّة والصف الأول يمكن أن يُشتقْ منها لفظ الصوفية إذا استخدمنا منهج الاشتقاق الأكبر كما هو ثابت في مظانّه. وقد عَرفتْ اللغةُ العربية كلمة الصوف التي نسب إليها الصوفي، كما عرف الناس المعاني العربية الأخرى منذ أمد. وقد عرف الصحابة رضوان الله عليهم الصوف ولبسوه، إلا أنَّ لقب الصوفي لم يُطلق على مَنْ لبسه منهم، لأنَّ لقب الصُّحبة هو الغالب لشرفه وامتيازه عن غيره من الألقاب، وطلابُ العلم المبتدئون يعلمون أنَّ كلمة التصوف مصطلح يضم تحته مضامين ومعاني ومفاهيم هي التي يلزم بحثها وتقييمُها والحُكم لها أو عليها بميزان الحق، أما المشاحة في المصطلح فأمر تأكَّد نفيه، وكلُّ طالب علم يعلم أنه "**لا مشاحة في المصطلحات**".

وقد عجبتُ جدًّا من مستوى تفكير عبد الكريم الخطيب، الذي حاول أنْ ينفي علم التصوف عن الإسلام ويقطع صلته به لمجرد أنَّ لفظ التصوف لم يرِد في القرآن الكريم ولا في السنة المطهرة!!.

ولو اضطردَ منطقُ عبد الكريم الخطيب لنفى الكثير من العلوم الإسلامية التي لم تَرد مصطلحاتُها في القرآن الكريم والسنَّة المطهرة، ولم تَدُرْ على ألسنة الصحابة!! وإلا فَلْيَقُلْ عبد الكريم الخطيب أو مَنْ يشايع عبد الكريم الخطيب في رأيه هذا أين توجد المصطلحات التالية بألفاظها في القرآن الكريم أو السنَّة المطهرة ؟!:

١. السلفية والسلفي والسلفيون.

٢. مصطلح الحديث - والمحدثون.

٣. الأصوليون وأصول الفقه.

٤. التاريخ الإسلامي.

٥. العقيدة الإسلامية.

فإذا بحث كاتبٌ ما في القرآن الكريم والسنة المطهرة ولم يجد هذه المصطلحات بألفاظها، فإنه لا بد أن يحكم على العلوم والمفاهيم والمضامين التي تندرج تحت هذه الألفاظ بأنها أشياء دخيلة على الإسلام! ولا صلة لها به لا لشيء إلا لأنَّ هذه الألفاظ لم ترد في القرآن ولا في السنّة!!!

أليس هذا الفهم مدعاة للتعجب! بل للاستنكار!! حينما يصدر من كاتب نشط مثل الأستاذ عبد الكريم الخطيب، الذي لا أشك أبداً في أنه على علم تام بأنَّ التصوف - حيث المصطلح - علمٌ حادث في الملّة كغيره من العلوم الإسلامية الكثيرة، والحكم عليه لا يكون بمحاكمة المصطلح وجعل ورود لفظه في المرجعيَّة القرآنية أو النبوية هي الفيصل في ذلك.

بل الصحيح الذي اتفق عليه العلماء هو أنْ يُحَاكَم ما جاء تحت المصطلح من مفاهيم ومضامين ومعاني، فإنْ رجحتْ في ميزان الحقِّ تمَّ قبولها وإلا رُدَّتْ على أصحابها، وهذا ما فعله شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية حينما تعرَّض للتصوف والصوفية.

التصوف عند الإمام ابن تيمية

قال الإمام ابن تيمية في معرض الإجابة على سؤالٍ عن الصوفية والفقراء؟:

لثم الناسُ في الحبِّ والبُغضِ والموالاة والمعادة هم أيضًا مجتهدون، يصيبون تارةً ويخطئون تارةً، وكثير من الناس إذا علم مِن الرجل ما يحبه أحبَّ الرجل مطلقًا، وأعرض عن سيئاته، وإذا علم منه ما يبغضه أبغضه مطلقاً، وأعرض عن حسناته، وهذا من أقوال أهل البدع، وأهلُ السنَّة والجماعة يقولون ما دلَّ عليه الكتاب والسنة والإجماع وهو أنَّ المؤمن يستحق وعد الله وفضله والثواب على حسناته، ويستحق العقاب على سيئاته، وأنَّ الشخص الواحد يجتمع فيه ما يثاب عليه وما يعاقب عليه، وما يُحمَدُ عليه وما يُذَمُّ عليه، وما يُحَبُّ منه وما يُبغَض منه.

هذا وإذا عُرِف أنَّ منشأ التصوف كان من البصرة، وأنه كان فيها مَنْ يسلك طريق العبادة والزهد مما له فيه اجتهاد، كما كان في الكوفة مَن يسلك طريق العلم والفقه مما له فيه اجتهاد، وهؤلاء نُسبوا إلى اللبسة الظاهرة، هي لباس الصوف فقيل في أحدهم صوفي وليس طريقهم مقيَّداً بلبس الصوف، ولا هم أوجبوا ذلك، ولا علَّقوا الأمر عليه، لكن أُضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال. ثم التصوف عندهم له حقائق وأحوال معروفة، وقد تكلموا في حدوده وسيرته وأخلاقه...؛ ولأجل ما وقع في كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه تنازع الناس في طريقهم، فطائفة ذمَّتْ الصوفية والتصوف، وقالوا إنهم مبتدعون خارجون عن السُّنَّة، ونُقِلَ عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام، وطائفة قد غَلَتْ فيهم وادَّعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء، وكِلا طرفَيْ هذه الأمور ذميم.

والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السَّابق المُقرَّب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصدُ الذي هو مِن أهل اليمين، وفي كلٍّ من الصنفين مَنْ قد يجتهد فيخطئ، وفيهم مَنْ يُذنبُ فيتوب أو لا يتوب[1] ا هـ.

بين إنصاف ابن تيمية وإجحاف الخطيب

وانظر معي إلى قول ابن تيمية في وصفه الصوفية بأنهم مجتهدون في طاعة الله، وهذا يشير إلى أنهم إنْ أصابوا فلهم أجران، وإنْ أخطأوا فلهم أجر واحد، كما هو لازم مآل الاجتهاد[2] عند غيرهم من أهل العلوم الإسلامية.

ثم انظر معي إلى حُكم ابن تيمية على مآلات أهل التصوف مِن صوفية الحقائق يوم القيامة حيث يكون الناس يومئذٍ أزواجاً ثلاثة:

١. السَّابقون السَّابقون المقرَّبون.

٢. أصحاب اليمين.

٣. أصحاب الشمال.

وقد جعل ابن تيمية رحمه الله الصوفيةَ من السَّابقين المقرَّبين وأصحاب اليمين المكرمين، ولك أنْ تلاحظ أنَّ الإمام ابن تيمية قد استبعد أصحاب

---

1 / انظر مجموع الفتاوى للإمام ابن تيمية ج١١ ص١٥ـ ١٨.

2 / روى الشيخان من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ {إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ} اصحيح البخاري ج: ٦ ص: ٢٦٧٦ الحديث رقم ٦٩١٩] اصحيح مسلم ج: ٣ ص: ١٣٤٢ الحديث رقم ١٧١٦]. وأخرجه الترمذي في الأحكام الحديث رقم ١٢٤٨ والنسائي في آداب القضاة الحديث رقم ٥٢٨٦ وأبو داود في الأقضية الحديث رقم ٣١٠٣ وابن ماجه في الأحكام الحديث رقم ٢٣٠٥ وأحمد في مسند الشاميين الحديث رقم ١٧١٠٦.

الشمال والظالمين لأنفسهم في تصنيفه للصوفية، وهذا إنصاف يتمتع به العلماء الحقيقيُّون الذين يرقبون في المؤمنين الإلَّ والذِّمَّة.

فأين هذا مِن قول عبد الكريم الخطيب: ((التصوف دين قائم بذاته في مواجهة الدين الإسلامي، وإنْ تحكَّك بالإسلام وأضاف نفسه إليه وانتسب نسبة الدَّعِيِّ إليه... فهنا دينان، دين الإسلام المُتلقَّى من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ودين المتصوفة!! كما لا يمكن أنْ يكون الصوفي صوفيًّا ومسلمًا والله تعالى يقول: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾[1]

فكيف مع هذا يسمح المسلمون للمتصوفة أن ينشروا هذا الضلال فيهم وأن يفتنوهم في دينهم!؟ إذا حارب المسلمون المبشِّرين الذين ينتشرون في ربوعهم وينشرون أباطيلهم بينهم، فإنَّ حرب التصوف والمتصوفة أولى وأوجب!! إذا كان المتصوفة يلبسون زيَّ الإسلام خداعًا وتمويهًا على حين أنَّ المبشرين يلبسون زيَّ الرهبان والقسِّيسين، حيث يحذرهم المسلم ويتوقَّى الشرَّ المساق إليه منهم، على حين يلتقي مع المتصوفة في بيوت الله، وفي محاريب الصلاة وذلك هو الكيد أعظم الكيد والبلاء أشد البلاء!!)).

هكذا في بساطةٍ ويُسْرٍ يُلقي عبد الكريم الخطيب القولَ على عواهنه، دون هدًى ولا كتابٍ منير، ثم اسمع ولا ينقضي عجبك مِنْ هذا الواغل في ساح العلم، يصف التقاء المسلمين مِنْ متصوفة وغيرِهم في بيوت الله، ووقوفهم صفًّا متراصًّا مترابطًا في محاريب الصلاة، بأنَّه أعظم الكيد وأشدُّ البلاء! الكيد لِمَنْ؟ والبلاء على مَنْ؟ أيُّ كيدٍ يُرادُ للإسلام

---

[1] / سورة الأحزاب:الآية ٤.

والمسلمين، وأيُّ بلاء يقع على الإسلام والمسلمين، إذا التقى المسلمون على اختلاف مشاربهم وتعَدُّدِ مذاهبهم في بيوت الله، التي أذن أن تُرفع ويُذكَرَ فيها اسمه؟!

وأيُّهما أولَى بوصف الكيد الأعظم للإسلام والمسلمين، والبلاء الأشدُّ على الإسلام والمسلمين، الذين يلتقون في بيوت الله ليعمروا مساجد الله وفي ذلك شهادة لهم بالإيمان[1]. أم هذا الضُّلَيل الذي لعب برأسه خُمارُ[2] الهوَى، فأرسل حُكمه منقوعاً بقلبٍ مِلْؤه الغرضُ والمرضُ، ليجعل محاربة هؤلاء الراكعين الساجدين في بيوت الله أولَى مِن محاربة الذين كفروا مِن أهل الكتاب والمشركين؟!!

أيُّ فَهْمٍ للإسلام ذلك الذي يذهب بصاحبه هذا المذهب؟! بل أيُّ عقلٍ هذا الذي يهوي بصاحبه إلى هذا الدَّرك مِن السقوط الفكري؟!

إنَّه انتحالُ المبطلين، وتأويلُ الجاهلين، وتحريفُ الغالين، وكيدُ الكائدين، ممَّن لا نصيبَ لأيٍّ منهم في ميراث النبوَّة من العلم والخُلُق.

---

(1) روى الترمذي عَنْ أَبي سَعِيدٍ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (التوبة ١٨) قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب (سنن الترمذي ج: ٥ ص: ٢٧٧ الحديث رقم ٣٠٩٣)، و(مسند أحمد ج٣ ص٧٦ الحديث رقم ١١٧٤٥)، و(موارد الظمآن ج:١ ص: ٩٩ الحديث رقم ٣١٠)، و(سنن الدارمي ج: ١ ص: ٣٠٢ الحديث رقم ١٢٢٣)، و(المستدرك على الصحيحين ج١ ص٣٣٢ الحديث رقم ٧٧٠ وقال الحاكم صحيح الإسناد.

(2) الخُمارُ: ما يصيب من ألم الخمر وصداعها، وبقية السُّكر (لسان العرب، ج: ٤ ص: ٢٥٥).

ولا نريد الإطالة بالتنقيب على ما أورده عبد الكريم الخطيب في هذا المضمار، لأنَّ كتابته في ذلك قد خلَتْ مِن الموضوعيَّة خُلوَّها مِن الصِّدقِ والجدِّيَّة والحَيدَة. وهو في كلِّ ما أورده عن منابع التصوف الإسلامي عالة على المستشرقين ومَنْ شايعهم من الباحثين.

وقد نتطرَّق بشيء من التَّفصيل إلى أقوال هؤلاء المستشرقين في إطار بحثنا حول مصادر التصوف الإسلامي وأطواره في هذه الدراسة.

وقد سُقتُ هذا القول من عبد الكريم الخطيب، لِأُثبتَ أنَّ الهوَى والبحث الموضوعي لا يجتمعان!! كما أنَّ استخدام العقل أداة وحيدة في التَّعامل مع مصادر الوحي أمرٌ يقصر دون فَهْم الوحي وهو يرود أشواق الروح إلى معارج القدس الأعلى، وينقص مِن تديُّن القلبِ وهو يتلقَّى دفعاتٍ من نور البصائر الربَّانية، التي تشكِّل المدارك العُليا لتجلِّيات الحقِّ في مظاهر الأحديَّة.

وليس سرًّا أو كشفًا جديدًا أنَّ عبد الكريم الخطيب، قد حاول في تفسيره وإسلاميَّاته انْ يجري على أثَرِ الشيخ محمد عبده ويتأثرخطوه الفكري، إلا أنَّ عبد الكريم الخطيب لم يدرك مِن آثار الشيخ محمد عبده إلا ما أثارته مِنْ زوابع وغبار، فأعماه ذلك عن رؤية الحق البَيِّنِ والنَّهج الواضح، فخلط تخليطًا كثيرًا فيما حَسِبَه تفسيرًا للقرآن بالقرآن، خالطًا بين جمود الشَّرعِ في حدود العقل عند المعتزلة، وبين جمود النَّصِّ في حدود الظاهر عند المتشدِّدين من السلفيَّة المعاصرة، مع شيء من خواطره الجامحة عن منهج التفسير والمفسرين، وهو خلط لا يبرِّره إلا انعدامُ المنهج وغموضُ الهدف.

وقد كان في الإمكان أنْ نجد لكلام عبد الكريم الخطيب مَحاملَ مِن التَّصفَة وشيئًا مـن التَّوجيـه ، إذا انـصبَّ نقـدُه وهجومُـه علـى الـدَّخيل مـن التصوف والمنكر من ظاهرات التصوف عند المسلمين.

أما أنْ يجعل التَّصوف الإسلامي برُمَّته منكرًا مِن الفعل وزورًا وباطلاً مِن المذاهب!! فهذا ما نعارضه فيه ونَرُدُّ عليه ما قال ... ولا كرامة.

الفصل الثالث: مفهوم التصوف الإسلامي

وقد قصدتُ من إيراد هذا المفهوم أن يكون جامعاً لمذهب التصوف وعلمه على السواء، لا كما هو واقعٌ بنسبٍ متفاوتة في التاريخ القديم والمعاصر، بل كما يلزم أن يكون، ليس باعتبار ذلك ضرباً من أشواق الروح وأماني الفؤاد التي لا حظَّ لها من الواقع، وإنما باعتباره مثالاً واقعيًا عاشه سلفٌ صالحٌ، ورثنا عنهم آثاراً حيَّةً تنطق بعلم باصر وهدى قويم وسلوك رفيع، فهو إذن مفهوم مثالي في عالمنا المعاصر نريد له أن يكون واقعيًا، كما كان العهد به عند السلف. وإن كانت الشقّة بين الأمل والعمل بعيدة، فجهدنا أن ندوِّن أنظارنا الآملة، فإن ارتقت إلى مصافِّها الهِمَمُ العاملة، فذاك من توفيق الله وهو الغاية التي نبغي، أما إذا قصرت الأعمالُ في واقعها الحياتي عن الآمال في مراقيها النظرية، فليبقَ لنا أننا جلَّينا وجوه الأنظار الصوفية على منصَّات الأدلة الشرعية، حتى تشكِّل معالم منيرة لمن أراد سلوك الطريق حتى يطابق بين الأمل والعمل، وما ثمة إلا الله والعبودية وبينهما العبادة.

مباحث الفصل :

1. في مفهومنا للتصوف الإسلامي.
2. التصوف الإسلامي علم وعمل.
3. العلم بالطريقة.
4. العلم بالنفس.
5. العلم بالله وأدوات الإدراك.
6. التصوف الإسلامي منهج تربوي.
7. التصوف الإسلامي طريق الحق.
8. تمسك علماء الصوفية بالشريعة.
9. الصدق في منهج التصوف الإسلامي.
10. نتائج سلوك المنهج الصوفي.

المبحث الأول: في مفهومنا للتصوف الإسلامي

التصوف الإسلامي برأينا هو:

[منهج سلوكي تربوي على طريق الحقّ بصدقٍ تتمُّ به مكارمُ الأخلاقِ، وينقدحُ في قلوب سالكيه مِن أنوار العلوم وحقائق الوجود ومظاهر التَّجلّي الإلهي ما يجعل للسَّالك فرقانًا في حياته].

هذا هو مفهومنا للتصوف الإسلامي الذي نريد أنْ نُرجِعه إلى أصوله من الكتاب والسنَّة والإجماع والاجتهاد، وهي مصادر الشَّرعيَّة في كلِّ عملٍ وعلمٍ يلتزمه المسلمُ في حياته.

وقد تَرِدُ مفاهيمُ أخرى للتصوف الإسلامي في أذهان العديد من الباحثين والمراقبين، مثل المفهوم الذي يجعل التَّصوف الإسلامي نتاجًا لتفاعل بعض القواعد السلوكيَّة مع معطيات الأعراف البيئية، ويظهر هذا المفهوم جليًّا في واقع الطرق الصوفية في مختلف أنحاء العالم.

فقد تأثرت كل طريقة بالأعراف والتقاليد السائدة في بيئتها، ونجد أنَّ التأثُّر بالأعراف والتَّقاليد المحليَّة يتفاوت قوَّةً وضعفًا بين طريقة وأخرى.

ويخطئ مِن الباحثين مَن يحاكم التَّصوف الإسلامي باعتباره التصوف العُرفي السائد في مجتمعات اليوم؛ ذلك لأنَّ الأعراف التي عَلِقتْ بالتصوف من جرَّاء تفاعله بالبيئيات المختلفة أعراف متباينة، منها أعرافٌ لا تتعارض مع شريعة الإسلام، ومنها أعراف لا تجد لها في شريعة الإسلام موقعًا، مما يلزم منه أنْ تنشط البحوث والدراسات الخاصة بتنقية التصوف الإسلامي مما شابه من آثار البيئة خلال حركته في المجتمعات، بدلاً مِن رفض

التصوف الإسلامي جملةً وتصنيفه ضمن دائرة معوِّقات المدِّ الإسلامي والحركات الهدَّامة للبناء الإسلامي.

تأصيل المفهوم:

وعلى ذلك نعود إلى مفهومنا للتصوف الإسلامي، بُغيةَ تأصيله وإرجاعه إلى مصادره الإسلامية الخالصة.

وقد سبق تحديدنا لمفهوم التصوف الإسلامي بأنه:

[منهج سلوكي تربوي على طريق الحق بصدقٍ تتم به مكارمُ الأخلاق، وينقدح في قلوب سالكيه من أنوار العلوم وحقائق الوجود ومظاهر التَّجلِّي الإلهي ما يجعل للسالك فرقانًا في حياته].

فقولنا [**منهج**] نعني به مذهبًا وطريقًا.

وقولنا [**سلوكي**] نعني به السير والعمل في هذا الطريق.

وقولنا [**تربوي**] نعني به خصيصة هذا السير وغايته.

وقولنا [**على طريق الحق**] نعني به الالتزام في هذا السير بما شرع الحق.

وقولنا [**بصدق**] نعني به الإخلاص والبُعْد عن الهوَى.

وهذا الجزء من مفهوم التصوف الإسلامي يتعلَّق بالطريق وسماته الأساسية.

أما الجزء الثاني من المفهوم، فهو الذي يشكِّل الناتج والأثر المترتِّب على سلوك الطريق الصوفي، وهو قولنا [**تتم به مكارم الأخلاق**] وهذا ناتج في مضمار التزكية والسُّمو الروحي، و[**ينقدح به في قلوب سالكيه من أنوار العلوم وحقائق الوجود ومظاهر التجلي الإلهي ما يجعل للسالك فرقانًا في حياته**]. وهذا ناتج لمفهوم التصوف في مضمار المعرفة والحكمة.

وهذا المفهوم الذي سُقته للتصوف الإسلامي ليس مفهومًا مأثورًا، وإنما هو مفهوم مبتكر، راعَيْتُ في نظمه أنْ يكون جامعًا لما هو مأثور مِنْ تعريفات ومفاهيم للتصوف الإسلامي.

التصوف الإسلامي علم من علوم الإسلام

وقبل أنْ نبحث في دلالات هذا المفهوم ومرتكزاته الأصولية، يجدر بنا أنْ نجيب على سؤال مُهِمٍّ وهو: هل التصوف الإسلامي هو الإسلام؟.

وقد نشأ هذا السؤال لأنَّ عددًا من الباحثين قد فَهِمَ التصوف الإسلامي بأنه الإسلام، ولم يقل أحدٌ من أئمة التصوف الإسلامي بأنَّ التصوف الإسلامي هو الإسلام، بل إنَّ كلمتهم متَّفقة بأن التصوف الإسلامي علمٌ من علوم الإسلام ومذهبٌ من مذاهبه، فلا مجال لأحدٍ أنْ يفهم أنَّ التصوف هو الإسلام ومِنْ ثَمَّ يحاكم الإسلام والمسلمين إلى مذهب الصوفية والمتصوفين، وعلى ذلك يرفض الإسلام الصوفي بزعمه، تمسُّكًا بالإسلام الذي جاء من عند الله تبارك وتعالى.

وقد نَحَتْ كثيرٌ من الدراسات في المدرسة الوهابية هذا النحو، وجعلتْ التصوف عقيدةً أرضيَّة قائمة بذاتها في مقابل عقيدة الإسلام، وقد تأتَّى لهم بهذا المفهوم أنْ يجعلوا المتصوفة أهلَ شرك وكفر، باتِّباعهم شِرْعةً ومنهاجًا لم يأذن بهما الله!! وهذا تعسُّفٌ في الفهم قاد إلى ضلال في الحُكْم وضلالٍ في الموقف.

ولهذا رأيتُ الحاجة ماسَّة إلى التَّنويه بأنَّ التصوف الإسلامي مذهب من مذاهب الإسلام وعِلْمٌ من علومه، التي يلزم ألا تخرج عن أصول الدين، وأنْ تتقيَّد بمصادر الإسلام الأساسيَّة، مع عدم التَّعارض مع روح الإسلام

وحكمته. وهذا ما نعرفه عن التصوف الإسلامي وندين به لله في مفهومنا للتصوف الإسلامي، الذي نحاول في هذا الفصل من هذه الدراسة إرجاعه إلى مصادره الإسلامية.

التصوف الإسلامي بين الواقع والمثال

وحتى نستصحب دلالات المفهوم الصوفي الذي ارتضيناه مُعبِّراً ودالاً على المفهوم الجامع للتصوف الإسلامي، فإنه من المفيد أن نورد هذا المفهوم بلفظه، ومن ثَمَّ نقوم بتحليله ودراسته، ثم إلحاقه بمصادره الإسلامية في فصلٍ خاص بذلك، يتلو تحليلنا ودراستنا لمفهوم التصوف الإسلامي، وهذا المفهوم هو:

لمنهج سلوكي تربوي على طريق الحق بصدق، تتم به مكارم الأخلاق وينقدح في قلوب سالكيه من أنوار العلوم وحقائق الوجود ومظاهر التجلي الإلهي، ما يجعل للسالك فرقانًا في حياته!.

هذا ما ارتضيناه مِن مفهوم التصوف الإسلامي، بحسبانه المفهوم الجامع لمعاني التصوف التي دارتْ عليها أقوال أهل العِرفان.

وربما يثور سؤالٌ وجيه أمام هذا المفهوم وهو:

هل توجيهك لهذا المفهوم الذي سُقتَ للتصوف وتأصيلك إيَّاه هو تأصيلٌ للتصوف في منظوره الواقعي الذي عرفه دارسوا هذا العلم والباحثون فيه أم هو تأصيلٌ لما ينبغي أنْ يكون عليه التصوف الإسلامي من مفهوم؟

وبعبارة أخرى هل تؤصِّل وتبرهن على تصوُّفٍ واقعي موضوعي أم على تصوُّفٍ ذاتيٍّ مثالي تَودُ أنْ يكون كما فَهِمتَ؟!

وهذا سؤال يلزم الإجابة عليه لما يستهدفه مِنْ دِقَّةٍ في تحديد المفهوم المُراد محاكمته ووزنه بميزان الشَّرع؛ فنقول:

المذهب الصوفي الإسلامي شأنه شأن المذاهب الإسلامية الأخلاقية والتَّطبيقيَّة ينقسم إلى درجتين:

- درجة مثالية نظرية.
- ودرجة واقعيَّة عمليَّة فرديَّة اجتماعية.

وقد يكون الواقع في هذا المذهب بعيدًا عن المثال، ومهمة المرشدين من العلماء الوارثين، أنْ يعملوا جهدهم على تقريب الشُّقَّة بين واقع التصوف الإسلامي ومثاله، استهداءً بكتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ فيما جاء به الوحي من أحكام يلزم ألا يخرج عنها المسلم، وهو في طريق الرجعى إلى الخالق الحكيم.

وقد قصدتُ من إيراد هذا المفهوم أن يكون جامعًا لمذهب التصوف وعلمه على السَّواء، لا كما هو واقعٌ بِنِسَبٍ متفاوتة في التاريخ القديم والمعاصر، بل كما يلزم أنْ يكون، ليس باعتبار ذلك ضربًا مِنْ أشواق الروح وأماني الفؤاد التي لا حظَّ لها مِن الواقع، وإنما باعتباره مثالاً واقعيًّا عاشَهُ سلفٌ صالحٌ، وَرِثْنَا عنهم آثاراً حيَّةً تنطق بعلمٍ باصر وهدى قويم وسلوك رفيع، فهو إذن مفهوم مثالي في عالمنا المعاصر نريد له أنْ يكون واقعيًّا، كما كان العهد به عند السلف.

فإذا ثبت المثال في مَحكِّ النظر ورجح في ميزان العلم الحق "الوحي"، ثم ارتقى الواقع التَّطبيقي حتى يتطابق مع هذا المثال أو يقارب، فإننا بذلك نكون قد حقَّقنا هدفنا في هذا المضمار، وإنْ كانت الشقَّة بين الأمل

والعمل بعيدة، فجهدنا أنْ ندوّن أنظارنا الآملة، فإنْ ارتقتْ إلى مصافّها الهمِمُ العاملة، فذاك مِن توفيق الله وهو الغاية التي نبغي، أما إذا قَصُرَتْ الأعمالُ في واقعها الحياتي عن الآمال في مراقيها النظرية، فليبقَ لنا أنّنا جلّيْنا وجوهَ الأنظار الصوفية على منصّات الأدلة الشرعية، حتى تشكّل معالم منيرة لمَنْ أراد سلوك الطريق حتى يطابق بين الأمل والعمل، وما ثمّة إلا الله والعبودية وبينهما العبادة.

ومن المعلوم أنَّ الله كمالٌ مطلق، والعبودية كمال مقيَّد، والعبادة وسيلة الكمال، وعلى ذلك نقول:

- إنَّ العبودية أملٌ.
- والعبادة عملٌ.
- والحياة مضمارٌ.
- والغاية الله.

وكلُّ ذلك يدخل في مفاهيم التصوف الإسلامي كما أفهمه وكما أعيشه، ولا يضيرني شيءٌ ولا يهزُّ قناعتي قولُ مَنْ عاشوا أو فَهِمُوا أنماطًا من التصوف لا يحمل من قسمات الصورة المأمولة للتصوف شيئًا، لأنّي مَعنيٌّ بتأصيل مضمون المذهب الصوفي ومحتواه، أما الأشكال والمراسم فهي عطاء بيئي قد أشير إلى أثره إشارةً عابرة في هذه الدارسة.

المبحث الثاني:

التصوف الإسلامي علم وعمل

والتصوف بهذا المفهوم، ليس علمًا فحسب ولا عملاً فقط، وإنما هو علم وعمل معًا، بيد أنَّ العلم والعمل فيه متلازمان للدرجة التي يمكن أن نقول عنه إنه علم عملي، مرتبط بمدارج السُّمو الروحي ومقامات القلوب النورية.

و(المنهج السلوكي التربوي نشير به إلى طريق الرجعى إلى الله في الحياة الدنيا، وصولاً إلى الحياة العليا في كنف الله، وهو الطريق أو الطريقة التي حثَّ الله المؤمنين به وبرُسله وكُتبه أن يستقيموا عليها، واعداً إيَّاهم بأنْ يسقيهم ماءً غدقًا ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ ﴾[1]، والبيان القرآني في هذه الآية إذ يتَّجه نحو المجاز في دلالته على الموعود به، المراد هو ماء الحقيقة الربانية، الذي أحْيَا به الله القلوب غياثًا من الله عزَّ وجلَّ لعباده المحسنين. وقد ورد في الآثار النبوية ما يدل على إشارة الماء والغيث في دلالته المجازية إلى العلم الإيماني والهديِ الرباني، وذلك مثل قول النَّبي ﷺ: {مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ

---

[1] / سورة الجن:الآية ١٦.

الْكَثِيرِ}[1] فالمنهج السلوكي التربوي في مفهومنا للتصوف الإسلامي هو الطريقة الربانية، وانظر معي إلى اتِّفاق كلمة الصوفية في أنحاء العالم على إطلاق لفظ الطريقة وهو لفظ مأثور في القرآن للدلالة على هذا المنهج السلوكي.

والسلوكُ في هذه الطريقة بمعنَى الانتظام فيها والالتزام بمقوِّماتها والاستقامة عليها ضرورة لازمة وخصيصة بارزة من خصائص هذا المنهج، الذي يرتبط فيه العلم بالعمل ارتباطًا عضويًا، ولكن أيُّ علمٍ ذلك الذي يلزم أنْ يكون مرتبطًا بالعمل في منهج الطريقة؟!

إنه:

- علم بالطريقة أولاً.
- وعلم بالنفس ثانيًا.
- وعلم بالله ثالثًا.

ولكلِّ علمٍ من هذه العلوم عملٌ ملازم له لا ينفكُّ عنه، ولكلِّ عملٍ أدبٌ يصاحبه ولا ينفصم عنه.

---

[1] / حديث { مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ } : روى البخاري عن أبي موسى الأشعري ﷺ، عن النبي ﷺ قال: { مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل مَن فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به }. لصحيح البخاري ج: ١ ص: ٤٢ الحديث رقم ٧٩] لصحيح مسلم ج: ٤ ص: ١٧٨٧ الحديث رقم ١٧٨٧] وأخرجه أحمد في مسند الكوفيين الحديث رقم١٨٧٥٢.

المبحث الثالث: العلم بالطريقة

فالعلم بالطريقة يشمل أصولها وفروعها ومعناها. ولما كانت الطريقة منهجًا في الإسلام فإنَّه من البداهة أن نقرر أنَّ العلم بالقرآن والسنَّة وما أجمع عليه السلف من العلماء رضوان الله عليهم أمرٌ لازمٌ لكل مرشد ومسترشد في هذه الطريقة.

وقد اتفقت كلمة علماء الصوفية وكبار مرشديهم على القول بأهمية وضرورة التَّفقُّه فيما جاء به الوحي الكريم من القرآن والسنَّة، باعتبارهما عصمة الإسلام وعروته الوثقى.

وقد أشار الإمام أبو القاسم الجنيد - وهو أول من قَعَّدَ القواعد ونسَّق الأنظار وألحقَ فروع الطريقة الصوفية بأصولها الشرعية فلقّبه العلماء بإمام الطائفة- إلى أهمية العلم بالطريقة وفقهها بقوله: [**علمنا هذا مقيَّدٌ بالكتابة والسنة**].

وهذا القول من هذا الإمام العارف يشير بوضوح إلى أنَّ كل ما خرج على الكتاب والسنة فليس من علم الطريقة، وهذا يقتضي أنْ يتفقّه السالك لهذه الطريقة في كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، حتى لا يخرج على ضوابطها وحدودها، وهذا العلم فقه عام ضروري لكل سالك.

ويأتي بعده في علم الطريقة العلم بأصول الطريقة وفروعها وآدابها وأحوالها ومقاماتها، وهو فقه خاصٌّ بالطريقة يحكمه الفقه العام، وتُوجِبُهُ العلاقة بين المرشد والمسترشد في الطريقة.

هذا وقد حفل تراث الصوفية من علماء الطريقة بالعديد من الدراسات في هذا الجانب، وقد بيَّنوا ووضَّحوا فيها كلَّ كبيرة وصغيرة في فقه الطريقة أصولاً وفروعًا.

ولست في معرض الحديث عن فقه الطريقة، وإنَّما قصدتُ الإشارة إلى أن العلم بالطريقة يضم في أطوائه العلم بفقه الكتاب والسنَّة وما أجمعتْ عليه الأمة، باعتباره عِلْمًا أساسيًّا للمرشدين، والعلم بفقه الطريقة وأحكامها باعتباره المادة التخصصيَّة لِمَن أكرمه الله بمقام الإرشاد والتَّوقيع عن الله في طريق الرُّجعَى إلى الله من مشائخ الطريقة.

وليس مِنْ غرضي في هذا البحث أن أتعمَّق وأستقصي في عرض ودراسة فقه أصول الطريقة وفروعها ومقوِّماتها وخصائصها، لأنَّ كلَّ ذلك جاء مستفيضًا في كتب علماء الصوفية مثل:

١. الرعاية لحقوق الله للمحاسبي.
٢. كشف المحجوب للهجويري.
٣. الرسالة القشيرية لأبي القاسم القشيري.
٤. قوت القلوب وعلم القلوب لأبي طالب المكي.
٥. الصدق للخرَّاز.
٦. التَّعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي.
٧. إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي.
٨. رسالة القدس في محاسبة النفس لمحي الدين بن عربي.
٩. كلّ مؤلفات الشيخ عبد القادر الجيلاني.
١٠. وعوارف المعارف للسُّهْرَوَرْدِي شهاب الدين.

هذا عدا الدراسات الحديثة التي تطرَّقتْ لهذا الجانب، واستهدفتْ ربطه بأصوله مِن شريعة الإسلام وقواعد الأحكام.

أما في هذا السياق فقد عنيتُ بالمفاهيم العامة للتصوف، ومِن بينها مفهوم أنَّ التصوف (علم مرتبط بالعمل).

وفي سياق الحديث عن العلم، يَرِد هذا القول في تقسيم أنواع العلم الذي يهتم به الصوفية دون استقصاءٍ أيضًا، حتى لا تخرج الدراسة عمَّا وُضِعتْ له مِنْ هدف.

المبحث الرابع: العلم بالنفس

فهو علم بآيات الله الداخلية، ليس في الإطار العضوي والنفسي المرتبط بوظائف الجهاز العصبي، وإنما في إطار الارتقاء الوجداني والنقاء والمسار الروحي، الذي يُشَكِّل المضمار الحقيقي للسائرين إلى الله، وإذا كان فقه الطريقة يُشَكِّل العلم بالمسار، وما فيه من زوايا وخبايا ومنعرجات وعقبات، فإنَّ العلم بالنفس يُشَكِّل معرفة السائر لنفسه، وما تنطوي عليه من خصائص وقابليات وأخلاقيات وصفات إيجابيَّة وسلبيَّة.

ويلزم للعلم بالنفس أن يعلم السالك أنَّ في طريقه مقامات، تصحبها أحوال ومواجيد تُعَبِّر عن حركة النفس في وجودها، كما يلزمه قبل ذلك أن يعلم أنَّ في الطريق مدارج تُشَكِّل النفس معالمها الأساسية.

معالم النفس في مدارج السمو الروحي

وهناك سبعة معالم للنفس في مدارج السمو الروحي هي:

١. النفس الأمارة.
٢. النفس اللوامة.
٣. النفس الملهمة.
٤. النفس المطمئنَّة.
٥. النفس الرَّاضية.
٦. النفس المرضيَّة.
٧. النفس الكاملة.

والنفس الأمارة بالسُّوء هي النفس الحيواني، الذي يشدُّ الإنسان إلى الأسافل وتدفعه إلى التَّثاقل والإخلاد إلى هذه الأرض، وهي بذلك تمثل دركة من دركات الردِّ السفلي، إلا أنّي وضعتها معلمًا في المدارج باعتبار أنَّ تَنَبُّهَ الكادحين في طريق الرجعى إلى الله إلى أنَّ هناك نفسًا أمَّارةً بالسوء فيهم، يعتبر في حدِّ ذاته ناتجًا من نتائج الإنزجار الداخلي، ذلك لأنَّ هذا الانزجار الباطني لا بد أن يكون لازمًا من لوازم مطالعة طوارق الحق، ومَنْ طالعَ طوارقَ الحقِّ بما لا يحب انزجر ثم انتبه، وإذا انتبه السالك من غفلته، أدَّى به ذلك إلى اليقظة، ومِن لوازم اليقظة أنْ يطلب صاحبُها طريق الرشد، فإذا تمَّتْ يقظة السالك ارتقَى إلى مقام التوبة. ومن مقوِّمات التوبة في طريقة العرفان المحاسبة، وهي من أعمال النفس اللوامة التي تلوم صاحبها على فعل السوء وقول السوء، ليبتعد يقظة وانتباهًا من سِنَةِ الغفلة، مما يلزم صاحبَه التوبةُ عن هذا السوء، ويفكِّر في الأوبة إلى الخالق الحكيم.

فالنفس الأمارة بهذا الاعتبار تعتبر معلمًا من معالم الطريق، ولاسيَّما لأولئك الذين ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، فانحطُّوا دركات في مضمار الرَدِّ السُّفْلِي، فطغتْ عليهم الغفلةُ وسدروا في غيِّهم حتى لم يجد الذكر فيهم مُدَّكَراً.

ولكلِّ نَفْسٍ من هذه النفوس مقاماتها وعلومها وآدابها، تبعًا لمدارج السُّمو في عالم الملكوت. ومعرفة هذه المتعلّقات لازمة للسائر إلى الله، باعتبار أن معرفة النفس على تعدُّد واختلاف مدارجها ومقاماتها مؤهل أساسي لمعرفة الله جلَّ شأنه واللقاء به.

مرجعيَّة مدارج النفس إلى القرآن الكريم

وقد يلاحظ القارئ الكريم أنَّ معالم النفس في مدارج السُّمو الروحي قد جاءتْ في أدب الصوفية وخطابهم بذات المصطلحات والأسماء القرآنية، مما يؤكد مرجعية القرآن كمصدر من مصادر الصوفية في تأصيلهم لهذا العلم.

وفي إطار معالم النفس في السياق يَرِدُ قول الله تبار وتعالى:

١. ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[1]

٢. ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝ ﴾[2]

٣. ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ ﴾[3]

٤. ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ۝ ﴾[4]

٥. ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝ ﴾[1]

---

[1]/ سورة يوسف:الآية ٥٣.

[2]/ سورة القيامة:الآيات "١- ٤".

[3]/ الشمس:الآيات " ٧- ١٠".

[4]/ الفجر:الآيات " ٢٧- ٣٠ ".

٦. ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[2]

٧. ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ﴾[3]

٨. ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[4]

ويلزم مِنْ هذا البيان ذي المَلاحِظ الدلالية والإشارات الربانية، أنْ نؤكد أنَّ علم السالك بنفسه في طريق الرُّجعَى إلى الله، لا ينفكُّ عن أنوار الوحي بحال، ذلك لأنَّ قوانين تسيير الذات الإنساني لا تُستمَدُّ إلا من الخالق

---

[1] / المائدة:الآية" ١١٩".

[2] / التوبة:الآية ١٠٠ .

[3] / سورة الفتح:الآية- ٢٩.

[4] / المجادلة:الآية ٢٢.

البارئ، فإذا ألْهَمَ الحقُّ تبارك وتعالى نفس الإنسان رُشدها وتقواها، توحَّد هواها فصار تبعًا لهذا الحق، ومَنْ صار هواه تبعًا للحقِّ من السالكين اطمأنَّ، لأنَّه بتوحُّد هواه مع أمر الحق أمِنَ النِّزاع والصِّراع، ومَنْ اطمأنَّ إلى أمر الله رضي به، ومَنْ رضي بالله تبارك وتعالى رضي الله عنه. ورِضَى الله تبارك وتعالى عن عبده دليلٌ على كمال العبودية، وهي أشرف مقامات الإنسان، كما أنها أرفع درجات علم النفس الإنساني الناتج عن النَّفَس الرحماني.

أما علم النفس الحيواني في الجسم الإنساني فهذا علمٌ أرضي يدور بين الحياة والحركة والطاقة وتفاعلها وآثارها في حياة الإنسان الدنيوية، وله علماؤه وأطباؤه من أهل الاختصاص فيه.

المبحث الخامس: العلم بالله وأدوات الإدراك

والعلمُ بالله هو غاية الطريقة، وأعني بالعلم بالله، معرفةُ الله من خلال تجلّياته في حقائق الوجود العليا.

وللوجود كما هو معلوم أربعةُ عوالم:

١. عالَم الملك.
٢. عالَم الملكوت.
٣. عالَم الجبروت.
٤. عالَم الهاهوت.

عالم الملك

ويسمَّى عالم الشهادة وليس هو من العوالم العليا، بل هو عالم الحياة الدنيا، وفيه من الحقائق الوجودية ما لا يُحصَى، بيد أنَّها حقائق دنيويَّة، ولهذا أباح الله اكتشاف قوانينها ومعرفتها ومِنْ ثَمَّ تسخيرها لإثراء الحياة وخدمة الإنسانية لِمَنْ أحبَّ وكَرِهَ مِن بني آدم[1]، وجعل الوسيلة المُثْلَى للتعامل مع هذا العالم هي العقل.

---

[1] /عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ{ إن الله قسَّم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله عز وجل يعطي الدنيا مَن يحب ومَن لا يحب ولا يعطي الدين إلا لِمَن احب، فمن أعطاه الله الدين فقد احبه، ...الحديث} انظر:[مسند أحمد ج: ١ ص: ٣٨٧ الحديث رقم ٣٦٧٢]. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد. [المستدرك على الصحيحين للحاكم ج: ١ ص: ٨٨ الحديث رقم]. قال الهيثمي: رواه أحمد و رجال إسناده بعضهم مستور وأكثرهم ثقات. ورواه الطبراني موقوفاً ورجاله رجال الصحيح [مجمع الزوائد ج: ١ ص: ٥٣.] وج: ١٠ ص: ٩٠] ولمسند الشاشي لأبي سعيد الهيثم بن كليب الشاشي ج: ٢ ص: ٣٠٠].

وثمَّة سؤال يفرض نفسه في هذا السِّياق ما هو العقل؟ ودون وعدٍ بتقصِّي ما ورد في تعريف العقل من أقوال، نقول في إيجاز تفرضه منهجيَّة هذه الدراسة، إنَّ العقل في التراث الهيليني شرقيًا كان أو غربيًا: ذاتٌ من الذوات المدركة وجوهر فرد مستقل بنفسه، داخل جسم الإنسان يفارق به الحيوان. وهذا مفهوم قديم ثبت خطؤه، ومِنْ ثَمَّ تجاوزته النظريات الحديثة في مفهوم العقل باعتبار الزمان الوجودي.

والعقل عند الفلاسفة ينقسم إلى قسمين:

١. عقل مجرَّد.

٢. عقل عملي.

والعقل بنوعيه عملٌ من أعمال القلوب، إلا أنَّ العقل المجرَّد يستخدم من الوسائل الإدراكية ما يتناسب مع مجال حركته وتعقُّله؛ ومن أهم الوسائل الإداركية للعقل الجهاز العصبي الذي يأتي المخُ في قِمَّته، ويتم التعقُّل تبعًا لحركة مراكز الحواس مع أدواتها في تفاعلها مع الزمان والمكان بأحيائه وأشيائه.

أما العقل العملي "الفعَّال" عند الفلاسفة، وهو الروح الزكي عندنا، فهو عاقلٌ عالم بطبعه، تتراءَى له مرائي الوجود وتجلِّيات الله في مواجهته لعالمه الأسمَى، متى كان جهاز الاستقبال صافيًا ومقابلاً للحقِّ في وجهته، فإذا تربَّد أو ران عليه شيءٌ من درن الاكتساب الآثم، فحجب نقاءه وجوهره وصفاءه، أو انحرف عن الوجهة الحق، فإنه سيصاب بالردِّ السفلي متى نأى

عن الذكر فبعُد عن رحمة الله فقسا قلبه، الذي يشكّل عندنا الهيولى[1] العام لهذا الروح أو لهذا العقل في هذا الطور الذي يسمّى عندنا بالعقل المؤيَّد أو الروح المُكاشَف أو القلب المنير وكلها من وسائل الإدراك فوق الحاسِّي.

ولمزيد من التَّعرُّف على العقل المجرَّد والعقل المؤيَّد، يمكننا أنْ نقول: العقلُ المجرَّدُ تلازمه أُطر عامة تشكّل حدود حركته وأغوار مدركاته ومِن هذه الأُطر:

١. الإطار المنطقي: وتشكّل حركة العقل فيه اكتشاف الانسجام بين الدلالات البرهانية وحقائقها العلمية، وسَبْر أغوارها لمعرفة ما صُدقاتِها النظرية.

٢. الإطار الفلسفي: وتشكّل حركة العقل فيه اكتشاف مدارج الحقيقة والحكمة، بعد أنْ تتجاوز المدارك الرمزية والظنية وتتخطّى حدود التَّشبيه في عالم المثال.

٣. الإطار الواقعي: وحركة العقل في هذا الإطار منوط بها ممارسة النشاط الإدراكي لأنماط الممارسات العلمية ومعرفة لوازمها العملية، التي تمتاز بنسقها النسبي في كل أشكالها المنطقية، دون أن يخضع هذا العقل لاسترقاق الآليات التقنية مع إخضاع هذه الأنساق النسبية الواقعية إلى النظرة التكاملية في الأداء حتى لا تختل المعايير وتعم الفوضى.

٤. الإطار العلمي: وتشكّل حركة العقل في هذا الإطار اكتشاف واستخدام القوانين الضابطة لحركة الأحياء والأشياء، وصَولاً إلى إبراز

---

[1] / الهيولى: الهَيُولَى والهَيُّولَى المادة الأولى، والنسبة إليه هَيُولي وهَيولانيٌّ والجمع هيوليات. "المنجد للويس معلوف ص٩٧٤.

معالم الخلق والإيجاد والكون والفساد، حتى يستطيع الإنسان أنْ يتمكن في الكون باكتشاف الثوابت والوصول إليها، بدلاً من هدر الطاقات الفكرية في جدلية مادية مع العلاقات النسبية في دلالاتها على النظريات ناهيك عن وصول هذه الأنظار النسبية إلى الحقائق الوجودية الكبرى.

وهذه الأُطر الأربعة لحركة العقل الإنساني أُطرٌ تحمل معنى العموم، فلا تختص بإنسان دون آخر؛ وبمقدار حركة الفكر وقوته في الفعل والانفعال بواقع الحياة المتجدِّد يكن مقدار العطاء العلمي، إلا أنه عطاء علمي يُعْنَى بظاهر الحياة الدنيا الذي يتميز بعلاقة عضوية بالحياة الأخرى في المنهجية الإسلامية، حتى يرتبط الكسب العقلي خلال تديُّنه بالتفكير في ملكوت السماوات والأرض وصولاً إلى البرهان الدَّال على انتظام الخلق والأمر في حبل الله بالله ومنهجه القويم وصراطه المستقيم، الذي جاءت به الرسالة والرسول الخاتم سيدنا محمد ﷺ. وهذا ما يعطي حركة العقل في الحياة عمقها الإسلامي، ليتحرك العقل في المفكِّر المسلم في إطار آخر يتميز به المفكر المسلم في مجال النظر والتجريب وهو:

٥. إطار التسديد: وتشكِّل حركة العقل في هذا الإطار التفاعل الإيجابي مع الوحي فَهْمًا وتديُّنًا، يمد التصور البشري بالكمال الربَّاني خلال ضرورة التصويب، حتى يستقيم العقل على منهاج السَّداد والرُّشد، وآية ذلك عدم التعارض بين معطيات العقل ومعطيات الوحي.

ووظيفة العقل وهو يعمل في إطار التسديد، أن يضبط ظواهر السلوك الاجتماعي بقيمها ومبادئها الأصولية، كما جاءت في الوحي الكريم.

كما أنَّ من أعماله أن يصل معطيات الكشوف العلمية بحقائقها الدينية انطلاقًا من مفهوم الوحدانية، ولا يشترط في العقل السديد أنْ يغوص في أعماق الوحدانية ودورها في منظومة الحياة الإنسانية، والوصول إلى إدراك علاقة كثرة المظاهر بتوحيد الظاهر عزَّ وجلَّ، لأنَّ هذا من أعمال العقل في عوالم أخرى وطور أعلى من أطوار العقل وهو:

عالم الملكوت

والملكوت صيغة مبالغة من مَلَك، مثل نَاسَ المبالغة منها ناسوت.

وعالم الملكوت هو عالم الملائكة على اختلاف درجاتهم ومقاماتهم وأنواعهم، كما أنه عالم المُثُل العليا لمآلات أعمال العباد، إلى جانب أنه عالم يضم الهيولَى السامي المتجرِّد عن التراب لكل الأرواح الطاهرة وعلى رأسها أرواح الأنبياء والمرسلين، وإلى جانبهم المُنعَم عليهم من الصديقين والشهداء والصالحين، وكل ذلك قد أُريه الرسول ليلة عُرِج به. ويبدأ عالم الملكوت بالسماء الدنيا وينتهي بسدرة المنتهي.

والإنسان لا يتعامل مع عالم الملكوت بالعقل المجرَّد ولا بالعقل التَّجريبي ولا بالعقل المسدَّد إلا تصوُّراً وتفكُّراً وتدبُّراً.

أما تحقُّقاً فلا يتأتَّى للعقل ذلك إلا إذا كان مؤيَّداً، ذلك لأنَّ العقل بكل درجاته لا يعمل إلا في الزمان والمكان، وعالم الملكوت عالم لا زمان فيه بمفهومنا الوجودي، ذلك لأنَّ الزمان عندنا مرتبطٌ بدوران الأرض وحركة المجموعة الشمسيَّة، والكواكب كلُّها دون السماء

كما هو معلوم، ومن هذا العالم يبدو العقل في طورٍ سامٍ وهو طور العقل الفعَّال عند الفلاسفة، إلا أنَّها تسمية لا تتَّسق مع منهج الإسلام، كما أنَّ مفهوم العقل الفعَّال ومدلوله عند مَن يقول به لا يجد له مكانًا عند الربَّانيين من علماء الإسلام؛ ويسمَّى العقل عندهم في هذا الطور بالعقل المؤيَّد.

ويختلف العقل المؤيَّد عن العقل المجرَّد، لأنَّ العقل المجرَّد قصاراه أنْ يبحث في ظواهر الأشياء وصفاتها على درجاته. كما أنه يختلف عن العقل المسدَّد، إذ قصارَى العقل المسدَّد أنْ يعرف قوانين الأحياء والأشياء، إلى جانب مقدرته على الربط بين المثال والواقع، أو بين النظرية وتطبيقها خلال السلوك الاجتماعي، كما يشترط ليوصَف العقل بالسَّداد أنْ يشهد صاحبُه الله الحقَّ من خلال إدراك الحقائق الدينية وربطها بمنهج الإسلام وشِرْعته.
أما العقل المؤيَّد فهو الذي يعرف حقائق الوجود العليا على ما هي عليه، لا عن طريق الدليل والبرهان والتَّجريب والملاحظة، وإنما عن طريق الكشف عن هذه الحقائق بنور الله.

ومعرفة الحقائق الوجودية الناتجة عن حركة العقل المؤيَّد معرفة يقينية شهوديَّة، وأهل العقل المؤيَّد هم أهل المجاهدة في الله الذين أظمأوا نهارَهم وأسهروا ليلَهم، حتى كشف الحقُّ عنهم حجاب الحِسِّ، وأيَّدهم بنوره فرأوا حقائق الوجود العليا ببصائر لا شوب فيها!!.

وهنا قد ينشأ سؤال: أين موقع العقل المؤيد في الإنسان؟!

ونجيب بأنَّ موقع العقل المؤيد في الإنسان هو القلب، شريطةَ أنْ يكون مؤمنًا بالله الواحد الأحد، وفقًا لما جاءتْ به رسالة الإسلام مِنْ شرعة

ومنهاج، وبهذا الاعتبار يمكننا أن نقول إنَّ العقل فعلٌ من أفعال القلب وصفة من صفاته وليس جوهراً مفارقًا كما هو المفهوم الفلسفي القديم.

والملاحظ عند دارسي القرآن الكريم، أنَّ كلام الله لم يَرِدْ فيه اسم العقل كوسيلة من وسائل الإدراك النسبي، وإنما جاءت كلمة عقل ومشتقاتها لتعطِي معنى الفهم والوعي والإدراك، مع إضافة هذه المعاني إلى أداةٍ أخرى هي القلب وما يرادفه من مصطلحات مثل: الفؤاد، اللب والصدر.

ولعل الملاَحَظ الدلاليَّة مِن وراء اختيار لفظ القلب ليكون هو وسيلة التَّعقُّل والإدراك والفهم تتمثل في:

- إعطاء التعقُّل معنًى عميقًا يتجاوز الظواهر والظاهرات.
- تجاوز المعنَى التجريبي والمنطقي للإدراك العقلي الدارج.
- عدمِ الوقوف بالمعطيات الوجودية عند مرحلة المعرفة المجرَّدة.
- النفاذ بالإدراك المعرفي إلى طوايا الوجدان وحنايا القلوب، لينفعل العاقل بما عقل، ترقيةً لهذا الوجدان وإنارةً للقلب، مع الإحساس ببرد اليقين وعاطفة الانتماء، مع استشعار آصرة الروح ونقاء البصيرة.

وكل ذلك يُشَكِّلُ مُرادات أساسية وسامية متاحة من مقاصد الإسلام لا يعطيها المعنى الشائع لمفهوم العقل والعقلانية، التي تُجَرِّدُ المعقولات من دفق المشاعر، وتفصل السلوك عن الدوافع الوجدانية، وتنأى بالمعارف عن نور القلب وهدى الإيمان ومدد التُّقى.

ولذلك لم يصلح العقل بمفهومه الآلي أداة للمعرفة، بل قصاراه أن يكون مظهراً من مظاهر أفعال القلوب، فإن كانتْ القلوب موصولةً بالله كان العقل راشداً، أما إذا انقطعتْ القلوب عن مصدر النور وروح الهداية، فإن العقل لا بد أن يكون ضالاً.

هذا عن العقل بين التسديد والتأييد.

أما العقل التجريبي والمنطقي والعلمي، فهذا أداة إدراك دنيا، اتَّخذتْ المادة والطاقة مجالاً لها.

والعقل من أعمال القلوب حين ينزع القلب إلى عالم الغيب، حيث تلتقي عقيدة الإنسان مع إرادته في الواقع الاجتماعي، ليُثري الحياة فيعمُرُ الأرضَ كلازمٍ من لوازم الاستخلاف.

وفي حديثي عن نزوع القلب إلى عالم الملكوت "عالم الروح" لم أُعْنَ كثيراً بالعقل والعقلانية في مضمار الحِسِّ والمنطق والتجربة، لأنَّ للعقل في هذه المجالات قوانين وخصائص ومظاهر ومدركات لم أستهدفها في كتابي هذا.

وفي إطار المنهج الإسلامي يتجاذب القلبَ عالمان، عالم الملك "العالم المادي" وعالم الملكوت "العالم الروحي"، فإذا استنار القلبُ بنور الله فاستقرَّ فيه الإيمان، نَزَعَ إلى العالم الأسمَى، فنقل عن الله في عالم الملكوت من حقائق المعارف ما لا يستطيع العقل التَّجريبي دَرْكَه.

عالم الجبروت

ونقصد به عالم تجليات الله بصفات الذَّات، وهي تجلّيات نورية محضة ليس فيها من أعيان الأغيار شيئًا، وعلى ذلك فلا يدخل هذا العالم

مخلوق إلا بسلطان جبروتي من ربّ العزة، ولا يدخل هذا العالم الثان معًا أبداً، بل لم يدخله بذاته مِن الخلق إلا سيِّد الخلق أجمعين وخاتم الأنبياء والمرسلين حبيب الله ورسوله للعالمين محمد احمد بن عبد الله صلوات وسلامه وبركاته عليه.

أما مِن خلال معارج الروح من الربانيين، فقد دخله عددٌ مِن ورثة الرسول الكريم سيدنا محمد الخاتم لما سبق والفاتح لما اغلق، عليه من الله اشرف الصلوات وأزكى التَّحيات.

وكلّما علتْ درجةُ القلب في مدارج الرِّفعة، كلما تراحبتْ سوحُه وانشرحتْ طواياه بنور الله، حتى تُحسن عينُ الفؤاد رؤيةَ عالم الجبروت، حينما تنعكس تجلياته على مرآة القلب ذاتِ الصفاء والنقاء، فيرث من المعارف اليقينية وَهْبًا والتَّجليّات الإلهية كشفًا وشهوداً، ما لا يقوى العقل على تصوُّره ناهيك عن تعقُّله.

ولا مجال للعقل في عالم الجبروت، لأنَّه عالم الطَّمْسِ، وذلك لانطماس صفات الخلق ومحوها في صفات الحق، فيعود السالك في هذا المقام وحدة شعوريَّة واحدة تتخذ من الفؤاد المنير أداةً للرؤية في عالم الطمس، فلا عقل ولا عاقل ولا معقول وإنما هنالك شاهد ومشهود، حيث يزدان الشاهد بصفات المشهود تخلُّقًا على التَّحقيق، فيعود إلى الخلق وقد تحلّى بلباس التَّقوى كأثرٍ من آثار صفات المشهود.

فمبدأُ الأخلاق الكريمة مِن عالم الملكوت، وتمامُها مِن عالم الجبروت.

وفي قول الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم {إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق} ملحظ إشاري لتخلُّقه بأخلاق الله في عالم الجبروت،

حيث لم تكتمل الأخلاق بصفات الملائكة في عالم الملكوت، لأنه عالم لا اختيار فيه، ولا تكتمل الأخلاق إلا مع الحرية، والاختيار مع المسئولية والصلاحية، وهذا مما فضَّل الله به الإنسان على كثيرٍ ممَّن خلق تفضيلاً، لأنه يعيش في عالم الملك حيث المسئولية ومِن ثَمَّ الحرية في الاختيار.

عالم الهاهوت

ويُقصَدُ به عالم الذات الإلهية في صرافتها المطلقة وتجرُّدها عن الأسماء والصفات، حيث تنقطع العبارة بالسَّحق والمحق في عالم العماء، وتبقى الإشارة بـ[هاء] هوية الذات المقدَّسة، ولا مقامَ لسالك في هذا العالم وإنما هي أحوالٌ في زمان يبلغ من الدقة درجة لا تُقاس.

وضمير التعريف في هذا العالم هو "هو"، فإنْ أشرتَ قلتَ "ها هو"، ومِنْ هنا جاءت تسميةُ هذا العالم.

ولا إدراك في هذا العالم إلا العجز عن درك الإدراك، وهذا غاية، لأنه عِلْمٌ بحقيقة النفس الإنسانية في مدارج الذات الإلهية، وهو علم شهود ووجود ليس للشك فيه مِن سبيل.

يقول تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾[1]

وصاحبُ هذا العلم مِن أهل الحقيقة، لأنه شهد حقيقة حقِّ الإيمان كشفًا وعيانًا، بعد أنْ استقرَّ في قلبه بالدليل والبرهان.

---

[1]/ سورة آل عمران:الآية ١٨.

فمَنْ رأيته مِن أهل التصوف يُكثر من ترديد "هو" وهو في تمام صحوه، فاعلم أنه من أولي العلم، ومَنْ سمتْ روحُه إلى هذا العالم الذي لا يرجع مَن رُفِع إليه إلا بالتَّحقُّق حالاً، فإنَّه لا بد أنْ يعود ليستفيد منه أصحاب الاعتبار، أمَّا لسان القال فلا مجال له في التعبير لأنَّ هذا العالم ليس عالم عبارة.

وغاية العلم بالله وأسماه ما كان في عالم الهاهوت بنوريَّة المقام الأقدس، مقام "**قاب قوسين أو أدنى**"!! وهو علم بالله في حقائق الوجود العليا ولسان حال صاحبه الإشارة به حقًّا هو "هو".

هذه باختصار هي مدارج المنهج الرباني السلوكي التي سبقتْ الإشارةُ إليه في مفهومنا للتصوف الإسلامي عبر الذكر والفكر. وها أنت ترى أنها مدارج لا تكاد تنفصم عن الدلالات والأدلة الشرعية التي أشرتُ إليها في مجالاتها من الكتاب والسنة، فـ[**الملك والملكوت والجبروت** والـ"هو"] وإلى جانبها [**النفس الأمارة بالسوء، اللوامة، الملهمة، المطمئنة، الراضية والمرضية**] كلُّها ألفاظ قرآنية مأثورة، وما زدتُ شيئًا سوى أنْ أوردتُ قطرة من محيط علم أهل الصفاء بمضامين هذه المصطلحات من دلالات وإشارات ومعاني، لأدُلَّك على مكانةِ العلم بعامة، والعلم بالله بخاصة عند الصوفية الأبرار.

المبحث السادس:

التصوف الإسلامي منهج تربوي

يَرِد في مفهوم التصوف الإسلامي أنه منهج تربوي؛ والتربية سمة أساسية من سمات التصوف، حتى أنها لتكاد تكون مادة التخصُّص عند مشائخ التصوف الإسلامي ومرشديه.

ومادة "ربا يربو" في إشارتها إلى النماء والزيادة إنما تدور في نظرنا في إطار ماديٍّ ملموس، فالجسم يربو والمال يربو والأرض تربو.

فإذ جئنا إلى الروح ومعارجها فإننا نُحِلُّ كلمة زكا محلَّ ربا، فلا نقول ربتْ روح فلان، وإنما نقول زكتْ روحه كما جاء بها اللفظ القرآني: قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾[2] وفي التزكية ملحظ دلالي لا يوجد في لفظ التربية، وهو معنى الطهر والنقاء، فقد يربو المال في خبث وقد يربو الجسم من خبائث الكسب، ولكن التزكية والخبث لا يجتمعان أبداً.

وعلى ذلك يمكن أن نقول إنَّ المعنى المقصود بالتربية في مفهوم التصوف الإسلامي، هو المعنى المتعلّق بتزكية الروح وتصفية القلب.

وقد استخدم الصوفية في هذا المضمار الوسائل الشرعية لتزكية الروح وتجديد الوجدان وإنارة القلب، من ليلٍ مُقامٍ ونهارٍ مُصامٍ وإمساك اللسان إلا

---

[1] / سورة الشمس:الآية ٩ .

[2] / سورة الأعلى:الآية ١٤.

عن حق، مع زهدٍ وورعٍ وخشيةٍ وتُقَى، تُشكّل مدارج الروح في سُموِّها وتزكيتها.

مظاهر الأدب عند اهل الطريقة

ومِنْ أظهر الآثار السلوكيَّة لزكاء السالك، أنْ يكون مؤدَّبًا بتهذيب ظاهره وصفاء باطنه وسلامته، لأنَّه بالأدب يفهم العلم، وبالعلم يصح العمل، وبالعمل تُنال الحكمة، ومن أُوتِيَ الحكمة فقد أوتِيَ خيراً كثيراً، شريطة أنْ يكون العمل مصحوبًا بالأدب، وأعني بالعمل العمل مع الله ذلك لأنَّ الأدب في العمل مؤذن بقبوله عند الله عزَّ وجلَّ، وآية ذلك أنْ يبسط للعامل الأديب من الصوفية بساط الأُنس في الحضرة الإلهية، ثم لا يغترُّ لأنه ناظرٌ إلى الجلال، فذو التربية من السالكين لطريقة العرفان هو الأديب في الناس، لأن ترك الأدب موجب للطرد، فمَنْ أساء الأدب على البساط رُدَّ إلى الباب، ومن أساء الأدب عند الباب رُدَّ إلى سياسة الدَّواب وليست إلا نفسه التي هي كالأنعام.

وللأدب مع الله مظاهر في السلوك الاجتماعي عند الصوفي ولا بد، ومن هذه المظاهر السلوكية للأدب الرفيع عند أهل الطريقة:

١. إنزال الناس منازلهم بتوقير الكبير، وإكرام النَّظير والشَّفقة والرحمة بالصغير.

٢. الصمت في مواطن الصمت، والكلام حينما يكون الصمت والسكوت شيطنة خرساء، من غير ثرثرة ولا تشدُّق، ولاسيَّما في مجالس الكبار مقامًا أو سِنًّا.

٣. معرفة قدر نفسه، ومعاملة الناس بما يحب أنْ يعامله الناس به.

٤. رجاحة العقل وسهولة الطبع وبُعد النظر وسلامة الفكرة.

٥. تجنُّب النَّزق[1] والحمق والتَّعجُّل في ما مِنْ شأنه الرَّيثْ والتامُّل.

٦. الطلاقة والبشر والتبسُّط مع الإخوة والأصحاب والنظراء، في غير هذرٍ ولا هُجْرٍ مع أريحية الجود وهزة الكرم.

٧. استشعار المروءة وعُلوُّ الهمة، مع التَّمسك بالتواضع في خدمة الكبراء والنظراء ومن دونهم، حتى يكشف التطبُّع عن سماحة الطبع وسهولته، وحتى يدل التواضع على رفيع المقام.

وكل هذه المظاهر وغيرها كثير تشكّل المردود التربوي لمنهج التصوف حينما يورث أهله الأدب.

ومن هنا يكتسب الأدب قيمته كناتج تربوي مُهِمٌ من نتائج التربية الصوفية. ومشائخ الصوفية حينما يورثون الأدب لأبنائهم إنما ينحلونهم بذلك نحلة كريمة، ويختصُّونهم بعطاء كريم وميراث ليس ثمة افضل منه.

وقد جاء في سنن الإمام الترمذي من حديث جابر بن سمرة[2] رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قوله: {ما نحل والد ولده افضل من أدب

---

[1] / النَّزَقُ: خفة في كل أمر وعجلة في جهل وحُمْق. (لسان العرب، ج: ١٠ ص: ٣٥٢).

[2] / جابر بن سَمُرَة: هو جابر بن سمرة بن جنادة، العامري. ﷺ وأمه خالدة بنت ابي وقاص أخت سعد بن أبي وقاص، له ولأبيه صحبة. روى عن النبي ﷺ وعن أبي ايوب الأنصاري، وخاله سعد بن أبي وقاص، وأبيه سمرة، وعلي بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب. وروى عنه الأسود بن سعيد الهمداني، وتميم بن طرفة، وسماك بن حرب، وعامر الشعبي. قال محمد بن سعد: صحب النبي ﷺ ورآه في الشمس فقال{ تحول إلى الظل فإنه مبارك}. ونزل الكوفة وتوفي بها في ولاية بشر بن مروان سنة [٧٦هـ]. [تهذيب الكمال للمزّي ج: ٤ ص: ٤٢٧- ٤٢٩]

حسن}[1]. وفي حديث آخر من رواية انس ﷺ: {ما نحل والد ولده أفضل من خلق حسن}[2]. ومن حديث جابر بن سمرة في سنن الترمذي ايضًا قول الرسول الكريم ﷺ {لأن يؤدّب الرجل ولده خيرٌ له من أن يتصدق بصاع}[3].

[الجرح والتعديل لابن ابي حاتم ج: ٢ ص: ٤٩٣] لرجال مسلم لأحمد بن علي بن منجويه الأصبهاني ج: ١ ص: ١١٤].

1/ حديث { ما نحل والد ولده ... } روى الترمذي بسنده عن أيوب بن موسى عن ابيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال {ما نحل والد ولدًا من نحل افضل من أدب حسن} قال ابو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عامر بن ابي عامر الخراز وهو عامر بن صالح بن رستم الخزاز وايوب بن موسى هو بن عمرو بن سعيد بن العاصي وهذا عندي حديث مرسل.

قال المناوي : اي لأن عَمْراً لم يدرك النبي ﷺ فهو تابعي كما تقرر. وقال الحاكم صحيح: فردَّه الذهبي وقال: بل مرسل ضعيف، ففيه عامر بن صالح الخزاز، واه.

وقال الهيثمي: رواه الطبراني عن ابن عمر، وفيه عمرو بن دينار قهرمان آل الزبير، وهو متروك. انظر لسنن الترمذي ج: ٤ ص: ٣٣٨] لفيض القدير ج: ٥ ص: ٥٠٢] [المستدرك على الصحيحين ج: ٤ ص: ٢٩٢] [مجمع الزوائد ج: ٨ ص: ١٥٩]

2/ حديث { ما نحل والد ولده افضل من خلق حسن} : مرَّ تخريجه بلفظ{ افضل من ادب حسن} خرجه الترمذي والحاكم من طريق أيوب بن موسى عن أبيه عن جده. ورواه الطبراني عن ابن عمر كما تقدم. وكذلك رواه النسائي في النحل الحديث رقم ٢٦١٦ واحمد في مسند المكيين الحديث رقم ١٤٨٥٦ وفي مسند المدنيين الحديث رقم ١٦١١١ و١٦١١٨ وكلهم من طريق أيوب بن موسى عن أبيه عن جده، بلفظ { افضل من ادب حسن} ولم أجده بلفظ {خلق حسن} كما لم أجده برواية جابر بن سمرة.

3/ حديث {لأن يؤدب الرجل ولده} : أخرجه الحاكم عن جابر بن سمرة ﷺ عن رسول الله ﷺ بلفظ:{والله لأن يؤدب أحدكم ولده خير له من أن يتصدَّق كلَّ يوم بنصف صاع } .[المستدرك على الصحيحين ج: ٤ ص: ٢٩٢]. ورواه الطبراني في الكبير، وأحمد في المسند، وكلهم من طريق ناصح بن عبد الله .

والأدب الناتج عن التزكية نوعان: [أدب قول - أدب فعل].

فأدب القول: الا تتخطى ضوابط الشريعة في كلّ كلام يصدر عنك.

وأدب الفعل: هو تغييب النفس في طوايا الانكسار، وذلك بالاعتدال في مقام البسط في الحضرة الإلهية.

مُقوِّمات الأدب في حضرة البسط

ومن مقوِّمات الأدب في هذه الحضرة كما أخبر به الإمام أبو محمد الجريري مع تعليق منَّا على قوله أنْ تعرف تمام المعرفة أنَّ:

[التسرُّع إلى استدراك علم الانقطاع وسيلة إلى الوصول حتى لا يطول الأمد ويقسو القلب فيستمرئ الحجاب][1].

[الوقوف على حدِّ الانحسار نجاة].

ويعني أن التسليم بالعجز عن درك ما فوق العقل، نجاة من الزيغ والضلال والانقطاع عن الله.

[واللياذ بالهروب من علم الدنو وصلة].

ويعني هروبك منك هو وصولك إليه، أو أنه إشارة إلى هروبك من الدنو منه بك هو وصولك إليه به.

[واستقباح ترك الجواب ذخيرة].

---

[1] / علم الانقطاع: هو علم الآخرة الذي يشيع لصاحبه نورًا في قلبه ينشرح به صدره فيورثه التَّجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود، فيجتهد العبدُ في الطاعات وعمل القربات بغيةَ الوصول إلى الله والفوز بمحبته ورضاه. فالإسراع إلى طلب مثل هذا العلم أمرٌ لازم مُحتَّمٌ، ويجب عدم التَّراخي في ذلك حتى لا تقسو القلوب وتستمرئ حجابَ البُعد والقطيعة.

وهذا يعني إجابة داعي الحق بما جاء في الميثاق القديم، والمقصود بعبارة "ماجاء في الميثاق القديم" أن الله تبارك وتعالى قد أخذ ميثاق العبودية للإيمان بالربوبية في عالم الذر وقد ورد هذا في قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[1]

وعلى ذلك فمقتضى هذا الميثاق القديم، إجابة داعي الحق بالتوحيد والإيمان، تلازمًا مع نداء الفطرة السليمة، ومَن ترك إجابة داعي رب العالمين برسالة الإسلام الخاتمة وما تقول به الفطرة وتُوجِبُهُ لوازم الوفاء بالعهود، فقد جاء أمراً بلغ في القبح الغاية، وما ثمة أقبح وأشد ظلمًا من الشرك.

والعبارة تحثُّ السالكين من ذوي الأدب على أن يستقبحوا الشرك والكفر، ويعملوا بضده من الحسن والأحسن والجميل والأجمل، وليس إلا الإيمان وإسلام القلب والوجه لله الواحد الأحد القيوم، وهو المعنى المقصود بالذخيرة، لأنَّ سلامة القلب من الشرك الجلي والخفي والأخفى، هو وحده الذخيرة النافعة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا مَن أتى الله بقلب سليم، ذخيرة لأنه رجوع إلى الفطرة السليمة.

[والاعتصام من قبول دواعي استماع الخطاب تكلُّف].

---

[1]/ سورة الأعراف:الآية ١٧٢.

والأديب لا يتكلَّف ولذا يلزمه أنْ يقبل دواعي استماع الخطاب الإلهي بالتَّقريب على أيِّ حال كان.

[وخوفُ فَوْتِ عِلْمٍ ما انطوَى مِنْ فصاحةِ الفَهْمِ في حَيِّزِ الإقبال مساءة]. ويعني أن الله إذا أقبل على عبده السالك، فلا يضرُّه فوتُ ما انطوَى عليه الفهم الفصيح من عِلمٍ. فإنْ خاف السالك الذي أقبل الله عليه هذا الفوت، فقد أساء الأدب مع الله لأنه اهتمام بالعطاء وانصراف عن المعطي!!. وقد كان الإمام أبو حامد الغزالي رضي الله عنه عارفًا بهذا الأدب ولهذا تحقَّق به.

[والإصغاء إلى تلقِّي ما انفصل عن معرفة الله بُعْدٌ].

وهذا يعني أنَّ الأديب من السالكين مَن أصغَى إلى كلمات الله في الآفاقِ والأنفُسِ والقرآن رابطًا بينها وبين مصدرها، فإنْ أصغَى إلى كلمات الله - آياته في الآفاق والأنفس- حال انفصالها عن معرفة الخالق عزَّ وجلَّ، فقد بَعُدَ عن المنهج القويم، وهذا حال العديد من علماء الأحياء والأشياء من المغضوب عليه والضالين الذين حُجِبوا بالمظاهر عن الظاهر.

[والاستسلام عند التلاقي جرأة].

تلاقي صفات الخلق بصفات الحقِّ يوجب السَّحق والفناء، فناء ما هو زائلٌ بما هو باقٍ، والاستسلام لذلك جرأة!! لأنَّ هذا الاستسلام إيذانٌ بمكر الله أو استدراجه لعباده. والأدب الجادُّ يأبَى ذلك، ويلزم صاحبُه التحوُّط والأناة واتِّهام النفس بالتَّقصير دائمًا، لأنَّ الاستسلام مَظَنَّةُ كمالٍ لمظاهر التَّجلِّي الإلهي!! ومَنْ ظنَّ في نفسه ذلك فقد اجترأ وأساء، لأنَّ الجرأة على الله في هذا المقام تنافي الأدب.

[والانبساط في محلِّ الأنس غِرَّة].

الأُنس هو مُوادَدَةُ الحق لعباده، فإذا أبدَى العبدُ مِن صفات الجمال في حضرة الجلال صفةً، فقد انبسط بدافعٍ مِن الإدلال، وفي هذا خِداعٌ وغرور، لأنَّ الإدلال في حضرة الملوك موجبٌ للغضب والطَّرد.

ولذا يلزم الأديب في محلِّ الأُنس أنْ يلتزم إذلالَ نفسِه برؤية الجلال، فيكون على حالٍ مِن القبض فلا ينبسط إلا بعد التكريم، ولا تكون كرامة السَّالك إلا بعد قيامه مِن محلِّ الأُنس.

وكلُّ ذلك يعرفه أهل الحضور مع الله رفيع الدرجات ذي المعارج.

مِن أدب الأقوال:

ومِن أدب الأقوال أنْ يحفظ السالك لسانه إلا عن حقٍّ، فلا يتكلم إلا بما يعود عليه بالخير في دينه من أمرٍ بمعروف أو نهيٍ عن منكرٍ، أو إصلاحٍ بين الناس، مع توخِّي الحسن من القول، حتى يترجم اللسان عن المعاني الإيمانية السامية المستكنَّة في القلب.

ومن أدب القول في السلوك أنْ يفطن السالك إلى بواعث كلامه وأهدافه، وما يستخدمه من وسائل لفظية ليتوخَّى النُّبل والنزاهة والطهر والسمو والتجرُّد من الغرض في كل ذلك.

ومن أخطأ ذلك في طريق الرجعى إلى الله فقد أعطى من نفسه البرهان على أنَّ وسائله تهزم غاياته وأقواله تخالف أفعاله، وهو سلوك يجلب المقت الإلهي لصاحبه.

مِن أدب الأفعال

ومن أدب الأفعال أدبان: **الحياء و الرفق** متى استصحبهما السالك طريق الحق في أفعاله فقد رَشَدَ.

و [الحياء من الإيمان[1] لأنه يبوح بدفقات من المشاعر السامية التي تنفر بصاحبها عن جرح مشاعر الآخرين، كما انها تزين وجه السالك بغلالات من نور الإيمان، تقي صاحبها جفاف الطبع وتَرَبُّد الوجه وكزازته، ولا غرو في أنْ يكون الحياء من مواريث الأدب النبوي، فقد كان النبي ﷺ أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها[2] وفي المأثور {إنَّ مما أدرك الناس من كلام النبوة إذا لم تستح فاصنع ما شئتَ}[3].

فالحياءُ شُعبةٌ مِن شعب الإيمان تنبعث من طوايا القلب الذي امتلأ بالإيمان، فاستنار بنور الله الحليم الستار.

ويأتي الرفق من أدب الأفعال، ليرتقي بهذه الأفعال إلى قِمَّةٍ سامية من درج الخصال التي يحبها الله تبارك وتعالى، ويكفي في الرِّفق قول المصطفى ﷺ: {ما صحب الرفق عملاً إلا زانه وما خلا منه إلا شانه}[4].

---

[1] / حديث: الحياء من الإيمان: روى البخاري عن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ مرَّ على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء فقال رسول الله ﷺ: لدعه فإنَّ الحياء من الإيمان]. [صحيح البخاري ج: ١ ص: ١٧ الحديث رقم ٢٤] ورواه مسلم في كتاب الإيمان الحديث رقم ٥٢.

[2] / حديث{ أشد حياءً من العذراء} عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال كان النبي ﷺ أشدَّ حياء من العذراء في خدرها وإذا كره شيئًا عُرِف في وجهه [صحيح البخاري ج٣ ص١٣٠٦. الحديث رقم ٣٣٦٩] و[صحيح مسلم ج٤ ص١٨٠٩ الحديث رقم ٢٣٢٠].

[3] / رواه البخاري وأبو داود وغيرهما . انظر[صحيح البخاري ج: ٣ ص: ١٢٨٤الحديث رقم ٣٢٩٦] ولسنن أبي داود ج: ٤ ص: ٢٥٢الحديث رقم ٤٧٩٧].

[4] / حديث { إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه} روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال {إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه} [صحيح مسلم ج: ٤ ص: ٢٠٠٤الحديث رقم ٢٥٩٤] و[صحيح ابن حبان ج: ٢ ص: ٣١٠الحديث رقم ٥٥٠]

وأخرجه أبو داود في الجهاد الحديث رقم ٢١١٩ وفي الأدب الحديث رقم ٤١٧١ وأخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين الحديث رقم ١٣٠٩١

المبحث السابع

التصوف الإسلامي طريق الحق

نعود إلى مفهومنا للتصوف الإسلامي، بُغيةَ تأصيله وإرجاعه إلى مصادره الإسلامية الخالصة كما التزمنا بذلك.

وقد سبق تحديدنا لمفهوم التصوف الإسلامي بأنه:

[منهج سلوكي تربوي على طريق الحق بصدقٍ تتم به مكارمُ الأخلاق، وينقدح في قلوب سالكيه من أنوار العلوم وحقائق الوجود ومظاهر التَّجلِّي الإلهي ما يجعل للسالك فرقانًا في حياته].

وتأتي جزئية أخرى مِن جزئيات مفهوم التصوف الإسلامي وهي: "طريق الحق بصدق".

ومنهج التصوف يقوم على طريق الحق بصدق، والمراد بـ[طريق الحق] ما جاء به القرآن، والسنة الصحيحة والإجماع.

وكل ما خالف ذلك أو عارضه فلا يدخل في مفهوم التصوف الإسلامي شريطة تدبُّر القرآن، ومعرفة مضمون السنَّة مع فَهْمِ روح الإجماع، أما الوقوف مع ظواهر الألفاظ فليس من علم القلوب في شيئ، وبالتالي فلا ينبغي أن يُحاكَم التصوف الإسلامي بظواهر الألفاظ ودلالات الأشكال، لأنَّ في ذلك ظلم للتصوف كعِلمٍ من علوم الإسلام، وظلم للإسلام كمصدر شامل لعلم النفس الإنساني في طورها الرحماني.

أقوال علماء الصوفية في مفهوم التصوف

وإذا نتج عن منهج التصوف علمُ الحقيقة، فإنه يلزم ألا يعارِض علمَ الشريعة، لأنَّ طريق الحق الذي يضم علم التصوف الإسلامي، يشتمل على الأقوال والأفعال والأحوال، فالأقوال والأفعال من علم الشريعة، والأحوال من علم الحقيقة، وكل من الشريعة والحقيقة صفحتان لرسالة واحدة هي رسالة الإسلام.

وقد تأكدتْ هذه الجزئية من مفهوم التصوف الإسلامي بأقوال عديد من علماء الصوفية الأبرار ومن ذلك:

قول الإمام أبي القاسم الجنيد:

[الطرق كلها مسدودة على الخلق إلاّ على من اقتفى آثار الرسول ﷺ]. وقوله لمَنْ لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يُقتدى به في هذا الأمر - الطريق الصوفي- لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة].

قول أبي حفص الحداد:

[مَنْ لم يزن أفعاله وأقواله وأحواله في كلِّ وقت بالكتاب والسنة ولم يتَّهم خواطره فلا يُعَدُّ في ديوان الرجال].

قول السَّري السقطي:

قال في وصف الصوفي: [لا يطفئ نورُ عقله نورَ ورعه، ولا يتكلم بباطن علمٍ ينقضه عليه ظاهرُ الكتاب، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله].

ولو لم يكن في تراث الصوفية إلا هذا "المأثور" ليدل على التزام طريق الحق في منهج القوم لكان كافيًا، وذلك لشمول دلالته واتِّساع معناه.

لأننا رأينا كثيراً من الأذكياء الذين تعجبك قوة فكرهم وسلامة نظرهم وحدَّةُ ذكائهم ومضاء عقولهم، إلا أنَّ نصيبهم من الورع جدٌّ قليل، فلا يتورَّع أنْ يخوض بنور عقله في معاقل التورع غير هيَّاب، حتى يطفئ نورُ عقله نورَ ورعه ببدعة ضالة منكورة أو بنحلة باطلة ممكورة، يتعسَّف لها البراهين والأدلة حتى تقوم على ساق!! وذوو العلم والورع من حوله يعلمون تمام العلم أنَّ ما يجهد فيه عليم اللسان هذا إنما هو انتحال مبطلٍ تغلّب نورُ عقله على نورِ ورعه؛ وهو الذي أبعده الشيخ السَّقطي عن دائرة الصوفي.

وبنور العقل الذكي قد تطرأ على الدين غاشيات في الابتداع، هي في نظر أصحابها مِن صميم الدين في ظرفه المعاش، ولذلك ترَى قوة التمسك بها والتعصُّب لها، فلا يقف كِفَاءً لهذه النزعة في بني الإنسان إلا نورُ الورع، يكبح جماح العقل الذكي فيعيدُه إلى التَّوازن في مسيرة التَّدين الواقعي.

ومعيار التَّوازن في هذا السياق معيار سامٍ يُشكِّل القرآن الكريم والسنة المطهرة مرجعيَّته الأساسيَّة، التي لم ترضَ لفكر الإنسان أنْ يحاكَم إلى فكرِ إنسانٍ آخر، بحيث يشكِّل القول عند قائله أو مَن يوافقه المعيار الذي يحتكم الناس إليه دون عصمة أو كتاب منير.

ولهذا سمتْ شريعة الإسلام بالمعيار الذي يرتضيه المتنازعون حَكَمًا بينهم، لتجعله فوق الفكر البشري، وذلك حينما نصَّ القرآن الكريم على أنَّ القرآن والسنَّة الصحيحة - أيْ الوحي- معيارٌ للتَّرجيح في مواطن النِّزاع، حتى لا يستعبدَ الأذكياءُ غوغاءَ البشر، فلا يُرونهم إلا ما يرون مِن تحليلِ الحرام وتحريمِ الحلال، الذي هو من خصائص الربوبية المطلقة والنبوَّة المأذونة المتَّبعة.

وإذا كان الجزء الأول مِن عبارة الإمام السَّري السَّقطي تستبعدُ أذكياء العقول - الذين لا يتورَّعون- عن دائرة التصوف وهؤلاء أهل تفريط، فإنَّ الجزئية الثانية تستبعدُ في ذات الوقت الباطنية وهم أهل الإفراط عن دائرة التَّصوف.

والباطنية قوم حملوا ظواهر القرآن والسنَّة على تأويلاتٍ تهدم ظواهر الشريعة وتُبطل حدودها وتُقوِّض أركانها.

فالألفاظ عندهم أوعية يمكن أنْ تُملأ بمختلف المعاني مِن التَّنزُّلات والتأويلات الباطنية، التي لا يشهد لها مجاز ولا تعترف بالحقائق في مدلولات الألفاظ، وهذه التأويلات عند الباطنية عِلمٌ سامٍ وسرٌّ عالٍ مكتتم لا يعرفه إلا الراسخون في العلم!!.

ولهذا تراهم من أهل الغرور والإعجاب بأنفسهم، ولهذا نهَى هذا الإمام العارف المرشد أنْ يتكلم الصوفي في باطن عِلمٍ ينقضه عليه ظاهر الكتاب، ذلك لأنَّ الله قد ضمن العصمة لكتابه ولرسوله صلوات الله وسلامه عليه، ولم يضمنها لإنسان غير ذلك، مهما علا مقامُه في معارج القدس.

وما تكلم متصوف بكلام يناقض كتاب الله وما صحَّ من سنة رسول الله ﷺ إلا عن رعونةٍ أو استدراج أو عبادة هوى!!.

ولذلك تواترتْ أقوال أئمة المنهج الصوفي في أهمية التَّمسُّك بالشريعة الإسلامية.

تمسُّك علماء الصوفية بالشريعة

تواترتْ مأثورات علماء الصوفية في التَّمسُّك بطريق الحق وظاهر الشرع الذي يوحِّد الأهواء ويقطع النزاع، ويقيم صاحبه على الهدى القويم والسراط المستقيم.

وها نحن نورد في هذا المبحث شيئًا من هذه المأثورات دون التزام بمقام صاحبها أو سبقه الزماني.

ومِنْ ذلك:

١. قول الإمام التستري سهل بن عبد الله:

[أصولنا سبعة أشياء:

- التمسك بكتاب الله.
- الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ.
- أكل الحلال.
- كفُّ الأذى.
- اجتناب الآثام.
- التوبة.
- أداء الحقوق].[1]

٢. قول الإمام أبى يزيد البسطامي:

[مَن ترك تلاوة القرآن والتقلُّل من الدنيا ولزوم الجماعة وادَّعَى هذا العلم - التصوف - فهو مبتدع].

وقوله: [إذا رأيتم الرجل يطير في الهواء ويمشي على الماء فلا تغترُّوا به حتى تروه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة].[1]

[1] / طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ص٢١٠.

وقوله وقد سئل عن الصوفي: [هو الذي يأخذ كتاب الله بيمينه وسنة رسول الله بشماله وينظر بإحدى عينيه إلى الجنة وبالأخرى إلى النار ويأتزر بالدنيا ويرتدي بالآخرة ويلبي من بينها لبيك اللهم لبيك].

٣. **قول الإمام السري بن المغلّس السَّقطي:**

[مَن ادَّعى باطن علم ينقض ظاهر حكم فهو غالط].

٤. **قول الإمام أبي القاسم الجنيد شيخ الصوفية:**

[علمنا هذا مقيّدٌ بالكتاب والسنة][2].

وقوله: [الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على مَن اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع ولزم طريقته فإنَّ طرق الخيرات كلّها مفتوحة عليه].

٥. **قول الإمام أبي الحسين النوري:**

[ومن لم يزن أقواله وأفعاله وأحواله بالكتاب والسنة، ولم يتهم خاطره فلا تعدُّه في ديوان الرجال].

وقوله: [من رأيتموه يدَّعي مع الله حالة تخرجه عن حدِّ العلم الشرعي فلا تقربوا منه][3].

٦. **قول أحمد بن أبي الحواري:**

[من عمل عملاً بلا اتّباع سنَّة رسول الله ﷺ فباطل عمله][4].

٧. **قول الإمام أبي عثمان الحيري**[1]:

---

[1] / الرسالة القشيرية ج١ ص٨٢.

[2] / الرسالة القشيرية ج١ ص١٠٧.

[3] / الرسالة القشيرية ج١ ص١١٢.

[4] / الرسالة القشيرية ج١ ص٩٥.

[مَن أمَّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ، ومن أمَّر الهوَى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة][2].

٨. **قول الإمام أبي حمزة البغدادي٣:**

[من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه و لا دليل على الطريق إلى الله إلا متابعة الرسول ﷺ][4].

---

[1] / **أبو عثمان الحيري** : الشيخ، الإمام، المحدث، الواعظ، القدوة، شيخ الإسلام، الأستاذ أبو عثمان سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور النيسابوري الحيري الصوفي، مولده سنة [٢٣٠هـ] بالري، فسمع بها من محمد بن مقاتل الرازي، وموسى بن نصر وعدة، وحدث عنه الرئيس أبو عمرو أحمد بن نصر، وابناه ابو بكر ،وأبو الحسن، وأبو عمرو بن مطر، وإسماعيل بن نجيد، وعدة ، قال الحاكم : قدم نيسابور لصحبة الأستاذ أبي حفص النيسابوري، ولم يختلف مشايخنا أن أبا عثمان كان مجاب الدعوة، وكان مجمع العباد والزهاد، ولم يزل يسمع ويجل العلماء ويعظمهم ، وكان إذا بلغ سنة لم يستعملها وقف عندها حتى يستعملها ، توفي [٢٩٨هـ] لسير أعلام النبلاء ج: ١٤ ص: ٦٢].

[2] / الرسالة القشيرية ج١ ص١١١.

[3] / **أبو حمزة البغدادي** : شيخ الشيوخ، أبو حمزة محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي، جالس بشراً الحافي، والإمام أحمد، وصحب السَّرِيَّ بن المُغَلِّس، وكان كثير الرباط والغزو، حكى عنه خير النساج، ومحمد بن علي الكتاني، وغير واحد ، وكان صاحب ليلٍ مقدمًا في علم القرآت، وخاصة في قراءة أبي عمرو، وحملها عنه جماعة، وهو أول من تكلم في صفاء الذكر، وجمع الهمّ، والمحبة، والشوق، والقرب، والأنس على رؤوس الناس، وهو مولى لعيسى ابن أبان القاضي، وقال مرة : قال لي أحمد بن حنبل يا صوفي ما تقول في هذه المسألة ؟ نقل الخطيب وفاته في سنة: [٢٦٩هـ] لسير أعلام النبلاء ج: ١٣ ص: ١٦٥) (تاريخ بغداد ج: ١ ص: ٣٩٣].

[4] / **الرسالة القشيرية ج١ ص١٣٩.**

٩. قول الشيخ أبي إسحاق الرقي[1]:

[علامة محبة الله إيثار طاعته ومتابعة رسوله ﷺ [2].

١٠. وقول أبي الحسين الورّاق:

[لا يصل العبد إلى الله إلا بالله وبموافقة حبيبه ﷺ في شرائعه].

١١. قول الإمام أبي القاسم محمد النصراباذي[3]:

[أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة، وترك الأهواء والبدع، وتعظيم حرمات المشائخ، ورؤية أعذار الخلق، وحسن صحبة الرفقاء، والقيام بخدمتهم، واستعمال الأخلاق الجميلة والمعاونة على الأوراد، وترك ارتكاب

---

[1] / أبو إسحاق الرقي:: هو إبراهيم بن داود القصار، أبو إسحاق الرقي، قال السلمي: إبراهيم بن داود من جلة مشايخ الشام، من أقران الجنيد، و ابن الجَلاء، و صحبه أكثر مشايخ الشام، و كان لازماً للفقر، مجرداً فيه، محبًا لأهله ،وكان يقول :المعرفة إثبات الرب عز وجل، خارجًا عن كل موهوم، و قال: مَن اكتفى بغير الكافي افتقر من حيث استغنى، وقال الكفايات تصل إليك بلا تعب، والأشغال و التعب في الفضول، و قال: أضعف الخلق من ضعف عن ردّ شهواته، و اقوى الخلق مَن قويَ على ردّها. توفي سنة: [٣٢٦هـ] [صفوة الصفوة ج: ٤ ص: ١٩٧].

2/ انظر حلية الأولياء ج١٠ ص٣٤٥.

[3] / النصراباذي: أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن أحمد بن محمويه الخراساني النصراباذي، الزاهد، الواعظ، شيخ الصوفية والمحدثين، سمع ابن خزيمة وغيره.

قال السخاوي: كان أوحد المشايخ في وقته علمًا وحالاً، صحب الشبلي والروذباري والمرتعش وغيرهم، توفي بمكة وهو مجاور سنة ٣٦٧هـ. [شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج٤ ص٣٥٦ - ٣٥٧].

الرخص والتأويلات، وما ضلَّ أحد في هذا الطريق إلا بفساد الابتداء، فإنَّ فساد الابتداء يؤثِّر في الانتهاء][1].

١٢. **قول الإمام الشيخ عبد القادر الجيلاني:**

[كلُّ حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة، طِرْ إلى الحقّ عزّ وجلَّ بجناحي الكتاب والسنة، ادخل عليه ويدك في يد الرسول][2]

وقوله: [ترك العبادات المفروضة زندقة، وارتكاب المحظورات معصية، ولا تسقط الفرائض عن أحدٍ في حالٍ من الأحوال].

١٣. **قول السيد أحمد الرفاعي:**[3]

[لا تقولوا كما يقول بعض المتصوفة نحن أهل الباطن وهم أهل الظاهر، فإنَّ الدين جامعٌ، باطنُه لُبُّ ظاهرِهِ، وظاهِرُهُ ظرفٌ لباطنه، ولولا الظاهر لما كان الباطن ولا صَحَّ، والقلب لا يقوم بغير جسدٍ، بل لولا الجسد لفسد، والقلب نور الجسد ولولاه عاد الجسد طينًا مظلمًا، وما أسماه بعضهم علم الباطن إنْ هو إلا إصلاح القلب وتنويره،

---

[1] / طبقات الصوفية للسلمي ص٤٨٨.

[2] / الفتح الرباني للشيخ عبد القادر الجيلاني ص٢٩.

[3] / **الشيخ أحمد الرفاعي:** هو أحمد بن أبي الحسين الرفاعي، منسوب إلى بني رفاعة قبيلة من العرب، وسكن أم عبيدة بأرض البطائح [بالقرب من واسط] إلى أن مات بها، وكان قد انتهت إليه الرياسة في علوم الطريق، وشرح أحوال القوم، وكشف منازلاتهم، تخرَّج بصحبته جماعة كثيرة، وتتلمذ له خلائق لا يحصون، وكان شافعي المذهب، قرأ كتاب التبيه للشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وما تصدَّر قط في مجلس، ولا جلس على سجادة تواضعًا، وكان لا يتكلم إلا يسيراً. توفي يوم الخميس ثاني عشر جمادى الأولى سنة سبعين وخمسمائة [٥٧٠هـ]. ودفن في قبر الشيخ يحيى البخاري. [الطبقات الكبرى للشعراني ج١ ص١٤٠-١٤٥].

فالظاهر عمل بالأركان، والباطن تصديق بالجنان، وإذا انفرد قلبك بحسن النية وطهارة الطوية ولكنك قَتَلْتَ وسرقتَ وزنيتَ وأكلتَ الربا وشربتَ الخمر وكذبتَ واغتبتَ وتكبَّرتَ وأغلظتَ القول وأسأتَ، فماذا يفيدك حسن نيتك وطهارة طويتك؟!! وإذا عبدتَ الله وتعفَّفتَ وصمتَ وصلَّيتَ وتصدَّقتَ وأحسنتَ قولَك للناس وتواضعتَ إلا أنَّ قلبك أبطن الرياء وآثرَ الخبث والفساد فماذا يفيدك عملك؟!!].[1]

١٤. **قول الإمام أبي الحسن الشاذلي**[2]:

[إذا عارض كشفك الصحيح شيئًا من الكتاب والسنة، فاعمل بالكتاب والسنة ودع الكشف، وقُلْ لنفسك إنَّ الله تعالى ضمِنَ لي العصمة في الكتاب والسنة، ولم يضمنها لي في جانب الكشف والإلهام][3].

١٥. **قول الإمام عبد الوهاب الشعراني**[4]:

---

[1] / البرهان المؤيد للشيخ أحمد الرفاعي ص١٦٨.

[2] / **الإمام أبو الحسن الشاذلي**: هو أبو الحسَن علي بن عبد الله الشريف، الحسني، الشاذلي، شيخ الطائفة الشاذلية. ولد سنة: [٥٧١هـ] وأخذ عن ابن حرزهم، وابن مشيش، وأرشد جملةً من الأكابر، كالشيخ مكين الدين الأسمر، وأبي العزايم ماضي، وأبي العباس المرسي، توفي سنة: [٦٥٦هـ] [شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد مخلوف].

[3] / لطائف المنن لابن عطاء الله السكندري .

[4] / **الإمام الشعراني**: ولد الإمام عبد الوهاب الشعرابي سنة: [٨٩٨هـ] بقرية قلقشندة، ثم انتقلت أسرته إلى قرية أبيه لساقية أبي شعرة] وإليها نسب. أخذ عن الشيخ نور الدين الشوني، والجلال السيوطي، وأبو زكريا الأنصاري، وناصر الدين اللقاني، والسمنودي، وغيرهم. وله مؤلفات عديدة في التفسير، والحديث، والتصوف، والفقه، والسير، واللغة، والأصول. توفي

[إنَّ طرق القوم محرَّرة على الكتاب والسنة كتحرير الذهب والجوهر، فيحتاج سالكها إلى ميزان شرعي في كلِّ حركةٍ وسكون].

وقوله أيضًا: [إنَّ حقيقة طريق القوم علم وعمل، وسداها ولُحمتها شريعة وحقيقة لا أحدهما فقط].

١٦. **قول الإمام أحمد زروق[1] :**

[وكلُّ شيخ لم يظهر بالسنة فلا يصحُّ اتِّباعه، لعدم تحقُّق حاله وإنْ صلح في نفسه وظهر عليه ألفَ ألف كرامة من أمره][2].

١٧. **قول الشيخ عبد الله اليافعي:[3]**

سنة ٩٧٣ هـ لمقدمة الدكتور حسن محمد الشرقاوي لكتاب " الكوكب الشاهق في الفرق بين المريد الصادق وغير الصادق للشعراني].

1 / **الشيخ أحمد زروق:** هو أبو العباس أحمد بن محمد الحسني الشهير بزروق. ولد سنة: [٨٤٦هـ]. أخذ عن جماعة: كالجزولي، والتسي، والخروبي الكبير، وأخذ عنه جماعة منهم: الحطاب الكبير، والخروبي الصغير، والولي الشعراني، والقطب أبو الحسن البكري، وغيرهم. له تآليف كثيرة، منها: شرحان على الرسالة، وشرح على المختصر، وتعليق على البخاري. توفي سنة: [٨٩٩هـ] بمسراطة من أعمال طرابلس. [شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد مخلوف].

2 / تأسيس القواعد والأصول، وتحصيل الفوائد لذوي الوصول للشيخ أحمد زروق المغربي ص٧٦.

3 / **الشيخ عبد الله اليافعي:** هو عفيف الدين أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان بن فلاح، اليافعي، نسبة إلى يافع قبيلة من قبائل اليمن من حِمْيَر. ولد قبل السبعمائة بقليل، أخذ عن العلامة أبي عبد الله البصال وغيره، وعاد إلى بلاده وحُبِّبَتْ إليه الخلوة والانقطاع والسياحة في الجبال، وصحب الشيخ علي بن عبد الله الطواشي اليمني [ت ٧٤١ هـ]، وهو الذي

[إن الحقيقة هي مشاهدة أسرار الربوبية ولها طريقة هي عزائم الشريعة، فمَنْ سلك الطريقة وصل إلى الحقيقة، فالحقيقة نهاية عزائم الشريعة ونهاية الشيء غير مخالفة له، فالحقيقة غير مخالفة لعزائم الشريعة][1].

١٨. **قول الأستاذ الشيخ عبد المحمود نور الدائم ﷺ:**

املأ فؤادك من معنى الحقيقة كي ... تجني ثمارَ الولاَ مِن أول القَدَم

وقيِّد النفس بالشَّرع المبين ولا تهوى ... سوى ما أتى في المنزل الحَكَم

العلمُ حصن لأرباب السلوك إذا ... ما قد أحاط بهم جيش من الظُّلَم[2]

وقوله أيضًا:

وواظب العزم واعمل بالشريعة لا ... تنفكّ عنها سهام الحق تتويكا[3]

وقوله:

ومَنْ يدّعي وصلاً بغير شريعة ... فذاك هو الزنديق بين الخلائق

سلكه الطريق. ثم جاور بمكة وتزوج بها، ذكره الأسنوي في طبقاته فقال: كان إماماً يُسترشد بعلومه ويُقتدَى، وعَلَماً يُستضاء بأنواره ويُهتدَى، وكان يصرف أوقاته في وجوه البر، وأغلبها في العلم، كثير الإيثار والصدقة مع الاحتياج، متواضعًا مع الفقر، مترفعًا عن أبناء الدنيا، معرضًا عمَّا في أيديهم، له مؤلفات كثيرة منها: "مرهم العلل المعضلة في أصول الدين"، وكتاب "روض الرياحين في حكايات الصالحين"، و"الإرشاد والتطريز" في التصوف، وكتاب "نشر المحاسن"، وكتاب "نشر الروض العطر في حياة سيدنا أبي العباس الخضر"، وغير ذلك. توفي لسنة: ٧٦٨ هـ ودفن بمقبرة باب المعلا جوار الفضيل بن عياض، (شذرات الذهب؛ ج: ٦ ص: ٢١٠).

[1] / نشر المحاسن الغالية لليافعي ص١٥٤.

[2] / ديوان شرب الكأس ج١ ص١٠٦.

[3] / نفس المصدر ج١ ص٨١.

فـلا تقبلـوا حـال امـرئ متباعـد عـن الـشرع في قـولٍ وفعـل خلائـقِ
ولـو بعـضُ نـاسٍ لقَبـوه بـزورهم بقطـبٍ وأسـتاذٍ وشـيخ طرائـق[1]

وقـولـه:

وسِـرْ في طريـق العـارفين بـربهم رجالِ الفنا في الله والصَّحو والسُّكر
ولكـن علـى شـرع الـنبي محمـد إمـام الهـدى المبعـوث بـالعزِّ والنَّصر
فمَـنْ لم يوافـق للـشريعة سَـيْرُه فلـن ينتفـع يومًـا بجـوعٍ ولا سَـهر
ولا عُزلـةٍ كـلاً ولا كـرمٍ ولا تقـشُّفٍ أو صـمتٍ ولا مَـدمعٍ يجـري
وإنْ قـال قـولاً أو بـدا غـير لائـقٍ مـن الحـال مـا يفـضي الجهـول إلى الـضير
علـى النـاس فرضًـا أنْ يَرُدُّوا بصارم النـصوص عليـه القـول أو حالـة الفُجْـر
ولـو ظهـرتْ منـه الخـوارقُ جهـرةً وأخـبر بـالأمر المُغيَّـب في الـصدر
وطار كمثل الطير في الجو أو مشَى علـى الأرض طيًّـا أو علـى لُجَّـةِ البحـر
فـإنَّ طريـقَ القـوم للوصـل شـرعُه فمَـنْ حـاد عنـه ضـلَّ عـن منـهج الخـير
وصـار أخـا الـشيطان في كـلِّ حالـةٍ يضرُّ الورَى مِن حيث يدري ولا يدري
ولـو لا اتِّبـاعُ الـشرع مـا فـضل امـرؤ وما فاح عَرْفُ الرشد في البدو والمصر
ولا تـكُ ممَّـنْ يـدَّعي العلـم تاركًـا سـبيل الأُلى فـاقوا الأنـام علـى صـبر
تمـسَّك بهـم والـسادة العلمـا الأُلى علـى قـدم الـسادات والأربـع الغُـرُّ
تعلَّـم ولا ترضَـى بجهلـك إنْ تُـرِدْ مِـن الله خـيراً يـستمرُّ مـدَى الـدهر
فظاهر هذا العلم كالجسم للفتى وباطنـه كـالروح فـاجمع لكـي تـدري
ولم يَـكُ هـذا الجمـعُ إلا لـصادقٍ تربَّـى علـى شـيخ فيوضـاته تجـري
وذو الطعن لم يعرف من الناس مرشداً يُمِدُّ ولـو كـالجيلي والـسيِّد البكـري

---

[1] / نفس المصدر ج١ ص١٧٧.

ولم يكُ هذا الشيخ معدومَ وجهةٍ ولكنه عن منكرِ الحالِ في سِتْرِ[1]

١٩. قول الوالد الشيخ الجيلي[2]:

مَن لم يكن متقيِّدًا بشريعة ما ذاق كاسات الطِّلا الربَّاني

فاتبع إمام المرسلين محمَّدًا وكتابَه في السرِّ والإعلان

لكن بصحبة عارفٍ متمكِّنٍ ليُريكَ منه حقائق الإيقان

وقوله أيضًا:

لما تواتر من الشريعة تمكين في مقامٍ أمين، والكشف والإلقاء والإلهام وما نتج عنه تلوين في سُرَى السالكين، فإنْ ورد مِن ضروب التَّلوين ما يعارض التَّمكين، فليضرب المريد بالتَّلوين عُرْضَ الحائط[3] حتى لا يكون من المستدرجين مِن حيث لا يعلمون[4].

---

[1]/ ديوان شرب الكأس ج١ ص١٠١.

[2]/ كتاب نفحة الرياض البواسم ص ١٠٩.

[3]/ عُرْضُ الحائط: عُرْضُ الشيء: وسَطُه وناحيتُه. قال يونس: ويقول ناس من العرب: رأيته في عَرْضِ الناس يَعْنُونَ في عُرْضٍ.

ويقال: جرى في عُرْض الحديث، ويقال: في عُرْضِ الناس، كل ذلك يوصف به الوسط؛ قال لبيد:

فَتَوَسَّطا عُرْضَ السَّرِيِّ، وصَدَّعا ✱ مَسْجُورَةً مُتَجاوِراً قُلاَّمُها

ويقال: اضْرِبْ بهذا عُرْضَ الحائط أي: ناحيته. وعُرْضُ السَّيْفِ: صَفْحُه، والجمع أَعْراضٌ. وعُرْضا العُنُق: جانباه، وقيل: كلُّ جانبٍ عُرْضٌ. والعُرْضُ: الجانب من كل شيء. (لسان العرب، ج: ٧ ص: ١٧٦).

[4]/ الشيخ عبد القادر الجيلي - حياته وآثاره - للأستاذ المؤلف، ج١ ص١٩٩.

المبحث الثامن

الصدق في منهج التصوف الإسلامي

هذا عن دعوة علماء الصوفية من المرشدين إلى قيام هذا الطريق على الحق، باعتبار مفهومه: بأنه [منهج سلوكي تربوي على طريق الحق..]، وقد اشترط علماء التصوف الإسلامي أنْ يكون سلوك هذا المنهج بـ[صدق].

نِسَبُ الصِّدق:

والصِّدقُ بكلِّ نِسَبه مِن أُسسِ السُّلوك في هذا المنهج، ونعني بِنِسَب الصدق:

١) صدق النفس مع ذاتها.

٢) صدق النفس مع الله.

٣) الصدق مع الشيخ المرشد.

٤) صدق الكلمة.

٥) صدق الفعل.

٦) صدق الموقف.

٧) صدق الحال.

فَصِدْقُ النفس مع الذات ينفي الدَّعوى، لأنَّ الإنسان الصَّادق مع نفسه لا يَصدُر ولا يَرِدُ إلا بإمكانيَّاته الحقيقيَّة، فلا يتكلَّف من العمل ما لا تقوَى عليه مداركه وخبرته.

فإنْ سئل الصادق مع نفسه عمًا لا علم له به قال لا أعلم، وإنْ كُلِّفَ مِن العمل ما لا عهد له به أو كانت خبرته فيه قليلة، قال لا أُحسن، من غير حرج ولا ضَعَةٍ يستشعرها.

والرسول ﷺ يقول: [اكْلُفوا مِن العمل ما تطيقون]١.

والطاقة والقدرة كما تكون جسديَّة فقد تكون فكريَّة نفسيَّة، فالصادق مع نفسه يلزمه ألا يلي عملاً ولاسيَّما في المجال العام إلا إذا كانتْ طاقته الفكرية والنفسية والجسدية مستقلّة به قادرة على إتقانه، فإذا انتفَى الصدق مع النفس في الولايات، خصوصًا العامة منها نتج عن ذلك ثلاثة أخطار:

- ✧ الجهل بضعف الطاقة الفكرية والعلمية.
- ✧ التَّكبُّر والغرور بضعف الطاقة النفسية.
- ✧ الكسل وقلة الإرادة بضعف الطاقة الجسدية.

---

[1] حديث{ أكلفوا من العمل ما تطيقون}: روى النسائي عن عائشة قالت كان لرسول الله ﷺ حصيرة يبسطها بالنهار ويحتجرها بالليل فيصلي فيها ففطن له الناس فصلوا بصلاته وبينه وبينهم الحصيرة فقال {أكلفوا من العمل ما تطيقون فإنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يملُّ حتى تملُّوا وإنَّ أحب الأعمال إلى الله عزَّ وجلَّ أدومه وإنْ قلَّ} ثم ترك مصلاه ذلك فما عاد له حتى قبضه الله عز وجل وكان إذا عمل عملا أثبته. [السنن الكبرى ج: ١ ص: ٢٧٤ الحديث رقم ٨٣٨] وانظر لمصباح الزجاجة ج: ٤ ص: ٢٤٤] ولمسند الحميدي ج: ١ ص: ٩٥ الحديث رقم ١٨٣].

وأخرجه البخاري عن أبي هريرة ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال: { إيَّاكم والوصال مرَّتين قيل إنَّك تواصل قال إنِّي أبيت يطعمني ربِّي ويسقين فاكلفوا من العمل ما تطيقون } [صحيح البخاري، كتاب الصوم، الحديث رقم ١٨٣٠] و[صحيح مسلم، كتاب الصيام، الحديث رقم ١٨٤٧]. وأبو داود في الصلاة الحديث رقم ١١٦١ وانظر مصباح الزجاجة ج: ٤ ص: ٢٤٤].

والصدق مع الله يُنتج الإخلاص والإتقان، لأنَّ صاحبه يتعامل مع العليم الخبير والبصير الرقيب الذي لا تخفَى عليه خافية، وكفَى بتقدير مقام الحق من الإنسان باعثًا للصدق مع الله.

والصدق مع الله والنفس ينتج عنه التوازن الداخلي لمقوِّمات الإنسان، كما ينتج عنه توازن خارجي اجتماعي في علاقات الإنسان الاجتماعية والعملية.

أما الصدق مع الشيخ المرشد فله بواعث وعلامات وآثار، فمِنْ بواعثه.

بواعث الصِّدق مع الشيخ المرشد:

- كمال القدوة مِن الشيخ في الظاهر.
- مكاشفة المسترشد بخواطره مِن الداخل.
- رفع حجاب المِثْلِيَّة، ورؤيةُ الخصوصية في الشيخ المرشد.

علامات الصدق مع الشيخ المرشد:

وعلامات الصدق مع الشيخ المرشد كثيرة منها:

- الطاعة فيما أمر به مِن معروف ولاسيَّما فيما تحمَّله المسترشد مِن نوافل الخيرات.
- السعي لتطابق الخُلُقِ وتشابه السَّمْتِ والدَّل.
- انتفاء الحرج فيما أوكله إليه الشيخ المرشد من عمل، وإنْ كان بحسبان المسترشد وضيعًا.

- انتفاء الموجدة أمام بوادر الشيخ المرشد، ولاسيَّما فيما لا عهد للمسترشد به، ويلزم المسترشد في ذلك النظر إلى مرامي القول ولا يقف عند القول.
- علو الهمة وكمال المروءة في خدمة الشيخ والسعي في مراضيه.
- تمام الحب ورؤية الكمالات في الشيخ.
- إفراد لبان الشيخ وعدم خلطه بأيٍّ لبانٍ أيًّا كان، ما دام المسترشد في طور الإرضاع، فإذا تَمَّ فطامه على يد الشيخ فلا بأس مِن تنوُّع الغذاء، لأنَّ بالفطام قد أمِنَ الغيلَة التي تُضعِفُ المنة وتُسقط الهمَّة.

آثار الصدق مع الشيخ المرشد:

و آثار الصدق مع الشيخ المرشد أن يستحسن الشيخُ مقامَ المريد في الحسِّ والمعنَى.

ويجلبُ استحسانُ الشيخ لمقام المريد في الحسِّ:

- تمامَ أدب المريد وعُلوَّ همَّته.

أما في عالم المعنى فيستحسن في الشيخ:

- أن يكون صادق الحال مميزاً بين الأنفاس والأرواح وعطائها، عالمًا بالموصول والمنقطع من هذا العطاء.
- أنْ يجمعك بالحق في مقام التحلِّي بعد الرُّشد والمداوة بُعَيْد التخلِّي عن رعونات النفس والشفاء من أمراض القلب.
- أنْ يعرِّفك بإحسان الله إليك ولوازم ذلك من أبواب الشكر والحمد.
- أنْ يسايرك في طريق الرُّجعى إلى الله حتى يُدخلك حضرة الحق.

فإنْ كنتَ مُراداً خلاك في مقام جمع الحقيقة، أما إذا كنت مريداً سالكاً فلابد أنْ يصحبك حتى يكرمك الله بالفرق الثاني، لتتجلى في عالم الشريعة داعيًا إلى الله بإذنه، مُتخلقًا بأخلاق الله فيتمُّ فطامك. ومِنْ ثَمَّ يبقى عليك من آثار الشيخ ما تستوجبه ملاحظة المنَّة مِن العرفان، وحفظ الحرمة، وصلة رحم الأُبوَّة في أبنائه، وعدم الإدلال بكرامتك وعلوّ منزلتك عليهم، لأنَّ كلَّ ذلك مِن حسناتهم.

والعاقل لا يدل ولا يتعالى على مَنْ أحسن إليه ببعض إحسانه إلا لجهلٍ أو حجابٍ!! وكلاهما ينتج عنه:

- السلب والعياذ بالله.
- انقطاع المدد.
- والحجاب بالعطاء عن الله.

ومِنْ علاماته تواترُ هذا العطاء وكثرتُه!! وهذا مِن مكر الله بالاستدراج، حيث يطوي النِّقمة فيما يحسب الجاهل أنَّه نعمة!!!

{و إنَّ ممَّا ينبت الربيع ما يقتل حبطًا أو يلم} [1] كما جاء في الحديث الصحيح.

---

[1] حديث {إن مما ينبت الربيع}: روى الإمام البخاري عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قام على المنبر فقال {إنما أخشى عليكم من بعدي ما يُفتح عليكم من بركات الأرض} ثم ذكر زهرة الدنيا فبدأ بإحداهما وثنى بالأخرى فقام رجل فقال يا رسول الله أو يأتي الخير بالشَّرِّ فسكت عنه النبي صلى الله عليه وسلم. قلنا يوحى إليه وسكت الناس كأن على رءوسهم الطير ثم إنه مسح عن وجهه الرُّحَضَاء فقال {أين السائل آنفا} أو خير هو ثلاثا: {إن الخير لا يأتي إلا بالخير وإنه كلما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم إلا آكلة الخضر كلما أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت وإن هذا المال

هذا عن أثر الصدق مع الشيخ المرشد.

الصدق مع الله

أما الصدق مع الله فهو أساس الصدق بكل منسوباته، لأنَّ الصدق مع الله يدل على معرفة مقامه عند الصادق، كما أن الرسول الكريم ﷺ قد أخبر عن مقام الصدق عند الله عزَّ وجلَّ بقوله ﷺ: {عليكم بالصدق فإنَّ الصدق يهدي إلى البرِّ وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرَّى الصدق حتى يكتب عند الله صدِّيقًا} ١.

وينتج عن الصدق مع الله كثير من منسوبات الصدق في المجتمع مثل:

خضرة حلوة ونعم صاحب المسلم لمن أخذه بحقه فجعله في سبيل الله واليتامى والمساكين وابن السبيل ومن لم يأخذه بحقه فهو كالآكل الذي لا يشبع ويكون عليه شهيدًا يوم القيامة}. [صحيح البخاري ج٣ ص١٠٤٥ الحديث رقم٢٦٨٧] و[صحيح مسلم ج٢ ص٧٢٧ الحديث رقم ١٠٥٢] وفي رواية للبخاري{و إن مما ينبت الربيع يقتل أو يلم}. [صحيح البخاري ج٢ ص٥٣٢ الحديث رقم ١٣٩٦] وانظر المسند المستخرج على صحيح مسلم لأبي نعيم الأصفهاني ج٣ ص١١٧ الحديث رقم ٢٣٤٦ طبعة دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٩٦م بتحقيق محمد حسن إسماعيل الشافعي.

الرحضاء: العرق الكثير. الربيع: النهر الصغير. حبطاً: انتفاخاً. ثلطت: ألقت ما في بطنها من الفضلات.

[1] أخرج البخاري عن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال {إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقًا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً}.[صحيح البخاري ج٥ ص٢٢٦١ الحديث رقم ٥٧٤٣] و[صحيح مسلم ج٤ ص٢٠١٢ الحديث رقم ٢٦٠٧].

صدق الكلمة: بداعية من معرفة قوله تبارك وتعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[1]

- صدق الفعل: بداعية من قوله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾[2]
- صدق الموقف: بداعية من قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴾[3].
- صدق الحال: بداعية من قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾[4]

وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[5].

---

[1]/ سورة "ق" آية "١٨".

[2]/ الصف: ٢- ٣.

[3]/ هود:١٢١.

[4]/ الفرقان:٧٣.

[5]/ الزمر:٢٣.

وأعني بصدق الحال الوجد بصدق الوجود، لأنَّ ذلك من طرب الروح، الذي يحرِّك الجسدَ من غير قصدٍ ولا اختيار، فإنْ تعمَّله صاحبه مِن غير وجود، فليس ذلك بوجد وإنما هو تواجد، والفرق بينهما أنَّ صاحب الوجد مأخوذ عن الحِسِّ فلا يعي ولا يتحرَّز... أما صاحب التواجد فواعٍ بما حوله ومَنْ حوله ولا يستغرقه التواجد أبدًا، والتواجد بغير وجود رياء.

هذا وقد رتَّب الحقُّ على الصدق بكل منسوباته نتائج، ووردتْ في محكم التنزيل، وإرشادات ومبشرات حفل بها البيان القرآني، نسوق بعضها في هذا السياق لنبرهن على أنَّ الصدق في المفهوم الصوفي يعود إلى المرجعيَّة الأولى في شريعة الإسلام..

ومن الآيات القرآنية في هذا المضمار قول الله تبارك وتعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾[1]

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[2] وقوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[3]

1/ المائدة:١١٩.

2/ التوبة:١١٩.

3/ الزمر: ٣٣.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ﴾[1]

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾[2]

هذا وقد جاءتْ الأحاديث النبوية الصحيحة مرشدة إلى مقام الصدق في طريق الرجعى إلى الله. فقال الرسول الكريم ﷺ:

{عليكم بالصدق فإنَّ الصدق يهدي إلى البرِّ وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرَّى الصدق حتى يُكتب عند الله صدِّيقا}. وقال ﷺ: {أصدقوا إذا تحدَّثتم وأوفوا إذا وعدتم}[3]. وقوله ﷺ:

---

[1] / الحديد: ١٩.

[2] / الأحزاب:٢٣- ٢٤.

[3] / حديث{ أصدقوا إذا حدثتم}: عن عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: {اضمنوا لي ستًّا من انفسكم اضمن لكم الجنة اصدقوا إذا حدثتم وأوفوا إذا وعدتم وأدُّوا إذا اؤتمنتم واحفظوا فروجكم وغضُّوا ابصاركم وكفُّوا أيديكم }.[مسند أحمد ج: ٥ ص: ٣٢٣] وأخرجه الحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه. [المستدرك على الصحيحين ج٤ ص٣٩٩]. [صحيح ابن حبان ج: ١ ص: ٥٠٦].

{أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلَا عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنْ الدُّنْيَا حِفْظُ أَمَانَةٍ وَصِدْقُ حَدِيثٍ وَحُسْنُ خَلِيقَةٍ وَعِفَّةٌ فِي طعمة}[1]..

وقوله ﷺ: في صدق الموقف {دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة}[2].

الصدق قيمة أخلاقية

والصدق عندنا قيمة أخلاقية، وهو درجتان بهذا الاعتبار:

❖ **الأولى**: الصدق على مستوى السلوك الاجتماعي ويشتمل على:

- صدق الكلمة.
- صدق الفعل.
- صدق الموقف.

وقد ألمحنا إلى هذه المستويات بشيء من القول فيما سبق، ومتعلَّقات هذه الأنواع من الصدق هي:

وأخرجه الطبراني في الأوسط. قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله ثقات إلا أن المطلب لم يسمع من عبادة [مجمع الزوائد ج: ٤ ص: ١٤٥].

[1] / رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث: عبد الله بن عمر بن العاص. [مسند أحمد، ج:٢ ص:١٧٧].

[2] / حديث دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ }: أخرجه الترمذي من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما، وقال: وهذا حديث حسن صحيح لسنن الترمذي ج: ٤ ص: ٦٦٨الحديث رقم ٢٥١٨ وعلقه البخاري[صحيح البخاري ج: ٢ ص: ٧٢٤ باب تفسير المشبهات، وقال حسان بن أبي سنان ما رأيت شيئا أهون من الورع { دع ما يريبك إلى ما لا يريبك}. وأخرجه أحمد[مسند أحمد ج١ ص٢٠٠ الحديث رقم ١٧٢٣] والحاكم المستدرك على الصحيحين ج: ٢ ص: ١٥الحديث رقم ٢١٦٩] وابن حبان [صحيح ابن حبان ج: ٢ ص: ٤٩٨ الحديث رقم ٧٢٢].

١. الله .

٢. الإنسان [المجتمع].

٣. النفس وما يتصل بها من أعمال وأقوال].

❖ **الثانية**: الصدق على مستوى الحضور الرباني، ويشتمل على نوعين هما:

١. صدق الحال.

٢. وصدق المقام. ويمكن أن نسميه صدق الذات الإنسانية في حضرة الربوبية.

فمن سلك منهج التصوف الإسلامي بصدقٍ، يلزمه أنْ يحقّق هذه الأنواع من الصدق، فيتحلّى بقيمها السلوكية والأخلاقية في النفس والمجتمع، ويدوم على ذلك بإذن الله وتوفيقه حتى يُكتب عند الله صدِّيقًا.

وربما كان من الممكن السَّهل ضبطُ مدَى صدق الإنسان في الدرجة الأولى، وذلك من خلال المعايير الموضوعيَّة لمستويات الصِّدق، قول وفعل وموقف...الخ.

ولكن من المهم أن نشير إلى أنَّ الصدق في الدرجة الثانية - [**الحضور الرباني**]- مما يتعذَّر ضبطه والتَّحقُّق منه، إلا بضربٍ من المكاشفة، بيدَ أن هناك معياراً ظاهراً لصدق الحال، وحتى يمكننا توضيح هذا المعيار فلابد من الإشارة إلى أنَّ الحال نوعان:

الأول: حال نتيجةِ غياب الوعي في مشهدٍ ربَّاني، أو كَلِمٍ رحماني برؤية فؤاد أو سماع بوعي.

الثاني: حال ينتجه الإدراك المعرفي في مقام حق اليقين.

وعلامة الأول عدم الحِسِّ وغياب التَّعقُّل، مما يلزم منه انتفاء التَّوقِّي والتَّعمُّل، بحيث إذا اعترَى هذا الحالُ السَّالكَ وهو على شاهقٍ مِن البناء لم يتوقَّ النتائج، لأنَّ التَّوقِّي والتَّحرُّز ينتُج عن الإدراك والوعي، ولا إدراك ولا وعي عند مَنْ اعتراه هذا النوع من الحال.

ولعلَّ البعض يتساءل عن تعليل هذا الحال؟!

فنقول في عباراتٍ لا تُغني عن التَّجربة الذاتيَّة والذَّوق الوجداني:

رؤيةُ الفؤاد لتجليات الحقِّ في مشاهد النور المحض تنزع الروح بغتةً إلى تلك المشاهد العليا، فلا يقوَى البناءُ الجسدي والوعيُ الفكري على مساوقة هذا السُّمو الروحي والدَّفق النوري، وينتج مِنْ جرَّاء ذلك تعطُّل حركةِ الجسد، لغياب مراكز الحِسِّ والإدراك الحاسِّي، وقد يصحب هذا التَّغيير الجسدي ثقلٌ في الجسد، إلا أنَّ النشاط وخفة الروح والجسد والإحساس بالسرور والانشراح غِبًّا[1] هذا الحال هو العلامة المميزة له كحالٍ رحماني. وفيما يعتري رسول الإسلام سيدنا محمداً ﷺ مِن بُرَحَاء الوحي حينما يأتيه الوحي مجرَّداً من الوسائط الكثيفة[2] ما يمكن أنْ يُشكِّل مَلحظاً دلاليًّا يصلح الاستئناس به في هذا المضمار.

---

[1]/ غبّ: غِبَّ الأمر ومغبَّته: عاقبته وآخره

[2]/ روى الشيخان من حديث عائشة رضي الله عنها في حديثها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فبرأها الله منه. وفيه لقوالله مَا رام مجلسَه ولا خرج أحد من أهل البيت حتَّى أنزل عليه الوحي فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحَاء حتَّى إنَّه ليتحدَّر منه مثل الجمان من العرق في يوم شاتٍ انظر [صحيح البخاري ج: ٢ ص: ٩٤٢ الحديث رقم ٢١٨٥] و [صحيح البخاري ج: ٢ ص: ٩٤٢ الحديث رقم ٢٧٦٩] و [صحيح مسلم ج٤ ص٢١٣٥ الحديث رقم ٢٧٧٠].

البُرَحَاء: الشدة والتغير في الحال. والجمان: حبات من اللؤلؤ.

ومهما قلنا في تعليل هذا الحال، فإننا لن نستطيع أن نصل إلى الإقناع فيه لأنه وجْدٌ ينتج عن الوجود، ولا وجود إلا بتجربةٍ ذاتية، ولا وجْدَ إلا بذوق.

أما علامة الحال الثاني وهو الحال الذي ينتج عن الإدراك المعرفي في مقام حق اليقين فيتمثَّل في الآتي:

- الاستقامة على شريعة الإسلام في الوقت.
- التَّجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود.
- كمالُ الخُلُق ورفعة السُّلوك.
- إشعاع النور الرباني على الوجه بمطالعة مجلَى النور في مقام حقِّ اليقين.

إذا كان الأول حال المسترشدين السالكين، فإنَّ الثاني حال العارفين الذين وصلوا إلى مقام جمع الحقيقة، ثم أكرمهم الله بفرق التَّحقُّق والتَّخلُّق للتَّمكين والإرشاد، وهذا الحال هو الحال الشريف الذي ينبئ عن التَّحقُّق بمعارف وأنوار المقام العالي المنيف مقام الصدِّيقيَّة.

هذا عن الصِّدق بدرجتيه في مفهوم المنهج الصوفي، وكل ما ورد من تفاصيل عن الصدق في هذا المنهج يمكن أنْ نرجعه إلى أصله من القرآن الكريم الذي تنوَّع بيانه في إيراد الصدق ومشتقَّاته كقيمةٍ أخلاقية ومعيارٍ سلوكي ودرجةٍ في الصديقية، يُكرم الله بها مَن يشاء من عباده، وحينما يَرِدُ الصدق مقوِّمًا في منهج التصوف الإسلامي، إنما يَرِدُ معبِّراً عن الالتزام بهذا المنهج الذي نحاول أنْ نجعل مرجعيَّة مفرداته التي تُكوِّن مفهومه إلى أصل الشريعة الإسلامية.

ويَرِد في مضمار التأصيل قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾[1]

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ ﴾[2] وقوله تبارك وتعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾[3]

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ ﴾[4]

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[5]

---

[1]/ الأحزاب:٢٣- ٢٤.

[2]/ يونس:٢ .

[3]/ المائدة:١١٩ .

[4]/ الحديد:١٩.

[5]/ التوبة:١١٩.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾[1]

هذا بعض البيان القرآني عن الصدق وأهميته في طريق الرُّجعى إلى الله، وليس بخافٍ بعد ذلك موقع الصِّدق في مدخل المؤمن ومخرجه، وما يشكِّله هذا الصِّدق من الاعتزاز والقوة بالحق.

ومعراجُ السالك إلى مقام السلطنة والنَّصر هو الصدق ولاسيَّما صدق المقام، فاتقوا الله وكونوا مِن الصادقين، فإنْ كلَّتْ الهممُ وضعفتْ المئنة[2] عن الوصول إلى صدق المقام، فاتقوا الله وكونوا مع الصادقين، لأنَّ المعيَّة تورث الإكرام.

التصوف ومكارم الأخلاق

وما مضى مِن الحديث قولٌ في المنهج السلوكي [..**على طريق الحق بصدق**..].

ويأتي بعد ذلك الحديث عن الجزء الذي يشكِّل أثر هذا السلوك على السالك فيما ارتأيناه من مفهومٍ للتصوف الإسلامي، وهو قولنا: [..**تتم به مكارم الأخلاق**...].

---

[1] / الإسراء:٨٠ .

[2] / المَئِنَةُ: العلامة. وفي حديث ابن مسعود {إن طول الصلاة وقصرالخطبة مَئِنَّةٌ من فقه الرجل} أي إنّ ذلك مما يُعَرف به فِقْهُ الرجل. (مختار الصحاح، لابي بكر الرازي ص٦١٣).

وإتمامُ مكارم الأخلاق والوصول بها إلى مراقي الكمال المقدور ببني البشر مقصدٌ أساسي من مقاصد شريعة الإسلام.

بل إن الحديث يَرِد عن الرسول الكريم سيدنا محمد ﷺ ليحصر مقصد إرساله للعالمين بشيراً ونذيراً في إتمام مكارم الأخلاق: {**إنما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق**}.

ولا يخفَى أنَّ مكارم الأخلاق هي أحاسنها، ومعلومٌ عند العلماء أنَّ الحسن جمال والجمال كمال، فإنَّ حُسْنَ الأخلاق يعني كمالُها.

ولما كان الرسول الكريم ﷺ هو قدوة التحلّي بمكارم الأخلاق وأحاسنها، كما أنَّه أسوة التَّجلّي في جَعْلِ هذه الأخلاق سلوكًا يضبط حركة الإنسان في واقعه المعاش، الذي يلزم أنْ يكون جليًّا وظاهرًا، فإنَّ هذا المفهوم يفيد أن التحلّي بأحاسن الأخلاق والتَّجلّي بقويم السلوك - مما يشكّل في مجموعه "العمل الصالح"- ، أمرٌ يقرِّب صاحبَه مِن حضرةِ النبوَّة، مما يجعل السالك الذي حُظي بالحضور النبوي - خُلقًا وسلوكًا ومعرفة- قريبًا من الله عزَّ وجلَّ، يدل على هذا الذي نقول الحديث الصحيح الذي جاء فيه: {ألا أخبركم بأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة؟ قالوا بلى يا رسول الله، قال أحاسنكم أخلاقاً، الموطّؤون أكنافًا الذين يألفون ويؤلفون}.

ومكارمُ الأخلاق والسعي لتمامها - خلال سعي المؤمن لملاقاة ربه- من المسلّمات عند كافة مَنْ يؤمن بالله واليوم الآخر مِن أمة الإسلام، فإذا ثبتَ هذا فاعلم أنَّ مِن أهمِّ مقاصد التصوف الإسلامي هو الوصول بالسالكين من المسترشدين إلى تمام الأخلاق الكريمة وكمال الخُلق الحسن.

بل إنَّ الخلُق الكامل يأتي في آداب الصوفية ليكون تعريفًا للتصوف بكل جزئياته، واسمع الإمام أباعلي الروذباري وهو من أئمة المنهج الصوفي وأساطينه يُسأل عن ماهيَّة التصوف فيجيب:

[التصوف خُلُقٌ فمن زاد عليك في الخلُق زاد عليك في التصوف][1].

هذا عن مكارم الأخلاق وموقعها في المنهج الصوفي.

1/ هذا القول مما ينسب أيضًا للشيخ محمد بن علي الكتاني كما ورد في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ج: ٣ ص: ٧٤ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ج: ١٤ ص: ٥٣٣. والرسالة القشيرية، ج: ٢ ص: ٥٥٤.

المبحث التاسع: نتائج سلوك المنهج الصوفي

ويأتي مِن جزئيات المفهوم الذي أوردناه للمنهج الصوفي قولنا:

(...وينقدح في قلوب سالكيه من أنوار العلوم وحقائق الوجود ومظاهر التَّجلي الإلهي ما يجعل للسالك فرقانًا في حياته).

يظهر مِن هذه الجزئية من أجزاء مفهومنا للتصوف الإسلامي أنَّ هنالك:

1. **أنوار العلوم**
2. **حقائق الوجود**
3. **مظاهر التَّجلي الإلهي** تنقدح في قلوب سالكي هذا المنهج.

ونعني **بأنوار العلوم**، ما ينكشف مِنْ هوادي التعرُّف على الله في مختلف مراتب الخلق، باعتبار أنَّ الله نور السماوات والأرض، ومهمة السالك في طريق الرُّجعَى إلى الله، التَّهدِّي إلى مصادر هذا النور الإلهي، بُغيةَ الاستهداء به إلى مدارج الرضا من الخالق الحكيم، وبوسائل التَّصوف يتم التَّعرُّف.

وأداةُ الإدراك هي القلبُ تقابل مرآتُه التي ثَمَّ صقلها وجلاؤها بالذِّكر، فتنقدحُ أنوارُ الحقِّ الذي قامتْ به السماوات والأرض في هذا القلب السليم، فيدرك صاحبُه مِن علوم الحقِّ وهبًا، ما يجعله مِن أهل علم اليقين.

ولا أخال أحداً مِن الناس يماري في وجود النور الرباني وأهميَّة السَّعي للفوز به في الدنيا، وذلك باتِّباع المصطفَى عليه أفضل الصلاة والسلام، واستصحاب مَعِيَّته بالإيمان والعمل الصالح، حتى يكون المرشد والمسترشد من المبشَّرين بقول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن

تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾[1] وأنوار العلوم هي التي تقيم صاحبها على منهج الحق وصراطه المستقيم، وذلك لأنها تُنْتج الخشية مِنْ المعلوم، وهو الله الذي تجلّى بأسمائه وصفاته وأفعاله في مراتب الوجود.

والسالك المدقّقُ هو الذي صحب عِلمَه بمجالي الحق في الأكوان نورٌ من الله يهدى به حتى لا يضل على علم.

ومن العلوم ما يصحبه نور من الله ومنها ما هو عَرِيٌّ عن ذلك. ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾[2].

وأهل النور في الدنيا هم الذين يسعَى نورُهم بين أيديهم وبأيمانهم في الآخرة. ومِن خصائص المنهج الصوفي أنه يورث الصادقين فيه أنوارَ العلوم ليمشوا بها في الأرض بصائر للناس وهدًى ورحمة وعلمًا من لدن الله: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾[3]

هذا ومِن نتائج سلوك المنهج الصوفي يأتي مفهومه الجزئي المتمثل في:

١) **معرفة مظاهر التّجلّي الإلهي.**

---

[1] / التحريم:٨ .

[2] / النور:"٤٠".

[3] / البقرة:٢٨٢.

٢) الوصول إلى حقائق الوجود.

معرفة مظاهر التَّجلّي الإلهي

ونعني بمظاهر التَّجلّي الإلهي: (معالم الظهور الإلهي) القائمة بأسماء وصفات الحق تبارك وتعالى.

ومظاهر الحقِّ في الوجود لا تُحصَى كثرةً، لكنها رغم كثرتها فإنها تدل على [الظاهر] الذي ليس فوقه شيء وحده لا شريك له.

هذا ومظاهر التَّجلّي الإلهي في الوجود نوعان:

- **مظاهر في الآفاق.**
- **ومظاهر في الأنفس**

وليس مرادنا بمعرفة هذه المظاهر العِلمُ بنواميسها وقوانينها وآثار ذلك في حياة الناس، فإنَّ ذلك علمٌ متاح لِمَن قصده مِن بني آدم مؤمنُهم وكافرُهم، بل تجد المغضوب عليهم والضَّالين والمادِّيين قد ضربوا في ذلك بنصيبٍ أوفر مِنْ كسب أهل الإيمان الحقِّ في عالمنا المعاصر!، ولكننا نعني حين نقول معرفة مظاهر التجلّي الإلهي معرفة علاقة خلق وإيجاد هذه المظاهر بخالقها ومُوجِدها، لا بمنطق التَّجريب وبرهان السببيَّة العقلي فحسب، وإنما بكشف حجاب العقل حتى يرى الفؤادُ تعلُّقات أسماء الله في عالم الملكوت بمسمَّياتها في عالم المُلك والشهادة.

وإذا كان التجريب ومعرفة الأسباب والنواميس يفضي إلى [علم اليقين] عند العلماء بها، فإن رؤيةَ الفؤاد بعين البصيرة تُفضِي بصاحبها إلى علم [عين اليقين]، وعندما يرى السالكُ طريقَ الحقِّ علاقةَ الخلق والإيجاد بين الظاهر سبحانه وتعالى والمظاهر على تنوُّعها واختلاف درجاتها، فإنَّ هذا العلم

القائم على رؤية الفؤاد لابد أنْ ينتج عنه الطمأنينة، التي تملأ القلب بالسكينة والفؤاد بالراحة.

والفرق كبير بين التَّعقُّل وبين انشراح الصدر، فالاقتناع يعطيه [علم اليقين]، وطمأنينة القلب يعطيه علم [عين اليقين].

ومعرفة مظاهر التَّجلِّي الإلهي تعتبر جزءً مِن مكوِّنات مفهومنا للتصوف الإسلامي، وهي معرفة تدخل في باب الخصوصيَّة التي لا تحتاج إلى مؤهلات علمٍ كسبي بقدر حاجةِ صاحب هذه الخصوصيَّة إلى صفاء القلب والإخلاص والسَّلامة من الأمراض الباطنية مع دوام الذكر والتَّفكُّر في عُلوِّ همَّةٍ وتواضع.

أنواع مظاهر التَّجلِّي الإلهي

ومظاهر التَّجلِّي الإلهي أدوات تعريفيَّة في الواقع الكوني تجلَّتْ أسماءُ الله وصفاتُه مِن خلالها.

ومظاهر التَّجلِّي عندنا نوعان يدخل تحتها ما لا يحصى مِن شؤون الحق:

- **مظاهر لطيفة.**
- **مظاهر كثيفة.**

وهذه المظاهر بنوعيها تعبِّر عن أفعال الله عدًا بعض لطائف المظاهر، فقد رأيتُها ذاتيَّة ولم أرها موضوعيَّة، مثل النور الإلهي و الروح الربَّاني، فهما مظهران لطيفان من مظاهر التَّجلي الإلهي ولكنهما يعتبران وصفًا ذاتيًا لله عزَّ وجلَّ لا يعرف الناس منهما إلا آثارهما.

وقد قيَّدتُ النور بـ(الإلهي) تحرُّزاً من الأنوار غيره، فإنَّها عديدة ولكنها تنتج عن أصل كثيف.

أما تقييدي للروح بـ(الربَّاني) فإني قصدتُ أنْ أبعد الروح الحيواني، فإنه ليس مِن اللطائف كما هو معلوم، إذ أنه لا يعدو أن يكون نتاجًا لتفاعل الأجهزة الحيوية في الإنسان، مثل الجهاز العصبي والجهاز التنفسي وجهاز الهضم مع جهاز الدورة الدموية إلى جانبها الجهاز العضلي مع مصادر الغذاء في الأرض.

والإنسان حيوان بهذا الاعتبار، وروحه الحيواني لا تختلف عن بقية الحيوانات الفقارية في الأرض.

وقد تخصَّص الطِّب البشري في أجهزة الروح الحيواني، ترميمًا وعلاجًا وصيانةً. وهو كما ترى علم يهتم بكثائف التكوين البشري باعتباره أحد مفردات ظاهر الحياة الدنيا، فإنْ ربطه أهلُه بالله ووصلوه بما يرضيه، كان مِن الكسب المأجور عند الله جلَّ وعلا، أما إذا انقطع به أهلُه عن الله ومنهجِه وسُبلِ مرضاته، فإنَّ في ذلك إيذانًا بأنَّ ما هم عليه مِن الاكتساب الذي يعود على أهله بالخزي والندامة والخسارة.

المظاهر اللطيفة

أما المظاهر اللطيفة فهي كلُّ خَلْقٍ اشتدَّتْ سرعةُ حركته، حتَّى خرقتْ قانون المادة وقانون العقل على السَّواء! والذي يخرق قانون المادة من اللطائف هو [**الطاقة**] مادِّية كانت أو حيويَّة، والذي يخرق قانون العقل هو [**الروح الرباني**].

وعندنا أنَّ نواميس الخالق في مجال المادة والطاقة بنوعيها **تُكتَشفُ**، وأداة اكتشافها هي **العقل** التجريبي العلمي، أما نواميس الحق في مجال الروح الرباني فإنها **تُكشَف** ولا **تُكتَشف**، وأداة كشفها هي القلب، لأنها من

عالم الغيب الذي لا يُظهره الله إلا لمَن ارتضى، أما عدا ذلك فهو من عالم الشهادة الذي قد تغيب بعض لطائفه عن كثير من الناس في غالب الأرض وفي طويل من الزمن، إلا أنه في جملته غيب نسبي يكتشفه العلماء بالتدريج، إما تجريبيًا وهو الغالب، وإما حدسًا وهو النادر.

وللعقول القوية والأفكار النافذة مضمار واسع طويل في هذا النوع من المظاهر اللطيفة.

المظاهر الكثيفة

أما المظاهر الكثيفة فهي مخلوقات الله التي أبطأت حركتها أو سكنتْ عن الحركة الذاتيَّة تمامًا، مثل الحديد والحجارة وهي أكثف المظاهر، ثم تتدرَّج هذه المظاهر الكثيفة صعوداً في مراتب الوجود حتى الذرة التي تعتبر الحدّ الفاصل بين عالم المادة وعالم الطاقة.

وقد حسب القدماء من العلماء أنَّ الذرة جوهر فرد، حتى تطوَّر العلم وارتقَى العقلُ فعرف المختصُّون من العلماء أنَّ الذرة مركَّبٌ يحتوي على جزيئات موجبة وسالبة يدور كلٌّ منها في فلكٍ، فإنْ اصطدمت انفجرت الذرة فأنتجتْ الطاقة التي تتنوَّع استخدامها سِلْمًا وحربًا.

ومن المظاهر الكثيفة الحيوان فقّاريًا أو غير فقّاري، ويأتي الخنزير في الدرجة السُّفلَى من كثافة الحيوان الفقاري.

ثم تتدرَّج المظاهر الحيوانية الكثيفة في مراتب الوجود حتى تصل إلى الخليَّة الحيَّة التي تنتج في تفاعلها مع بعضها ما عُرِف عند العلماء بالطاقة الحيوية التي تعطي الإدراك عند الإنسان ولكن بالعقل الحيواني.

والمُسلَّم به عندنا: أنَّ **اللطائف تخترق الكثائف وتسيطر عليها**، وعلى ذلك فكلما سمتْ درجة الإنسان في عالم المظاهر الربَّانية اللطيفة (عالم الروح الرباني)، كلَّما سيطر على ما دون مقامه من المظاهر، وسَهُلَ عليه خرق قانون هذه المظاهر.

ولعلَّ في هذا الذي أقول ما يفسِّر هيمنة **الحقيقة المحمديَّة** على الوجود، لأنه ﷺ بلغ درجة في مقام الروح الرباني لم يبلغها ملك مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسل، ولعلَّ في رؤية الناس له على الصُّور المتنوِّعة والدرجات المتفاوتة ما يشهد على هذا الذي أقول.

وعلى ذلك نقرِّر في يقين باصر أنَّ الحقيقة المحمدية في معارج النبوَّة والرسالة لم ولن يتجاوزها إنسانٌ. مما أهَّله ﷺ لمقام (**لواء الحمد**) حيث آدم عليه السلام ومَنْ بعده مِن الأنبياء تحت لوائه.

وهذا مِنْ لطائف المظاهر الربانية التي تعطي الحقيقة الإسلامية الرَّاكزة التي تفيد أنَّ سيدنا محمدًا رسول الله خاتم النبيين والمرسلين ﷺ!! لأنه لا يمكن لإنسانٍ أنْ يتجاوز مقامَه قُرْباً من الله عزَّ وجلَّ، كما أنَّ رسالته عامة شاملة مهيمنة، لأنها بلغت من اللطافة مرقًى لا يطوله ملك مقرَّب ولا نبي مرسل، وهو مقام (**قاب قوسين أو أدنى**)، وقد أوحى الله ذو المعارج إلى عبده ما أوحى.

فعلَى ذلك فإنَّ كلَّ ما دون هذا المقام بالنسبة لرسولنا وحبيبنا وشفيعنا سيدنا محمد رسول الله ﷺ مِن الكثائف مع لطافتها، وذلك وفقًا للتَّناسب الطَّرديِّ. وهذه بصيرة تعطي وتفيد أنَّ مَن ادَّعَى النبوة أو الرسالة مع أو بعد سيدنا محمد رسول الله ﷺ فهو ضالٌّ كاذب، كما أنها بصيرة تفيد أنَّ مِن

الورثة الذين سلكوا طريق الرُّجعَى إلى الله على القدم المحمديِّ مَن يصل إلى "حضيرة القدس" فيستمد مِن الحقيقة المحمدية بعد العلم والأدب نوراً ربَّانيًّا، مما يسمو به إلى مقام (حجاب العزة الحَمِيّ)، وهو أقرب مجالي الذات الإلهية.

فإن تحقَّق السالك بالأمانة والصدق والصبر والفطانة، أكرمه الله بإقامته حاجبًا على باب حضرة استواء الحق على العرش، ليكون مركز إشعاعٍ لأهل الأرض، يدور حوله فلك الروح الربَّاني في عالم الأرض، ليستمد منه المرشدون على اختلاف مشاربهم أنوارَ الهداية وأمانات التَّخلُّق وسلطان التَّحقُّق بلطائف المظاهر الربانية.

وهذا معنى (القطبيَّة) في مقامها، وهو مقام يلزم أنْ يكون مِن وراء حجاب العزة الحَميِّ، وهو حجاب نوري محض، لو كشفه الحقُّ لأحرقتْ سبحاتُ وجهه الكونَ، ولو كشف الله حجاب الحِمَى الأقدس- للقطب- لفنيَ وغاب في مَشاهد العظمة المطلقة! وفنيَ في رؤية حضرة الإطلاق!!، وكلُّ ذلك لا يتفق مع رسالة القطب الغوث في الحياة، حيث يلزم أنْ يكون القطب متمكِّنًا في مقام (الحاجب) دون غيبةٍ أو فناء أو غفلةٍ، فهو محفوظ بما استحفظ عليه مِنْ أمانات التَّخلُّق وسلطان التَّحقُّق ومراقي العبودية في معارج كمالات الإنسان في رفارف الحضرة النبوية، حيث يستمد مِن الحقيقة المحمدية بطائنَ متكاثرة من أسرار الرحمة الربَّانية، مما يجعله مَوئلَ رجاء ومَحَطَّ أملٍ للبشرية، وهذا معنى (الغوثية) في مقامها.

وقد رأيتُ (سيدي الشيخ أحمد الطيب) متحققًا بهذين المقامين جامعًا بينهما، إلا أنه مكث قطبًا أكثر من مُكثِه غوثًا.

وقد أورثني من مقام القطبيّة ما أورثني، ولكن من وراء حِجاب خصوصيّته، حتى إذا علا المقام احتجب، ولم يفعل إلا ما وجب، حيث قيل لي ها أنتَ وحضيرة القدس!! فخذ مِنْ حيث أخذَ، وابلغ إلى حيث بلغَ، وقد يكون لك المزيد!!! ﴿ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾[1].

إلا أنَّ عهد التأدُّب قد أُخِذَ علينا أنْ لا نتقدَّم الكبار، وهذا إيثار نأخذ به، وإنْ كنتُ على علمٍ بأنه لا إيثار في القُربات ومعارج الحق، وقد تأدبتُ بأدب الوقت في ذلك المقام، حينما رأيتُ أنَّ مجدي أخيرًا ومجدي أولاً شَرَعٌ[2] والشمس رَأْدُ[3] الضحى كالشمس في الطَّفَلِ[4] لا يُغيِّرُ الآنُ مِن حقيقة أمرها شيئًا، إذْ قد تكون المغارب

---

[1] / الإسراء:٢٠.

[2] / **شرع**: يقال: نحن في هذا شَرَعٌ سواء، وشَرْعٌ سواء: أي متساوون لا يفوق بعضنا بعضاً، وهو مصدر يستوي فيه الواحد والإثنان والجمع والمذكر والمؤنث. وفي الحديث{أنتم فيه شَرَعٌ سواء}أي متساوون لا فضل لأحدكم فيه على الآخر.(النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير. و(لسان العرب، ج: ٨ ص: ١٧٨).

[3] / **رأد الضحى**: وقت ارتفاع الشمس وانبساط الضوء. (لسان العرب، ج: ٣ ص: ١٦٩).

[4] / **الطَّفَلُ**: طَفَلُ العَشيِّ: آخرُه عند غروب الشمس واصفرارها، يقال: أتيته طَفَلاً وعِشاءً طَفَلاً. وطَفَلَت الشمسُ تَطْفُلُ طُفولاً وطَفَّلَتْ تطفيلاً: هَمَّت بالوجوب ودَنَتْ للغروب. وتَطْفيلُ الشمس: مَيْلُها للغروب. وفي حديث ابن عمر: (أنه كَرِه الصلاة على

عند قوم مشارقًا!! لأن شموس مظاهر تجلّي الحقيقة الإلهية مِن الورثة الربَّانيين لا تغيب أبدًا، ولكنها قد تحتجب ومِنْ ثَمَّ فلا تظهر إلا لذي أدبٍ وقلبٍ طاهر.

هذا عن مظاهر التَّجلِّي الإلهي باختصارٍ، قصدنا منه تقريب تلك المظاهر إلى الأذهان، ولكن يبقَى للتَّجربة الذاتيَّة مجالها المتراحب في إدراك هذه المظاهر شهودًا، يُقِيمُ السَّالكَ لمنهج التصوف على اليقين المشهود بعد العلم المتيقن.

الوصول إلى حقائق الوجود

أما الوصول إلى حقائق الوجود فهو يختلف باختلاف الحقيقة الوجودية التي يقصدها السالك في هذا المنهج.

والمعلوم أنَّ الحقائق الوجودية ثلاثة أنواع، ولكلٍّ مِن هذه الحقائق وسيلةُ إدراك، عدًا حقيقة الوجود الكبرى فإنها لا تدرك جوهرًا، ولكن يمكن إدراكها مظهراً.

حقائق وجودية مقيَّدة بالزمان والمكان

وهي حقائقُ الخلق وآيات الله في الآفاق والأنفس حتى السماء الدنيا. فالحواس والعقل هما وسيلة إدراك الحقائق الوجودية في هذه المرتبة وهي مرتبة الحياة الدنيا.

وإدراك هذه الحقائق متاحٌ اكتشافه واستخدامه لأهل الأرض، وتسخيراً لبني آدم باعتباره وسيلةً لإعمار الأرض وتحقيق مصلحة الإنسان ودرء

الجنازة إذا طَفَلَتِ الشمسُ للغروب). أي: دنت منه، واسم تلك الساعة الطَّفَلُ. (لسان العرب، ج: ١١ ص: ٤٠٤).

مفسدته، يستوي في ذلك الصوفي وغيره، بل إنَّ البشر جميعًا يتساوون في التعامل مع حقائق الحياة وعلومها أخذًا وعطاءً.

حقائق وجودية مقيَّدة بالمكان دون أن تتقيَّد بالزمان الفلكي

وهي حقائقُ عالم الملكوت. وهي الحقائق التي لا يُقيِّدها الزمان الفلكي وإنْ تقيَّدتْ بمكانها الملكوتي، فإن الله قد أعطاها خصائص التَّشكُّل، حينما تنزل مِن عالم الغيب إلى عالم الشهادة، ووسيلة إدراك هذه الحقائق الملكوتية في عالمها العلوي هي الفؤاد، فإذا صفا الوجدان واستنار القلب وسَمَتْ الروح تفتَّحتْ بصيرة الفؤاد فرأى مِن هذه الحقائق ما يعود به السالك إلى عالم الشهادة، علمًا بصيرًا وهديًا منيرًا من غير كتابٍ يقرؤه بلسانه ولا يخطُّه بيمينه!!.

وهذا العلم مِن ميراث النبوة يُعطاه المسترشد السالك الصادق الذاكر متى استقام على القدم المحمديِّ، لأنَّ لسيدي محمد أحمد ﷺ آثاراً في الأرض وأثراً في السماوات وأثراً في حضرة القدس.

ومَنْ أُريَ الأثر وتبعه في جِدٍّ وصدقٍ مع الاستقامة عليه، وصلَ إلى حضرة القدس الأعلى، إلا أنَّه يلزم التَّنبيه إلى أنَّ الأثر قد يحجب المتأثِّر، لا حجاب ظلمة ولكن حجاب نور!! والفرق بينهما أنَّ حجاب الظلمة يجعل على القلب رينًا، أما حجاب النور فإنه يجعل على القلب غينًا.

ومرادنا مِن قولنا أنَّ الأثر قد يحجب المتأثر، أنَّ آثار المصطفى ﷺ في الأرض هي أقواله وأفعاله، أقواله شريعة، وأفعاله طريقة.

أما آثاره في السماء فهي (حال). وتأتي في حضرة القدس الأعلى لتكون (مقامًا) وهي "الحقيقة المحمدية".

والسالكون طريق الحق درجات، فالبعضُ قد يتمسَّك بآثار الأقوال ويُحجَبُ عن الأفعال، فتراه حافظًا ضابطًا ثقةً في الحديث، ولكن لا حظ له في العبادة والنُّسك والزُّهد والتَّقشف، والبعض قد يتمسَّك بالأفعال (الطريقة) ولكن يحجب بها عن الحال التَّخلُّق.

وقد يسير البعض على القدم المحمديِّ مقالاً وأفعالاً وحالاً ولكنه يُحجب عن المقام، مقام "الحقيقة المحمدية" في حضرة القدس الأعلى.

والإرث في هذا المقام إرث تخلُّق لا تحقُّق.

والوريث الصِّدق على القدم المحمدي هو مَنْ ورَّثه الله آثار هذا القدم الشريف في الأرض وفي السماء وفي حضرة القدس الأعلى، حتى يكون مِن العلماء الذين هم ورثة الأنبياء على الحقيقة.

وقد عجبتُ ممَّن يكتفي بإرثٍ دون إرثٍ استغناءً أو عجزاً.

وقد يُحجب بعض العلماء عن بعض الآثار العُليا حِرمانًا، وهؤلاء هم أهل العُجْبِ والرياء والكِبْرِ مِن علماء الرسوم.

حقيقة وجودية كبرى مطلقة عن الزمان والمكان

ويأتي الحديثُ عن حقيقة الوجود الكبرى، ونعني بها الذات الإلهية في طلاقتها عن الزمان والمكان، فلا تدرك ببصر ولا بصيرة، إلا حين تجلِّيها في مجالي القرب الرُّبوبي.

وتتمثَّل هذه المجالي في ثلاثة أسماء ذاتيَّة هي:

١. الرحمن.

٢. النور.

٣. القدوس.

- والله يستوي على عرشه باسمه الرحمن.
- ويتجلى لأهل حضرة القدس من المقربين باسمه النور.
- أما اسمه القدوس فهو الذي تقوم به حضرة قدسه، حتى لا يحسَب أيٌّ مِن أهل التَّقريب أنه الله.

ولم أر مرشداً حظي بالنور مِن حضرة القدس زعم لنفسه اسمًا ذاتيًّا، ناهيك مِنْ أنْ يدَّعي أنَّه "الله" وهو الاسم الجامع الذي يشير إلى الذات الإلهية في هويتها المطلقة ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾. ونستثني من ذلك أهل الجذب الشاطحين فإنهم أهل سُكرٍ وفناءٍ لا يُفرِّق بين (الأنا) و(الهو) في تلك الحضرة المقدسة، ويكثر الإسناد المجازي في كلامهم فيعذرهم لسانُ الحقيقة بالتأويل، أما إذا شطح مِن غير سُكرٍ فجعل إنِّيَّته - أعني السالك مرشداً أو مسترشداً- عين (الهو)، التي تعود إلى الذات الإلهية - باعتبار أن الضمير (هو) في هذا المقام أعرف المعارف في دلالته على الذات الإلهية- فإن هذا الشاطح (الصاحِي) يعتبر من الزنادقة، لأنه جمع وهو في مقام الفرق، فخرج على حُكم الظّاهر، فيجري عليه حُكْمُ الشريعة، ولا يجد دفاعًا من أهل الحقيقة، لأنه خرج على أدب القدوس، الذي تقوم به حضرة القدس، وهذا الأدب هو التنـزيه.

والذات الإلهية باعتبارها الحقيقة الكبرى لا تُدرَك لمخلوقٍ أبداً، بل قصارَى حظُّ العارفين منها:

- التَّعلُّق.
- والانكشاف.

◊ والتَّخلُّق بكمال أسمائها وصفاتها غير الذاتية.

وهذه الحقيقة الكبرى هي وحدها واجبة الوجود، وكل ما عداها ممكن، وأثر هذه الحقيقة على أهلها في عالم الشهادة أنْ يكونوا من أهل:

- الخوف والرجاء بالتَّعلُّق، لأنَّ مَن تعلَّق بالله حقًا لم يخف غيره ولم يَرْجُ سواه. وهؤلاء هم الأحرار، وهي صفةٌ نفسيَّة أخلاقيَّة سلوكيَّة قبل أنْ تكون صفةً اجتماعية سياسية.

وللحرية في هذا المقام علم دقيق يُحظَى به مَنْ كَمُلَتْ عبوديته لله، فأفضت به إلى الحرية عمًّا سواه.

- السكينة والطمأنينة بالانكشاف، لأنَّ رؤية حقائق الملكوت تجعل الوجدان عامراً بحقائق الخلق والإيجاد، فَيسْكُنُ صاحبُ الانكشاف لمجاري القدر ويُسلِم قلبَه ووجهه لله وهو مُحسن، لأنه مِن أهل الرؤية "الإحسان".

وأهلُ الإحسان هم أهل الإسلام الحق، لأنَّ الدين عند الله الإسلام لا بمعناه عند الأعراب وإنما بمعناه عند الأحرار العبيد.

أما التَّخلُّق فهو حظٌ مَنْ أكرمه الله فأدخله (حضيرة قدسه).

والصفة التي تُميِّز المتخلِّق من (حضيرة القدس) في عالم الأرض هي التواضع ولين الجانب، أما عند أهل السماء فيتميَّز بالعلم والأدب، لأنَّ العلم بغير أدبٍ جهالة، والأدب بغير علم غفلة، والعالم ذو الجهالة قد يُستدرَجُ من الشيطان وجنده، والأديب ذو الغفلة قد يُستغفَل فيُقاد إلى ما يحسب أنه صلاحٌ بسبب غفلته وهو في حقيقته فساد.

فلزم أنْ يتميَّز العالم بالأدب وأن يتميز الأديب بالعلم، فإذا رأيت الشيخ المرشد عالمًا ومتأدِّبًا ومتواضعًا فاعلم أنه مميَّزٌ في الأرض مميَّزٌ في السماء بفضل الله وتوفيقه. هذا عن حقائق الوجود.

التصوف ونور الفرقان

ثم يأتي الحديث عن آخر جزئية من مكوِّنات المفهوم الذي سُقناه للتصوف الإسلامي، والذي يفيد أنَّ ما ينقدح في قلب السالك من أنوار العلوم وحقائق الوجود ومظاهر التجلّي الإلهي كناتجٍ لسلوك هذا المنهج الصوفي، تجعل لهذا السالك (**فرقانًا في حياته**).

وفي الفرقان يَرِدُ قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾[1]

وقد روى العلماء في التفسير[2] من حديث سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما موقوفًا، وعن طريق مجاهد بن جبر وعكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهم أقوالاً في معنى الفرقان الوارد في سياق الآية، ومن هذه المعاني:

---

[1] / الأنفال:٢٩.

[2] / قال السيوطي: أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى﴿يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ (الأنفال ٢٩) قال: نجاة. وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه قال: نصراً. واخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن مجاهد قال: مخرجاً.(الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام جلال الدين السيوطي) وقال القرطبي: قال ابن وهب: سألت مالكاً عن

[النجاة – النصر – المخرج – النور – الحُجَّة].

فالنجاة مِن المخاطر وأشدّها عذاب جهنم. والنصر على الأعداء وأعدَى الأعداء النفس الأمارة بالسوء والشيطان وجندهما.

والمخرج ما يخرج به المسلم من مهاوي الشَرّ. والنور ما يهتدي به المؤمن في سيره إلى الله. والحُجَّة هي الدليل والبرهان يمشي بهما المؤمن في حياته.

ومجمع هذه المعاني يضمها الفرقان الذي يشكّل جزءً مِن عطاء الله لَمَنْ سلك طريق الحق.

هذا وقد جعل الله تبارك وتعالى لهذا العطاء شرطًا على المؤمنين وهو التقوى، ولا يخفَى أنَّ محلَّ التقوى هو القلب، فالعناية بالقلب والاهتمام بطهارته وإنارته وسلامته مما يجعل القلب صالحًا ومُهيَّئًا للتَّقوى من الأعمال التَّخصُّصيَّة لأهل الطريق الصوفي، وذلك تحقيقًا للتَّقوى التي هي شرط الفرقان.

ولعلَّ جماع معنى التقوى المحفوظ عن أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه والذي يقول: {التقوى هي الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والقناعة بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل}.

وهي من مواد العمل الأساسية في المنهج الصوفي، فإذا تحقّقتْ هذه المعاني في حياة المؤمن تحقّق مفهوم التقوى، وإذا تحقّقت التقوى في قلب المؤمن أكرمه الله بالفرقان، ليعيش في حياته بهذا الفرقان الذي يعتبر من المقاصد السامية في شريعة الإسلام، كما أنه من المقاصد العالية في مدارج الحقيقة. ولهذا

قوله تعالى ﴿ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ قال: مخرجاً ثم قرأ ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ (الطلاق ٢) [الجامع لأحكام القرآن للقرطبي].

جعلنا أنوار العلوم بحقائق الوجود ومظاهر التجلي الإلهي من روافد الفرقان بل ومُنشآته في قلب السائر إلى الله بشرط التقوى.

ولعله من المعلوم أن نقرِّر أن مَن حُظيَ بالنجاة فقد أمِنَ الهلكة، ومَن أُمدَّ بالنصر فقد أمِن الخذلان، ومَن أُكرم بالهداية فقد أمِن الضلالة، ومَن أُلْهِمَ الحُجة فقد كَسِبَ، ومن هُدِي إلى المخرج فاز فوزًا عظيمًا.

وكلُّ ذلك وغيره مِن طوايا المعاني في مدارج الفرقان قد بشَّر الله به المؤمنين الذين سلكوا طريق التقوى، فأقاموا معالمها في ساح القلوب، التي تفتَّحتْ بصائرُها في عرصات القدس حيث الإطلاق النسبي، تسمو في معارجه الأرواح الربانية وقد أُكرمتْ بنور الله السَّرمدي.

ولعلَّ البعض يتساءل عن مرادي من (عرصات القدس حيث الإطلاق النسبي).

فأقول: أردتُ بذلك بيوت الله في الأرض، تلك التي تُكوِّنُ مهابط النور الإلهي يكرم الله به تلك الأرواح الربانية التي عمر أهلُها هذه المساجد، يقطِّعون الليل تسبيحًا وقرآنًا، تراهم رُكَّعًا سُجَّدًا يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا.

واقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ

نُورٍ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾[1]

فالله يسوق من خلال البيان القرآني الرفيع حقيقةً دينية عِرفانية، تقرِّر أنَّ الله نور السماوات والأرض، وساق لذلك النور مثلاً يعطي ثلاث خصائص تقريبية لنور الله وهي:

- امتلاء المكان ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ﴾ وهذا يفيد أنه لا ظلام معه.
- الصفاء والتجرُّد ﴿ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾ وهذا يفيد أنه نور خالٍ من الشوائب فلا دخان ولا ضباب ولا غبار.
- الإنارة الذاتية ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ ﴾ وهذا يفيد الاستقلال وعدم الحاجة إلى طاقة من الخارج.

ونورٌ يأتي مقامه بهذه المواصفات التي لا عهد لأهل الأرض بها، لابد أن يستوفز العقل في الإنسان إلى السؤال عن مكان هذا النور في الأرض، وهل هو متاح لمَن سعَى للإستنارة به؟! فيأتي جواب الحق في قوله تبارك وتعالى:

---

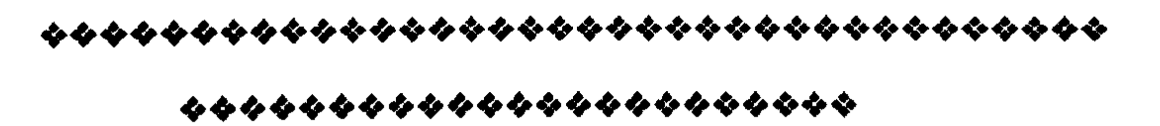
[1] / النور:٣٥.

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾[1].

كأنه يقول للمستخبرين عن مكان هذا النور، التمسوه في بيوت الله في الأرض، فهي مهابط النور الإلهي، حيث الإطلاق النسبي للروح الرباني في الإنسان، وهي (عرصات القدس) التي أمر الله أنْ ترفع وتُنَزَّه عن منكر القول وزوره، وفاحشِ الفعل وجوره.

ولعل ممَّا يسترعي الانتباه أنْ تجد أنَّ المرشدين من أهل التصوف يبادرون أول ما يبادرون إلى بناء بيوت الله، وعِمَارتها بالذِّكر وصالح الأعمال، وذلك استمداداً لنور الله وطلبًا لمواهبه وأفضاله، مع سعيٍ دؤوب، وسير حثيث بنجائب الهمم العالية، ليصل أهلُ السير والسلوك هؤلاء إلى مقام (التقوى)، حيث يُكرِم الله عزَّ وجلَّ هؤلاء المقرَّبين (بالفرقان)، فيعيشون في الأرض محفوظين من همزات الشياطين وحضورهم، مستقيمين على أمر الله إكرامًا.

﴿ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٨﴾ ﴾[2].



1/ النور:٣٦- ٣٧.

2/ التحريم:٨.

مضى القول مفصَّلاً في فصلين من فصول هذه الدراسة، جاء الفصل الأول منها مستهدفًا مواقف المدارس الفكرية من التصوف الإسلامي وتجلية بعض المأثور من مباحثها، وفي هذا المجال استعراض عام لم يكن مقصوده تمام الاستقراء ولا إبراز النقائض وإنْ مرَّ شيء من ذلك في بعض المواطن من الفصل عَرَضًا.

ثم جاء الفصل التالي وقد تركَّز القول فيه على المفهوم الذي ارتضيناه للتعريف بالمنهج الصوفي، لا بمعناه الاصطلاحي الذي تعارف الدارسون وتواضعوا عليه، وإنما بمفهومه الذي ارتأيتُ، وأحسبُ أنها رؤية جامعة مانعة تصلح أنْ تكون مفهومًا حَدِّيًّا للمنهج الصوفي.

وفي سبيل تجلية دلالة هذا المفهوم أطلتُ النَّفَسَ في شيء مِن النظر الفاحص.

وربما لحظ البعض شيئًا من الاستطرادات في سياق عدد مِن مضامين الفصل، وصحيح ما يلاحظ في هذا الجانب، بيد أنَّ وجهه عندي هو الحاجةُ إلى مزيدِ البيان والتَّوضيح لمقولات تناولها الفصل، وهي مما يلزم أنْ يتراحب فيها البيان ويكون القول بشأنها ذا سعة بمعلوماتٍ آمل أنْ تكون مفيدة.

وسيَرِدُ في الباب التالي مِن أبواب هذه الدراسة الحديثُ مفصَّلاً عن مصادر التصوف الإسلامي كعلمٍ من علوم الإسلام ومذهب مِن مذاهبه التَّطبيقيَّة، وما يرتكز عليه هذا العلم والمذهب من نصوصِ الوحي وكلّيَّات القواعد الشَّرعيَّة.

الفصل الرابع: مصادر التصوف الإسلامي

مباحث الفصل :

١. التصوف الإسلامي والمؤثرات البيئية.
٢. مكونات المنهج الصوفي.
٣. السلوك ولوازمه.
٤. السير ولوازمه.
٥. الصفاء والمشاهدة.
٦. المراسم والمواسم في التصوف الإسلامي.

إن مقصدنا من هذا المبحث هو إثبات فرضيتنا التي نقول بها، وهي أن التصوف الإسلامي يعود إلى مرجعية إسلامية أصيلة، انطلاقاً من قناعة منطقية مفادها أن الفكر الصوفي شأنه شأن الفقه وعلم الكلام وغيرها من أنماط العلوم الإسلامية لم ينشأ من فراغ تستقل فيه هذه النشأة عن المؤثرات والمعطيات البيئية والظرفية زماناً ومكاناً؛ ولما كان الأمر كذلك فإننا نقول بأن المذهب الصوفي كان استجابة فاعلة لمقتضى الوحي والبيان النبوي، تنزيلاً لهذا المقتضى للواقع العملي الموضوعي، حتى يرتقي واقع التديُّن في مجال السلوك والأخلاق والمعرفة إلى مراقي دلالات الوحي الرباني ومقامات البيان النبوي.

المبحث الأول:

التصوف وعطاء الروح الإنساني المشترك

لا نطمح في هذا المبحث أنْ نحصي مصادر التصوف الإسلامي استقراءً ورصدًا وتحليلاً وتقييمًا، لأنَّ هذا مطمح متراحب الجوانب، بعيد الأغوار يخرج بدراستنا هذه عن منهجها وغايتها متى جعلناه هدفًا، مع أنه في نظرنا مبحثٌ حقيق بإفراد دراسة خاصة تستوعب كلَّ ما يدور في الخاطر منه.

بل إنَّ مقصدنا مِن هذا المبحث هو إثبات فرضيَّتنا التي نقول بها، وهي أنَّ التصوف الإسلامي يعود إلى مرجعيَّة إسلامية أصيلة، انطلاقًا من قناعة منطقيَّة مفادها أنَّ الفكر الصوفي شأنه شأن الفقه وعلم الكلام وغيرها من أنماط العلوم الإسلامية لم ينشأ مِن فراغ، تستقل فيه هذه النشأة عن المؤثِّرات والمعطيات البيئية والظرفية زمانًا ومكانًا.

ولما كان الأمر كذلك فإننا نقول بأنَّ المذهب الصوفي كان استجابةً فاعلة لمقتضَى الوحي والبيان النبوي، تنزيلاً لهذا المقتضَى للواقع العملي الموضوعي، حتى يرتقي واقع التَّديُّن في مجال السُّلوك والأخلاق والمعرفة إلى مراقي دلالات الوحي الربَّاني ومقامات البيان النبوي.

ونحن في مبحثنا هذا عن مصادر التصوف الإسلامي لا نقول بنظرية التأثير والتأثُّر بالفكر الوافد والثقافة الأجنبية بإطلاقٍ، في تفسيرنا وتقييمنا للتصوف الإسلامي، كما فعل عددٌ من الباحثين والدارسين، كما أننا قد لا ننكر شيئًا مِن عطاء الفكر الإنساني، وبعض معطيات الواقع الظرفي في

بُعْده الزماني والمكاني والبشري، في مجال الفكر الصوفي الإسلامي، ولاسيَّما في جانبه الفلسفي وأنظاره الفكريَّة في العصر الوسيط. لأنَّ إنكار هذه المؤثِّرات يعتبر في نظري مكابرة، تناقض حقائق التاريخ وعطاء العلم، لمن تتبع تطور المنهج الصوفي.

ولكن ما يلزم التنبيه إليه أنَّ ما ظنَّه بعض الباحثين والعلماء مؤثِّراً خارجيًّا معارضًا لمنهج الإسلام وضوابطه، ما هو في نظرنا إلا عطاء الروح الإنساني المشترك، حينما تُطلُّ هذه الروح مِن أفق معرفي واحد تُشكِّل الفطرةُ السليمة مُنطلقَه، ولاسيَّما في مدارج الحُبِّ والإشراق والتَّوحيد.

ولاجرم فقد جاء الإسلام برسالة التوحيد، فوجد في الأُمِّيين من العرب أفراداً حنفاء، أبتْ فطرتُهم السليمة الشِّركَ فتألَّهوا ربًّا واحدًا، يقف الإحساس المشترك بينهم والوجدان الحيُّ فيهم والنظر الفاحص، منطلقات إدراكيَّة تؤدِّي بهم للإيمان بوجود الله ووحدانيَّته، مِن قبل أنْ يكون لهم كتاب مبين ويُبعث فيهم رسولٌ أمين.

حقائق المعارف وأدوات الإدراك

ثم جاء الوحي القرآني بحقيقة التَّوحيد ومنهجها العملي في واقع الحياة، فوجد للفطرة عطاءً إيجابيًّا في ذات الاتِّجاه ... ولا أحسب أنَّ معرفة حقائق الملكوت قاصرة على قَبيلٍ دون آخر من بني آدم.

فالإنسان بما فُطِر عليه مِن ملكات وقُوَى، قادرٌ على الإدراك فوق الحاسِّي، ثم يأتي فعله ليُحيلَ هذه القوة واقعًا مَعيشًا.

فلا غرابة إذاً في تشابه عطاء الروح الإنساني، متى سلكتْ مضمارًا متشاكلاً في التَّرويض والتَّهذيب.

شروط إدراك حقائق المعارف

وإدراكُ حقائقِ المعارف بهذا المفهوم متاحٌ للإنسان بثلاثة شروط:

١) سلامة المُدْرِك. [بكسر الراء].

٢) انتفاء الموانع.

٣) الهداية الربانية.

فهذه ثلاثة شروط متى توفَّرت، أمكن للإنسان أنْ يدرك مِن الحكمة العالية والحقائق العلميَّة ما تطمح إليه همته وتصبو إليه إرادته.

سلامةُ المُدرِك:

وفي مضمار المُدرِك وهو الأداة المستخدمة، يمكننا أنْ نقرِّر أنه تبعًا للمعلوم تَتَحَدَّدُ أداةُ العلم، وتبعًا لماهيَّة المُدْرَك [بفتح الراء] يكن المُدْرِك [بكسر الراء].

واستخدام الأدوات المناسبة مع سلامتها هو بداية الطريق إلى المعرفة، إذ لا يمكن لمَن أراد أنْ يصعد إلى القمر مثلاً أنْ يركب البعير، كما لا يمكن لمن أراد أن يصل إلى جدة من بور تسودان عن طريق البحر أنْ يركب عربة. كذلك لا يمكن لمن استهدف معرفة حقائق الإحسان الشُّهودي أن يستخدم حواسه الظاهرة ولا عقله البرهاني المنطقي، لأنها مُدْرِكاتٌ لا تناسب المُدْرَك.

وكلما أمعن الإنسان في التمسك بالوسيلة غير المناسبة، بُغيةَ أنْ يصل بها إلى ما لا يناسبها مِن المعارف والمعلومات، كلما ازداد بُعدًا عن هذه المعارف.

وربما كان المُدْرِك مناسبًا ولكنه غير سليم، فيكون الخلل ثمَّة، فيلزم العاقل مِن الناس أنْ يصوِّب جهدَه لمعالجة الخلل، حتى يصل بأداته إلى السَّلامة مِن العلل، فإذا اطمأنَّ إلى سلامتها أمكنه بعد ذلك أنْ يتفاعل مع المؤدَّى.

وكثير من المسلمين قد يقعد به عن معرفة حقائق الإحسان الشهودي العلل القائمة بملكة الإدراك في عالم الملكوت وهي "القلب- الفؤاد"، ولذلك ألَحَّ علماءُ التزكية الربانية على التَّخلِّي، كقيمة سلوكيَّة تستهدف إصحاح الأداة وسلامة المُدرِك من الأمراض والآفات حتى يكون سليمًا، بعد أنْ اتَّفقتْ كلمتُهم على أنَّ هذا القلب هو الأداة المناسبة للإدراك في مقام الإحسان الشُّهودي.

انتفاء الموانع:

وانتفاء الموانع شرط أساسي للإدراك، إذ ربما كان المدرِك مناسبًا وسليمًا، ولكنْ تَحُولُ موانع بينه وبين الإدراك، مثل فقد المنهج "**الطريق**" الذي يصل بهذا المدرِك المناسب السليم إلى بُغيته. فلزم أنْ يلتفت طالب المعرفة إلى إزالة موانع الإدراك عن طريقه وما أكثرها.

ولكنَّ أشدها خطرًا وألصقها بقوَى الإنسان عائقان أو مانعان هما:

- **اتِّباع خطوات الشيطان**
- **اتِّباع ما تهوَى الأنفس.**

فمَنْ انتصر على الشيطان وجنده والنفس الأمارة بالسوء وجندها، فقد أزال الموانع وتخطَّى العوائق، فلا يكون ثمَّة ما يحول بينه وبين الوصول إلى معرفة حقائق الإحسان والعمل بها.

ولكن يبقى شرطٌ مُهِمٌّ لا يدخل في مِكنة الإنسان ولا تبلغه وسائلُ الكسب البشري وهو الهداية الربانية.

الهداية الربانية:

فقد يبدو الإنسان سليم القلب واضح الهدف، لا تحول بينه وبين السير في طريق الإدراك المعرفي السَّامي عوائقٌ، ولا تمنعه مِن إدراك معارف الإحسان الشهودي موانع فيما يبدو ظاهرًا، ولكنَّ الله لم يهدِ قلبَه ولم يشرح صدرَه، فيلزم أنْ يكون جَهْدُ هذا وأمثاله مِن ذوي الملكات الإنسانية السليمة أن يستهدوا الله طريقَ الحقيقة ومناهجَ المحسنين، فلا تقعد به همَّته على معالم الإسلام ومدارج الإيمان، ثم تقعد به عن معارج الإحسان بما في مقاماته من حقائق الإحسان الشهودي، لأنَّ ذلك قصور هِمَّة في التَّديُّن.

فإنْ اعتقدَ مَنْ قَصُرتْ همته عن بلوغ معارج الإحسان الشهودي أنه بلغ غاية التديُّن حينما وقف عند مدارج الإيمان، قلنا له لا تجمع إلى قصور المطمح وضعف الهمة خطأ الفهم والجهل بالدِّين ومقتضيات التديُّن، ذلك لأنَّ المرجعيَّة العليا لهذا الدين - متمثلة في القرآن والسنة - قد نوَّهتْ بمقامٍ فوق مدارج الإيمان وهو مقام الإحسان الشهودي بمعارجه ومقتضيات التَّديُّن فيه، وهو مِن أمور الدين التي لا خلاف عليها، ولكن مِن لوازم الكسب فيه هداية الله الربانية وعنايته الرحمانية. ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾[1] ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ

---

[1]/ الأعراف:١٧٨.

وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[1] ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾[2]

هذه توطئة لابد منها ونحن نحاول أنْ نعود بالتصوف الإسلامي إلى مصادره الحقة.

وعلى مَنْ استصحبنا مؤيِّداً أو تَعقَّبنا ناقداً أنْ لا يجعل شروط المعرفة والعلم وراء ظهره. وهي:

- سلامةُ مُدرِكٍ.
- وانتفاءُ موانع .
- وهدايةٌ ربانية.

---

[1] / القصص:٥٦.

[2] / يونس:٢٥.

المبحث الثاني

تأصيل مكونات المنهج الصوفي

حتى يمكن الرجوع بالتصوف إلى مصدره الحق فلابد أنْ نُذَكِّر بمفهومنا لهذا التَّصوف الإسلامي والذي سُقناه فيما سبق وهو:

[منهج سلوكي تربوي على طريق الحقّ بصدقٍ، تتم به مكارم الأخلاق، وينقدح في قلوب سالكيه من أنوار العلوم وحقائق الوجود ومظاهر التَّجلّي الإلهي ما يجعل للسالك فرقاناً في حياته].

وهذا التعريف كما يلاحظ تعريفٌ يتَّجه بعضه إلى مفهوم التَّعريف الحقيقي، وبعضه يتَّجه إلى التَّعريف الإسمي إلا أنه تعريف حدِّي، وقد سبق الحديث في فصلٍ سابقٍ عن هذا الأمر.

وتعريفنا للتصوف الإسلامي بهذا المفهوم يتضمن ما يعرفه العلماء أهل الاختصاص من مكوِّنات المنهج الصوفي ومِن ذلك:

١. السير والسلوك: بما يفضي إليه من زهدٍ وإنابة إلى الله تبارك وتعالى وطهر وزكاء.

٢. الصفاء والمشاهدة: وما تؤدِّي إليه مِن معرفة وتخلُّقٍ وتحقُّق.

٣. مواسم ومراسم وسماع: وما يلزمها مِن اجتماعٍ وانفرادٍ ووجدٍ ومواجيد.

ولا يكاد التصوف الإسلامي يتجاوز هذه المكوِّنات، لأنَّها مكوِّنات كليَّة تندرج في ثناياها كثير مِن الجزئيَّات، وهي بنظري مكوِّنات المنهج الصوفي.

ويلزمنا أنْ نَرُدَّ كلَّ مكوِّنٍ منها إلى مصدره المعتبر عند العلماء.

وبإجمالٍ يعقبه التفصيل نقول:

1) السير والسلوك بما يُنتج من إنابةٍ وزهدٍ وتزكية، مصدره القرآن الكريم وسنة المصطفى ﷺ.

2) المعرفة الناتجة عن الصفاء والمشاهدة والتَّخلُّق والتَّحقُّق، مصدرها القرآن الكريم وسنة المصطفى ﷺ ومأثور السلف الصالح من منهجٍ علمي وعملي.

3) المواسم والمراسم والسَّماع مصدرها السنَّة التقريرية والعُرف.

ولا نزاع أنَّ القرآن الكريم والسنَّة المطهرة بأنواعها والعُرف الصالح من مصادر الأحكام.

وفي هذا الفصل مِن النظرات نحاول ربط مكوِّنات التصوف الإسلامي هذه بمصادرها من القرآن والسنة والإجماع والاجتهاد والعُرف الصالح. وهي مصادر الأحكام الشرعية التي تشكِّل المعايير الصحيحة للحُكم على أفعال المكلَّفين.

ونحن في منهجنا في التأصيل والاستدلال، نرمي إلى لفتِ النَّظر إلى أنَّ منهج الأكاديميين الذين بحثوا في مصادر التصوف الإسلامي منهجٌ ينقطع بأهله دون الحقيقة في هذا الشأن.

ذلك لأنَّ متأخِّري الباحثين قد ساروا على نفس منهج الاستشراق، وتبنَّوا آراء وفرضيَّات المستشرقين، دون نقد وتمحيص لهذه الآراء، الأمر الذي وسم آراء هؤلاء الباحثين في الحديث عن مصادر التصوف الإسلامي بالضعف والتَّهافت!! مما يدعو الباحث الجادَّ المنصف إلى تعميق النظر والتَّثبُّت مع

التَّجرُّد وطول النفس، وهو يتعامل مع عطاء الاستشراق في هذا المجال، بدلاً من التَّسليم والانقياد، بل التَّبنِّي لمقولات قلقة لا يقوم لها وزنٌ في معايير الحق.

وسنحاول بإذن الله تعالى إثبات تهافت آراء المستشرقين، ومَنْ قلَّدهم من الباحثين وهم يُرجعون التصوف إلى مصادر أجنبية عن الهدي الربَّاني وشريعة الإسلام الخالدة.

ونبدأ في تأصيل مكوِّنات التَّصوف الإسلامي ومسمَّياته بـ"السير والسلوك". وهو مصطلحٌ يُعبَّر به عن توجُّه العبد إلى ربه في طريق الرجعى إلى الله.

والسُّلوك في الطريق دخولٌ في العهد وانتظامٌ في سلك الطريق، والسَّير حركةٌ في هذا الطريق.

فالسلوك بغير سير أمرٌ قاطع للمريد، لأنه سُكون وقعود.

والسير بغير سلوك قد يُفضي إلى الضلالة والتِّيه، لأنَّه حركة بلا نظام ولا هدف.

فلابد إذاً من السير والسلوك معًا.

والعطف في هذا السِّياق يدلُّ على مطلق الجمع لا الترتيب، إذ أنَّه مِن اللازم أنْ يسبق السلوكُ السيرَ في الرتبة.

ومِن لوازم السلوك:

- الشيخ المرشد.
- البيعة "العهد".
- الوفاء.

ومِن لوازم السير:

- الهمة وهي ناتج الرغبة"الدابة".
- الورد نوافل القربات"الغذاء".
- تحديد الغاية "المقصد"..

المبحث الثالث: السلوك ولوازمه

ويمكن أن نُرجِع هذه اللوازم للسير والسلوك إلى مصادرها الشرعية، ونبدأ في ذلك باللازم الأول في السلوك وهو الشيخ المرشد.

اللازم الأول الشيخ المرشد

فالإرشاد فرع من دعوة الإسلام، والوصول إلى الرشد مقصدٌ من مقاصد الشريعة، ولا إرشاد بغير مرشد، ولاسيَّما في مضمار الدين والفقه؛ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[1]

ويقول عزَّ من قائل: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾[2] ويقول تبارك وتعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[3] ويقول تبارك وتعالى: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن

---

[1] / التوبة:١٢٢.

[2] / الفرقان:٥٩.

[3] / الأنعام:٩٠.

تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾[1] ويقول الرسول الكريم ﷺ فيما رواه سيدنا أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر: {ما من رجل يسلك طريقاً يلتمس فيه علمًا إلا سهَّل الله له طريقًا إلى الجنة، ومَن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه}[2]. وأخرجه مسلم عن أبي هريرة بلفظ: {ومَنْ سلك طريقاً يلتمس فيه علمًا....الخ.}.

ومن حديث سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما موقوفًا {ما سلك رجلٌ طريقًا يلتمس فيه علمًا إلا سهَّل الله له طريقًا إلى الجنة}[3]. أورد هذه الأخبار ابن عبد البر[4] في جامع بيان العلم(ص١٦).

---

[1] / الكهف:٦٦.

[2] / حديث {ما من رجل يسلك طريقاً يلتمس فيه علماً}: رواه أبو داود إلا أنه قال{يطلب فيه علماً}[سنن أبي داود، كتاب العلم ج٣ ص٣١٧ الحديث رقم ٣٦٤٣] والحاكم في المستدرك، بلفظ{ما من رجل سلك طريقاً يطلب فيه علماً}والباقي سواء. [المستدرك على الصحيحين ج: ١ ص: ١٦٥ الحديث رقم ٢٩٩].

وأخرجه مسلم بلفظ{ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا} [صحيح مسلم ج: ٤ ص: ٢٠٧٤ الحديث رقم ٢٦٩٩] وعلقه البخاري في كتاب العلم ج: ١ ص: ٣٧] وخرجه الترمذي في سننه ج: ٥ ص: ١٩٥ الحديث رقم ٢٩٤٥].

[3] / حديث:{ما سلك رجل طريقاً يلتمص فيه علماً}: أخرجه الدارمي وابن أبي شيبة موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: {يبتغي فيه العلم } [سنن الدارمي ج١ص١١١] [مصنف ابن أبي شيبة ج٥ ص٢٨٤ الحديث ٢٦١١٤].

[4] / الإمام ابن عبد البر: قال الإمام الذهبي: ابن عبد البر، الإمام، العلامة، حافظ المغرب، شيخ الإسلام، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري، الأندلسي، القرطبي، المالكي، صاحب التصانيف الفائقة، مولده في سنة: [٣٦٨ هـ] أدرك الكبار، وطال عمره، وعلا سنده، وتكاثر عليه الطلبة، وجمع وصنف، ووثق وضعف،

ويلاحظ أنَّ متن حديث أبي هريرة الأول خرج مخرج الغالب في دلالته في نصه "ما من رجل" لأنَّ العلم وفضله لا يختصُّ بالرجال دون النساء، وقد جاء متن روايته الأخرى ليدل على العموم بورود اسم الموصول متقدِّمًا على العامل وهو من صيغ العموم، ليدخل في هذا الفضل والحَثِّ عليه الذُّكورُ والإناثُ.

ولا يُطلب العلم إلا مِن العلماء أهل الاختصاص من الشيوخ والمرشدين.

وكلُّ هذه نقول مِنْ مرجعيَّة معصومة، جاءتْ تدل بنصِّها على ضرورة الشيخ المرشد والعالم الداعية يكرمه الله بإمامة المتقين، الذين يسارعون إلى الخيرات ويتسابقون للقربات ويتنافسون فيما يرضي الله تبارك وتعالى.

هذا وقد ثبت من سيرة المصطفى ﷺ وما بيَّنه القرآن الكريم أنَّ الرسول ﷺ هو المرشد المعصوم والإمام المرتضى للناس أجمعين،

وسارت بتصانيفه الركبان، وخضع لعلمه علماء الزمان. كان إماماً ديناً ، ثقةً، متقناً، علامةً، متبحراً، صاحب سنة واتباع، وكان أولاً أثرياً ظاهرياً فيما قيل، ثم تحول مالكياً مع ميل بين إلى فقه الشافعي في مسائل، ولا ينكر له ذلك فإنه ممن بلغ رتبة الأئمة المجتهدين. ومن نظر في مصنفاته بأن له منزلته من سعة العلم، وقوة الفهم، وسيلان الذهن، وكان موفقا في التاليف، معاناً عليه، ونفع الله بتواليفه، وكان مع تقدمه في علم الأثر، وبصره بالفقه ومعاني الحديث، له بسطة كبيرة في علم النسب والخبر مات ليلة الجمعة سلخ ربيع الآخر سنة: [٤٦٣ هـ] واستكمل خمساً وتسعين سنة وخمسة أيام رحمه الله [سير أعلام النبلاء ج١٨ ص١٥٣].

وقد أعطى من نفسه القدوة الحسنة، ثم ترك في الناس كتاب الله وسنة نبيه ينطق عنها العلماء الذين ورثوا الأنبياء.

وميراثُ رسولنا ﷺ هو العلم بنوعيه:

١. علم الأصول.

٢. وعلم الوصول.

ومَنْ لم يُحكِمْ الأصول ويحرِّرُها فلا يمكنه أن يعلم شيئًا عن علم الوصول.

ولدين الإسلام ثلاثة مكوِّنات أساسية هي:

- عقيدة.
- شريعة.
- حقيقة.

ولا يختلف اثنان بأن العقيدة الإسلامية من أصول دين الإسلام، ولهذه الأصول علم تخصَّصَ فيه من العلماء المجتهدين مَنْ تخصَّصوا، ليكونوا في تاريخ العلوم الإسلامية شيوخًا أئمة مرشدين، يتَّخذ الخلفُ مِن مناهجهم وطرائق تفكيرهم وما توصلوا إليه من علمٍ طريقًا مُتَّبعًا ومذهبًا يقلّدونه دون نكير، ولا يستنكفُ مسترشدٌ أنْ يقول بملئ فيه إنَّ شيخه في العقائد هو:

- الأشعري[1].

[1] / الإمام الأشعري: وهو العلامة، إمام المتكلمين، أبو الحسن علي ابن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أمير البصرة بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، اليماني، البصري، مولده سنة:

✧ أو الماتُريدي[1].

✧ أو أبو إسماعيل عبد الله الهروي الأنصاري.[2]

٢٦٠] هـ. وقيل: بل ولد سنة: [٢٧٠ هـ] وأخذ عن أبي خليفة الجمحي، وأبي علي الجبائي، وزكريا الساجي، وسهل بن نوح، وطبقتهم، يروي عنهم بالإسناد في تفسيره كثيراً، وكان عجباً في الذكاء وقوة الفهم، ولما برع في معرفة الاعتزال كرهه وتبرأ منه، وصعد للناس فتاب إلى الله تعالى منه، ثم أخذ يردُّ على المعتزلة ويهتك عوارهم، قال الفقيه أبو بكر الصيرفي: كانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى نشأ الأشعري فحجرهم في أقماع السمسم، وعن ابن الباقلاني قال: أفضل أحوالي أن أفهم كلام الأشعري. قلت: [القائل الذهبي] رأيت لأبي الحسن أربعة تواليف في الأصول يذكر فيها قواعد مذهب السلف، وقال فيها: تمر كما جاءت. ثم قال: وبذلك أقول، وبه أدين، ولا تؤول، قلت مات ببغداد سنة: [٣٢٤ هـ]. حط عليه جماعةٌ من الحنابلة والعلماء، وكل أحد فيؤخذ من قوله ويترك إلا من عصم الله تعالى. [سير أعلام النبلاء ج: ١٥ ص: ٨٥].

[1] / الماتريدي: هوالإمام أبو منصور محمد بن محمد الماتريدي، الحنفي له كتاب" بيان وهم المعتزلة"، وكتاب" تأويلات أهل السنة". قال الشيخ عبد القادر في الجواهر المضيئة: وهو كتاب لا يوازيه فيه كتاب بل لا يدانيه شيء من تصانيف من سبقه في ذلك الفن. ا هـ وللشيخ تاج الدين السُبكي شرح على عقيدته سماه [السيف المشهور، في شرح عقيدة أبي منصور]. توفى الإمام الماتريدي: سنة: [٣٣٣ هـ] [كشف الظنون لحاجي خليفة ج١ ص٣٣٥].

[2] / الهروي الأنصاري: شيخ الإسلام، الإمام، القدوة، الحافظ، الكبير، أبو إسماعيل عبد الله ابن محمد بن علي الأنصاري الهروي. مصنف كتاب "ذم الكلام" و"منازل السائرين إلى الحق المبين"، شيخ خرا سان، من ذرية صاحب النبي ﷺ أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه. مولده في سنة: [٣٩٦ هـ] وكان إذا حضر المجلس لبس الثياب الفاخرة، وركب الدواب الثمينة، ويقول: إنما أفعل هذا إعزازاً للدين، ورغماً لأعدائه حتى ينظروا إلى عزي وتجملي فيرغبوا في الإسلام، ثم إذا انصرف إلى بيته عاد إلى المرقعة، والقعود مع الصوفية في

✧ أو أبوعلي الجبائي[1].

كما لا يختلف اثنان بأنَّ للشريعة أصولها العملية، ولهذه الأصول علم تَخَصَّصَ فيه من الفقهاء والعلماء المجتهدين الجمُّ الغفير ولا يزالون، حتى شكّلوا في تاريخ العلوم الإسلامية مذاهب يرودها أئمة علماء وفقهاء أثبات ورواة ثقات.

وقد وضع المجتهدون من أئمة المذاهب الشرعية سواءً في مجال ورود الأدلة الذي تخصَّص فيه علماء القرآن وعلماء الحديث من سلفنا الصالح، حيث تركوا لمن جاء بعدهم ثروة علمية نافعة في مجال حفظ الدليل وصحته، أو في مجال دلالة هذه الأدلة وتفسير نصوصها.

ودلالةُ الدليل هي ما يشير إليه مِنْ حكمٍ تفصيلي لواقعات الحياة، وما يقرِّره من أقضية لما يثور من قضايا المجتمع.

وقد تخصَّصَ المجتهدون من علماء الفقه في هذا المجال ووضعوا للناس من قواعد الاستباط وكلّيات الأحكام ما جعلهم أئمة يهتدي الناس بمناهجهم ويسترشدون بطرائقهم في التَّفقُّه، حتى غدا مجموع قواعد أئمة الاجتهاد

الخانقاه، يأكل معهم ولا يتميز بحال. قال أبو النضر الفاسي: توفي شيخ الإسلام في ذي الحجة سنة: [٤٨١ هـ] عن أربع وثمانين سنة وأشهر[سير أعلام النبلاء ج: ١٨ ص: ٥٠٢].

[1] / أبو علي الجُبَّائي: شيخ المعتزلة، وصاحب التصانيف، ابو علي محمد بن عبد الوهاب البصري، مات بالبصرة سنة: [٣٠٣ هـ] أخذ عن أبي يعقوب الشحام، وعاش ثمانياً وستين سنة ومات. فخلفه ابنه العلامة أبوهاشم الجبائي، وأخذ عنه فن الكلام أيضاً ابو الحسن الأشعري ثم خالفه ونابذه وتسنن، وكان أبو علي على بدعته متوسعاً في العلم، سيال الذهن، وهو الذي ذلل الكلام وسهله، ويسر ما صعب منه، وكان يقف في أبي بكر وعلي أيهما افضل. [سير أعلام النبلاء ج: ١٤ ص: ١٨٣].

المطلق المستقل مرجعية جامعة مانعة لا يكاد الخلف من العلماء وإنْ بلغ مِن النبوغ وحِدَّة الذهن وفقه النفس وسعة التحصيل ما بلغ أن يخرج من مجموع هذه الأصول والقواعد أو يخرج عليها، فإنْ فعل أحدُ النوابغ مِن خالفة العلماء شيئًا من ذلك بداعيةٍ مِن تحقيق الذات في كسوب التديُّن تبعًا لواقعات الظرف المعيش زمانًا ومكانًا وإنسانًا، استنكرته القلوبُ وازدرته الأعينُ، ولا يعدم مَنْ يرميه بالابتداع ويقذفه بالمروق من الدين، فصار وُكْدُ الفقيه[1] المبرِّز في هذا المجال إذا تأتَّى له أنْ يُضيف، هو توسيع أصلٍ أو إعمال قاعدةٍ أو ترجيح ما كان مرجوحًا، بدفعٍ مِن استصلاحٍ يفرضه جديدُ الحياة.

ويمضي السَّير في مضمار فقه الشريعة وأصولها وكبار المشايخ الأئمة هم:

١. الإمام زيد بن علي[2] بن الإمام الحسين سبط رسول الله ﷺ وهو إمام المذهب الزيدي.

---

1 / وكد الفقيه: الوُكد بالضم: السعي والجُهْد. يقال: وما زال في ذلك وُكْدي، أي فعلي. وبالفتح لوَكْدي] تعني: المراد والهم والقصد. (لسان العرب، ج: ٣ ص: ٤٦٧).

2 / **الإمام زيد بن علي:** هو الإمام زيد بن علي بن الحسين بن الإمام علي ﷺ. وكان ذا علم وجلالة وصلاح. روى هاشم بن البريد، عن زيد بن علي، قال:[كان أبو بكر ﷺ إمام الشاكرين، وسيجزي الله الشاكرين. ثم قال: [البراءة من أبي بكر هي البراءة من علي]. قتل الإمام زيد ﷺ سنة: [١٢٢هـ]. وكان سبب ذلك كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية: أنه أخذ البيعة ممن بايعه من أهل الكوفة وكانوا نحوًا من أربعين ألفًا على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حتى استفحل أمره بها في الباطن، وأمرهم في أول سنة [١٢٢ هـ] بالخروج والتأهب له، فبعث يوسف بن عمر [الوالي من قبل هشام بن عبد الملك الأموي] يتطلبه ويلح في طلبه

٢. الإمام جعفر [الصادق][1] بن محمد الباقر بن علي، وهو إمام المذهب الجعفري. وكِلا المذهبين من مذاهب الشيعة المعتدلة، ولهما أتباعٌ كُثُرٌ في مواقع من بلاد الإسلام إلى يومنا هذا.

فلما علمت الشيعة ذلك اجتمعوا عند زيد بن علي فقالوا له: ما قولك في أبي بكر وعمر؟ فقال غفر الله لهما ما سمعت أحدًا من أهل بيتي تبرأ منهما، وأنا لا اقول فيهما إلا خيرًا. قالوا: فلم تقاتل هؤلاء إذًا؟ قال: إنَّ هؤلاء ليسوا كأولئك إنَّ هؤلاء ظلموا الناس وظلموا أنفسهم وإنّي أدعو إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وإحياء السنن وإماتة البدع فإن تسمعوا يكن خيرًا لكم ولي وإنْ تَأْبَوْا فلستُ عليكم بوكيل. فرفضوه وانصرفوا عنه ونقضوا بيعته وتركوه فلهذا سموا الرافضة يومئذ، ومن تابعه من الناس على قوله سموا الزيدية.

وفي مذهب الزيدية حقٌّ: وهو تعديل الشيخين. وباطلٌ: وهو اعتقاد تقديم عليٍّ عليهما.

ثم إنَّ زيدًا عزم على الخروج بمن بقي معه من أصحابه فواعدهم ليلة الأربعاء من مستهل صفر سنة [١٢٢ هـ] وخرج في برد شديد فاجتمع معه [٢١٨ رجلا] ورمى زيد بسهم فأصاب جانب جبهته اليسرى فوصل إلى دماغه فرجع ورجع أصحابه، وجيء بطبيب فانتزع ذلك السهم من جبهته فما إنْ انتزعه حتى مات في ساعته رحمه الله.

وقال بعضهم ادفنوه في الحفرة التي يؤخذ منها الطين ففعلوا ذلك، وجاء مولى لزيد قد شهد دفنه فدلَّ على قبره فأخذ من قبره، فأمر يوسف بن عمر بصلبه على خشبة بالكناسة ويقال إنَّه مكث مصلوبًا أربع سنين ثم أنزل بعد ذلك وأحرق. فالله أعلم. انظر[البداية والنهاية] و[الطبقات الكبرى ج:٥ ص:٣٢٦] ولسير أعلام النبلاء ج: ٥ ص: ٣٨٩].

[1] / **الإمام جعفر الصادق:** هو جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب ﷺ. أحد السادة الأعلام، وابن بنت القاسم بن محمد، ابن أبي بكر ﷺ. وأمُّ أُمِّه هي أسماء، بنت عبد الرحمن، بن أبي بكر. فلذلك كان يقول: ولدني أبو بكر الصديق مرتين . حدث عن جده القاسم، وعن أبيه الباقر، وعبيد الله بن أبي رافع، وعروة بن الزبير، وعطاء، ونافع، وعدة. وعنه مالك، والسفيانان، ويحيى القطان، وأبو عاصم النبيل، وخلق كثير. قيل: مولده سنة: [٨٠هـ] فالظاهر أنه رأى سهل بن سعد الساعدي. وثقه الشافعي، ويحيى بن معين، وعن

٣. الإمام النعمان بن ثابت أبوحنيفة[1]، وهو إمام المذهب الحنفي.

٤. الإمام مالك بن أنس بن مالك[2]، وهو إمام المذهب المالكي.

أبي حنيفة قال: ما رأيت افقه من جعفر بن محمد. وعن صالح بن أبي الأسود: سمعت جعفر بن محمد يقول: سلوني قبل أن تفقدوني، فإنه لا يحدثكم أحد بعدي بمثل حديثي. ومن أحسنها رواية حفص بن غياث أنه سمعه يقول: ما أرجو من شفاعة علي شيئاً إلا وأنا أرجو من شفاعة أبي بكر مثله، لقد ولدني مرتين. توفي سنة: [١٤٨ هـ] [تذكرة الحفاظ لابن طاهر القيسراني ج: ١ ص: ١٦٦].

1 / **الإمام أبو حنيفة:** هو النعمان بن ثابت التيمي الكوفي، فقيه أهل العراق، وإمام أصحاب الرأي، وقيل إنه من أبناء فارس، ولد سنة: [٨٠ هـ] رأى أنساً، وروى عن حماد بن أبي سليمان وعطاء، وعاصم بن أبي النجود، والزهري، وقتادة، وخلق. وعنه ابنه حماد، ووكيع، وعبد الرزاق، وأبو يوسف القاضي، ومحمد ابن الحسن، وزفر، وخلائق. قال ابن المبارك: ما رأيت في الفقه مثله. وقال مكي بن إبراهيم: كان أعلم أهل زمانه، وما رأيت في الكوفيين أورع منه، وقال الشافعي: الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة. وأُكْرِه أبو حنيفة على القضاء فأبى أن يكون قاضيًا، وكان يحيى الليل صلاة ودعاء وتضرعاً ومات سنة: [١٥٠هـ] انظر [طبقات الحفاظ للحافظ جلال الدين السيوطي ج: ١ ص: ٩٦].

2 / **الإمام مالك:** هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث الأصبحي، الحميري، أبو عبد الله، المدني، شيخ الأئمة، وإمام دار الهجرة. روى عن نافع، ومحمد بن المنكدر، وجعفر الصادق، وحُمَيْد الطويل، وخلق. وعنه الشافعي، وخلائق، جمعهم الخطيب في مجلد. وقال ابن المديني: له نحو ألف حديث. وقال عبد الله بن أحمد: قلت لأبي من أثبت أصحاب الزهري؟ قال: مالك أثبت في كل شيء. وقال البخاري: أصح الأسانيد مالك، عن نافع، عن ابن عمر. وقال الشافعي: إذا جاء الأثر فمالك النجم. مات بالمدينة سنة:[١٧٩ هـ] وهو ابن تسعين سنة وحمل به ثلاث سنين [طبقات الحفاظ ج: ١ ص: ١٥٧].

٥. الإمام محمد بن إدريس الشافعي[1]، وهو إمام المذهب الشافعي.

٦. الإمام أحمد بن حنبل[2]، وهو إمام المذهب الحنبلي.

---

[1] / **الإمام الشافعي:** هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب، بن عبيد بن عبد يزيد بن هشام بن المطلب بن عبد مناف. القرشي، المطلبي، المكي، نزيل مصر. إمام الأئمة، وقدوة الأمة. ولد بغزة سنة:[١٥٠ هـ] وحمل إلى مكة وهو ابن سنتين. روى عن عمه محمد بن علي، وابي أسامة، وسعيد بن سالم القداح، وابن عيينة، ومالك، وابن علية، وابن ابي فديك، وخلق. وعنه ابنه أبو عثمان محمد، والإمام أحمد بن حنبل، وأبو ثور، وأبو عبيد القاسم، والمزني، وحرملة بن يحيى، والحسن بن محمد الزعفراني، والربيع بن سليمان المرادي، والربيع بن سليمان الجيزي، وأبو الوليد المكي، وأبو يعقوب البويطي، ويونس بن عبد الأعلى، وخلق كثير. وقال أحمد: إن الله تعالى يقيض للناس في رأس كل مائة سنة من يعلمهم السنن، وينفي عن رسول الله ﷺ الكذب، فنظرنا فإذا في رأس المائة عمر بن عبد العزيز، وفي رأس المائتين الشافعي. وقال إسماعيل بن يحيى: سمعت الشافعي يقول حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين، وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر. وقال الربيع بن سليمان: كان الشافعي يفتي وله خمس عشرة سنة، وكان يُحْيِى الليل إلى أن مات. وقال مات في آخر رجب سنة:[٢٠٤ هـ] [طبقات الحفاظ للسيوطي ج: ١ ص: ١٨٩].

[2] / **الإمام أحمد بن حنبل:** هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني. أبو عبد الله، المروزي، ثم البغدادي. الإمام الشهير، صاحب المسند، والزهد، وغير ذلك. ولد ببغداد في ربيع الأول سنة:[١٦٤ هـ] ونشأ بها، وطلب الحديث سنة:١٧٩هـ، وطاف البلاد، ودخل الكوفة، والبصرة، والحجاز، واليمن، والشام، والجزيرة، في طلب العلم. روى عن إبراهيم بن سعد، وإسماعيل بن علية، وبهز بن أسد، وبشر ابن المفضل، وخلائق. وعنه البخاري، ومسلم، وأبو داود، وإبراهيم الحربي، وآخرون. وكان من كبار الحفاظ الأئمة ومن أحبار هذه الأمة. قال وكيع وجعفر بن غياث: ما قدم الكوفة مثله. [طبقات الحفاظ ج: ١ ص: ١٩٠].

٧. الإمام داؤود الظاهري[1]، وهو إمام المذهب الظاهري.

٨. الإمام الخارجي عبد الله بن أباض[2]، وهو إمام المذهب الأباضي.

---

1 / **الإمام داود الظاهري:** هو أبو سليمان داود بن علي بن خلف الأصفهاني، ثم البغدادي الفقيه الظاهري إمام أهل الظاهر، أحد الأئمة المجتهدين في الإسلام، تنسب إليه الطائفة الظاهرية، وسميت بذلك لأخذها بظاهر الكتاب والسنة وإعراضها عن التأويل والرأي والقياس. ولد في الكوفة (سنة: ٢٠١ هـ)، روى عن أبي ثور وإبراهيم بن خالد واسحاق بن راهويه وسليمان بن حرب وعبدا لله بن مسلمة القعنبي ومسدد بن مسرهد وغير واحد روى عنه ابنه الفقيه أبو بكر بن داود وزكريا بن يحيى الساجي، قال الخطيب كان فقيهًا زاهداً وفي كتبه حديث كثير دال على غزارة علمه . أصله من أصبهان وولد بالكوفة ونشأ ببغداد وأنه انتهت إليه رئاسة العلم بها وكان يحضر مجلسه أربعمائة طيلسان أخضر كان حسن الصلاة كثير الخشوع فيها والتواضع وقد كان من الفقهاء المشهورين ولكن حصر نفسه بنفيه للقياس الصحيح فضاق بذلك ذرعه في أماكن كثيرة من الفقه فلزمه القول بأشياء قطعية صار إليها بسبب اتباعه الظاهر المجرد من غير تفهم لمعنى النص. توفي ببغداد سنة ٢٧٠هـ [البداية والنهاية لابن كثير].

2 / **عبد الله بن أباض:** إمام الأباضية، خرج في أيام مروان بن محمد، ، فوجه إليه عبد الله بن محمد بن عطية، فقاتله بتبالة. وكانوا يقولون: إن مخالفينا من أهل القبلة كفار غير مشركين، ومناكحتهم جائزة، وموارثتهم حلال، وغنيمة أموالهم من االسلاح والكراع عند الحرب حلال، وما سواه حرام، وحرام قتلهم وسبيهم في السر غيلة، إلا بعد نصب القتال، وإقامة الحجة.

وقالوا: إن دار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد، إلا معسكر السلطان فإنه دار بغي. وأجازوا شهادة مخالفيهم على أوليائهم. وقالوا في مرتكبي الكبائر: إنهم موحدون لا مؤمنون. [الملل والنحل للشهرستاني].

وهـم رواد المـذاهب الفقهيَّـة المتبعـة إلى يومنـا هـذا، مـع الإشـارة إلى أنَّ المجتهدين من العلماء غير مَنْ ذكرنا كثير، غير أنَّ أصحابهم لم يقوموا بمذاهبهم، فطوَى الدَّهرُ مذاهبهم وبقيت ذكرى أعيانهم ومتفرِّقات أقوالهم.

فإذا أقرَّ العلماء هذا الجهد والاجتهاد في علم "الأصول"، فإنه من اللازم على هؤلاء العلماء أن يقرُّوا اجتهاد مَن اجتهد في علم "الوصول" إلى الحقيقة. إذ أنه العلم الذي يشكِّل الوصول إليه غايةَ المسلم.

ذلك لأنَّ العلماء يتفقون بأن علم الأصول وسيلة، والغاية هي الوصول إلى الله وتحقيق العبودية له جلَّ شأنه وهو حقيقة الدين.

والوصول إلى الله تبارك وتعالى - طريقًا وعلمًا وأدبًا- هو نفسُه طريقُ الإحسان وفقهه، وطريقُ التزكية وعِلمُها.

وقد جاء القرآن الكريم مقرِّراً أن مِن مهام الرسول ﷺ في الأميين:

- تلاوة آيات الله: [قراءات وعلوم تجويد].
- تعليم كتاب الله: [أحكام فقهية وعلوم قرآن].
- تعليم الحكمة: [السنة النبوية وعلومها].
- تزكيتهم: [التزام القربات العملية بسلوك الطريقة وأدبها].

ولما كان للنبوة وُرَّاث في القراءات وعلوم القراءات، ووُرَّاثٌ في الأحكام الفقهية وعلوم القرآن، ووُرَّاثٌ في مجال السنة النبوية وعلومها ولا يزالون إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فإنه من المسلَّم أن يكون لِهَدْيِ النبوة وُرَّاثٌ على القدم المحمديِّ في مجال التزكية وفقه الإحسان، الذي يمثل واقعه في تاريخ الإسلام المنهجُ الصوفيُّ وما يضم مِن علم.

فإذا قلنا الشيخُ شرطٌ للوصول إلى فقه الإحسان، أو قلنا إنَّ الشيخ ضروري في منهج التزكية، كان قولنا مساوقًا لقول مَنْ يقول الشيخ شرطٌ في التفقُه، أو الشيخ شرط في تلقّي الحديث وروايته، أو هو شرط في تجويد القرآن كما هو شرط في كافة العلوم التطبيقية.

فإذا كان هذا مِن المُسلّمات ويلزم أنْ يكون كذلك - لأنَّ إنكاره تفريقٌ بين المِثليَّات بغير مُوجب وهذا مكابرة- فيكون الشيخ المرشد - وهو من مكوِّنات التصوف الإسلامي- مصطلحًا يحمل مضمونًا جاءتْ به شريعة الإسلام فقهًا وتديُّنًا واقعيًا.

فلا يبقى ثمة سبب يدفع الباحث إلى البحث عن هذا المصطلح ومضمونه في تراثٍ يجانب التراث الإسلامي إلا على سبيل المقارنة والتقويم أو التقييم.

أما إنكار هذه الجزئية أو القول بأنها أجنبية عن فقه الإسلام في مضمار التعريف والتزكية فلا أحسب أنَّ باحثًا رصينًا يمكن أن يقول به.

شبهات حول مكانة الشيخ المرشد من تلميذه

وإذ قد ألمحنا إلى أصالة المشيخة والإرشاد في المنهجية الإسلامية، ونبَّهنا إلى مشروعيَّتها التي جاءت بها شريعة الإسلام، فإنه من المفيد أن نشير إلى ما يثيره بعض الناس من شبهات أمام مكانة الشيخ المرشد من تلميذه في طريق التزكية، وذلك بتصوير هذه المكانة وكأنها شرك بالله تبارك وتعالى، باعتبار أن الوصول إلى الله لا يحتاج إلى وسيط.

وهي شبهة تقوم على مفهومٍ يخلط بين [السير **إلى** الله والسير **في** الله] عزَّ وجلَّ، وبينهما فرق يلزم بيانه حتى تصدر الأحكام على علمٍ بما يتعلَّق به الحُكم من قضايا.

لأنَّ تحرير المناط ربما اختصر الطريق إلى محاصرة الخلاف أو إنهائه.

السير إلى الله

فالسير إلى الله سيرٌ في عالم الأفعال والأحكام، وتحكمه أوامر الله التكوينية والتكليفية.

والمرشد الخبير في هذا السير ضرورة مِن ضروراته، لأنَّ الخالق قد احتجب بالخلقِ، والظاهر قد استتر بالمظاهرِ، كما أنَّ الحاكم المطلق قد احتجب بالأحكام.

ومهمةُ الشيخ المرشد أنْ يدلَّ:

- على الظاهر من وراء المظاهر.
- وعلى الخالق من وراء الخلق.
- وعلى الحكم العدل من وراء الأحكام.

وبمقدار تمكُّن المرشد وأعلميته في:

- عالم الأمر التكويني.
- والأمر التكليفي.
- ودرجة تخلُّقه وتحقُّقه بآدابهما.

تكن قدرته وأثره في الإرشاد.

فإذا وصل المسترشد إلى بدايات معرفة الله من خلال فعل الله وأحكامه، بحيث تجلَّت له وحدة الأفعال كما تجلَّت له حاكمية الحق تبارك وتعالى، فتحرَّر العقل بهذه المعرفة من قيود الزمان والمكان، فاطمأنَّ السائر، فإنه في مقام النفس المطمئنة يتأهَّل المسترشد المؤمن إلى مضمار آخر في السير،

وهو السير في الله والخطاب فيه من الحق مباشرة: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ۝ ﴾[1]

وإذا كانت أداة الإدراك في السير إلى الله تبارك وتعالى هي العقل كوظيفة للقلب باعتبار علاقته بالكون.

وكل علاقة عقلية للإنسان بغيره لابد لها من وسيط، وذلك لمحدودية إدراك العقل وتفاوت نسب هذا الإدراك، حيث لا يشترط هذا الشرط في علاقات الإنسان الروحية.

والسيرُ في الله تبارك وتعالى سير بالفؤاد في عالم الأسماء الحسنَى والصفات الأسنَى، والمسترشد في مقام النفس المطمئنة يستقلُّ عن المرشد، لأن المسترشد قد بلغ مبلغ الرجال فاستقلَّ بالسير فيسقط حجاب المرشد، ولسان حاله يقول للمسترشد "ها أنت وربك" ولا شفع في حضرة الوتر.

وفي هذا السير تسقط الوسائط، وتُماط حُجُب المظاهر، ويبقَى حجابان لا يسقطان أبدًا وهما:

١. حجاب النبوة.

٢. وحجاب نور الجلال على وجه الحق تبارك وتعالى.

حتى لا يدَّعي السالك النبوة أو الربوبية.

ووسيلة السير في هذا المضمار هي كلام الله وأسماؤه وصفاته، وما تقتضي من لوازم الرسالة والنبوة التي لا يسقط حجابها.

---

[1] / الفجر:٢٧- ٣٠.

ذلك لأنه سير في الله تبارك و تعالى فيلزم أن يكون السائر "فردًا مجتمعًا" واحدًا حتى يمكنه أن يكون مَجلًى للواحد، ثم يسير في الله مارًّا بمعارف الأسماء والصفات وكمالاتها الخُلقية، حتى يتحقّقها كأسمَى وأعلى وأكمل ما يكون مقام هذا التحقيق.

ومِنْ ثَمَّ يكون السائرُ في الله تبارك وتعالى مَجلًى ظاهراً للأحديَّة. ويبقى حجاب النبوة عاصمًا من الزيغ والضلال، كما يبقى حجاب نور وجه الله تبارك وتعالى حاجبًا من الإلحاد والطغيان. فيظل وليُّ الله في هذا المقام محفوظاً ومنعَّماً بلطائف جمال الجلال الإلهي في حضرة الحق الأعلى.

وفي الصلاة - فرضًا ونفلاً- نموذجٌ عملي للسير في الله، لاسيَّما الفذ أو مَنْ جعله الله تبارك وتعالى للمتقين إمامًا!!.

فإنَّ المصلّي بتكبير الحق في حضرة الإحرام بحضور الحق تبارك وتعالى، يسير بملكاته العليا في معارج الأسماء والصفات حتى يصل إلى الذات شاهداً في حضرة السلام عزَّ وجل بتحيات طيبات زاكيات، موصولة بصلاة وسلامٍ على النبي الخاتم، الذي تتجلّى حضرته عندئذ في مجالي العبودية الحقَّة ومقام النبوة الشريف، حيث القدوة والأسوة في كمالهما المقدور، وحيث الوساطة الباقية والإرشاد الدائم والهدى الظاهر الذي لا يصحُّ أن يحجب أو يسقط، ومن هنا جاءت التحية في مقام الشهود وقتئذٍ تقرُّ عين الفؤاد برؤية الكمال والجمال في عالم السنا في سلامٍ أسلمتْ فيه قوى الإنسان لله رب العالمين. وفي التشهد قول المصلي "السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته" وهي تحية تنبئ عن شهودٍ يؤكد وجود حجاب

النبوة، حتى في هذا القرب الآنس في حضرة الله تبارك وتعالى، التي تخشع فيها الأصوات وتعنو فيها الوجوه، حتى يتأكد حضور القلب باستجماع الملكات الإنسانية في هذا المقام الرفيع، ومن هنا كان الإسرار بالتشهد واقترانه بالصلاة على سيدنا محمد ﷺ بنعت النبوة.

والتشهد في هذا المقام حضور يشير إلى وعي الذات الإنسانية -المصلّي- في حضرة السلام الشهيد تبارك وتعالى، مما يعني الصحو والتمكين وهو شرط كمال عندنا يلزم وجوده فيمن يسير في الله تبارك وتعالى، حتى يصلح أن يكون مرشدًا وداعيًا إلى الله بإذنه، فيكون مِن سُرُج الحق المنيرة في الطريق، باعتباره آية الله المبصرة في أفق الولاية العالي. خلافًا لصاحب السُّكر والتلوين الذي حُجِب بالمشهود عن الوعي بالشاهد، فغاب في حضرة جلال الجمال، فعاش في ليل السُّرَى حيث مُحِيَتْ منه وسيلة الوعي بالذات الإنساني ومقتضيات تديُّنها العقلي، فلم تعد مبصرة بذاتها، وإنما بما ينعكس على اللاوعي من نور الحق الشهيد الذي استغرق الشاهد فلم يعد من الصُّحاة، ومن هنا لم يصلح صاحبُ السُّكر والتلوين لمنصب الإرشاد، على الرغم مِن رفعة مقامه وكمال ولايته في ذات الأفق العالي للولاية الخاصة التي يقتضيها حبُّ اللّه للمقرَّبين.

مما سبق إيراده يتضح أن السير في طريق الرجعى ينقسم إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: سير إلى الله وغايتها سدرة المنتهى، وهذه المرحلة لابد فيها من شيخ يرافق السالك السائر، والشيخ شرط في هذه المرحلة لما يعتري صاحبها من الإدراكات الشفعيَّة الثنائيَّة.

المرحلة الثانية: سير في الله تبارك وتعالى، وهي مرحلة تبدأ مِن مجلَى الوحدانية بمعرفة واحدية الحق تبارك وتعالى، ثم يمضي السالك سائراً في مراتب الأحدية من خلال معرفة الأسماء والصفات الإلهية إلى ما لا نهاية. وهذه المرحلة لا يحتاج فيها السالك إلى شيخ، لأنَّ الإدراك فيها ذاتي، وأداته الروح الرياني التي دخلت عالم الأمر، وهو عالمها الذي منه نزلت إلى عالم الشهادة، فلا تحتاج مِن ثَمَّ إلى مرشدٍ أو إرشاد.

وهذا معنى استقلال المسترشد عن المرشد وعدم الحاجة إلى الشيخ.

ومعلوم أن هذا المقام لا يبلغه إلا أهل التوحيد الخالص ممَّنْ بلغ مبلغ الرجال.

هذا عن اللازم الأول من لوازم السلوك.

ويلزم أن نتحدث في إيجازٍ عن اللازم الثاني من لوازم السلوك وهو العهد."البيعة".

اللازم الثاني العهد

وهو علاقة بين المرشد والمسترشد "الشيخ والمريد"، تقوم على بيعة ينشأ عنها التزام بقربات ومراسم وشعائر، بغية الوصول بهذا المسترشد إلى تحقيق العبودية لله تبارك وتعالى وكمال الخُلُق الكريم.

مشروعية العهد:

يثور عند بعض الباحثين سؤالٌ حول مشروعيَّة العهد الذي تقوم عليه العلاقة بين الشيخ والمريد، لاسيَّما وهو عُرفٌ مستقرٌّ عند كافة أهل الطريق. أهو أمرٌ مِن أمور الدين والقوم فيه على اتِّباع ؟! أم هو عُرفٌ صالح أخذ به هؤلاء المرشدون استنادًا على أمر القرآن بذلك قال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾[1] أم هو اجتهادٌ ناتج عن نظر استصلاحي يقود إلى مصلحة راجحة منضبطة ؟. وكل ذلك سائغ مقبول في شريعة الإسلام.

أم أنَّ هذا العهد معارض لشريعة الإسلام وليس من أمرها في شيء فَيُرَدُّ على صاحبه باعتباره بدعة ضلالة وشرعًا في الدين لم يأذن به الله ؟!!.

نقول وبالله التوفيق والحول والقوة:

البيعة وما ينتج منها مِن عهدٍ ينشأ عنه التزام المسترشد بمقتضيات العهد أمرٌ من أمور الدين ما في ذلك ريب. وقد ثبتتْ مشروعيَّة هذا العهد بالكتاب والسنَّة والإجماع، وهي مصادر التشريع الأصليَّة ومراجع الاحتكام العليا، ولاسيَّما وبيعة الشيخ للمسترشد عهدٌ على سلوكِ طريق

---

[1] / الأعراف:١٩٩.

المصطفى ﷺ، وهو طريق الرُّجعَى إلى الله تبارك وتعالى في مضمار الصراط المستقيم، بما يتضمَّن هذا الطريق من شرائع وشعارات وقربات ومراسم تُعَدُّ في الصميم من نوافل الخيرات، تصل بصاحبها إلى مقام "الإحسان الشهودي"، بما يضم في مدارجه من حقائق العلوم وجواهر العرفان، مما يعتبر مقصدًا ساميًا شريفًا عند الربَّانيين من العلماء.

والقوم وهم يجاهدون في الله بالسير في هذا الطريق يستبشرون بنعمةٍ من الله وفضلٍ جاءتْ السنة النبوية صحيحة وصريحة في التبشير به كما سيَرِدُ قريبًا.

إلى جانب ذلك فإنَّ مِن مقاصد البيعة تزكية المسترشد من رين الاكتساب الآثم، وتخليته من خصال الجهالة وهوى النفس الأمارة بالسوء، ثم تحليته بتوفيق الله بالأخلاق النورانية والآداب الربانية، سُمُوًّا به إلى مدارج الإنسانية الرفيعة، حينما يتحرَّر من كل شيء سوى الله، فيكرمه الله بمقام العبودية الصدق لله عزَّ وجل.

وبيعة الطريق في جملتها بيعةٌ على ترك المنكرات جزمًا، وفعل الخيرات قدر الوسع والطاقة، لأن الله لا يكلِّف نفسًا إلا وسعها.

وقد جاء الهدي النبوي للعاملين في طريق الحق: {اكلفوا من العمل ما تطيقون فإنَّ الله لا يملُّ حتى تملُّوا}. وقوله ﷺ {ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم}[1].

---

[1] / حديث:{ ما نهيتكم عنه فاجتنبوه} : اخرجه مسلم عن أبي هريرة أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول:{ ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم فإنَّما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على انبيائهم}(صحيح مسلم ج٤ ص١٨٣٠ الحديث رقم

فإذا أخذ المسترشد البيعةَ من المرشد تحقيقاً لهذه المقاصد فإنَّ العهد بذلك يلزم أن يكون عهداً مسئولاً، وما نشأ من التزام بمقتضيات هذا العهد يرتقي إلى درجة "الوجوب". ذلك لأن هذا العهد لا يعدو أنْ يكون نذراً بطاعة الله وفِعْل ما يقرِّب إليه، وقد ثبت في الصحيح من حديث الرسول الكريم ﷺ: {من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصِي الله فلا يفعل}[1].

وكلمة "فليطعه" أمر من الشارع الكريم، والأمر في هذا السياق عندنا محمولٌ على حقيقته في الدلالة على الوجوب، لتصير المنذوراتُ من القرباتِ والطاعاتِ من الواجبات والعزائم، بعد أن كانت قبل النذر مندوبات ورُخصًا.

وسوف يرِد القول مفصَّلاً عن العهد في الباب السادس من هذه النظرات بإذن الله وتوفيقه.

١٣٣٧] ورواية البخاري: بلفظ: {دعوني ما تركتكم إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا امرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم}[صحيح البخاري ج: ٦ ص: ٢٦٥٨الحديث رقم ٦٨٥٨].

[1] / حديث: { من نذر أن يطيع الله فليطعه}: قال البخاري: ٦٢٠٢ عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال {من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه } [صحيح البخاري كتاب الأيمان والنذور الحديث رقم ٦٢٠٢] واسنن الترمذي ج: ٤ ص: ١٠٤الحديث رقم ١٥٢٦] [وانظر مسند ابي يعلى ج٤ ص١٢].

لوازم العهد بين الشيخ والمسترشد

ومن لوازم هذا العهد بين الشيخ والمسترشد:

١. الانتماء.

٢. الطاعة.

٣. الالتزام.

الانتماء

الانتماء وأعني بالانتماء: الانتماء الخاص لكيان جماعي يتمثل في الطريقة الصوفية، تأكيداً لمفهوم الجماعة، وتنميةً لمعاني حركة المجموع في واقع الحياة، وما يترتب على ذلك من معاني التَّوادّ والرحمة والتكافل الناتج عن مفهوم هذا الإخاء الخاص، ودوره في إشاعة قيم الخير والجمال في المجتمع، بما تحقّقه جماعة الطريق من بيئة نقيَّة زكية تُظهر صفاءَ الإسلام وسموَّه.

وهذا الانتماء للطريقة انتماءٌ جزئي في إطار الانتماء الكلّي للإسلام، مما يعني أنَّ جزئيات الانتماء للطريقة الصوفية يلزم أن لا تتعارض مع كليات الانتماء الكلّي للإسلام، وهذا معنى إلحاح أئمة الصوفية من العلماء على التمسُّك والتقيُّد التام بالشريعة الإسلامية[1].

---

[1] / باعتبار الشريعة الإسلامية الوعاء الجامع لكلّ مذاهبهم وعلومهم ومشاربهم، فَهُم يدينون بالولاء لها، والخضوع لسلطانها رغم تعدُّدهم. فولاؤهم هذا وخضوعهم لسلطان الشريعة يكون مبعث قوتهم وتوحُّدهم، ولا يضرُّهم من بعد ذلك تعدُّدهم وتنوُّع مذاهبهم.

الطاعة:

وأعني بالطاعة الاستجابة المبصرة الواعية لدواعي العهد ومقتضياته، بما يمثّله ذلك العهد ولوازمه مِنْ شرعةٍ تَحْكُم حركة أبناء الطرق الصوفية، وهي طاعة مقيَّدة بالمعروف حيث كان ومتى كان، فإنْ دُعِيَ المسترشد إلى منكرٍ فلا طاعة عندئذٍ.[1]

الالتزام:

وأعني بالالتزام: التَّمسُّك بقيم الحق والخير والكمال في مدارج شريعة الإسلام.

وهو بهذا المفهوم التزام إيماني ليس بالضرورة أنْ يوجد بوجود الطريقة الصوفية والانتماء إليها، بل يأتي الانتماء للطريقة ليوثِّق معاقد هذا الالتزام وينمِّي الشعور به، حتى يعود سلوكًا في واقع الحياة يكشف عن كمال نهج الإسلام، ويبلور نهج القدوة وعطاء الأسوة من المرشد والمسترشد على السَّواء.

ولا يخفَى أنَّ التزام أيِّ داعٍ بدعوته فكرًا وخُلُقًا وعملاً أمر يختصر خُطَى الإصلاح مما يبدو ظاهرًا من الصلاح، ويحقِّق الغاية حينما يكون الالتزام الجادُّ المبصر خير وسيلة لبلوغ الغاية.

أما أنْ يقول المؤمن ما لا يفعل فهذا مِن دركات المقت الإلهي كما جاء الوعيد بذلك في القرآن الكريم.

---

[1] / ذلك لأنَّ مِن صيغ العهد التي تَرِد في كلمات البيعة نفسها قولُهم: "الطاعة تجمعنا والمعصية تفرِّقنا"

مقتضى العهد

وللعهد مقتضيات على المرشد كما له مقتضيات على المسترشد.

مقتضيات العهد على الشيخ المرشد:

- العلم بخصائص هذا العهد ومقوِّماته ولوازمه ونتائجه.
- الالتزام بأدب الشريعة وأحكامها مع التَّحلّي بجواهر الحقيقة وتجلّياتها حتى يكون قدوة للمسترشد.
- الإرشاد مع المعرفة التامة بمواطن الرُّشد وسُبله.
- نصح المسترشد مع الأمانة في هذا النصح.
- الرفق بالمسترشد مع الحزم.
- مصارحة المسترشد بحقيقة حاله عند المذاكرة ما لم يخش عليه الانقطاع، فإنْ خشي ذلك منه فليتَّلطف.

مقتضيات العهد على المسترشد:

- صدق النية.
- قوة العزيمة، وعلو الهمة، والإقلال من النوم والأكل إلا ما يُقيم الصلب ويجدِّد النشاط.
- الالتزام بأعمال الطريقة في النفس والمجتمع مع التمسُّك التام بأخلاقها حقًا وصدقًا من غير رياءٍ ولا مخيلة.
- الأخذ بالعزائم في القربات وترك التَّرخُّص متى كان ذلك في الإمكان.

- ❖ المحافظة على الأوراد والجد فيها مع الدوام، لأنَّ مَن قطع الورد قُطِعَ عنه الوارد.
- ❖ التَّأدب بأدب الاسترشاد والصحبة مع التواضع وسلامة القلب ونقاء الضمير وعدم رؤية النفس.
- ❖ اتباع الشيخ المرشد في صدقٍ وإخلاصٍ متى كان أمره - طلبًا أو كفًا - في دائرة المشروع والوسع.
- ❖ النظر إلى مشيخة المرشد بعين الكمال حتى يستشعر فيه معنى الاقتداء والتأسِّي والرابطة الروحية.

تعلُّقات العهد

للعهد في المنهج الصوفي تعلُّقات أربعة:

1. عهد العامة.
2. عهد الخاصة .
3. عهد خاصة الخاصة.
4. عهد التصريف.

١. عهد العامة:

ويلزم منه:

- ❖ الاجتهاد في العبادة رغبة في الوعد ورهبة من الوعيد.
- ❖ خدمة الشيخ والأصحاب بمختلف الارتفاقات حِسبةً لله عزَّ وجلَّ مع عدم رؤية النفس واجتناب التبرُّم والملال وإنْ طال الزمن.
- ❖ التأدُّب بآداب الإسلام العامة وتقوى الله حيثما كان المسترشد.

❖ ربط المعاملات في واقع الحياة بحبل الله، حتى تدخل بذلك في العبادة بمفهومها الواسع الذي يعبِّر عن الدين في محيا الإنسان ومماته.

٢. عهد الخاصة من المؤمنين:

ويلزم من هذا العهد:

- إقامة العبودية بالوقوف مع أمر الله جلَّ شأنه، التزامًا بما فرض ووقوفًا عند ما حدَّ وتفكُّراً فيما خلق، وذلك وفاءً بما أخذ الله على بني آدم من العهد بالإقرار بربوبيته حين ألست بربكم؟.

ثم جاء الرسول ﷺ مُذكِّراً بهذا العهد ومبشِّرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، كما أنزل الله تبارك وتعالى القرآن تذكرة وقد يسَّره للذكر فهل من مدَّكر.

والعبادة من كسب الجوارح يؤدِّيها المؤمن إذا كانت من الفرائض، ودافعه إلى الالتزام بها مرضاةُ الله بعمل ما يحب الله.

وهذا عهد لازم لعامة المؤمنين الذين يحبون الله تبارك وتعالى، ثم يأتي الخاصة من المؤمنين فيلتزمون إلى جانب فرائض الحق التي افترضها نوافل وقربات، ترتقي بمَن أخذوا من عهدٍ وبيعةٍ على أدائها إلى مصاف العزائم، لأنها لنُذُرًا بعملٍ صالح من المريد.

والنُّذور في الطاعات فرائض يلزم أداؤها في وقتها، فإنْ فات وقتها بعذر مقبول قُضيتْ.

والتزامُ نوافل القربات يسمو بالعابد الذي أحبَّ الله تبارك وتعالى فنشطتْ في مراده الأجسام، إلى مقام محبة الله لهذا العابد الذي ارتقتْ محبته لله وعبادته إيَّاه إلى مقام أنْ يحبه الله، فتتحقَّق لهذا المؤمن من الخاصة درجة "العبودية".

وإذا كانت العبادة من كسب الجوارح، فإنَّ العبودية مِن كسب القلوب لأنها درجة في مقام المحبة وأداة الشعور بالحب هي القلب.

فإذا استشعر قلبُ المؤمن الصادق في سيره محبَّته لله، ثم ارتقَى في مدارج القرب الإلهي بمعارج نوافل القربات حتى استشعر حب الله إيَّاه!! فإنَّ ذلك أمر مُلزِم بتحقيق العبودية بالوقوف مع أمر الله تبارك وتعالى.

إذ أنَّ من مقتضَى العبودية التزام العبد أمرَ سيده طلبًا ونهيًا، وتختص العبودية لله بعمق باطني وهو تمام المحبة وكمال الرضا.

ذلك لأنَّ استعباد الإنسان للإنسان يتمثل في الخضوع والاستكانة ظاهراً مع تمام البغض والإحساس بالغبن والإكراه باطنًا، ذلك لأنَّ مَنْ تعبَّد أحدًا مِن البشر لا يملك مِن باطنه شيئًا، لأنَّ قلب الإنسان لا يُستعبَد كُرْهًا ولا يُسترَقُّ غلبةً.

فالحرية قيمة أخلاقية فُطِرَ الإنسان عليها، ولذلك صارتْ عبودية القلب مُختصَّة بالله تبارك وتعالى.

فمَنْ رغِب أو رَهِبَ أو خاف ورجا غيره تبارك وتعالى، فليراجع قلبه مِن قريب، لأن خوف العبد ورجاءه أحدًا دون الله تبارك وتعالى يقدح في صدق العبودية.

ولهذا قلنا إنَّ مقتضى العبودية الوقوف بصدقٍ مع أمر الله تبارك وتعالى وفقًا لمقتضَى توحيد الله تبارك وتعالى.

وأمر الله الذي يلزم خاصة المؤمنين الوقوف معه لتحقيق العبودية ثلاثة أنواع:

الأول أمر تكوين:

وقد نشأ عن هذا الأمر الإلهي لكتاب الكون المنشور]- قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾[1] وقد حمل هذا الكون في طواياه رسائل من الخالق للخلق، يستقرؤها العقل ويسبر أغوارها ويَستَسِرُّ دواخلها تفكُّراً وتدبُّراً وتعقُّلاً، لعل الإنسان يتذكَّر أو يخشى بعد العقل والفقه:

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملأ الأعلى إليك رسائل

رسائل يقرؤها المؤمن باسم الله الذي علَّم الإنسان ما لم يعلم، ليكون حظ هذا المؤمن الموحِّد من أمر الله التكويني في الوجود التدبُّر والتفكُّر والعظة والاعتبار، فالتعقل فالفقه عن الله، فالعلم فالتَّرقي في مدارج هذا العلم، حتى يصل إلى درجة اليقين فيما يعلم من قوانين الأحياء و الأشياء، وآثار هذه القوانين في الكون إبداعًا واختراعًا لما يفيد الحياة والأحياء، ويعمر الأرض بما يحقِّق للإنسان في هذه الأرض المصالح المشروعة ويدرأ عنه المفاسد، مع التسليم التام والإيمان الصادق بأمر الله ونتائجه في الحياة.

وكل ذلك من وظائف الاستخلاف في الأرض وواجباته، وهو أمرٌ ذكَّر الله تبارك وتعالى به في القرآن الكريم كثيراً، ولكن الكثير من خالفة

---

[1] / يس:٨٢ .

المسلمين قد نسوا حظًا مما ذُكّروا به، ولم يأخذوا ما آتاهم الله من الكتاب في هذا الشأن بقوة.

الثاني أمر تكليف:

ويأتي الأمر التَّكليفي من الله ورسوله ﷺ على نوعين:

أمرُ طلب (وجوب وندب).

أمرُ كَفٍّ (تحريم وكراهة).

وما سكت عنه الشارع رحمة بالناس من غير نسيان فهو على أصله من الإباحة.

فالأحكام التكليفية الشرعية تدور على هذه الدرجات الخمس، على اختلافٍ بين علماء أصول الفقه في "الإباحة" أهي حُكمٌ أم براءةٌ أصلية؟. وهو اختلاف ناشئ عن رؤيتهم لأصل الارتفاق في الحياة، فمَن رأى أنَّ الأصل في الأشياء الإباحة حتى يَرِدَ أمر حاظر من الشرع، جعل الإباحة على أصلها من البراءة. ومَن رأى أنَّ الأصل في الأشياء الحظر حتى يَرِد مِن الشريعة ما يبيح هذا المحظور، جعل الإباحة حكمًا.

وقولُ مَنْ قال: الإباحة ليست حُكمًا وإنَّما هي على البراءة الأصلية أعجب إليَّ.

وواجب المؤمن الصادق في عهده أنْ يتحقّق الأمر التَّكليفي علمًا ويحقّقه في حياته عملاً، ثم يزداد تقرُّبًا من الله بزوائد الأمر الإلهي نافلةً له عسَى أنْ يُكرَم هذا المؤمن الصادق بالوقوف مع أمر الله في مقام الإحسان الشهودي.

ولا يتأتَّى للمؤمن أنْ يسمو إلى ذلك المقام حتى تفنَى إرادته في إرادة الله، مع سلامة قلبٍ وزكاء روح. يُشكِّل المؤمن في مقامه ذاك وُحدةً شعورية أسلمتْ فيها ملكات التَّكوين الإنساني أمرها جميعًا ما ظهر منه وما بطن لله رب العالمين، ليتحقَّق لهذا المؤمن إسلام قلبه ووجهه لله عزَّ وجلَّ، لأنَّ الإسلام بهذا الاعتبار وفي ذيَّاك المقام هو المظهر الجليُّ الشاخص لعبودية الإنسان للرحمن التي تشكِّل المقصد الأساسي لخلق الإنسان. ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1].

كما أنها تمثل الغاية من الالتزام بالأمر التَّكليفي الذي جاءتْ به شريعة الإسلام في خطابها الشامل.

الثالث أمر تشريف:

وهو أمر الحقِ تبارك وتعالى في عالم الملكوت بتكريم المحسنين من أهل الإيمان.

وليس لمَن لم يُقِم أمرَ التكليف حظٌّ في أمر التشريف هذا، لأنَّ التشريف تكريم ولا يُكرم إلا العاملون بهمة وصدق وخلوص نية وتجرُّد مع علمٍ وبصر.

---

[1]/ الذاريات ٥٦.

ومظهر الكرامة عند الله تبارك وتعالى هي "التقوى". ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[1]

{...لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى}[2]. وللتقوى في مقام الإحسان لباسٌ "كسوة شرف"، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾[3]

ولباس التقوى هذا له مظهر موضوعي يتجلّى في كمال الأخلاق التي ظهرتْ في مظهرها الأتم الكامل سيدنا محمد ﷺ.

---

[1] / الحجرات:١٣.

[2] / حديث: { لا فضل لعربي على أعجمي}: قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل حدثنا سعيد الجريري عن أبي نضرة حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال {يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى أبلغت} قالوا بلغ رسول الله ﷺثم قال {أي يوم هذا} قالوا يوم حرام ثم قال {أي شهر هذا} قالوا شهر حرام قال ثم قال {أي بلد هذا} قالوا بلد حرام قال {فإن الله قد حرم بينكم دماءكم وأموالكم قال ولا أدري قال أو أعراضكم أم لا كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا أبلغت} قالوا بلغ رسول الله ﷺ قال ليبلغ الشاهد الغائب} [مسند أحمد ج: ٥ ص: ٤١١ الحديث رقم ٢٣٥٣٦] وانظر المعجم الأوسط للطبراني ج٥ ص٨٦.

[3] / الأعراف:٢٦.

وبمقدار تحلّي المؤمن السالك لطريق العرفان بأخلاق حضرة النبوة يكن حظه من لباس التقوى، فأحاسن الناس أخلاقاً الموطّؤون أكنافاً، هم أسعد وأحظى الناس بلباس الشرف وأحقُّهم بالوقوف مع أمر الله التَّشريفي، لأنهم تخلّقوا بأخلاق الرسول الكريم سيدنا محمد صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، فكانوا بذلك على صراطٍ مستقيم في مَنْ أنعم الله عليهم بإقامة العبودية في مقام الإحسان الشهودي.

ومواصلةً للحديث عن تعلُّقات العهد الأربعة في المنهج الصوفي، نأتي للحديث عن:

٣. عهد خاصة الخاصة- "عهد التمكين"

ومقتضى هذا العهد:

- صَون القلب عن الاتساع لغير المحبوب.
- والتجرُّد عن الأكوان، بحيث لا يخطر في قلب صاحب هذا العهد خاطر سوى الحق.
- مع التبرِّي من الحول والقوة البشرية قيامًا **بالله** "استعانةً" **ولله** "تعبُّداً ورِقًّا" **وفي الله** "غاية ومقصداً".
- مع عدم الغفلة عن مقتضيات التديُّن وفقاً لأوامر الحق فيما ظهر وما بطن من مناطات التَّكليف الإلهي.

وهذا العهدُ تُشكِّلُ محبةُ العبدِ لله ـ محبةً صادقةً متجرِّدةً عن الأعواض ـ بدايةُ مدارجه، أما نهاية مدارج هذا العهد فتتمثل في محبة الله لعبده المُحِبِّ،

ليغدو صاحبُ هذا العهد محبوبًا في حضيرة القدس الأعلى، فيُبسَط له بساط الأُنس والمناجاة في مقام الولاية الخاصة.

وهنا يجب على صاحب هذا العهد الوفاء بلوازم المحبة مع الالتزام بشروط أدب العبودية، لأنَّ المحبةَ كثيراً ما تخفي شروط الأدب خصوصًا عند السُّكْرى بخمر الحب القديم وهي:

هــذي لعمــري خمــرة قدســية   لا خمــرة قــد داسـها الفـلاح[1]

وحالُ صاحب هذا العهد - الذي وفّقه الله فجمع بين محبة الله إيَّاه وإجلاسه في بساط الأُنس والمناجاة وبين الالتزام بأدب العبودية كما جاء به الأمر التَّكليفي دون أن يغيب في جلال التَّكوين عن التَّكليف- هو [التمكين]!!.

فإنْ غلبه الوجد بالوجود في حضرة التَّقريب والأُنس، فغاب عن مقتضَى العبودية ولوازم الأمر التَّكليفي، فإنه يعود من أهل "التَّلوين" حالاً، لغيابه واستغراقه في شئون الحق التي يبديها له، فيفنى الشاهد في المشهود، وأهل الفناء لا يصلحون للإرشاد، لأن الإرشاد منصب صحو وتمكين لا سُكْرٍ وتلوين.

٤.عهد التصريف "عهد التكوين"

وهو عهد يأخذه الحقُّ على مَن حقّق صلاحيَّة الاستخلاف في الأرض، لا بمعنى التَّمكُّن مِن السلطة الزمنيَّة فحسب، وإنما بمعنى السُّمو إلى

---

[1] / البيت من تشطير قصيدة الشيخ يحيى السُّهروردي [أبداً تحن إليكم الأرواح] للأستاذ الشيخ عبد المحمود الشيخ نور الدايم. انظر[شرب الكأس ج ١ ص٥٠- ٥١].

مقـام الإذن بالتَّـصرُّف في الوجـود باسـم الله تبـارك وتعـالى، وهـو مـا يُعـرَف عنـدنا في التـصوف باسـم الإسـناد المجـازي التَّـكويني في مجـال الأقوال والأفعال على السواء.

ومِن مظاهـر عهد التّصريف ما هـو مشهور عنـد النـاس بـ"**المعجـزات**" في مقام الرسالة والنبوة، وبـ"**الكرامات**" في مقام الولاية الخاصة.

ومن أهـم شروط عهد التَّصريف بالنسبة للأولياء:

- ❖ الاستقامة على الأمر التَّكليفي.
- ❖ الصِّدق بكل منسوباته ولاسيَّما صدق العبودية.
- ❖ الأمانـة ولاسـيَّما أمانـة سِـرِّ التكـوين لأنـه أدخـل في صـفات الربوبية.

ولهـذا كـان مـن اللـوازم الأسـاسية في عهـد التـصريف عـدم الـذهول أو الغيبـة عـن أحكـام الـشريعة الإسـلامية: [شـرائع وشـعائر وآداب] حتـى يستـشعر صـاحب عهـد التـصريف أنـه في مقـام العجـز التـام والفقـر المطلق، محـاطٌ بمقتـضيات العبوديـة مـع ربَّانيتـه الـتي أكرمـه الله بهـا فتحقَّقـتْ خلافتـه في الوجـود، فوهبـه الحـق بإذنـه مـن صـلاحيات الأمـر التكويني ما يخرق عـادة العقـل في الإدراك والعمـل و نـاموسَ الحيـاة في قانونها السَّببي.

مظاهر عهد التصريف في شريعة الإسلام

وربما تساءل البعض ولاسيَّما العقلانيون عن أصل ومرجعيَّة هذا العهد في شريعة الإسلام؟!

فنقول وردتْ مظاهرُ عهد التَّصريف في شريعة الإسلام على ثلاث مراتب:

١. مرتبة الملائكة.

٢. مرتبة الرُّسل.

٣. مرتبة الأولياء والصالحين.

عهد التصريف في مرتبة الملائكة:

يقول الله تبارك وتعالى في محكم تنزيله:

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ ﴾[1].

[1]/ مريم ١٦ - ٢٢.

ويقول تبارك وتعالى: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾[1]

تقرِّر الآيتان من سورة الشورى أنَّ الله وحده هو الذي يهب الولد ذَكَراً كان هذا الولد أو أُنثى فردًا أو زوجًا، وهو وحده الذي يجعل مَن يشاء عقيمًا، وهذا مما لا ريب فيه ولا جدال، ولكننا نرى في سورة مريم جبريل "روح القدس" يقول للسيدة مريم وقد تمثَّل لها بشراً تام الخلق والتكوين، وهي في عُزلةٍ مع الله تبارك وتعالى، فحسبته بادئ الأمر ممَّن دفعه سلطانُ الشهوة للفجور بها فاستعاذت بالرحمن منه، مُذكِّرة هذا البشر بعظمة الرحمن وعِزَّته واطِّلاعه على كلِّ خافية، منبِّهةً مشاعر الورع إنْ كان في قلب هذا البشر السَّوِيِّ شيءٌ من التُّقَى، أو كان أوَّابًا حفيظًا يخشى الرحمن بالغيب. فكان ردُّه على فزعها منه وعياذها بالرحمن أنْ قال لها: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾[2]. وجبريل عليه السلام مخلوقٌ لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، وهو في هذا الموقف لا يعدو أنْ يكون مرسلاً من الله تبارك وتعالى، ولا تملك المخلوقات مهما سَمتْ مكانتُها عند الله أنْ تسند أمر التكوين لنفسها، ولاسيَّما فيما يتعلَّق بالولد، ولكن القرآن الكريم جاء على لسان جبريل وهو يسند هبة هذا

[1] / الشورى:٤٩- ٥٠ .

[2] / مريم:١٩.

الغلام لنفسه ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾ ولسانُ الحقيقة يُلزِم هذا الرسول أنْ يقول للمُرسَلِ إليه مُتحدِّثًا بلسان المُرسِل "ليهب لكِ غلامًا زكيًّا"، ولكن الخطاب القرآني يعدل عن الحقيقة إلى المجاز، فيسند ما ليس من فعل "مخلوق" لجبريل عليه السلام، مما يشير إلى أنَّ الله تبارك وتعالى قد عهد إليه بالتَّصريف، فكان ما فعل بأمر الله تبارك وتعالى، وبذلك يقوم برهاننا على مشروعيَّة عهد التصريف لذوي الأرواح الزكيَّة الموصولة بربها.

ولا يقف الأمر عند جبريل عليه السلام، ولا يقتصر على جنس الملائكة، فإنَّ لعهد التصريف مرتبة ثانية هي:

عهد التَّصريف في مرتبة الرسل:

وفي مرتبة الرسل "عليهم الصلاة والسلام" يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾[1]

سأل سيدنا إبراهيم عليه السلام اللهَ أنْ يريه كيف يحيى الموتى؟ بعد أنْ رأى كيف تتقسَّم أجزاء الميِّت من الدواب فتغدو أشلاءً في بطون كواسر الحيوان وجوارح الطير، ولم يكن طلب إبراهيم عليه السلام أن يريه الله

---

[1]/ البقرة: "٢٦٠".

كيفية إحياء الموتى عن شك في قدرة الله تبارك وتعالى، وإنما جاء الطلب ليحقّقَ اطمئنان القلب[1] وسكون الفؤاد، كما أنَّ طلب سيدنا إبراهيم لم يقف عند مطلق رؤية إحياء الميت، لأنَّ إحياء الميِّت مما استقرَّ به فؤاد إبراهيم واطمأن به قلبه.

ويأتي بعد ذلك بزمان عزير[2]، فيقصُّ الحقُّ تبارك وتعالى خبرَه فيقول عزَّ وجلَّ: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ

---

[1] / جاء الطلب ليحقّق اطمئنان القلب وسكون الفؤاد لخليل الله ورسوله وداعية الحق إليه، وهو يواجه الطغاة والجبابرة المتألّهين في الأرض، الذين ادَّعوا الربوبية، وصرفوا جهلاً أو تجاهلاً معنى القدرة على الإحياء والإماتة وكيفيّتها عن حقيقته، كما حدث ذلك من الطاغية نمروذ في قصته مع سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ فقال نمروذ: ﴿ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾ ... فأحضر اثنين ممن حكم عليهم بحكم الإعدام فنفّذ حُكم الإعدام على أحدهما وترك عن الآخر، زاعمًا أنه بذلك يُحيي ويميت!! إلى آخر القصة. فكان فيما بعد أنْ طلبَ سيدُنا إبراهيم الخليل عليه السلام من ربه لهذا النوع من عهد التصريف ليدحض به الباطل، ويُعليَ كلمةَ الحقِّ باستخدام هذا النوع من عهد التَّصريف إذا استدعَى الأمر ذلك.

فالطمأنينةُ وجهُها قضيةُ الخصم والخصومة من أجل إعلاء كلمة الله، وليست قضية الشك واليقين في أمر قدرة الله في الإماتة والإحياء ليكون المعنى نفي اليقين بالبعث بعد الموت إلا بعد رؤية الكيفية!! فهذا لا يليق بعامة المسلمين - الذين استقرَّتْ واطمأنت أفئدة كثيرٍ منهم بمسألة قدرة الله في إحياء الموتى- فضلاً عن نبي الله وخليله عليه الصلاة والسلام.

(نقلاً _ مع شيءٍ من التَّصرف- من كتاب "الجواهر الحسان في معاني القرآن" للدكتور محمد علي بيان. ج١ ص٢٣٢ ـ٢٣٣) تحت الطبع.

[2] / لا يتوهَّمْ متوهِّمٌ ولا يظنُّ ظانٌّ أنَّ مثلَ سيدنا عزير- وهو من أنبياء أو صالحي بني إسرائيل- من رقة الإيمان وضعف اليقين بحيث يجهل صلاحية قدرة الله على إعادة مثل تلك

هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾[1]

والإنسان الذي يمرُّ على قريةٍ بادَ أهلُها وهلكوا حتى لم يعد فيها مَن يُصلِح من شأنها أو يقيم فيها عرشًا، يستبعد عقلُه أنْ تدبَّ الحياة في أجساد هؤلاء الهلكَى الذين كانت قريتهم مليئة بالحياة والحيوية، فأخنَى عليها الدهر فماتوا جميعًا منذ أمدٍ بعيد، خوتْ فيه مساكنُهم على عروشها.

وكلمة أنَّى لفظٌ يعبِّر عن بُعْد وقوع الحدث واستحالته، فأراد الحق تبارك وتعالى أنْ يجعل هذا الإنسان يعيش تجربة الموت والحياة، لينتقل العلم بالموت والحياة من الموضوع إلى الذات.

القرية وإحياء أهلها وإعادتهم إلى ما كانوا عليه. ولكنَّ الأنبياء والصالحين من الدُّعاة إلى الله يجعلهم الله دائمًا محلَّ خطاب، وما هم إلا وسائل إيضاح لتقريب بعض حقائق الإيقان لقوم حجبهم عطاء العقل بما هو معقول، عن حقائق الإيجاد فيما لا يستقل العقل بإدراكه، حيث اختار الحقُّ عزَّ وجلَّ هؤلاء الدُّعاة إليه وإلى طريق الحق، اختارهم مجالي لإظهار قدرته، ومظاهر لآثار شؤونه التي يُبديها، حتى يستيقن الذين أوتوا العلم ويزداد الذين آمنوا إيمانًا. كما بيَّن ذلك المؤلِّف - سيدي الشيخ عبد المحمود الحفيان ﷺ.- في موضع آخر من هذه الموسوعة.

[1]/ البقرة:٢٥٩.

وكل علمٍ تعلّق بالذات عن تجربة ذاتية لابد أن يكون يقينيًّا "وليس راءٍ كمَنْ سمع" ﴿ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾ على ما كان عليه من هيئة لم يتغيَّر منه شيء، بدليل أنه ظن أنه لبث يومًا أو بعض يوم، وقد أيَّد ظنه هذا أن طعامه لم يتعفّن ولم تؤثر فيه ظروف المناخ، إلا أنَّ حمار هذا الإنسان يقف برهانًا قويًّا ودليلاً صادقًا على أنه قد مات فعلاً، بل وظل ميتًا مائة عام، بدل اعتقاده وظنه أنه ظلَّ نائمًا يومًا أو بعض يوم، وقد غدا حماره وسيلة إيضاحٍ عملية للإجابة على سؤاله ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾[1] حيث أجرَى الله الباعث الشهيد عمليَّة إحياء أمام ناظريْ هذا المتسائل، يوجِّهه إلى مواطن القدرة الإلهية في طلاقتها وسيطرتها على قوانين الأحياء والأشياء، بحيث تُبقِي على الإنسان وطعامه وشرابه قوانينُ التكوين تفعل فعلها مع قطع أسباب الحياة ظاهراً، إلا أنَّ قدرة الله تبارك وتعالى في طلاقتها تعطّل قوانين التّكون في جانب الحمار لتنطلق قوانينُ الفساد، ومِن ثَمَّ تظهر آثار التَّحلُّل والبِلَى والفناء.

وهكذا تتقابل صورة الحياة والموت، والحياة بعد الموت في مشهدٍ واحد يراه ويتابع مشاهده هذا المتسائل، خطوة خطوة في دهشةٍ وتعجُّبٍ أعقبه علمٌ يقيني بأنَّ الله على كل شيء قدير، بعد أنْ كان يستبعد إحياء الموتى.

وسيدنا إبراهيم عليه السلام لم يكن يستبعد إحياء الله الموتى، ولكنه أراد أنْ يقيم الحجة ويزداد يقينًا بمعرفة "كيفية إحياء الموتى" حتى يطمئن قلبه. وليس برهانًا أكثر إقناعًا عمن يسأل عن الكيف في أمر

---

[1] / البقرة ٢٥٩.

تجريبي مِن أنْ تجعل هذا السائل عن الكيفية جزءً من التجربة، حتى ينتقل ما كان موضوعيًا من المصاديق إلى مرتبة الذاتي، لأنَّ التجربة الذاتية هي أقصر الطرق إلى المعرفة واليقين، مثال ذلك أنْ تقول لمن لم يذق عسلاً في حياته العسل حلوٌ فإنْ تساءل عن صدق قولك، فما عليك إلا أنْ تذيقه ملعقة من هذا العسل ليستيقن حلاوته بدلاً مِن أنْ تنفق زمنًا طويلاً في إقناعه موضوعيًّا بأنَّ العسل حلو بمجرد الكلام.

وهكذا فعل الحق تبارك وتعالى مع سيدنا إبراهيم عليه السلام حين سأل عن "كيفية إحياء الموتى"، إذ لم يدخل معه الحق تبارك وتعالى في تفاصيل النشأة والتكوين والتَّخليق والجمع، وإنما أقام التجربة أمام ناظريه وبمشاركةٍ منه عليه الصلاة والسلام.

﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ وعلماء التفسير متفقون بأن سيدنا إبراهيم قد أُمر بذبح هذه الطيور وتقطيعها وتقسيم أجزائها على عدة أماكن متباعدة "رؤوس الجبال"، وفي هذا الصنيع مزيد استحالة عقلية في إحياء مَنْ آل مصيره إلى هذا المآل؛ ومع كل ذلك يقول الحق لسيدنا إبراهيم ﴿ ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ ﴾ !.

وشاهدُنا في الدليل على عهد التصريف قول الله تبارك ﴿ ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ ﴾، والدعوة أمر بالمجيئ، وسيدنا إبراهيم لا يدعو عاقلاً ليأتي، ولا حيًّا فيستجيب كما يقضي بذلك العقل، وإنما يأمر بالإتيان حيوانًا ميتًا اختلطتْ

أجزاء بعضه ببعض ﴿ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ مع تقسيمها ووضعها متباعدة عن بعض، ومع كل هذا الإمعان في جعل الأمر وكأنه يبدو مستحيلاً، يأتي أمر إبراهيم لهذه الأشلاء الممزعة الموزعة بعد موتها بالإتيان، فتجتمع الأوصال المقطّعة بعد تفرُّق، فيتشكّل الطيرُ كما كان، فتدب الحياة فيه كما كان، وتأتي الطيور مستجيبة لأمر إبراهيم عليه السلام وهي تسعى. وتقييد حالها بالسعي ومن شأن الطيور الطيران، أنها لو جاءت وهي طائرة ربما اختلطتْ بغيرها من الطيور وربما حسبها مَن يراها طيوراً لا علاقة لها بالتجربة.

لا يخفى أنَّ سنن الكون وقانون العقل قد تعطّلا تمامًا، لأنَّ عزة الله لا يُعجزها فعلٌ، وحكمته من وراء الأفعال بالغة لا تدركها العقول، وهو مِن قبلُ ومِن بعدُ الفعَّال لما يريد.

ولكن ما يلزم استيعابه في هذا الحدث هو عهد سيدنا إبراهيم بالتَّصرُّف فيما لا يقدر عليه إلا الله تبارك وتعالى، مما يقف برهانًا ساطعًا على أنَّ الأمر بحياة هذه الطيور بعد موتها وتفرُّق أشلائها، ومجيئها إلى سيدنا إبراهيم وهي تسعَى قد جاء حقيقةً من الله تبارك وتعالى، ولكنه أُسنِدَ مجازاً لسيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿ ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ ﴾ ، وهذا ما قصدناه من مفهوم "عهد التصريف" الذي لا يكون إلا بإذن الله تبارك وتعالى. وكاذبٌ مَنْ ينسبه للإنسان استقلالاً.

وتتعدَّد نماذجُ مَنْ عهِد إليه الله تبارك وتعالى "بالتَّصريف" في دائرة النبوة، فهؤلاء ساداتنا: موسى عليه السلام يضرب بعصاه الحجر فانفجرتْ منه اثنتا

عشرة عينًا، بعدد نقباء بني إسرائيل، ويضرب بذات العصا البحر الأحمر، فينكشف البحر فَرْقَين عن اليابسة كل فَرقٍ كالطود العظيم.

وهذا سيدنا عيسى عليه السلام يُعجز أهلَ الاختصاص من الأطباء بإحياء الموتى ونفخ الروح فيما يصنع من الطين من طير، فيعود الجماد- الطير المصنوع من الطين- طيراً حقيقيًا حيًا بإذن الله.

ثم جاء سيدنا خاتم الأنبياء والمرسلين محمد رسول الله ﷺ، فعُهِد إليه من التَّصريف في الوجود المشاهَد في السماء والأرض ما هو متكاثر، وقد جاءت مؤلَّفات دلائل النبوة وأعلامها تضم في صفحاتها العديد من نماذج هذا العهد، فيما هو معروف بمعجزاته ﷺ وكتاب دلائل النبوة للإمام البيهقي حافل بنماذج عهد التصريف للرسول ﷺ.

عهد التصريف في مرتبة الأولياء والصالحين

مِنْ مراتب عهد التَّصريف مرتبة الأولياء الصالحين من المؤمنين برسالة الإسلام، و "الكرامات" في هذه المرتبة هي الأثر الواقعي المعيش لعهد التصريف. وقد تنوَّعت الكرامات وتعدَّدت في مضمار الولاية.

والكرامة باتفاق هي [أمر خارق للعادة ويقصد بالعادة عادة العقل في الإدراك والتَّعقل وسنن الكون وقوانينه الراتبة، يجري الله هذه الكرامة - وهو المتصرف الحقيقي في الوجود- على يدي عبد صالح من المؤمنين].

وكلمة "على يدي عبد صالح من المؤمنين" تشير إلى أنَّ جريان التصريف بما يخرق قانون السببية والمسلَّمات العقلية على يدي عبد مؤمن لمصلحة راجحة، ما هو إلا إسنادٌ فعليٌّ مجازيٌّ وقع في عالم الشهادة بإذن من الله وتمكين، لا

بحولٍ من العبد الصالح وقوة، لأن المؤمنين خاصتُهم وعامتهم على علمٍ تام بأنه {لا حول ولا قوة إلا بالله}.

وعلى ثبات المظاهر الموضوعية لعهد التصريف في الكون يجرى على يدي الأنبياء والصالحين بما يخرق قانون الكون وما يعطّل المدارك العقلية ويخرق ناموس العقل في التفكر وعادته في درك الأشياء، إلا أنَّ ذلك لا يعني ولا يدل على أنَّ قدرات هؤلاء الصالحين قد تجاوزتْ قانون السببية، وأنَّ مقاليد الكون ونواميسه قد أصبحتْ بأيدي هؤلاء النفر من الناس، كما يفهم بعض الناس ممّن تجري بهم الأهواء في ميادين التّعصب المذهبي.

بل الحق الثابت أنَّ الله تبارك وتعالى هو الذي أذن فأجرَى هذه الخوارق في الكون بهم، وما هم إلا وسائل إيضاح لتقريب بعض حقائق الإيقان لقوم حجبهم عطاء العقل بما هو معقول، عن حقائق الإيجاد فيما لا يستقل العقل بإدراكه.

وحقائق الإيقان من الدين وهي مما يُكشف لعين الفؤاد، وليستْ مما يُكتشف بقانون العقل.

وحقيقة اليقين وحقه من الدين لا يشك في ذلك إنسان يحمل بين جنبيه عقلاً، ولا يخفَى أنَّ الوسائل المشروعة التي تصل بصاحبها إلى هذا اليقين من الدين أيضًا.

والصالحون لا يخرقون العوائد والنواميس بقدرتهم وإنما بقدرة الله فيهم: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ

﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[1] ولا يصنعون الخوارق الباهرة بحولهم وقوتهم وإنما بإذن الله وحوله وقوته. فإذا كان الصالحون يتصرفون في الكون بقدرة الله ويخرقون الناموس الكوني بإذنه، فإنَّ الاعتراف بذلك والإيمان به يدخل في صميم الدين.

فإذا اعترف الناس للصالحين بهذه الخوارق، فإنما يعترفون بإكرام الله إيَّاهم حينما اختارهم مجالي لإظهار قدرته، ومظاهر لآثار شؤونه التي يُبديها، حتى يستيقن الذين أوتوا العلم ويزداد الذين آمنوا إيمانًا.

وقد تجد المعتزلة ومَنْ سار على نهجهم العقلي ينكرون خوارق العادات، لا لشيء إلا لأنَّ العقل لا يستقلُّ بدركها، وكل ما لا يتقبَّله العقل عند المعتزلة إما أنْ يتم تأويله إنْ كان مما يقبل التأويل، أو يُرفَض ويسفَّه عقلُ مَنْ آمن به من الناس.

ومنهج المعتزلة في الاعتداد بالعقل واعتباره معياراً للحُسن والقُبح، والصلاح والفساد، والخطأ والصواب، منهجٌ منحرفٌ عن جادَّة المنهجية الإسلامية، التي جاءتْ بمراتب متعدِّدة للإدراك، وخصَّتْ كلَّ مرتبة بأداةٍ للإدراك فيها، فجعلتْ العقل باعتبار علاقة القلب بالكون أداة للإدراك في مرتبة معيَّنة من مراتب الوجود، وهي مرتبة الوجود الزماني الذي يحكمه ناموس الكون العام.

---

[1] / الأنفال:١٧.

والمعجزات وخوارق العادات ليستْ مِن عالم الخلق فيدركها العقل، وإنما هي من عالم الأمر الذي لا يستقل بدرك شئونه العقل!! وقد تكلمنا في شيء من ذلك فيما مضَى من هذه النظرات.

هذا عن العهد بأنواعه الأربعة ومقتضَى كلّ نوعٍ من العلم والعمل والأدب.

وأحسب أنها عهودٌ مسلَّمةٌ إلا عهد التَّصريف فإنَّ للعقلانيين قديمًا وحديثًا فيه مقالاً.

بيد أنَّ النقل حُجَّةٌ عليهم فإذا ارتقَى العقلُ فيهم إلى مدارك معرفيَّة أسمَى، وسبَرَ في المنقول أعماقًا معرفيَّة أشمل مما يعطيه الظاهر، فإنَّه حَرِيٌّ بالصَّادق المتجرِّد لمعرفة الحق أنْ يصل إلى توافقِ العقل المنوَّر مع الوحي المنزَّل.

أما مَنْ ظلَّ محجوبًا بالمظاهر عن الظاهر مِنْ ورائها، مع اعتقادٍ جازم بأنه من العلماء، فإنَّه يظل عالمًا بظاهرٍ من الحياة الدنيا!!.

وما نعيشه ونقول به ونُبيِّن للناس ما كان خفيًّا منه، هو مِن علوم الآخرة التي غالبًا ما يغفل عنها علماء الدنيا بسببٍ مِنْ حُبِّ العاجلة والسَّعي لها.

أوردنا فيما سبق العهد الذي يربط بين المرشد والمسترشد في سلوك طريق الرجعى إلى الله تبارك وتعالى، وقد أوجزنا القول في مشروعيَّة هذا العهد وماهيَّته ومراتبه، باعتبار أنَّ العهد لازمٌ أساسيٌّ مِن لوازم السلوك الذي أوردناه كأحدِ مكوِّنات المنهج الصوفي، الذي نؤصِّل لمصادره في هذا الفصل.

ثم يأتي الحديث عن اللازم الثالث من لوازم السلوك وهو:

اللازم الثالث الوفاء بالعهد

الوفاء بالعهد خُلُقٌ كريم وخصلة حميدة من خصائل الخير، تتحلّى بها النفوس العالية والقلوب الكبيرة من ذوي الشرف والمحتد الكريم.

وقد جاءتْ رسالة الإسلام منوِّهة بشأن هذا الخلق الكريم، تُعلِي مِن قدره وتعمِّق آثاره في بنية الإنسان النفسية وتعمل على تنمية مرتكزاته الشعورية في وجدان المسلم.

والبيان القرآني يحفل بذكر الوفاء بالعهد، باعتباره من الأخلاق العملية والخصال السلوكية، التي لابد أنْ تنعكس آثارُها الإيجابية على حركة الإنسان في المجتمع.

ولِمَا يترتب على الوفاء بالعهد أو النكوث به مِن آثار على مستوى العلاقات الاجتماعية إيجابًا أو سلبًا، ولأهمية الوفاء بالعهد في كلِّ تنظيم جماعي يقتضي قائدًا ومَقوداً، ولاسيَّما في مضمار الجهاد أكبره وأصغره، فإنَّ القرآن الكريم قد جاء بآيات تلفتُ النظر إلى مفهوم الوفاء بالعهد وأهميته.

وعندما يحرص مشائخُ التصوف الإسلامي على أنْ يفي تلاميذهم بما تلقَّوا مِن عهدٍ وما التزموا مِن بيعةٍ على أيديهم، فإنَّما يرتكزون في ذلك على أصلٍ مشروع، في مصدر يمثل المرجعية الأعلى لكافة الأحكام في عِلْمَيْ الأصول والوصول، وهي القرآن الكريم.

ونورد منه فيما نحن بسبيله قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾[1] وقد جاءت العبارة جزءً من آية في سياق عدد من الآيات تأمر

---

[1] / الإسراء:٣٤.

المؤمنين بخصال الخير وأعمال البر ومسالك الفضائل، وقد جاء لفظ العهد في سياق الآية واللام فيه لام جنس ليشمل الوفاء بالعهد، كل عهد في طاعة تعهَّد به المؤمن، ذلك لأنَّ العهد بالقربات يجعلها لازمة، لأنه عهد يتضمَّن معنى النذر، والنذر بطاعة الله قربى يلزم الوفاء بها.

ومَنْ التزم من المؤمنين شيئًا مِن الطاعات أُلْزِمَها، فيكون عندئذ مسئولاً عن الوفاء بها، وبهذا الاعتبار كان العهد مسئولاً.

وهي مسئولية أمام الله تبارك وتعالى، مما يجعل المؤمن الذي التزم بالعهد على أقصَى درجةٍ مِن الوعي بلازم هذا العهد ومقتضاه، الأمر الذي يعطي الوفاء بهذا العهد أولوية ناجزة وأهمية تعلو على كافة مهام الحياة.

ذلك لأنَّ الوفاء بالعهد في طاعة الله تبارك وتعالى يجعل للحياة معنى، ويربط المؤمن بما يتجاوز ذاته رجاءَ ما عند الله تبارك وتعالى.

ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ

عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[1]

في الآيات أمرٌ جازم بالوفاء بعهد الله، ونهيٌ صريح من نقض ما أبرم المؤمن مِن عقد، ولاسيَّما ما كان من العقود متَّجهًا إلى الآخرة وفعل القربات، فإنَّ العهد بذلك عهد لازم لا يُنقَض، ومَنْ أخذ صفقة يمين الشيخ على مثل هذا العهد، ثم اختلَّ عقدُه بسببٍ مِن تقلُّبات الدنيا وحاجِ الحياة ووسواسِ النفس والشيطان، فأصاب عقدَه الذي عاقد عليه الشيخ ما أصابه مِن دخائل الشَّكِّ والضَّعف، وأصبحت الرابطة بينه وبين شيخه تقوم على المخادعة والدَّخَلْ!! فإنَّ ذلك أمرٌ ينبئ بسقوط الهمَّة وزلَّةِ القَدَم بعد أنْ كانتْ ثابتة على الأثر النبوي. ومِنْ لوازم زلَّة القَدَمِ بعد ثباتٍ، وسقوطِ صاحبها بعد قيامٍ، أنْ يَصدَّ عن سبيل الله فيولِّيه الله ما تولَّى.

ولعل أكثر ما يُزِل القدمَ بعد ثبوتٍ، وتُنقَضُ به العهود بعد توكيدٍ، هو منافسةُ أهل الدنيا والرِّياسات دنياهم!! فإذا لاحتْ بوارقُ العطاء الدنيوي في أفق الآمال مِن ذوي النفوس الضعيفة، تعلَّقت بها قلوبهم فنزعتْ آمالهم إلى حيث الثمن المغري - لمال- جاه- منصب!- ، فاتَّخذوا عهدَ الله بالسير

[1] / النحل: ٩١- ٩٧.

في طريق الآخرة والإنابة إلى دار الخلود والتَّجافي عن دار الغرور وراءَهم ظِهريًا، يشترون به ثمنًا قليلاً، فيأتيهم نداء الحق في القرآن الكريم: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[1] ولكن بعض الناس لا يسمعون، وإنْ سمعوا لا يفقهون، وإنْ فقهوا لا يطيعون، فِعْل مَنْ استحوذ عليه الشيطان، فقسا قلبُه، فعاد مِن الخاسرين بما ألهاه - من مالٍ أو ولد- عن طريق الآخرة الذي واثق عليه مِن قبل.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾[2].

وإلى جانب هذه الصورة الواضحة الجليَّة للناكثين عهودَهم الذين اشتروا بعهد الله ثمنًا قليلاً - وهم فصيلٌ دائم الوجود في كلِّ طائفةٍ مِن المسلمين تعاقد أفرادُها على مدافعة باطل الحياة بحقِّ الإسلام في طريق الرُّجعَى إلى الله تبارك وتعالى- تقف الصورة الأخرى لفَصيلٍ آخر مِن المؤمنين، صدقوا ما عاهدوا الله عليه وما بدَّلوا تبديلاً، صابرين على شظف العيش ووعثاء السفر في زُهْدٍ قادرٍ وانصرافٍ باصرٍ، لا عن دروشةٍ ولا سُكْرٍ ولا جهلٍ بموارد ومقتضيات العيش الرَّفِهْ، وإنما رجاءً لما عند الله، ولذلك صبروا وصابروا واتقوا الله،

---

[1]/ النحل:٩٥- ٩٦.

[2]/ المنافقون:٩.

فجاءتْ البشرى مِن الله تبارك وتعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[1]

ومع جلاء الموقف والمفاصلةِ الواضحةِ، بين الراكضين في نواحي الدنيا يحقّقون ملذّاتهم ويستجيبون لهوى النفس في حيازة المال وحُبِّه وتحقيق الذات بالاستعلاء في مناصب الدنيا، وبين أولئك العُبَّاد المخبتين رهبان الليل فرسان النهار الذين لم تفتهم الدنيا ببهرجها ولم تحجب عن آذانهم الواعيه صوتَ الحق بضجيجها وعجيبها، كما لم تَحُلْ مظاهرُ الدنيا بخلابتها وروعتها بينهم وبين رؤية مقام ربهم، أقول مع جلاء الموقف وبيان الفارق بين الصِّنفين مِن أهل الاسلام، إلا أنك لن تعدمَ مِن بين أولئك الراكضين في ساحِ الدنيا مُكابراً يزعم في يقينٍ وعاطفةٍ صادقة، أنه أهدَى مِن أولئك سبيلاً وأقوم رُشدًا!!! إلا أنَّ الأعمال كثيرًا ما تفضح الآمال، وربما هزمت الوسائلُ المنحطّة المقاصدَ العالية، وما ثَمَّة أعلى مقصدًا وأكمل غايةً من الله تبارك وتعالى.

فانظر كيف أزرى بالدنيا وأهلها، وكيف جعلها زبدًا يذهب جفاءً، فلا يبقَى إلا ما ينفع الناس مِن باقياتٍ صالحات، هي خيرٌ عند ربك ثوابًا وخيرٌ أملاً.

---

[1] / النحل:٩٦- ٩٧.

وهيهات أنْ يلتفتَ اللاّهثون في مَلَذّاتِ العاجلة وشهواتها للباقيات الصالحات!!.

ويقول تبارك وتعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾[1]

المواثيقُ والعهود التزام، ينشأ عنه حقوق وواجبات، يرعاها الحقُّ لكونه شهيداً على هذه العهود، وهو مفهومٌ يجعل من هذه العهود أمراً لازمًا، تنشأ دوافع الوفاء بمقتضياته مِن أعماق القلب، بما استقرَّ في هذا اللب من مشاعر عظمة الله وإجلاله ورقابته الدائمة، مما يقيم في النفس وازعًا عن قطع ما أمر الله به أنْ يوصل مِن وشائج القربى في كافة المجالات، ولاسيَّما في مجال القُربات والطاعات، التي واثق عليها السالك شيخَه، تدفع السَّالكَ إلى هذا الالتزام بعهده خَشْيةُ الله تبارك وتعالى والخوفُ مِن سوء الحساب.

---

[1] / الرعد:١٩- ٢٤.

ويقول تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾[1].

هذه الآيةُ نصٌّ يتلوه الشيخ المرشد، حينما يواثق المسترشد على الالتزام بعهد الطريق وعقده.

وفي الآية حصرُ للبيعة الحقيقيه في الله عزَّ وجلَّ، وإنْ جرتْ مجازًا على يد نبيٍّ أو شيخٍ مرشدٍ، أو أميرٍ للمؤمنين، تبعًا لنوعيَّة المعهود الذي تمَّتْ المواثقة عليه.

وما دامتْ يدُ الله تبارك وتعالى فوق أيدي طرفَيْ هذا العهد، فإنَّه من اللازم أنْ يستشعرَ طرفا هذا العهد ولاسيَّما (السَّالك) قدسيَّةَ يد الله وجلاله، وهو شعورٌ ينتج عنه ولابدَّ الوفاءُ الدقيق المتجرِّد بمفردات هذا العهد أينما كان هذا السالك، لأنَّ رقابةَ الوفاء بمقتضَى العهد والقيام بلوازمه ليست من مهام الشيخ الذي أُخذَ عليه هذا العهد ظاهرَ الأمر، وإنما هي رقابةٌ شاملةٌ دائمةٌ دقيقةٌ وداخليةٌ، مصدرُها اللطيف الخبير جلَّ وعلا.

فإذا كانتْ مفرداتُ العهد والميثاق طاعات وقرابات، من ليلٍ مُقام ونهارٍ مُصام، وذِكرٍ دائم وعملٍ صالحٍ قائمٍ، وسير في سبيل الله تبارك بغية الوصول لله تبارك وتعالى، فإنَّ العهد بهذا الاعتبار عهدٌ مسئول لمكانة الله منه، ولا أعلم كائنًا أكبر ولا أجلَّ ولا أعظم ولا

[1]/ الفتح: ١٠.

أرجَى من الله تبارك وتعالى، يعطيه السالكُ صفقةَ يمينه مُعاهدًا مواثقًا على الوفاء بما عاهد عليه الله، ثم ينكث السالك بعهده ولا يفي!! إلى مَنْ ينكث مثل هذا؟! لعله إلى هوَى النفس، وهو إلهٌ معبود حيث الشيطان والسير في الضلال البعيد، ومَنْ ضلَّ فإنما يضل على نفسه، فلا يأبه الله به في أيٍّ وادٍ من أودية العاجلة - التى ألهاه سعيُها عن الوفاء بعهد الله تبارك وتعالى- هلك.

أما أهل الوفاء بالعهد فقد بشَّرهم الله تبارك وتعالى بأجر عظيم، سكتَ الحقُّ تبارك وتعالى عن تفصيله وتبيين أنواعِه لِيَدُلَّ في تنكيره على العموم والشمول لجنس الأجر! وسين التنفيس مقترنة بجواب الشرط تنبئ بشيء مِن عاجل هذا الجزاء العظيم والمأجور بعدُ في دار العاجلة.

ومِن عاجلِ الجزاء الذي يعيشه المتَّقون ذلك السَّلام الداخلي، ونور الفرقان الذي يميِّز به الإنسان المنوَّر بين الحقِّ والباطل، حينما يلبس الباطلُ ثوبَ الحقِّ، فينخدع به المتعجِّلون الذين فاتهم الصَّبْرُ مع الحقِّ، فركضوا لاهثين مع الباطل الذي تزيَّن بلبوس الحق، فأغراهم بالدار العاجلة وزخرفها، وألهاهم التَّكاثر حتى يأتيهم اليقين وهم عن التذكرة معرضون! كأنهم حُمُرٌ مستنفرة "غباء مستحكم"!! ومع ذلك يظن أهلُه أنهم مِن العقل والرشد بمكانٍ لا يُسامَى!!!

هذا عن الوفاء الذي يستيقن الجزاءَ العظيم وعداً غير مكذوب.

والوفاءُ بهذا الاعتبار قيمةٌ أخلاقية، ومبدأٌ سلوكيٌّ رفيع، لا يقتصر على الوفاء بعهد القربات الإلهيَّة ذات السِّمات الخاصَّة، وإنما تتَّسع

دائـرة هـذا الوفـاء المـأجور حتـى تـشمل كـلَّ علاقـات المسلم **في مَحياه** مادام هذا المَحيا لله رب العالمين.

وبحـديثنا عـن (الوفـاء) كـلازمٍ مِـن لـوازم (العهـد)، نـأتي إلى نهايـة مـا قـصدنا مِـن الحـديث عـن (الـسلوك) ولوازمـه، وتأصـيل هـذه اللـوازم بإرجاعها إلى مصادرها من القرآن الكريم والسنَّة المطهرة.

وإلى هـذا الحـدِّ نقـف علـى مـا أمَّـلنا مِـن التَّـدليل علـى مـشروعيَّة (**السُّلوك**) كأحد مكوِّنات المنهج الصوفي.

المبحث الرابع: السير ولوازمه

السَّيرُ في لسان العرب الذهاب يمتدُّ بأهله إلى غايةٍ مَرجوَّة.

والسيرُ مصدرٌ، والاسم منه "السيرة"، وتعني في اللسان العربي "الطريقة" حِسِّيَّةً كانت أو معنويَّة، وإنْ غلب استعمالها تعبيرًا عن حركة الإنسان في الحياة.

ومعنى السير في المنهج الصوفي يتفق مع هذه الدلالة اللغوية للسير، إذ أنَّ السير في المنهجية الصوفية هو الذهاب في طريق الرُّجعَى إلى الله حتى يصل السالك إلى كمال العبودية، بكمال إسلام القلب والوجه لله رب العالمين، على آثار سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

والسير في المنهج الصوفي ينتهي إلى الله تبارك وتعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾[1] ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ ﴾[2]

وهو سيرٌ لا يبدأ مِن جهةٍ وينتهي إلى جهة، ولا يقطع السائر فيه المغاني متنقّلاً مِن مكانٍ إلى مكان، وإنما هو سير المعاني في مضمار الأنفس، ينتقل فيه السالك السائر من مكانةٍ إلى مكانة - لأنَّ الله جلَّ شأنه منزَّه عن الجهة والحدِّ والمثيل والضد- حتى يصل هذا السائر إلى مقام القرب الآنس من الله تبارك وتعالى، فيغدو السَّالك السَّائر من المقربين، ولا يزال السالك السائر يتقرَّب إلى الله في مدارج القرب ومعارج التُّقَى حتى يُحبَّه الله

---

[1] / النجم:٤٢.

[2] / الصافات:٩٩.

تبارك وتعالى، فيكسوه بلباس التَّقوى في مقام العبودية الحقّة، حيث الكمال الإنساني الذي يعطي المظهر الأتم لتجلّي حضرة الله الواحد الأحد تخلُّقًا، حيث يعيش السالك السائر توحيد الله يقينًا.

وهذا معنى الوصول في السَّير.

لوازم السير:

للسير في المنهج الصوفي أربعة لوازم:

١. المرشد.
٢. الهمة.
٣. الوِرد.
٤. المقصد.

اللازم الأول المرشد

ويشترط فيه من صفات الكمال والعلم والخبرة بالمسار ما يجعله في مقام القدوة والتَّأسِّي للسائر المسترشد، مع التَّحلّي ببركة بساط الأنس في حضرة جمال الجلال والتَّجلّي بفرقان الكمال.

والبركةُ والنورُ مِن آيات الصَّلاح، ويُكرَمُ المرشدُ الذي اتَّصف بهما بطَيِّ المقامات للمسترشدين، لأنَّ كمال الصَّلاح يختصر خُطَى الإصلاح.

ومعلومٌ عندنا أنَّ بساط الأنس في حضرة جمال الجلال الإلهي لا يبسط لعلماء الدنيا، وإنما يبسط لعلماء الآخرة، وكلُّ علمٍ لا يستهدف الوصول إلى الله تبارك وتعالى فهو من علوم الدنيا وإنْ كان الدينُ موضوعَه.

والمرشدُ ضرورةٌ في سير المسترشد حتى مقام وحدة الأفعال، حيث يلزم أنْ يكون الإدراك شِفْعًا، بمعنى أنْ يُميِّز المسترشدُ السائر بتعليم مرشده بين الذات والموضوع في وعيٍ باصر مدرِك.

فإذا تخطّى المرشد المأذون بالمسترشد الموفّق مقامَ وحدة الأفعال - وهو مِن المزالق الخطرة في السير، لأنَّ الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي خلقه الله على صورته، ومهمةُ المرشد الأساسيَّة أنْ يُقيم المسترشدَ على جادَّة الحقّ حتى يتحقّق توحيدَ الله في فعله، فيتجلّى له سِرُّ القدر خيره وشره، فيعيش المسترشدُ الأمنَ والسَّلامَ، ويسكن لمجاري القدر عن حقيقة، فلا يفرحُ بآتٍ ولا يأسَى على فائتٍ- أقول إذا تخطّى المرشدُ بالمسترشدِ مقامَ وحدة الأفعال في الآفاق والأنفس، فاطمأنّتْ نفسُ المسترشد بشهود واحديَّة الحقّ في فعله، فاستيقنَ قلبُه بالفرقان الناتج عن التَّقوَى، التي نتجتْ عن معرفةِ مقام الله تبارك وتعالى مِن هذا المسترشد السائر، فإنَّه عندئذٍ يبلغ مبلغ الرجال، فترتفع عنه الوصاية، حيث يتركه المرشد بعدَ أنْ قطع به عتبات الطريق ومدارجَ السير إلى الله تبارك وتعالى، مسترشداً بآيات الله تبارك وتعالى في الآفاق و الأنفسِ، وما يتعلّق بهما مِن نواميس وأحكام، حتى يتبيَّن للمسترشد الحقُّ تبارك وتعالى فيعرفه شهيداً بوساطة الشيخ. وفي مقام الشهود يبدأ سيرُ المسترشد في الله - أسماءً وصفاتًا- ولا أقول "ذاتًا"!! لأنَّ ذات الله في صِرافتها لا مَجلَى لها!!!، ولذلك كان الله في عماء وهو غيبٌ مطلق يستحيل إدراكه.

والإنسانُ مهما سمتْ مكانتُه في الولاية فإنه لا يسير إلا في مجالي الله تبارك وتعالى وهي: (**الأفعال -الأسماء- الصفات**). وهي مراتب التعريف الوجودي للذات الإلهية.

وقصارى سير المسترشد أنْ يقطع مراتب ومظاهر أسماء الله وصفاته، فإن وفّقه الله وأيّده فتحلّى بها كان فَرْدًا! أما إذا كان مُرادًا في سابق العناية الأزليّة، فأُكرِم في مدارج القُربِ وهو يسير في الله بالتّخلّق والتّحقّق بأسماء الله وصفاته - **بما يجوز له من تلك الأسماء والصفات**- حتى تحقّق وحدةَ وجود واجب الوجود، مِن وراء حجاب العِزّة الحَميّ "نور الجلال الإلهي"، فإنه في هذه الدرجة مِن المعراج يكون **قطبًا**!! تدور حوله مظاهر أخلاق الله بأماناتها، ومِنْ بينها أمانةُ عهدَيْ التّشريف والتّصريف ممّن كان له إرثٌ من المسترشدين واتّصل بالقطب في هذا المقام فإنه لابدّ أنْ يُغيثه بفواته المأمول مِن هذه الأخلاق والصفات، فيستقيم المسترشد على جادّة الحقّ مع شهوده للحقيقةِ!!.

وهذا ضربٌ مِن مظاهر التشريف والإكرام مِن الله تبارك وتعالى.

وقد سبق أنْ تحدّثنا عن المرشد بتفصيلٍ في مبحث السلوك.

اللازم الثاني الهمة

والهمة هي: قوّةُ انبعاثٍ في النّفس لتحقيق مقصدها.

والهمّةُ بهذا التّعريف ناتجٌ مِن نواتج الإرادة، ولهذا يُسمّى المسترشدُ "مريدًا" متى سلك طريق العرفان.

ومُتَعلَّقُ الإرادة هو الذي يُشكّل نوع الهمة، وعلى ذلك فإنَّ الهمم البشرية أربعة أنواع:

[الهمة المنحطّة - الهمة القاصرة - الهمة الماضية - سوابق الهمم]

الهمَّة المنحطّة:

وهي مِن منكرات الهمم ومذمومها، وذلك لأنَّها تدفع صاحبَها إلى الفعل بطبع خبيث، مثل همة الحاسد والسَّاحر والعائن والمُشعوذ.

وكلُّ مَنْ جرَّد قُوَى نفسه بترويضٍ أرضي لا ربَّاني، فهو مِنْ أصحاب الهمم المنحطّة.

وهذه الهمة مطيَّةُ كبائرِ الآثام، ولا يعيش صاحبُها الحياة إلا ضنكًا.

الهمة القاصرة:

وهي ما لا يفعلُ ولا ينفعلُ صاحبُها مع استشعارها العزم والحزم، وصاحبُ هذه الهمة لا يتوق إلى المعالي ولا يطمح إلى مُرادٍ سامٍ، وذلك لصِغَرِ نفسه وضعفِ إرادته وسقوط همَّتِه.

فلا يزال هذا الصنفُ مِن الناس يعيش حياته، يأكل كما تأكل الأنعام يسافد زوجته ليحفظ نوعَه غريزةً وجبلّة، دون أنْ يُحدِّث نفسَه بمعالي الأمور، لا يؤثّر في مواقف الحياة ولا تؤثّر فيه المواقف مع تمنّيه العزم ورجائه الحزم دون جدٍّ في تحقيق الأماني ولا سعيٍ في إنجاز ما كان رجاءً وأمَلاً!!.

وصاحبُ الهمَّة القاصرة لا يصلح في مضمار الإرادة.

وقد يظلُّ طفلاً في الطريق لا يبلغ مبلغ الرجال أبدًا، وذلك لضعف إرادته وقصور همته، ولا يطلق على صاحب الهمة القاصرة صفة "مريد" إلا تجوُّزًا، لأنَّ مَنْ قَصُرتْ همته عن ما هو رفيعٌ مِنْ مقتضيات العاجلة، كانتْ همَّته

أشدَّ عجزًا مِنْ أنْ تتعلَّق بأمرِ الآخرة وما يُرجَعُ به إلى الله تبارك وتعالى مِن سُبُلٍ!!!.

الهمة الماضية:

ومضاءُ الهمَّة هو جدَّتُها، ونفوذُها مِن عوارض مضمارها وعقبات ما سلكتْ مِن الطريق إلى الله تبارك وتعالى.

وهي التي جعلتْ:

- ✧ العزم فعلاً.
- ✧ والحزم كمالاً.
- ✧ مع انفعالها بمشاعر السُّموِّ والعزَّة بالله.
- ✧ واستشراف مقام الرِّفعة والتَّمكين في حضرة القدس الأعلى.

وهذي بدايةُ همم المريدين الصادقين.

ولا تنبعث الهمَّة الماضية إلا مِن إرادةٍ قويَّةٍ سامية، استجمعتْ همومَها في هَمٍّ واحد، واستهدفتْ مِن كلِّ المرادات مرادًا واحدًا، وهو:

[معرفةُ الله يقينًا والوصولُ إليه حقيقةً بعد الإيمان به حقًّا].

وصاحب الهمة الماضية من المريدين، لابدَّ أنْ يجعل عزمَه بفعل الطاعات والسير في طريق القُرُبات عملاً، يرتفع بقوله الصالح ونيته الشريفة إلى معارج القبول ومدارج الرضا.

كلُّ ذلك في حزمٍ لا يرَى إلا الكمال في مقام الرفعة والتَّمكين، فتدفعه الرؤيةُ المأمولة لمزيد مِن المضاء في السير، مع مزيدٍ من الحزم الذي يَسُدُّ منافذ ما يلهيه عن سيره إلى غايته السَّامية، مِنْ طماحِ العاجلة وبهرجها، الذي يُلهي كثيرًا مِنْ مَنْ شغلته نعمةُ العاجلة عن المنعم عزَّ وجلَّ! فأهوتْ

العاجلةُ بـه في مكـان سـحيق!! فـلا نِعمتُهـا دامـتْ ولا نعـيمَ الحـقِّ بمعرفتـه والوصـولِ إليـه أدركَ. لأنـه أخطـأ الطريـق وذُهِـلَ عـن الغايـة في همَّـةٍ ماضية وإرادةٍ قويَّةٍ، تُريه نفسُه والشيطانُ حَسنًا ما ليس بالحَسَنِ!!.

فأشدُّ التحذير يُوَجَّه للمريد الصَّادق ذي الإرادة القويَّة السَّامية والهمَّة الماضية، مِن أنْ تُلهيه العاجلةُ بـالمال- الأهل- المنصب! عن ذكرِ الله تبارك وتعالى، وتُزيِّن له نفسُه ما هو فيه مِن قواطع الطريق إلى الله، فيحسبُ أنه يُحسنُ صُنْعًا، ولا يرَى أنه في الآخرة من الخاسرين!! كأنْ لم يسمع نَهْيَ الله عزَّ وجلَّ في مُحْكَمِ تنزيله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾[1]

وذِكْـرُ الله في الآية يعني استحضار معيَّته عند المطامع والمطامح والهوَى.

وقـد ذكـرنـا في تعريفنـا للهمَّـة الماضية بأنها "التي جعلتْ العـزم فعـلاً"، وقـد سبق قولنا إنَّ العزم ناتج الإرادة، ويأتي الفعل ناتجًا للقُدرة.

والهمـةُ لا تمـضي إلا بمعرفـةٍ وإدراكٍ، فكـان مِـنْ لـوازم الهمـة الماضـية، الـتي يلـزم أنْ لا يغفـل عنهـا المريـد المسترشـد، كمـا يلـزم أنْ تكـون بعَينَـيْ المرشـد وهو يقوم دليلاً لهذا المريد المسترشد في طريق الرجعى إلى الله، ثلاثُ صفاتٍ هي:

- العلم وبه يتحقّق الإدراك.
- الإرادة وبها تتحرك الهمة، وبمقدار قوة الإرادة يكن مضاء العزيمة.

---

[1] / المنافقون:٩.

- القدرة وبها تتحوَّل الهمَّة إلى عمل.

وليس بخافٍ أنَّ مُتعلَّق كلٍّ مِن العلم والإرادة والقدرة مِن الإنسان - كلِّ إنسان - هو الحياةُ.

فلا سيرَ بغيرِ حياة لأنَّ الموتى لا يتحرَّكون! ولا أعني الموت الحيواني في هذا السِّياق لأنِّي لستُ بسبيله!! وإنما قصدتُ موتَ القلب، وحياةَ الروح بقوله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1]

فالحق يوجِّه النداء للذين آمنوا وهم بالطبع أحياء بأنْ يستجيبوا ويسلكوا منهج الحياة، ولابد أنْ يكون الفرق قائمًا بين الحياتين!! وبهذا الاعتبار جعلتُ حياة الروح والقلب منطلق صفات السير للمريد.

ولهذا كان مِن اللازم للمرشد أنْ يبعث في المريد الأمل في الحياة، مهما كانت دركةُ ردِّه السُّفلي، ويحوطه بأنواع الرعاية حتى يخرج مِن ظلمات الموت باليأس إلى نور الحياة بالأمل الذي يبعث على مسالك السير والعمل، ومن ثم يتدرج به في السير ويترفّق، حتى يبلغ به الغاية، التي يرجو من منتهى إرادة هذا المريد ومتعلّق همته. قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾[2].

---

[1]/ الأنفال:٢٤.

[2]/ الطلاق:٧.

وأهل الإرادة يتفاوتون في ذلك تفاوتًا كبيرًا لوردًا ووارِدًا ومقامًا!.

وما نودُّ تأكيده أنَّ صاحب الهمَّة الماضية مِن المريدين، لابدَّ أنْ يتَّصف بصفات الحركة المنتجة والسير الذي لا ينقطع بأهله دون الغاية، وهي "أي الصفات": {الحياة، العلم، الإرادة والقدرة}. وبها تكون همة المريد ماضية لا تحول بينها وبين غايتها عقباتُ الطريق في مظاهر الكائنات وهي - **ما كَثُفَ واستغلظ مِن العقبات** - أو ظواهر المكنونات وهي - **ما لَطُفَ و رَقّ مِنْ بطائن أسرار التَّجليات** - لأنَّ مراد هذا المريد فوق ذلك!!!.

لابدَّ أنْ يعرف المرشد النَّاصح مِن المريد السائر ذي الهمة الماضية وقوفًا في سيره على الرغم مِن هذه الهمة الماضية؛ فعليه أنْ يُبَيِّنَ له كُنْهَ وقوفِه، حتى لا تقطعَ المريدَ خواطرُ الوقوفِ يأسًا عن الوصول، أو غُرورًا بظنِّ الوصول، وكِلا الأمرين يُشكِّل تهديدًا مباشرًا لسير المريد إلى الله تبارك وتعالى، ما لم يكن سيرُه بصحبةِ مُرشدٍ عارفٍ متمكِّن.

وقوف المريد السائر

لا يمنعُ مضاءُ الهمَّةِ وقوَّةُ الإرادةِ المريدَ السَّائرَ مِن الوقوف في سيره! وقد تطول مدَّةُ الوقوفِ أو تقصر!!.

والوقوفُ على تنوُّع مدته إمَّا أنْ يعقبه انقطاعٌ، وإما أنْ يعقبه استئنافُ سيرٍ. والفيصلُ في عاقبة وقوف السَّائر أمران:

١) توفيقُ وتأييدُ الله تبارك وتعالى لهذا المريد السائر.

٢) قوةُ إرادة المريد وتجريد العزم حتى تمضي الهمَّةُ فلا يُفلُّها قِراعُ الهوَى وحظُّ النفس والشيطان وجنده.

ووقوفُ السائر يأتي على ثلاثة أنواع كما عهدنا في سير المريدين هي:

- الوقوف قناعةً.
- الوقوف استرواحًا.[1] واستئناسًا.
- الوقوف انتهاءً!

الوقوف قناعة:

وأولُ أعراضه وعلاماته التَّكاسل عن الورد والتَّشاغل عن الورود إلى حضرة المرشد، فيكثر ويطول غيابه معنًى مع غيابه حِسًّا، فيقلُّ الوارد بتوقُّف الورد، فإذا طال بالمريد تركُ الورد والورود، ضعفتْ إرادتُه فقصرتْ همتُه، فوقف عن السير قانعًا بما قطع مِن مراحل الطريق؛ فإنْ دامتْ الرابطة الروحيَّة بينه وبين المرشد حُفِظَ مِن أنْ يتخطفه قطَّاعُ الطريق، على الرغم مِن قعوده مع الخوالف! فيظلُّ واقفًا قانعًا في همَّةٍ قاصرةٍ بعد أنْ كانتْ ماضيةً. والمرشد الشَّفوق قد يحمل هذا المريد القانع باعتباره كَلاًّ عليه، راعيًا الإلَّ والذِّمةَ بمجالسته يومًا.

أما إذا قطع المريدُ الذي وقف قانعًا الرابطة الروحيَّة مع شيخه، بعقوقٍ احتجبتْ به خصوصيَّةُ المرشد وظهرتْ مِثليَّتُه - وهو أمر يُسقطُ القدوةَ ويُبطِلُ التأسِّي- فإنَّ مثلَ هذا المريد الواقف يكون في خطرٍ مِن قُطَّاعِ الطريق: "هوى النفس والشيطان" وربما استحوذ عليه بعضُ قطَّاع الطريق فنزل إلى درك الهمَّة المنحطَّة!! بعد أنْ كان مِن أهل الهمة الماضية. وهذا سلبٌ بعد عطاء، فلا يزال صاحبُه في ردٍّ سُفلي حتى يقسو قلبُه فيموت، ومِنْ ثَمَّ يسقط مِن عين الله تبارك وتعالى،

[1] / استرواحاً: استروح استرواحاً، وجد الراحة.(المنجد ص)٢٩٠.

فلا يأبه الله به في أيِّ وادٍ مِن أودية العاجلة هلك. ذلك لأنه تولّى وأدبر بعد زحفٍ في ميدان الجهاد الأكبر. والتولّي يوم الزَّحف- في الجهاد الأصغر- مِن الكبائر التي تُبيحُ قتل المدبر حفاظًا على الروح العام والتَّماسك الجماعي في مضمار الجهاد.

أما المدبر في الجهاد الأكبر فإنَّه لا يُقتل وإنما يُسلب ما تحلّى به مِن لباس التقوى، فيتعرَّى عن طبعٍ خبيثٍ ونفْسٍ رذلة ١ وخُلُقٍ ذميم، وكلُها عورات وسوءات كانت مستورة بلباس التقوى؛ ولكنَّ الشيطان يوسوس فيكشف لأتباعه ما وُريَ مِن سوءاتهم!! وهي في مآلها سيئات تُميت القلبَ وتجعل كتابَ صاحبها في سجِّين.

وهو أمرٌ يخالف دعوة القرآن للذين آمنوا أنْ يستجيبوا لله وللرسول إذا دعاهم لما يُحييهم. وأقرب الواقفين وقوف قناعة مِن المريدين السائرين للشيطان هم أولئك الذين قنعوا برؤية أنفسهم، فترفَّعوا عن الالتزام بعهد الطاعة، ومِثْلُ هؤلاء قلَّ أنْ يتوب، لأنه لا يستشعر الخطأ ولا تؤرِّقه الخطيئةُ، لتوَهُّمه أنَّه على درجةٍ مِن الكمال.

ومعلومٌ أنَّ مَن استشعر الكمالَ لا يُحِسُّ بالنقص، ولذلك تراه في إعراضٍ دائم عن التَّذكرة، لأنه في نظر نفسه أرفع مِن أنْ يُذَكَّر!!!.

الوقوف استرواحًا واستئناسًا

وهذا وقوفٌ لازمٌ للسائر ذي الهمة الماضية، لأنَّ القلوب إذا حُمِلَتْ على الجِدِّ دومًا عَمِيَتْ.

١/ رذلة: الرَّذْلُ والرُّذالُ والرَّذيل والأَرْذَلُ: الدُّونُ الخَسيسُ، أو الرَّديءُ من كلِّ شيء.

كما أنَّ الهمة وهي دابَّةُ السير إذا اتَّصل سُراها ربما أصابها الكلالُ، فيلزم مِن ذلك الوقوف استرواحًا ، حتى لا يكون المريد السائر كالـمُنْبَتِّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقَى.

والسائرُ الذي يقف استرواحًا واستئناسًا يُريح قلبَه ، وهو منطلق الهمة الماضية بلطائف الواردات مع كمال الحزم في المحاسبة على ما مضَى، وإعداد العُدَّة لما يأتي مِن مراحلِ السير، وهو في وقوفه مستأنسٌ بمظاهر تجلّيات الحقِّ في عالم الملكوت، التي غالبًا ما يأنس فيها بعِلْمٍ أو مَعْلَمٍ من معالم الطريق، حيث يزداد الشوقُ وتسمو الروحُ لتسلك معارج الحق العليا فيما تستقبل من مراحل الطريق.

ولمَّا كان قلبُ السالك السائر بالهمة الماضية مفتوحًا على مدارج الوجود في عالمي الملك والملكوت، فإنه ربما اختلطتْ خواطرُ النفس مِن عالم الملك بخواطر الرحمن مِن عالم الملكوت على هذا السائر الذي وقف استئناسًا ، فيحدث له بهذا الاختلاط في واردات الخواطر ما يكدِّره ويوحشه، وربما لُبِّس عليه، وهنا يأتي دورُ المرشد ليُزيل الكدرَ ويطرد الوحشةَ ويكشف التَّلبيس، وذلك بمنازلة السالك في سيره، فيميِّزُ له بين الخاطرِ الشيطاني والخاطرِ الرحماني والخاطر النفسي، ويؤنسه بروحانيته.

وربما أنِسَتْ روحُ السالك الصادق بروحانية المقربين أهلِ التَّمكين مِن سلسلة آبائه في الطريق، يُمِدُّه كلُّ واحدٍ بما عنده في مقامه مِن طرائفِ الزَّاد ، ولهذا يلزم السالك أنْ لا يُسقِطَ علاقةَ الأُبوَّة وهو يُعِدُّ لدخول مقام

الطمأنينة، وهو أول مدارج الحضرة النبوية، وربما فعل بعضُ السالكين ذلك ظنًّا منهم بأنَّهم أُويسيُّون١، وهو ظنٌّ واهمٌ.

فإذا كان المريد الصادق ممن يُكثرون الصلاة على سيدنا محمد رسول الله ﷺ، ولاسيَّما في ليلة الجمعة ويومها، فإنه قد يستروح شيئًا يسيرًا من جمال حضرة النبوة، حيث الأُنس والحفظ والسُّمو بالروح إلى مشارف الكمال، وصاحبُها بَعْدُ في ترويحته الآنسة دون وَهْمٍ بالاستغناء عن الشيخ المرشد، حتى إذا استأنفَ السير كانتْ همَّتُه أمضَى وعزمُه أحدَّ وإرادتُه أقوَى. ومثلُ هذا المريد الموفَّق لا يلتفتُ أبدًا لا في سيره ولا في وقوفه للتَّرويح، وهذا المريد هو الذي يُعوَّل عليه. ويكثرُ وقوفُ السالكين استرواحًا بين مقامي اللَّوم والطمأنينة.

ومِن لوازم عهد الاسترشاد على المرشد أنْ يؤنسَ المريد السائر حين هذا الوقوف بكشف شيءٍ مِن مدارج مقام النَّفس المطمئنَّة، وإلا أنِسَ بمقام النفس اللوامة، فانقطع دون الغاية مما يُعَدُّ عندنا تقصيرًا مِن المرشد، ولاسيَّما إذا كان مِن أهل الديوان الذي غالبًا ما يُساءَلُ فيه عن ما استُحفِظَ مِن عهد الرعاية والإرشاد.

فإذا كشف المرشدُ شيئًا مِن مدارج النفس الملهمة استوفزتْ همَّة السائر الذي وقف استرواحًا، لمواصلة السير مستخدمًا مِن الورد ما يناسب واردات الرحمن في مدارج النفس الملهمة، التي تبلغ خمسمائة وخمسة عشرة

1/ نسبة إلى أويس بن عامر القَرَني الذي قال فيه النبي ﷺ {إنَّ خير التابعين أويس} أخرجه مسلم في صحيحه ج٤ ص١٩٦٨ الحديث رقم٢٥٤٢.

مدرجًا!!، في كلٍّ منها مَعْلَمٌ مِن معالم الطريق، وفي كل معلم عِلمٌ وأدبٌ، ينتج عنه خُلُقٍ كريم.

فإذا قطع السائرُ بعد أنْ وقف استرواحًا مدارجَ النفس المطمئنة حتى أشرف على مدارج النفس الراضية، أبدله الله تبارك وتعالى مِنَّةً وفضلاً عن همَّته الماضية بـ"الهمة السابقة".

وهي النوع الرابع مِن أنواع الهمم، وسيأتي الحديث عنها مفصَّلاً.

الوقوف انتهاءً

يقف عددٌ كبير مِن السائرين الذين سلكوا هذا الطريق عند نهاية مدرج النفس الراضية، في مقام "وحدة الأفعال". حيث يفنَى هذا المريد في مشهد واحديَّة الفعل الربَّاني، فيتوهَّمُ أنه قد انتهَى إلى الغاية من السير!! بما جاهد فشاهد مِن شئون الحق تبارك وتعالى ما يتعلَّق باسمه الواحد عزَّ وجلَّ مِن أنواع التَّعلُّقات الخلقيَّة.

وقد يؤتمن هذا السائرُ على شيءٍ مِن عهد التصريف، فيخرق الله تبارك وتعالى به العوائد، حيث يُجرِي على يديه بعضًا مِن الكرامات، فيظنُّ مثلُ هذا السائر أنه قد بلغ المنتهَى فيقف **انتهاءً**!!.

وقد يحسب المسترشدون وغيرُهم أنَّ هذا المريد ومثله قد بلغ الصَّلاح ومنتهَى الولاية، إلا أنَّ الحقيقة وأهلها تنكرُ هذا الحُسبان! وإنْ رجحَ في ميزان الحقِّ!! لأنَّ صاحبَ هذا الوقوف مِن "**الأبرار**" ذوي الهمم السَّابقة ولكن في مدرج أدنَى، وما نال مثلُ هذا السائر مقام الأبرار إلا لأنَّه سار إلى الله صادقًا في عالمَيْ الملك والملكوت "وهو عالم الأفعال".

وفي سدرة أسرار نهايات عالم الخلق كُشفَ عنه، فشهدَ الله تبارك وتعالى واحداً في فعله، فوقفَ مستغرَقًا في المجلَى الذي تجلّى فيه الحقُّ تبارك وتعالى بوصفه ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾.

فحُجِبَ هذا المريد بالصفة عن الموصوف وبالفعل عن الفاعل، وذلك حينما تبيَّن له هذا الحق في هذا الأفق العالي من آفاق عالم الخلق، فحجبه شهود الحقِّ في عالم الخلق عن شهود حقيقة الحق في عالم الأمر فوق سدرة المنتهى، وهو عالم الجبروت الذي لا يدخل فيه إلا المقرَّبون من الأبرار، الذين قطعوا مدارجَ السير إلى الله الذي انتهَى بالأبرار إلى سدرة المنتهى لأسرار عالم الخلق، فوحَّدوا الله في فعله. ولمَّا أعطاهم شهودُ الحق فيما خلق في هذا الأفق العالي من المخلوقات مِن مظاهر الكمال ومَجالي الجمال إلى جانب ما أكرمهم به مِن ائتمانه إيَّاهم على التصريف فيما تحت مقامهم مِن المخلوقات في عالم الناسوت، حسبوا أنَّهم انتهوا إلى غاية السَّير ومنتهَى الطريق، فوقفوا [انتهاءً]، وهو وقوف نقصان، وليس وقوف كمال، لأنَّ الوصول إلى نهاية "عالم الخلق" - وهو سير إلى الله- يلزم أنْ يعقبه سيرُ المريد في "عالم الأمر" - وهو سير في الله عز وجل- حتى يتحلَّى هذا الفقير بالخِلع النورانية من أسماء وصفات الحق، فيسير في الله تبارك وتعالى ببعض أسمائه وصفاته، فلا يزال مقرَّبًا في عالم الأمر "حضرة الله بأسمائه وصفاته" حتى يتجلَّى في مقام العبودية الكاملة بكمال معرفة هذا الفقير لشؤون الحق في عالَمَيْ الخلق والأمر.

فإذا ظهر هذا الفقير في مقام العبودية الكاملة استحقَّ أن يُلقَّب بـ"السابق المقرب".

وقد شهدتُ سيدَنا بلال بن رباح رضي الله عنه، يومُ السابقين مِن بني حام بن سيدنا نوح عليه السلام في مدارج الحقيقة الأعلى!!!.

وهناك عرفتُ شهودًا أنَّ حسنات الأبرار - الذين وقفوا انتهاءً عند سدرة منتهى الخلق- هي سيئات المقربين الذين عُرِج بهم إلى عالم الأمر، فساروا في الله تبارك وتعالى، وهم يستعينون الله ويستهدونه حتى لا يُغان على قلوبهم وهم في عالم الأمر ما يحجبهم عن الرب عزَّ وجلَّ، وقلوبهم متعلِّقة بغايةٍ وجوديَّةٍ أسمَى تُعبِّر عنها الآية الكريمة: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾[1].

وأنبِّه بما هو معلوم عندنا أنَّ انتهاء الفقير العارف إلى الرب عزَّ وجلَّ ليس انتهاء "وقوف"، وإنما هو انتهاء "صيرورة دائمة"، تبغي روحُ العارف السابق المقرَّب مِنْ خلالها مزيدًا مِن العلم بشؤون الله تبارك وتعالى في عالم الأمر، بما يقوم بذات الله تبارك وتعالى من الأسماء والصفات، وشعار هذا العارف السَّابق المقرَّب: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾[2].

فإذا بلغ الفقير مقامَ الكمال الإنساني في مدارج التَّسوية الربَّانية ومعارج نفخ الروح في جسم الفتوح، حيث تجلَّى بأسماء الله وصفاته، بعد أنْ تخلَّق وتحقَّق بما يجوز له مِن ذلك في حُضيرة القدس الأعلى، استحقَّ

1/ النجم:٤٢.

2/ طه:١١٤.

لحظتئذ أنْ يُلقَّب بـ{العارف بالله}. أما قبل ذلك فهو عارفٌ بآيات الله في الآفاق أو الأنفس، أو عارفٌ بأحكام الله أصولاً وفروعًا.

أما أن يكون "عارفًا بالله" فلا.!! حتى يُجازَ به معارج عالم الجبروت، فيشهد قيام الأسماء والصفات بالله تبارك وتعالى، ويتحقّق وحدة الذات الإلهي والذات الإنساني على السَّواء.

ومعرفة الله في مقام وحدة الذات شهودًا وتعلُّقًا، تعطي الفقير السالك الحقيقة الوجوديَّة إلى جانب الحقيقة المعرفيَّة بأنَّ السير في الله تبارك وتعالى سرمدي لا ينتهي.

لأنه كشفٌ لشؤون الله في مراتب الوجود العلوي، وهي شؤون لا تُحَدُّ. فالسير لمعرفتها لا يُحَدُّ بنهاية، لأنه سيرٌ في المطلق بالروح الربَّاني الذي نفخه الله في الإنسان.

فإذا تزكّى هذا الروح بالإيمان والعمل الصالح صار مطلقًا عن قيود الزمان والمكان، ليدخل بهذا الإطلاق في صيرورة سرمديَّة مع الحق تبارك وتعالى في أبده.

ألا ترى أنَّ أرواح المصطفَين من عباد الله تبارك وتعالى ممّن أنعم عليهم تصعد إلى الرفيق الأعلى، حيث لا موت ولا سكون ولا وقوف.

بل حركةٌ دائبة سريعة، تقصر فيها ذبذبات الأنوار الروحية، فتعطي طاقة حيويَّة روحيَّة نوريَّةً ينتج عنها من السرعة ما يتجاوز سرعة الضوء كثيرًا!!.

بل ربما قطع هذا الروحُ إذا عاد من عالم الأمر إلى عالم الخلق زكيًّا مسافةَ ما بين العرش إلى الأرض في نصف دقيقة!! وربما تقاصر الزمن إلى ثانية واحدة بل أقلّ!!!.

ولهذا فإنّه لا يُتصوَّر والأمرُ كذلك أنْ يقف الفقير السائر وقوف انتهاء. إلا أن يكون انتهاء "مقام" فنَعَمْ.

ولكن يلزم أنْ لا يفهم أحدٌ أنَّ وقوف هذا السائر وقوف انتهاء مَسار، لأنه لا نهاية للسير في الله. تقدَّستْ أسماؤه وعزَّتْ وجلَّتْ ذاتُه عن الإدراك.

وسنتوسَّع في الحديث عن هذا السير ومعالم الروح الرباني فيه في فصلٍ قادمٍ بإذن الله وتوفيقه.

هذا عن وقوف السائرين بأنواعه الثلاثة، أُقِرُّ منها وقوف الاسترواح والاستئناس، لأنَّ السير إلى الله من خلال ما شرع دينٌ، فإذا أوغل فيه السائر فإنّه يلزم أنْ يوغل فيه برفقٍ، لأنَّ الدين غالبٌ مَنْ شادَّه.

ولهذا تحتَّم على السائر المؤيَّد أنْ يقف استرواحًا إذا تَخلَّى، حتى يدخل في مقامات التَّحلّي وليس عليه من وعثاء سفرِه ما يُغشي جمالَ طلعتِه.

أما الوقوفِ قناعةً والوقوف انتهاءً، فكلاهما يدلان على جهل السائر بالغاية. إلا أنَّ الوقوف انتهاءً قد يكون عند "المقام المعلوم" فلا يكلَّف مثلُ هذا بالسير إلى ما هو أرفع من مقامه الذي وقف

عنده: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾[1] فهو ماجور معذور.

ولكن المعيب الوقوف قناعةً، لأنه يدل على ضعف الإرادة وقصور الهمة، فإنْ صَحِبَهُ تعالٍ وتكبُّرٌ وإدلالٌ وقطعٌ لما أمر الله به أن يوصل مِن أواصر النَّسبِ الروحي مِن هذا السائر الذي وقف قناعةً، دلَّ ذلك على السقوط والسَّلبِ والعياذ بالله.

سوابق الهمم

[وهي التي تفعل في مراتب الوجود الممكن مِن غير انفعال ولا علّة، بل بأمرٍ مِن الله بِحُكم القضاء وتفصيل القدر].

وذووا الهمم السابقة مِن أهل قبضة يمين الحق في سابق الأزل، عنايةً من الله تبارك وحُسنى سابقة.

ولهذا فإنَّ بداية منطلق هذه الهمة هو مقام البِرِّ الذي هو نهاية الأبرار مِن السابقين إلى مقام القرب في حضرة القدس الأعلى.

فيجمع صاحب الهمة السابقة بين البِرِّ والسَّبق والقُرب، فيكون مِن الأبرار السابقين المقرَّبين.

فكلُّ سابقٍ مقرَّبٌ بَرٌّ، وليس كلُّ بَرٍّ سابقٌ مقرَّبٌ، فالأبرار ذووا همم ماضية والمقرَّبون ذووا همم سابقة.

والهمة السابقة نوعان:

١. همة عالية.

٢. همة أعلى.

---

[1] / الطلاق:٧.

الهمة العالية:

وهي التي تاقتْ لمعرفة الله في مظاهر أمره، لتقفَ على حقيقة التوحيد شهودًا.

وهي همة مشاعة بين علماء الدين وعلماء الكون، والشرط الأساسي لوجود هذه الهمة هو: **الإيمان بالرسالة الخاتمة ورسولها** سيد ولد آدم سيدنا **محمَّد** رسول الله ﷺ والعمل بما جاء به مِنْ شرعةٍ ومِنهاج.

والهمةُ السابقة العالية تدفع صاحبها إلى الالتزام الجادُ الصَّارم بأمر الله التَّكليفي- طلباً وكفًّا- مع العناية بأمر الله التكويني، واستكشاف مسمَّياته ونواميسها في الكون، وقراءتها قراءة علميَّة باسم الله تبارك وتعالى.

وصاحبُ الهمة السابقة العالية سواءً كان متعلّقًا بعلوم الدين أو علوم الدنيا، لا ينفعل بما حوله بتعمُّلٍ، وإنما بدافعٍ داخلي يُحِسُّه مسيطرًا على إرادته ونوازعها، مما يجعل اللاوعي متطابقًا في حركته وهدفه مع الوعي!!.

وهو أمر يؤهل عالِم الدنيا المؤمن للاختراع والاكتشاف، كما يؤهل عالم الدين للاجتهاد في علوم الدين، حتى يصل إلى ما وراءها من معلوم، حتى تتبيَّن وحدانيَّةُ الحقِّ فيما شرع.

ويلزم أنْ يصاحب اجتهاد هذا السائر في مضمار الاجتهاد بأمر الله التكليفي جهدٌ في إنفاذ هذا الأمر في واقع حياته وحياة الأقربين، مع التزامٍ قويٍّ بزوائد الأمر التَّكليفي المحتَّم في مجالي القربات ونوافل الخيرات، حتى يقطع بذلك معارج القرب، فيصل إلى مقام مَنْ جعل له الرحمن وُدًّا.

حيث يُكشَفُ عنه فيوحِّد الله تبارك وتعالى شهودًا، بعد أنْ وحَّدَه علْمًا فيكون مِن أهل علم عين اليقين. بما جاهد فشاهد متعلَّق كلمة التوحيد، وقيام الوجود الإمكاني بها. فتحقَّق مقامُه في أهل العلم العلوي. فشهد أنه "لا إله إلا الله" مع الله والملائكة والنبيين وأُولي العلم.

فاللام في "العلم" في قوله تبارك وتعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾[1] ليست لام جنس تضم كافة مفردات العلم، وإنما هي لامُ عَهدٍ للإشارة إلى علمٍ معهود، هو عبودية الأحياء والأشياء في السَّماوات والأرض للرحمن تبارك وتعالى.

يشاهد هذا السائرُ مقتضاها بعين فؤاده شهودًا، فيتَّخذ منه الحق شاهدًا على القدم المحمدي، الذي أرسله الله تبارك وتعالى برسالته للناس شاهدًا ومبشِّرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا.

ومن خصائص المرشد والمسترشد مِن ذوي الهمم السابقة العالية أنْ يُكرمَا بمعاني طَيٍّ مقامات السير إلى الله تبارك وتعالى، فيصل السائر في الزمن القصير إلى المقام العالي الكبير فضلاً مِنَ الله ونعمة.

الهمة الأعلى:

وهي التي ترتقي بصاحبها إلى مقام الوحدة مع التَّحقُّق بمقتضَى العبودية في مقام الفرق الثاني.

---

[1] / آل عمران:١٨.

ومقام وحدة واجب الوجود يختلف عن مقام توحيده.

فالله "واحدٌ" في مظاهر الموجودات، وهو جلَّ شأنه "أحدٌ" في ظواهر المكنونات من الأسماء والصفات.

فالله بالنظر إلى ذاته العليَّة لواحد أحد! فهو بوحدانيته يستحق العبودية، وبوحدته يستحق المحبَّة!!.

وقد فُطرتْ القلوبُ على حُبِّ الكمال، لأنَّ الكمال جمال، وما ثمَّة أكمل ولا أجمل من الله في أحديَّته التي تتعلَّق بها الهمَّة السابقة الأعلى.

ودخولُ السائر مقام المحبة في بساط الأحدية - **بعد قطع حُجُب الأسماء والصفات تخلُّقاً وتحقُّقاً فيما هو جائز للعبد المؤمن من ذلك** - ربما طمستْ عين الفؤاد، ففني السائر في المشهود فتوحَّد شهوده، فإنْ أراد التَّعبير عن مشهوده جاءت عبارته مُلبِّسة، لأنه يعبِّر عن عين الجمع، فلا يتأتَّى له الإفصاح، لأنَّ وعيه الذاتي لم يستقل بالمشاهدة!!.

فإذا فني هذا المطموس[1] عن فنائه رأتْ عينُ فؤاده قيامَ الذات الفاني بالذات الباقي، وعندها يفرِّق النوعيُ الذاتي للإنسان بعد تحقُّق وحدة الوجود الواجب، بين **الغنى المطلق** يتَّصف به واجب الوجود وبين **الفقر الإمكاني المطلق** يتَّصف به المخلوق.

فيتجلَّى بذلك مقام الربوبية من العبودية فإذا أدرك السائر بوعي هذا المقام دلَّ إدراكه على أنه أُقيم على الفرق الثاني.

---

[1] / **المطموس**: يعني به مَنْ انطمستْ وتلاشتْ صفاتُه بصفاتِ الحقِّ عند شهوده للتَّجلِّي الإلهي في مقام القرب منه، وأنَّى لجائزٍ حادثٍ سقيم - سقم عشقٍ - أنْ يثبتَ لوجوب الوجود القديم!!!

ومقامُ الفرق الثاني هو مقام الإنسان الكامل، الذي يمثل قمّة مدارج السير إلى الله تبارك وتعالى، لأن صاحبه قد حقّق بتوفيقٍ من الله وتأييد وتسديد مُراد الله فيه.

فصار هذا الفقير السالك بذلك مريدًا بما سلكَ وسار، ومُرادًا بما جُذِبَ.

ومِن خصائص "المريد المراد" حينما يُقام في الفرق الثاني، أنْ يُكرَم بخاتم الملك القدوس الذي يحمل سِرَّ القهر، كما هو مقتضى اسم الله القهار، كما يحمل سِرَّ الحق جلَّ وعلا في كل مقتضيات التَّخلُّق والتَّحقُّق بأسماء الحضرة الإلهية، وأظهر الأسماء الإلهية تجلّيًا مِن خلال الأسرار التي يُكرم بها صاحب الفرق الثاني هي:

١. الملك.

٢. الحق.

٣. الوهاب.

٤. القهار.

ولا يكون صاحب الفرق الثاني إلا مَلِكًا بحقٍّ، إلا أنّه ليس مَلِكًا على دولةِ الزمان والمكان، وإنما هو مَلِكٌ على قُوَى الإنسان في مقام الإحسان الشهودي، تحقُّقًا بجمال جلال الذات الإلهي في مقامات الإدراك العرفاني يدخل في دائرة "حق اليقين".

وصاحبُ الهمة السابقة الأعلى عندما يُرَدُّ للفرق الثاني بعد أنْ تحقَّق حقَّ اليقين، إنما يكرم بهذا التَّدلّي بعد التَّعلّي، ليسير على القدم المحمدي مبشِّرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه مرشدًا وخبيرًا.

فيلتـزم الأدب العـالي للحـضرة النبويـة ، فيكـون وارده الـشريعة وحقوقهـا ، وفعلـه الطريقـة المحمديَّـة وآدبهـا ، وحالـه الحقيقـة الأحمديـة وأخلاقهـا الكريمة ، وأجلاها الجود والحلم والشكر والرضا والصبر.

متمكّن في مقام الحق بالتَّمكين، متمسِّك بالشَّريعة في كلِّ حين، فبسَوِيُّ الـروح أو أدنـى[1] ، أرضـيُّ الجـسد ، شـعاره في الحيـاة: [الـوزن بالقـسطاس المستقيم] وهو العدل الذي قامت به السماوات والأرض.

مضَى القولُ عن الهمة ، كلازمٍ ثانٍ مِن لوازم السير، كواحدٍ مِن مكوِّنات التصوف الإسلامي.

ثم يأتي الحديث عن "الـورد" باعتباره لازمًا ثالثًا مِن لوازم السير.

اللازم الثالث الوِرْدُ

والوِردُ هو ما ترتَّب على العهد مِن العبادات والقُربات.

ولا يكون وردٌ إلا بوارد ابتداءً ، لأنَّ العناية تسبق الهداية قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[2] ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ

1/ أو أدنى: قال أنس ﷺ {ثمّ علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتّى جاء سدرة المنتهى ودنا للجبّار ربّ العزّة فتدلى حتّى كان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى الله فيما أوحى إليه خمسين صلاة} [صحيح البخاري ج٦ ص٢٧٣١ الحديث رقم ٧٠٧٩].

2/ النور:"٤٠".

ﭐﻟۡﻤُﻬۡﺘَﺪِﻯ ﴾[1] ويمكن أنْ نستأنس لهذا المعنى بما ثبت عن الصحابة الكرام وهم ينشدون حال حفرهم الخندق والرسول ﷺ بين ظهرانيهم:

والله لــو الله مــا اهتــدينا ولا تــصدَّقنا ولا صــلَّينا
فــأنزلنْ ســكينةً علينــا وثــبِّت الأقــدامَ إنْ لاقينــا[2]

فظاهرٌ مِن البيتين أنَّ وارد العناية مِن الله عزَّ وجلَّ قد كانتْ به الهداية للإيمان.

والعباداتُ وفعلُ القربات وردٌ ليس في ذلك ريب. والورد يقتضي وروداً، لأنَّ الورد سببٌ، والورود غاية، وبينهما يأتي الوارد، فإذا كان الورود هو الوصول لعين الحقيقة، وما ثمة حقيقة إلا ما وجب وجودُها لذاتها، فإنَّ غاية الورود على ذلك هي الوصول إلى الله عزَّ وجلَّ، لأنه وحده واجب الوجود. وكلُّ ناتجٍ عن الورد قبل الوصول فهو واردٌ، يزوِّد صاحبَ الورد بما يقوِّي إرادتَه ويُعلِي مِن همته.

وعلى ذلك فالواردات للسائرين ارتفاقاتٌ وليست معاوضات. والارتفاقات فضلٌ والمعاوضات عدل، ولهذا ربما كان السائر حديدًا ماضيًا في ورده دون أنْ ينتج عن ذلك وارد، لأنَّ الوارد فضلٌ والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء وليس بيد العبد، وفضل الله تعالى مرتبطٌ برضاه، ورضى الله مرتبط بخلوِّ قلب المؤمن عما سوى الله.

---

[1] / الأعراف١٧٨.

[2] / حديث {والله لولا الله ما اهتدينا} :روى البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه [صحيح البخاري ج٤ ص١٥٠٦ الحديث رقم ٣٨٧٨]. وانظر صحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير الحديث رقم ٣٣٦٤.

فإذا كان السالك جادًا في ورده عالي الهمة في أدائه، وقد تطاول عليه الزمن دون أنْ يكرمه الله بوارد يُعينه على الورد، فليعلم مثل هذا السالك أنَّ سبب ذلك هو خواطر الأغيار التي تجول في ساح القلب فتمنع واردات الرب.

ومِن أكثر خواطر الأغيار التي تمنع الواردات الإلهيَّة خاطر "المعاوضة" لأنه دعوة للعدل [عبدتُ الله لكذا وكذا] وهنا تتمثل المعاوضة أيًا كان هذا العِوَض - مِن كثائف العطاء أو لطائفه- ولو عامل الله تبارك وتعالى النَّاسَ بعدله لما زكا منهم أحدٌ!! ولكنَّ الله لرحمته يعامل الناس بفضله، والواردات فضلٌ فاجعل الله يتفضَّل عليك بالعطاء.

أما إذا جعلتَ العطاء غايةَ عملك فربما حُجبتَ بالعطاء عن المعطي. وهنا ينقطع الطريقُ فيكثر قُطَّاعُه، إلا أنَّ سلاح السالك وهو الورد يلزم أن يكون ماضيًا، لأنَّ السلاح الماضي لابدَّ أنْ ينفذ إلى مقصده مهما حالتْ العوائقُ.

وسلاحُ السالك لا يوضع إلا عند الغاية بين يدي الله عزَّ وجلَّ، لأنه يستغني بالورود عن الورد.

ويبقَى الشهود مع الأدب هو لازم المقام وهو مقام أمنٍ وشُكر.

وأصحاب الأوراد عندنا نوعان:

- **أهل إنابة وهداية.**
- **أهل اجتباءٍ وعناية.**

والنوع الأول: أقامهم الله جلَّ وعلا في خدمته، ومنهم العُبَّاد والزُّهاد.

والنوع الثاني: اختصَّهم الله بمحبَّته، ومنهم المُحِبُّ العالم، والعارفُ الشَّهيد، والواصل المقرَّب.

ولكلٍّ مِن هذين النوعين وردٌ يلزم المحافظة عليه في وقته، ووارِدٌ يتنوَّع بتنوُّع الحال والمقام.

والورد مجموعة قُربات يستهدف مِن التزامها الوصول إلى تحقيق العبودية لله عزَّ وجلَّ.

وأكمل العبودية ما تحقَّق عن عِلْمٍ، والعلم الإلهي درجتان:

الأولى: خبرٌ مِن صادق وهو علم يقين.

الثانية: شهودٌ مِن محبوب وهو علم عين اليقين.

ولما كُنَّا بصدد تأصيل مصادر مكونات التصوف الإسلامي، فإنَّ الورد:

- **باعتباره مكوِّنًا مِن مكونات السير، الذي يعتبر واحداً مِن مكوِّنات التصوف الإسلامي في الإصطلاح**- هو مجموعة القُربات التي يلتزمها السالك لسبل السلام بقصد الورود إلى الله عزَّ وجلَّ.

وقد اتَّفقتْ كلمةُ علماء التصوف الإسلامي على أنَّ الورد يلزم أنْ يكون مشروعًا حتى يصل بصاحبه إلى الغاية.

ذلك لأنَّ الأوراد قُربات القصد منها التَّقرب لله تبارك وتعالى، ولا يتقرَّب الإنسانُ إلى الله عزَّ وجلَّ إلا بما شرع، فلزم مِن ذلك أنْ يكون الورد مشروعًا.

ولا يخفَى على الباحث في مجال التصوف الإسلامي أنَّ الأوراد المتداولة عندهم متشابهة، وتقرُب أحيانًا مِن التَّطابق.

والسِّمةُ التي تغلب على هذه الأوراد الشائعة بين أهل الطريقة الصوفية أنها نوافلٌ لفرائض، وقد تحولت هذه النوافل بسبب النذر بفعلها إلى عزائم.

ومِن مُسلَّم الثبوت عند أهل العلم أنَّ مَنْ نذر أنْ يفعل طاعةً فإنَّه مِن الواجب أنْ يفي بنذره، وذلك كما جاء به منطوقُ صحيح الحديث النبوي: {مَنْ نذر أنْ يطيع الله فليطع}.

ومن الثابت أنَّ أوراد القوم تدور كلها في إطار الطاعات.

هذا ولستُ بصدد تأصيل مفردات الأذكار التي اتَّخذها التصوف الإسلامي أورادًا يستهدف منها الوصول إلى معرفة الله عزَّ وجلَّ وعبادته على علمٍ يقيني، بحيث تفضي هذه العبادة القائمة على أمر الإحسان بدرجتيه[1] إلى محبة الله عزَّ وجلَّ لعباده، الذين تقرَّبوا له بنوافل القُربات وزوائد الطاعات، لأنَّ هذا التأصيل لمفردات الأوراد قد حفلتْ به العديدُ مِن المصادر والمراجع في هذا الشأن.

ولعل الأصل العام الجامع الذي يشكِّل المرجعيَّة العليا، وتندرج تحته كلُّ اجتهادات المرشدين مِن علماء التصوف الإسلامي، هو ما ورد أولاً في القرآن الكريم مِن حثِّ المسلمين على ذكر الله عزَّ وجلَّ على كلِّ حال، متى تحقَّقتْ الشروط وانتفتْ الموانع، ولا يخفَى أنَّ ما درج عليه المرشدون والمسترشدون مِن الصوفيَّة مِن أورادٍ مندرجٌ تحت هذا الأصل الجامع الآمر بذكر الله تبارك وتعالى وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾

---

[1] / بدرجتيه: والإحسان بدرجتيه إشارة إلى ما جاء في الحديث الصحيح:[... أنْ تعبد الله كأنَّك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك..] أيْ درجة المشاهدة أو درجة المراقبة.

وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾[1] وقوله تبارك وتعالى: ﴿ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[2] وقوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلاً سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾[3] وقوله عزَّ مِنْ قائل: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾[4].

وقد ورد ثانيًا في صحيح السنة عن الأذكار الكثير الطيِّب من الكَلِم النبوي، وقد جاءت السنة في ذلك لتوصِّل للذِّكر الفردي والجماعي على السَّواء.

ومن ذلك ما جاء في المتفق عليه من الصحيح من رواية سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قالَ قال رسول الله ﷺ {يقول الله تبارك وتعالى: أنا عند ظنِّ عبدي بي، و أنا معه إذا ذكرني، فإنْ ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي،

[1] / الأحزاب:٤١- ٤٢.

[2] / سورة الجمعة "١٠".

[3] / آل عمران: ١٩٠ –١٩١.

[4] / الرعد:٢٨.

وإنْ ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإنْ تقرَّب إليَّ بشبرٍ تقرَّبت اليه ذراعًا، وإنْ تقرَّب إليَّ ذراعًا تقرَّبتُ إليه باعًا، وإنْ أتاني يمشي أتيته هرولةً}[1]. وجاء في صحيح البخاري مِن رواية سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ {مثل الذي يذكُر ربه والذي لا يذكره مثل الحيِّ والميت}[2]. وقد جاءت الآثار صحيحة كثيرة في الحَثِّ على الذكر وفضله، وكتاب الأذكار للنووي رحمه الله، وزاد المعاد في هدى خير العباد لابن قيِّم الجوزية رحمه الله، مِن المصادر التي تحفل بذلك لمن أراد المزيد.

ولا أحسب أنَّ هناك ثمة خلاف يُذكر في مشروعيَّة الأوراد، والتزام نوافل القربات ممَّن سلك طريق محبة الله وسُبل السلام، التي تفضي إلى رضوان الله تبارك وتعالى.

وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ حديث "الولي" الذي يرويه عن الله عزَّ وجلَّ وفيه: {...ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أُحبَّه ...الخ}[3]. والحديث من رواية البخاري في صحيحه، والشاهد فيه أنَّ النَّوافل قربات ترتقي بصاحبها مع الإخلاص والتوفيق والقبول إلى درجة محبة الله لهؤلاء المقربين.

---

[1] / حديث{ يقول الله تبارك وتعالى: أنا عند ظن عبدي بي}: أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة . انظر [صحيح البخاري ج: ٦ ص: ٢٦٩٤الحديث رقم ٦٩٧٠]. و[صحيح مسلم ج: ٤ ص: ٢٠٦١ الحديث رقم ٢٦٧٥].

[2] / حديث{ مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه}: أخرجه البخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. [صحيح البخاري ج: ٥ ص: ٢٣٥٣الحديث رقم ٦٠٤٤].

[3] / حديث: { وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل}: انظر تخريجه في هامش الصفحة رقم ١٧٢.

وأينما ذهبتَ في رحاب التصوف الإسلامي العلميَّة والعمليَّة فإنك ستجد النوافل عزائم، لزمتْ أهلَ النُّسك والذِّكر بمقتضَى العهد الذي يجب الوفاء به، لأنه نذر لطاعةٍ يرتقي الوفاء به بالمؤمنين إلى درجة الأبرار المقربين الذين: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝ ﴾[1]

والأوراد في المنهج الصوفي في جملتها يقصد منها أمران:

الأول: التخلّي عن الرذائل.

الثاني: التحلّي بالفضائل.

فإذا تخلّى المؤمن عن الرذائل، وتحلّى بالفضائل أكرمه الله بإرث النبوة، وهو التَّجلّي بالدعوة والإرشاد إلى الله تبارك وتعالى بلسان المقال ولسان الحال.

بيد أن لسان الحال في المنهجية الصوفية أبلغ مِن لسان المقال، لأنَّ القول وصفٌ والحال اتِّصافٌ.

وقد يصف الداعيةُ الخيرَ والرُّشدَ والبرَّ ولا يتَّصف به، فلا يصلح قدوةً للمسترشدين.

ومن هنا جاء تركيز التصوف الإسلامي على "**الطريقة**" باعتبارها منهجًا عمليًا يقود إلى: "**تحقيق العبودية لله في مقام الإحسان الشهودي**" ومن لوازمه الحقيقة الكبرى وهي"**معرفة الله عزَّ وجلَّ**".

---

[1] / الإنسان:٧- ١٠.

ومِن الثابت عندنا أنَّ كلاً مِن الطريقة والحقيقة مِن مكوِّنات الشريعة، التي يتوارد عطاؤها ولا يتعارض، ولا ينسخ شيء من هذه المكوِّنات الآخر.

فالشريعةُ بنظرنا شِرعةٌ واردة ومنهاج عام، والطريقة عُمقٌ عملي سلوكي على هدى الشريعة ومنهاجها، أما الحقيقة فهي العمق المعرفي والوجودي الذي يقف بالسالك على الحقيقة العلمية والوجودية متمثلة في وجود الله ووحدانيته، وتحقيق العبودية الكاملة له مع شهوده عزَّ وجلَّ.

وليس ثمَّة أسمَى مِن أنْ يشهد المؤمن أنه **"لا إله إلا الله"** قائمًا بالقسط، وليس ثَمَّ عبادة أكمل مِن أنْ يعبد المؤمنُ الله عزَّ وجلَّ مِن مقام هذا الشهود، ذلك لأنها عبادةُ المحسنين.

ولا ريب أنَّ الفرق كبير بين أنْ **"يعلم"** المؤمنُ أنه **"لا إله إلا الله"** وبين أن **"يشهد"** أنه **"لا إله إلا الله"**.

لأن في الشهود مِن الحضور وأدبه وعلمِه وعطائه ما ليس في العلم مجرَّدًا عن الشهود.

إذ أنَّ عين الفؤاد المنوَّر لا تكذب في رؤيتها لمجالي الحقِّ في معارجه العليا، ولاسيَّما عند الأبرار المقرَّبين.

ولا يخفَى أنَّ الشهود بهذا المفهوم غاية سامية مِن غايات الشريعة.

وللطريقة مشارعٌ، وللحقيقة مشاربٌ، تقود الشريعةُ المسترشدين إليها.

ولن يَرِدَ أحدٌ مِن المؤمنين مشارعَ الطريقة ومشاربَ الحقيقة إلا بورد لازم لزوم الحقيقة للحق.

ومَنْ زعم أنَّه يمكن أنْ يتحقَّق الورود أو يتلقَّى الوارد مِن غيرِ أورادٍ فقد كذب ما دام مِن أهل الهداية.

فإنْ كان مِن أهل الاجتباء صحَّ وروده بعين الجود لا ببذل المجهود.
وعلامة الاجتباء التبتُّل إلى الله تبتيلاً، يتحرَّر فيه هذا المُجتبى عن كلّ ما سوَى الله عزَّ وجلَّ، **فلا يملك شيئًا ولا يملكه شيءٌ**!!.
قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾[1]
وها أنت ترى في الآية أنَّ الهداية ناتج الإنابة، والإنابة مِن كسب الإنسان، بخلاف الاجتباء فهو ناتج مشيئة الرحمن، ومشيئة الرحمن لا تُعَلَّلُ مِن الأغيار، لأنه حكيم خبير على الإطلاق. إلا أنَّ الإنابة لا تنتج الهدايةَ بكسبِ الإنسان استقلالاً، وإنما بعنايةٍ سابقةٍ وهدايةٍ مِن الله في عالم الأمر فالله وحده هو الذي يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم.
وأقرب الأوراد وسيلة للورود هي ما جاء في القرآن الكريم، وما صحَّ عن سيدنا رسول الله ﷺ من أعمال اليوم والليلة.
ويلاحظ أنَّ هذه الحقيقة الشرعية لم تغب في المنهجية الصوفية السلوكية، لأنك متى استقرأتَ وسبرتَ أغوارَ مأثور التَّصوف الإسلامي السُّلوكي في مجال الأوراد، فإنك ستجد دون عناءٍ أنَّ القوم أهلُ اتِّباعٍ واقتداء.
وما حسبه بعضُ العلماء خارجًا عن دائرة المشروع - من الأوراد مثل الذكر بالاسم المفرد "الله" يردِّده الذاكر أو الذكر بضمير الغيبة "هو" - ثم يتبعهم فيما ذهبوا إليه بعضُ المنتسبين للعلم، فهي على خلاف ما حَسِبه أولئك العلماء الذين قَصُرتْ مداركُهم عن الإحاطة بفقه ومأثور المسألة، فجاءتْ أحكامُهم قاصرة لذلك.

---
[1] / الشورى:١٣.

ولئن قام العذر لأمثال الشيخ ابن تيمية وتلميذه الشيخ ابن قيم الجوزية، وقبلهم أبو الفرج بن الجوزي، بأنهم اجتهدوا في مسائل الأذكار فأخطأوا الاجتهاد، فما بال خالفة مِن المنتسبين للعلم يقلّدون هؤلاء العلماء في الخطأ، بل ويتعصَّبون لمأثور هؤلاء العلماء في هذا الشأن كأنه تنزيلٌ من التنزيل!! لا أرَى سببًا لذلك إلا التَّقليد المحض الذي أزرَى به الشَّرع، وندب المؤمنين إلى التَّحرُّر مِن ربقته.

وسيأتي الحديث متراحبًا ببرهانه عن موضوع مشروعيَّة أوراد الصوفية، بما في ذلك الأوراد مناط الخلاف، وذلك في الباب السابع من هذه الدراسة بإذن الله وتوفيقه ومشيئته.

هذا وأحسبُ أني بلغتُ بعضَ حاجتي في التَّنويه بشأن الورد وأهميته في السير إلى الله تبارك وتعالى.

أما تفاصيل هذه الأوراد وما ينتج عنها مِن واردات، فإنها ستَرِدُ إنْ شاء الله بإسهابٍ في محلّها مِن هذه النظرات، مع توسُّعٍ فيما درج عليه الصوفية من تخصيص عددٍ وزمانٍ لهذه الأوراد، ومدى مشروعيَّة هذا الأمر.

ثم يأتي الحديثُ عن المقصد والغاية كلازمٍ رابع مِن لوازم السير.

اللازم الرابع المقصد والغاية

يقرِّر منهجُ التصوف الإسلامي على تعدُّد مشاربه ومختلف أطواره، بأنَّ المقصد الأساسي لهذا المنهج، هو أنْ يصل بالصوفي إلى الله تبارك وتعالى، باعتبار أنَّ الله تبارك وتعالى هو منتهَى العلم ومنتهَى العمل على السَّواء، كما أنه منتهَى الوجود.

وغاية الصوفي في هذه الحياة الدنيا هي أنْ يعلَمَ فيعمَل فيجدَ الله تبارك وتعالى فيما علِمَ وعمِل، وأكثر الوجود يقينًا ما كان عن شهود.

وعلى ذلك فإنَّ غاية الصوفي في الحياة الدنيا هي أنْ يشهد الله تبارك وتعالى قائمًا بالقسط في كلٍّ لحظة مِن مَحيا هذا الصوفي ومماته.

وهو شهودٌ يستلزم الحضور التَّام مع الله عزَّ وجلَّ في مَحيا الإنسان، ولا يخفَى أنَّ الحضور مع الله عزَّ وجلَّ هو سِرُّ تجويد العبادة، كما أنَّه مناطُ كمال العبودية.

وإذا كانت العبادة مِن أعمال الجوارح، فإنَّ العبودية مِن أعمال القلوب.

والعبودية درجاتٌ لا تحصَى، وبلوغ المؤمن درجةَ الكمال في العبودية مقصدٌ يشكِّل الغاية مِن السير والسلوك في منهج التصوف الإسلامي.

ومقتضَى كمال العبودية لله عزَّ وجلَّ ولازمها، أنْ يتحرَّر المؤمن عن كلِّ ما سِوَى الله عزَّ وجلَّ.

وعلى ذلك فإنَّ حريَّة المؤمن عمَّا سوى الله تبارك وتعالى وكمال عبوديته لله عزَّ وجلَّ هما المظهران اللذان يعبِّران عن وصول الصوفي إلى الله تبارك وتعالى في واقع الحياة.

وتحريرُ المؤمن عمَّا سوى الله عزَّ وجلَّ ليس عملاً ميسوراً، ولا غايةً سهلة المنال. لأنَّ دون هذه الحرية والوصول للسُّبل التي توصل إليها جهادٌ في الله كبير. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾[1]

---

[1] / العنكبوت:٦٩.

ولا خلاف أنَّ: إقامة سلطان الله في الأنفس، وإقامة سلطان الله في الآفاق هما المظهران الموضوعيَّان الواقعيَّان "للحرية" التي نعني، ومقامها العزة بالله عزَّ وجلَّ.

أمَّا إسلام كلٍّ ذلك لله عزَّ وجلَّ، والعلم والعمل في كلِّ ذلك باسمه عزَّ وجلَّ على منهج رسالة الإسلام الخاتمة، فهو الذي يشكِّل المظهر الواقعي "للعبودية".

هذا على مستوى الإنابة من المحبين، وحال صاحب مقام العبودية تفويض أمره لله تعالى.

أما في الاجتباء والاصطفاء من المحبوبين، فإن المقصد يتسامَى، فيتجاوز الحرية إلى معارج التَّخلُّق بأخلاق الله، والتَّحقُّق بصفاته وأسمائه التي أباح للناس التَّحقُّق بها، حتى تكون عبودية هذا المحبوب من المؤمنين مظهراً كاملاً للربوبية، فيكون الحبيب بهذا التَّحقُّق صورة للرحمن في عالم الشهادة.

وعندما نقول "صورة للرحمن" فإننا لا نعني ما قد يتبادر إلى بعض الأذهان مِن المعاني والأشكال المحسوسة، وإنما قصدنا من ذلك تلك الصورة المثالية التي يُشكِّلها مجموع صفات المعاني والمعنوية، مع مظاهر الأسماء الحسنى في عالمي الملك والملكوت، وهي الربَّانية التي أمر الله تعالى المؤمنين أنْ يكونوها.

ومَنْ بلغ هذا المقام مِن سالكي نهجِ الصَّفا لا يُنعتُ بأنه "حُرٌّ" فحسب، وإنما هو "سلطانٌ" بمقتضَى الاستخلاف في الأرض.

وهي خلافةٌ بسطتْ سلطانَها الرباني في ساحِ القلب حتى خشع هذا القلب وأسلم لله رب العالمين، في شهودٍ نوريٍّ لجمال الله وجلاله.

مما يحفظ هذا القلب مِن خواطر السُّوَى، فيعيش صاحبُ هذا القلب راضيًا عن الله عزَّ وجلَّ، فيرضَى الله عنه رضوانًا أكبر.

فيعيش هذا العارف في جنَّةٍ لو علمها سلاطينُ ما ظهر مِن الحياة، لقاتلوه عليها!!!.

وسلطانُ التُّقَى مقنعٌ بذاته للدخول في سوحه والانتماء لأهله والالتزام بمنهجه.

وهو سلطانٌ لا يتمتَّع به إلا "الأحرار" الذين أقاموا سلطان الله في قلوبهم، فغدتْ عروشًا لتجلِّيات رضوان الله تبارك وتعالى في عالمَيْ السَّنا والسُّنَن.

أما المنهزمون داخليًّا الذين استعبدتهم شهواتُ النَّفس والهوَى والشيطان، فأخلدوا إلى الأرض منكبِّين على وجوههم، يتنافسون العاجلة، ويتقاتلون بمختلف أنواع الأسلحة في سبيل زبدها الذي يذهب جُفاءً، فلا نصيب لهم من سلطان التُّقَى أبداً.

ذلك لأن التقوى لا تقوم إلا بقلبٍ سليم، والقلبُ إذا تنازعته الأهواءُ واستحوذ عليه الشيطان لا يكون سليمًا قطعاً.

والمنهج الصوفي منهجٌ مُحكمٌ رصينٌ في الوصول بأهله إلى مقام التَّقوى وسلطانها، حتى يُسلِمَ المؤمن قلبَه ووجهَهُ لله رب العالمين، في تخلُّقٍ وتحقُّقٍ بأسماء الله وصفاته، حيث الكمال والجمال اللذان يُشكِّلان الأسوة لمَنْ تأسَّى، والقدوة لمن يقتدي.

وهي دعوة إلى الله بلسان الحال، يعطيه الصوفي العارف حينما يتجلّى في واقعه المعيش بهذا المظهر المثالي، مُعبِّرًا عن أشواق الروح ونوازع الوجدان السليم، فيحبُّه الناس لما قام به مِن فضائل، ولما ظهر به مِن جمالٍ وكمال، وإنْ لم يكن بينه وبينهم أفضالٌ قط، لأنَّ الكمال محبوبٌ لذاته.

وغاية الكمال فناء العبد المؤمن في الله {... كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به...الخ}. الحديث القدسي الصحيح، ثم بقاؤه بالله تعالى، حتى يُقيم الوزنَ القسط بين كفَّتَيْ الوجود الذاتي والوجود الإضافي.

وإذا كان فناء الفقر الذاتي في الغنى المطلق، يعطي مصداق الفقر كمقام واقعي من مقامات طريق الرجعى إلى الله عزَّ وجلَّ، ذلك لأنَّ نعت "فقير" لا يطلق على الحقيقة إلا على مَنْ أقامه الله على جمع الحقيقة، وذلك حين فناء حواس السالك في صفات الحق تبارك وتعالى؛ فإذا صدق الفقير في فقره أكرمه الله عزَّ وجلَّ بالغني والعز، ليكون عند الله وجيهًا، فيتجلّى الله تبارك وتعالى بصفاته على هذا "الفقير" الفاني، وحينذاك يكرم الفقير بمقام البقاء بالله بعد الفناء فيه، فيكون بهذا المقام وليًّا مرشدًا وفقيرًا غنيًّا!! وهو غِنًى حلال لا شائبة للحرام فيه.

ولعل ذلك هو ملحظ الإشارة في الدعاء المأثور {اللهم اكفني بحلالك عن حرامك وأغنني بفضلك عمن سواك}[1]. وهذا هو غنى الحقيقة الذي يلزم منه الشكر الدائم لله عزَّ وجلَّ، وهو وحده الغنى الذي يقتضي المدح.

---

[1] / حديث{ اللهم اكفني بحلالك عن حرامك}: أخرج الترمذي عن علي ﷺ ان مكاتبا جاءه فقال إني قد عجزت عن كتابتي فأعني قال الا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله ﷺ لو كان عليك مثل جبل صير دينا أدَّاه الله عنك قال قل

أما غنى الدنيا فهو فتنة وابتلاء، فإنْ تجاوز اليدين إلى القلب، صار شركاً يتعبَّد له بعض الناس {تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار} ١، فالأمر لا يعدو أن يكون "تعاسة" في المآل.

فإسلام قلب المؤمن وَوَجْهِهِ لله عزّ وجلّ في طريق الرُّجعى إلى الله بمختلف سُبُلِه مع الإحسان الشهودي، هو المقصد الأساسي لمنهج التصوف الإسلامي.

فإنْ تحقّقتْ بعضُ المقاصد بجانب ذلك فإنما هي مقاصد تبعيَّة لا تُستهدَفُ أصالةً ولا تُشكِّل غاية. لأنَّ الأمر قد جاء من الله تبارك وتعالى في قوله عز

{اللهم اكفني بحلالك عن حرامك واغنني بفضلك عمن سواك} قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب [سنن الترمذي ج٥ ص٥٦٠ الحديث رقم٣٥٦٣] وأخرجه الحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه [المستدرك على الصحيحين ج: ١ ص: ٧٢١ الحديث رقم ١٩٧٣].

١/ حديث{ تعس عبد الدينار}: أخرج البخاري عن أبي هريرة ﷺ عن ﷺ قال: {تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه إن كان في الحراسة كان في الحراسة وإن كان في الساقة كان في الساقة إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع} [صحيح البخاري ج: ٥ ص: ٢٣٦٤ الحديث رقم ٦٠٧١]وانظر سنن ابن ماجه، كتاب الزهد الحديث رقم ٤١٢٦.

تعس:هلك. القطيفة:كساء غليظ. الخميصة:ثوب مخطط من حرير أو صوف. انتكس: خسر وخاب. شيكَ:أصابته الشوكة. انتقش:نزعت منه الشوكة بالمنقاش.

وجل: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾[1].

فقد أمر الحق تبارك وتعالى عباده بأن لا تشغلهم شِفعيَّة الخلق عن وِتريَّة الحق، ذلك لأنَّ ثنائيَّة الخلق تنشأ مِن مقتضَى افتقارهم وحاجتهم لهذه الثنائية.

للإنسان في الحياة زوج مِن جنسه، وحتى لا تشغل الزوجيَّةُ ومقتضياتُها في الحياة المؤمنَ السَّالكَ، فإنَّ الله تبارك وتعالى يأمره بالفرار مِن هذه الأثنينيَّة المُلهية المُطغية المُضلَّة عن سواء السبيل، إلى الله الواحد الأحد.

ذلك لأنها ثنائيَّة صراعٍ و تَضادٌ، لأن الإنسان مخلوق مِن زوجين روح رباني، ونفس حيواني، بما يقتضيه من جسم. والنفس مطية الشيطان، والروح من أمر الرحمن. والشيطان والنفس مخوفان، فجاء الأمر من الخالق الحكيم بأنْ يفرَّ الإنسانُ إلى الله تبارك وتعالى مِن مواطن الهلكة، لأنَّ الشيطان والنفس الحيوانية إذا استحوذا على الإنسان استعبداه بالهوَى، حتى يتخذ مثلُ هذا المستعبد مِن البشر إلهَهُ هواهُ، وربما أضلّه الله على علمٍ، ولذا جاء التَّحذير مِن لازم عدم الفرار إلى الله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾[2].

وبذلك يكون المقصد الأسمَى للمنهج الصوفي "الفرار والوصول".

والفرارُ منهجٌ له لوازمه ومقتضياته، وكلُّ ذلك واجبٌ عينيٌّ على المؤمن.

---

[1] / الذاريات:٤٩- ٥١.

[2] / الذاريات ٥١.

والتَّعبير بالفرار عن السير في طريق الله عزَّ وجلَّ، ملحوظ فيه السَّير فورًا وبأقصَى سرعة ممكنة، مع إسقاط وإزالة ما يُبطِّئ حركة السائر مِن أوزار ومعوِّقات تعطِّل السير وعقبات تقطع الطريق.

وهذا الفرار لا يصل بصاحبه إلى مقصده إلا بمرشدٍ قد خبر المسار، ونورٍ كاشفٍ يهدي إلى سواء السبيل.

ولَمَّا كان هذا المسار معنويًا، فإنَّ التَّخلِّي عن أمراض القلوب يُشكِّل الصفاء اللازم لمرآة القلب، حتى تبصر عينُ الفؤاد.

فإذا وصل السائر إلى الله فلابد له من شهود حضرة الذات الإلهية عبر مجالي الأسماء الحُسنَى والصفات الأسنَى.

المبحث الخامس: الصفاء والمشاهدة

لا يخفَى أنَّ الصفاء والمشاهدة مِن مكوِّنات منهج التصوف الإسلامي، إلا أنَّها مكوِّنات تَـرِدُ في مقام الوسائل.

أما الغاية مِنْ ذلك الصَّفاء وتلك المشاهدة فهي **تحقيق كمال العبودية لله عزَّ وجلَّ**.

والمعلومُ عندنا في المنهج الصوفي أنَّ الله عزَّ وجلَّ تعبَّد الناس بأسمائه الحُسنَى، ومِن ثَمَّ جعل إحصاء هذه الأسماء ممَّن أكرمه الله بذلك مِن الناس سبيلاً إلى الجنة.

وعلى ذلك فإنه على مقدار تخلُّق الإنسان بأسماء الله تبارك وتعالى تكن درجة كمالِ عبوديَّة هذا الإنسان.

ومن المسلَّم أنَّ اسم "الله" واسم "الرحمن" هما الإسمان الجامعان لكمال الذات الإلهي، وإليهما تتَّجه مدارج العبوديَّة في مراقي الكمال.

فأكملُ إنسانٍ هو ذلك الذي تحقَّق بكمال مراتب التَّعريف الإلهي شهودًا ووجودًا، حتى جعله الله تبارك وتعالى مظهراً تامًّا لكمال الربوبية في مختلف مراتب الوجود، حتى الوحدة الواجبة المطلقة التي تمثِّل العمق العرفاني والوجودي لعقيدة التوحيد.

ولم يُكرَم بهذه الدرجة مِن الكمال سِوَى حبيب الله سيدنا **محمد رسول الله وخاتم النبيين** ﷺ، وكان بذلك الإنسان الكامل والمثل العالي والقدوة والأسوة الحسنة لمَن كان يرجو الله عزَّ وجلَّ.

الصفاء:

والصفاء بالتخلّي عن نوازع الحيوانية والوساوس الشيطانية تزكيةٌ دعا الله عزَّ وجلَّ المؤمنين إليها، وجعلها مِن مقاصد وغايات الرسالة الإسلامية الخاتمة.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولاً مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾[1]

ويقول عزّ مِن قائل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡ ۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾[2]

ويقول عزّ وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ ۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾[3]

---

[1] / البقرة:١٢٩.

[2] / الجمعة:٢- ٣.

[3] / النور:٢١.

ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾[1]

ويقول عز وجل: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾[2]

ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾[3]

ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾[4]

ويقول عزَّ مِنْ قائل: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾[5]

---

[1] / طه "٧٥- ٧٦".

[2] / فاطر:١٨.

[3] / الأعلى:١٤- ١٩.

[4] / النازعات:١٧- ١٩.

[5] / الشمس: "٧- ١٠"

هكذا يتصرف البيان القرآني، فتتعدَّد آياته في التنويه بتزكية النَّفس والدعوة إلى سبيل ذلك.

وبذلك تكون مرجعيَّة التصوف الإسلامي في دعوته لتزكية النفوس، وتصفيتها من درن الاكتساب الآثم، وتطهيرها وتنمية مشاعرها ومداركها وحواسِّها الباطنة، واعتبار هذا من أهم مقاصد التصوف الإسلامي مرجعيَّة شرعيَّة عاصمة، ليصدر التصوف بهذه المرجعيَّة العليا عن أصلٍ جامعٍ وبرهانٍ قاطعٍ، يقف حُجَّةً قويَّةً على أصالة المنهج الصوفي، وهو يدعو المؤمنين إلى سلوك هذا المنهج، وذلك بالتَّجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود، وذلك بالتزام قرباتٍ تطهِّر النفوس، وتنمِّي نوازع الخير ومشاعر الحب والإصلاح.

وأجدَى وسائل التَّقريب من هذا المضمار:

* الدوام على ذِكْرِ الله قولاً وفعلاً وحالاً.
* المداومة على صلاة الفرائض في الجماعة حيث ينادَى بها، مع ملازمة نوافلها الراتبة وغير الراتبة.

لأن في السجود اقتراب، مع التَّفطُّن **لإقامة الصلاة**، لأنَّ المداومة على أدائها كيفما اتَّفق لا يُنتج أثراً وإنْ أسقط الطلب الظاهر.

وعلى الرغم مِن أنَّ غالب المهتمين بالدراسات الصوفية لا يختلفون في أنَّ الدعوة إلى تزكية النفس مِن القسمات الواضحة التي تُميِّز منهج التصوف الإسلامي عن غيره من مناهج العمل الإسلامي على تعدُّدها وتنوُّعها، إلا أنَّ بعضهم قد يعيب على التَّصوف دعوته الملحَّة للزهد،

والتَّجافي عن طيِّبات ما أحلَّ الله لعباده في الدنيا، والرضا بشظف العيش وخشونة المَحيا.

ولهؤلاء نقول:

إنَّ الانغماس في الدنيا والتَّمتُّع بطيِّباتها، وإيثار ذلك على النَّهار المُصام والليل المقام والذكر المدام - باعتبارها وسائل تقريب لطريق الآخرة- أمرٌ تأباه شريعة الإسلام في كلِّ دورات ملامستها لأرض الناس.

وبما أنَّ الإنسان عنصرٌ أرضي في تكوينه الظاهر، فإنه لابدَّ أنْ يَخلُد إلى الدنيا ويؤثر الحياة فيها بكل ما يُشبعُ غرائزَه، ويحقِّقُ مطامعَه ومطامحَه، ولا يخفَى أنَّ مثلَ هذا السلوك في الحياة يؤثِّر تأثيرًا سالبًا على الروح الربَّاني، الذي يُعتبر المُكوِّن الأساسي لمفهوم الإنسانية في بني آدم.

ومِن المعلوم أنَّ الروح الرباني لا يزكو ولا يتسامَى بالدنيا، وإنْ زكى وتسامَى فيها.

ولكنه يزكو بإنابة الإنسان إلى الآخرة والسَّعي لها بما يناسبها مِن سَعْي.

وبما أنَّ الدَّعوة إلى تحقيق معنى الإنسانية - بتزكية الروح الرباني في هذه البنية البشرية- دعوةٌ شاملة عامة لكل بني آدم ذكورهم والإناث، فقد جاءتْ دعوة في صميم رسالة التوحيد السماوية مبشِّرة مَنْ التزم منهجَ الصَّفاء والزَّكاء في دنياه بالفلاح في الآخرة.

قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾[1]

يعني الدعوة إلى تزكية الروح وصفاء القلب، بالتزام ذكر الله ودوام إقامة الصلاة مع عدم إيثار الحياة الدنيا والإنابة إلى الدار الآخرة - وهو أمر يأتي في الصميم من منهج التصوف الإسلامي- وإنه لفي الصُّحف الأولى صُحُفِ إبراهيم وموسى.

ومع وضوح دلالة هذه الآيات على تقادم مرجعيَّة الدعوة لتزكية النفس، وانتمائها إلى رسالة التوحيد منذ أنْ أنزل الله الصحف على خليله سيدنا إبراهيم عليه السلام، إلا أنك لا تعدم مِنْ بعض الراكضين في ميدان العداء لمنهج التصوف الإسلامي، مَنْ ينعتُ التصوف الإسلامي على عمومه دون تخصيص بأنه منهجُ شرك وكفر وبدعة وضلالة!!!.

ولا أحسب مثل هذا إلا شخصًا لاهثًا، ربما يضيق صدره مِنْ كِبْرٍ وغرض ما هو ببالغه، فإنْ تحمل عليه يلهث وإنْ تتركه يلهث، فدع مثل هذا لاهثًا ما حَييَ، تتجارَى به الأهواء وحاجات الحياة، ووطِّن النَّفسَ أيها المؤمن على التزام منهج الفلاح بتزكية النفس حتى يُلهمها الله تقواها.

والتقوى كما هو معلوم عِماد الولاية الخاصَّة، كما أنَّ الإيمان هو عِماد الولاية العامة.

---

[1] / الأعلى:١٤- ١٩.

وكلُّ تقيٍّ مؤمنٌ وليس كلُّ مؤمنٍ تقيًّا. فالمتقون هم أهل الولاية الخاصة، ولا يبلغون العالي من درج الولاية الخاصة إلا بحقِّ التقوى.

أما كمال الولاية وبلوغ الدرجة الأعلى من القرب في حضرة الذات الإلهية، فلا يكون إلا بحقيقة التقوى، ويُنْعتُ صاحبُ حقيقة التَّقوى بـ"الأتقَى"، وأفعل التفضيل تفتح مدارج التَّقوى على مقاماتٍ لا تتناهَى.

ومِنْ حَظِّ "الأتقَى" في مقامات كمالات الولاية الخاصَّة أن يكون الأكرم عند الله العزيز الحكيم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾[1]

والإنسان لا يُكرم بمقام "العندية" في حضرة القدس الأعلى إلا بنعت الجمال والكمال سمةً لازمةً لعبودية الإنسان للرحمن.

فالعبودية الكاملة والولاية الكاملة وجهان لذاتٍ واحدة. وبمقدار شغل المؤمن بما سوى الله وتعبُّده للأغيار "مال- ولد- جاه- منصب" تكن درجة النقصان في ولايته.

فإنْ كان ممَّن ألهاه مالُه وولدُه عن ذكر الله فأولئك هم الخاسرون، وذلك حينما استبدلوا الكرامة بتقوى الله بالإهانة، والعزة بالله بذُلِّ البعد عنه،

[1] / الحجرات:١٣.

انشغالاً بما يفنَى، وما عند الله خير للأبرار المقربين الذين ذكروا اسم الله وتبتَّلوا إليه تبتيلاً.

هذا عن التَّزكية وما ينتج عنها مِن الصَّفاء كأحد مكونات التَّصوف الإسلامي في مفهومنا.

وقد سُقتُ من كلام الله تبارك وتعالى ما يؤصِّل لهذه الجزئية من جزئيات التصوف الإسلامي، حتى لا تضلَّ مناهجُ بعض الباحثين عن التَّصوف الإسلامي في مسارب الصليبيَّة والهيلينيَّة، والفلسفات الهنديَّة والفارسيَّة لجعلها مصدرًا للتَّزكية والصَّفاء في المنهج الصوفي.

المشاهدة:

وتأتي المشاهدة كأثرٍ مِن آثار التَّزكية والصفاء، ومكوِّنٍ مِن مُسمَّى التصوف الإسلامي. ولا خلاف عندنا في المنهج الصوفي على أنَّ المشاهدة مقامُ علمٍ تعريفي مبصر، يسبقه ضرورةً مقام "الفكرة" "التفكُّر".

والفكر سيرٌ بالعقل في مُلك الله وملكوته وما فيهما مِن آياتٍ دالَّة على الله تبارك وتعالى.

ولا يتفكَّر المؤمن على الحقيقة إلا إذا ذَكَرَ، فإذا استحضر الذَّاكرُ المذكورَ، جاء التَّفكُّر في مَجالي التَّعريف، التي أقامها الله تبارك وتعالى في طريق الرُّجعَى إليه.

فلا يزال السَّالكُ الذَّاكرُ في تفكُّرٍ وتعرُّفٍ حتى يصل به ما سلكَ مِن منهجٍ إلى حضرة الذات الإلهية في مظاهر الأسماء الحسنى. فينقطع التفكير لأنه ثنائي لايصلح وسيلة للتَّعريف في مقام الوحدة، وهذا مِن معاني الفناء في مقام الجمع.

فإذا فني المؤمن عن الوعي الموضوعي في مقام الجمع، أبصرتْ عينُ فؤاده المَجلَى العظيم لوحدة الذات الإلهي فعلاً وصفةً واسمًا. فيدخل هذا المؤمن السَّالكُ الذَّاكرُ المفكّرُ "مقام المشاهدة"، وهو مقام له ثلاث درجات بالنسبة للسَّالك:

- الوجود.
- الحضور "الانتباه واليقظة".
- المشاهدة.

والمشاهدة لا تكون إلا عن وجود وحضور، لأنَّ السالك مِن المؤمنين قد يكون موجوداً في دوائر حضرات التَّعريف، ولكنه غير منتبه ولا متيقّظ، فلا يكون حظه مِن المعرفة إلا شعوره بالوجود، وهي معرفة تشوبها الغفلة. فإذا حضر هذا المؤمن في وجوده، فتيقّظ وانتبه، فإنه لابد أنْ يعرف مقام ربه، فتُفضي به هذه المعرفة إلى الخشية والورع، لاستشعاره مراقبة الله إيَّاه، وهذا أحد درجتي مقام الإحسان.

فإذا جوَّد هذا السَّالك الحضور مع الله تبارك وتعالى، وتأدَّب بأدب المقام، وأكرمه الله تبارك وتعالى بسرٍّ اليقظة القلبيَّة بعد جهادٍ في الله كبير، فإنَّه سيُكْرَم بإذن الله تبارك وتعالى، بكَشْفِ حجاب مظاهر التَّعريف عن المعروف لذاته في الإطلاق.

وفي هذا المقام تكون أداة المعرفة والإدراك هي الروح الربَّاني المقدَّس، حيث تُبصرُ عين الفؤاد وهي حديدة في حضرة الإطلاق مِن تجلّيات الله الذاتية ما لا يمكن معه أنْ تطرف أبداً!!!! لأن عين الفؤاد إذا طرفتْ فإنَّه لابدَّ أنْ يفوتها مِن العلم بمقدار ما طرفت. افَتِّحْ عينك يا فقيرا. [وقل ربِّ زدني علمًا].

ومَنْ استيقظ حِسًّا استيقظ معنىً، ولهذا حرص فقهاء الطريقة الصوفية على قيام الليل توسُّلاً ليقظة القلب، بالدوام على يقظة الجسد، بشرط الحضور والتفكُّر.

ولابد أنْ يتفطَّن الفقير السالك، لأن بين يدي المشاهدة - وهي الدرجة الأخرى من درجات الإحسان- وارداتٌ يُتْحَفُ بها الحضور.

فالحذر كلَّ الحذر مِن أنْ تكون الواردات الربَّانية - وإنْ بلغتْ الدَّرجة العالية مِن اللطافة- حجابًا يحول بين الشاهد "الفقير" والشهيد "الحق" عزَّ وجلَّ.

لأنَّ مَنْ انشغلَ بالكرامة "الواردات الربانية" عن شهود "الكريم" عزَّ وجلَّ، دلَّ ذلك على أنَّه لا يزال في رِقِّ الأغيار ولم يتحرَّر بعدُ!! ممَّا يَشي بسقوط الهمَّة وهي خصال عبيد السُّوء.

ومَنْ انشغل بالكرامة عن الكريم، حُرِم الشهود ولابدَّ!!! لأنَّه لم يقدِّر الله حقَّ قدره.

ومَنْ حُرِم الشهود حُرِمَ علمَ الإحسان الشُّهودي.

ومَنْ لم يُحسن العِلمَ شهوداً لا يصلحُ مرشداً.

لأنَّ الإرشاد إلى شيءٍ مع الجهلِ به حماقةٌ وأفنٌ!!

وآملُ أنْ لا يكثرَ الحَمْقَى في هذا الطريق.

هذا عن المشاهدة في المنهج الصوفي، سُقتُ واردَ الوقت فيها بإيجازٍ، مع رجاء بسط القول فيها في موضعٍ آخر مِنْ نظراتي هذي إنْ شاءَ الله ووفّقَ.

المبحث السادس

المراسم والمواسم في التصوف الإسلامي

ظهرَ هذا المصداق مِن مصاديق التَّصوف الإسلامي بما يدل عليه المصطلحان "المراسم والمواسم" في الطور الجماعي مِن أطوار التصوف الإسلامي، وهو الطور الأخير منذ النصف الثاني من القرن السادس الهجري.

وقد اعتمد القوم في اعتبار المراسم وإقامة المواسم على المرجعيَّة الشرعيَّة في عموميَّات السنَّة النبويَّة التي أقرَّتْ أصول هذه المراسم وعلى رأسها:

- ❖ السَّماع.
- ❖ الاحتفال بالأعياد.
- ❖ الاحتفال بالمولد النبوي.
- ❖ أدب التعامل مع الشيخ.
- ❖ زيارة الصالحين أحياءً وأمواتًا.
- ❖ البناء حول مشاهد الصالحين.

وليس مقصدي في هذا الفصل مِن فصول هذا الباب من النظرات أنْ أردَّ جزئيَّات هذه المراسم إلى أحكام تفصيلية يقتضيها فقه هذه المسائل.

وإنما قصدتُ أنْ أسوق هذه الموضوعات جملةً باعتبار أنَّها مِن مُكوِّنات التَّصوف الإسلامي، وأزعمُ أنَّها مُكوِّنات لها أصلٌ في مصادر الشَّرع الحكيم.

يرِدُ هذا الأصل عمومًا فيما يعرفه العلماء مِن السُّنة التَّقريريَّة للمصطفى صلى الله عليه وسلم.

وسيَرِد القول مفصَّلاً بما يجعل دعوانا بمشروعيَّة هذه المراسم والمواسم قائمة على أصولٍ قويَّة وأدلَّةٍ راجحةٍ، وذلك في حديثنا عن عطاء البيئة وأثره في المنهج الصوفي بمشيئة الله وتوفيقه.

وإذْ قد بلغتُ بعضَ حاجتي بتوفيقٍ من الله وفضلٍ في هذا الباب من أبواب النظرات، فإنِّي سأفتح بإذن الله وتوفيقه وإعانته بقيَّة الأبواب مِن نظراتي على فصولها ومباحثها التي أسأل الله تبارك وتعالى أنْ تكون وغيرُها مِن الآثار التي كُتِبَتْ وما قَدَّمتُ في عِلِّيين.

إنه قريبٌ سميعُ الدعاءِ مُجيب.

وهو الهادي إلى سواء السَّبيل

عليه توكلتُ وإليه أُنيب

ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم.

المراجع والمحتويات:

المراجع

حرف الهمزة:

١. أبجد العلوم للقنوجي: صديق بن حسن القنوجي[١٢٤٨ ـ ١٣٠٧هـ]، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٨م، تحيق عبد الجبار زكار.

٢. ابن عربي ـ حياته ومذهبه ـ للمستشرق أسين بلاثيوس. طبعة دار القلم، بيروت ١٩٧٩م).

٣. إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، للسيد محمد مرتضى الزبيدي الحسيني السيد أبو الفيض محمد المرتضى بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الزبيدي اليمني ثم المصري الحنفي [١١٤٥ — ١٢٠٥هـ]

٤. إجالة الفكر فيما يثبت به الصوم والفطر، الحفيان: الشيخ عبد المحمود بن الشيخ الجيلي [١٩١٩- ١٩٧٣م].

٥. إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي: محمد بن محمد بن محمد أبو حامد الغزالي[٤٥٠ - ٥٠٥هـ]

٦. أزاهير الرياض، عبد المحمود نور الدايم: الأستاذ الشيخ عبد المحمود بن الشيخ نور الدايم بن الشيخ أحمد الطيب بن البشير[١٢٦١/١٨٤٥ـ ١٣٣٣هـ ١٩١٥م].

٧. أسد الغابة، لابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الحزري [٥٥٥ — ٦٣٠].

٨. الأذكار للنَّووي: أبو زكريا محيى الدين يحيى ين شرف بن بري الحزامي الحوراني النووي الشافعي [٦٣١- ٦٧٦هـ].

٩. الأربعين للكلاباذي: محمد بن إبراهيم البخاري الكلاباذي أبو بكر [ت٣٨٠هـ]

١٠. الإرشاد للخليلي: الخليل بن عبد الله بن أحمد الخليلي القزويني أبو يعلى[٣٦٧ ـ ٤٤٦هـ]، الطبعة الأولى، مكتبة الرشد ، الرياض ١٤٠٩هـ تحقيق د. محمد سعيد عمر إدريس.

١١. الإرشاد ، لليافعي: عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي اليمني الشافعي نزيل الحرمين [٦٩٨ – ٧٦٨ هـ].

١٢. الاستيعاب لابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري[٣٩٣ ـ ٤٦٣هـ]، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت ١٤١٢هـ، تحيق علي محمد البجاوي.

١٣. الأشفاع والأوتار ، للكلاباذي.

١٤. الإصابة لابن حجر:أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني[٧٧٣ ـ ٨٥٢هـ]، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت ١٤١٢هـ/١٩٩٢م. تحقيق علي محمد البجاوي.

١٥. الأعلام للزركلي. أبو الغيث خير الدين محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزِّركلي الدمشقي.[١٨٩٣ – ١٩٧٦م].

١٦. الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام للمقريزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المَقْرِيزي [٧٦٩ – ٨٤٥ هـ].

حرف الباء،

١٧. بحر الفتاوي، للكلاباذي.

١٨. بيان وهم المعتزلة، لأبي منصور الماتريدي: الإمام أبو منصور محمد بن محمود بن محمود الماتريدي الحنفي لت سنة:٣٣٢هـ].

١٩. البداية والنهاية لابن كثير: عماد الدين إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي أبو الفداء .لت ٧٧٤هـ].

٢٠.البرهان المؤيد، للرفاعي: الشيخ أحمد بن أبي الحسين الرفاعي لت ٥٧١هـ].

حرف التاء:

٢١.تاريخ بغداد للخطيب البغدادي: أحمد بن علي الخطيب البغدادي أبو بكر [٣٩٣ ـ ٤٦٣هـ] طبعة دار الكتب العلمية بيروت.

٢٢.تاريخ دمشق، لابن عساكر: الحافظ أبو القاسم علي بن أبي محمد الحسن بن هبة الله [٤٩٩ – ٥٧١ هـ].

٢٣.تذكرة الحفاظ للذهبي: الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني [٦٧٣ – ٧٤٨ هـ]. الطبعة الأولى، دار الصميعي، الرياض ١٤١٥هـ تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي.

٢٤.تأسيس القواعد والأصول، وتحصيل الفوائد لذوي الوصول، للشيخ زر وق المغربي: أبو العباس أحمد بن محمد الحسني [٨٤٦ ـ ٨٩٩هـ].

٢٥.تأويلات أهل السنة لأبي منصور الماتريدي.

٢٦.تعجيل المنفعة لابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني [٧٧٣ ـ ٨٥٢هـ]، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي ـ بيروت ، تحقيق د. إكرام الله إمداد الحق.

٢٧.تفسير الطبري، للإمام ابن جرير الطبري، محمد بن جرير بن يزيد ابن خالد الطبري أبو جعفر [٢٢٤ ـ ٣١٠هـ]، طبعة دار الفكر، بيروت ١٤٠٥هـ.

٢٨.تلبيس إبليس لابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي البكري الحنبلي [٥١٠ ـ ٥٩٧هـ].

٢٩. تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي العسقلاني[٧٧٣ ـ ٨٥٢هـ]الطبعة الأولى دار الفكر، بيروت ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤م.

٣٠. تهذيب الكمال للمِزِّي: يوسف بن الزكي عبد الرحمن أبو الحجاج المزي[٦٥٤ـ ٧٤٢هـ]، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، تحقيق د. بشار عواد معروف.

٣١. التاريخ الكبير للبخاري: محمد بن لإسماعيل بن إبراهيم أبو عبد الله البخاري[١٩٤ ـ ٢٥٦هـ]، طبعة دار الفكر، تحقيق السيد هاشم الندوي.

٣٢. التدوين في أخبار قزوين للرافعي: عبد الكريم بن محمد الرافعي القزويني، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت١٩٨٧م، تحقيق عزيز الله العطاردي.

٣٣. الترغيب والترهيب، للحافظ المنذري: عبد العظيم بن عبد القوي المنذري[٥٨١ ـ ٦٥٦هـ]، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٧هـ، تحقيق إبراهيم شمس الدين.

٣٤. التصوف والمتصوفة في مواجهة الإسلام، لعبد الكريم الخطيب.

٣٥. التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي

٣٦. التفسير الكبير، للإمام القشيري.: أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري النيسابوري الشافعي [٣٧٦ – ٤٦٥ هـ].

٣٧. التقييد، لأبي بكر محمد بن عبد الغني البغدادي [٥٧٤ـ٦٢٩هـ] الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٨هـ .

٣٨. التمهيد لابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري[٣٦٨ ـ ٤٦٣هـ]، طبعة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمغرب ١٣٨٧هـ، تحقيق مصطفى أحمد العلوي. محمد الكبير البكري.

حرف الثاء:

٣٩. الثقات لابن حبان: محمد بن حبان بن أحمد ، أبو حاتم التميمي البستي [ت ٣٥٤هـ]، الطبعة الأولى - دار الفكر - ١٩٧٥م، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد.

حرف الجيم:

٤٠. جامع التحصيل لأبي سعيد العلائي: خليل بن كيكلدي أبو سعيد العلائي[٦٩٤ -٧٦١هـ]، الطبعة الثانية، عالم الكتب، بيروت١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي.

٤١. جامع بيان العلم، لابن عبد البر.

٤٢. جوابات أهل اليقين، لسهل التُّستَري: أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس التُّستَري [٢٠٠ — ٢٨٣ هـ].

٤٣. الجامع الصغير للسيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري[٨٤٩ - ٩١١هـ]، طبعة دار طائر العلم، جدة، بدون تاريخ. تحقيق محمد بن عبد الرءوف المناوي.

٤٤. الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي: أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي أبو بكر[٣٩٢ - ٤٦٣هـ]، طبعة مكتبة المعارف، الرياض ١٤٠٣هـ، تحقيق د. محمود الطحان.

٤٥. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح القرطبي أبو عبد الله [ت ٧٦١هـ]، الطبعة الثانية، دار الشعب، القاهرة ١٣٧٢هـ بتحقيق أحمد عبد العليم البردوني.

٤٦. الجرح والتعديل لابن أبي حاتم: عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس أبو محمد الرازي التميمي[ت ٣٢٧هـ]، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م.

٤٧. الجواهر الحسان في معاني القرآن للدكتور محمد علي بيان ،تحت الطبع.

حرف الحاء:

٤٨. حلية الأولياء لأبي نُعيم الأصفهاني: أحمد بن عبد الله الأصبهاني أبو نُعيم [ت ٤٣٠هـ]، الطبعة الرابعة، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٥هـ.

حرف الخاء:

٤٩. ختم الولاية، للحكيم الترمذي: محمد بن علي الحكيم الترمذي.

٥٠. الخصائص لابن جِنّي: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي المتوفى سنة: ٣٩٢هـ.

حرف الدال:

٥١. دقائق المحبين، لسهل بن عبد الله التُّستَري: أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس التُّستَري [٢٠٠ – ٢٨٣ هـ].

٥٢. دُمْيَة القصر وعصارة أهل العصر، (تذييل يتيمة الدهر للثعالبي) للبَاخَرْزي: أبو الحسن علي ابن الحسن بن أبي الطيب الباخرزي، [ت ٤٦٧هـ].

٥٣. الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام جلال الدين السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي[٨٤٩ ـ ٩١١هـ].

حرف الذال:

٥٤. ذيل التقييد لأبي الطيب الفاسي: محمد بن أحمد الفاسي المكي أبو الطيب[٧٧٥ - ٨٣٣هـ]، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق كمال يوسف الحوت.

حرف الراء:

٥٥. رجال مسلم، لابن منجويه الأصبهاني: أحمد بن علي بن منويه أبو بكر[٣٤٧ - ٤٢٨هـ]، الطبعة اظلولى، دار المعرفة، بيروت١٤٠٧هـ، تحقيق محمد عبد الله الليثي.

٥٦. رسالة القدس في محاسبة النفس لابن العربي: الشيخ الأكبر الإمام محيي الدين محمد بن علي ابن العربي الحاتمي[٥٦٠ - ٦٣٨هـ].

٥٧. الرعاية لحقوق الله للحارث بن أسد المحاسبي: أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي البغدادي،[تـ سنة: ٢٤٣ هـ].

٥٨. الرسالة القشيرية: للإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري، بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود، طبعة دار الكتب الحديثة - القاهرة .

٥٩. رواد الوعي الإنساني في الشرق الإسلامي للدكتور عثمان أمين.

٦٠. الروح، لابن قيم الجوزية: الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد ابن جرير الزرعي الدمشقي الحنبلي [٦٩١ – ٧٥١ هـ].

حرف الزاي:

٦١. زاد المعاد لابن القيم. الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد ابن جرير الزرعي الدمشقي الحنبلي [٦٩١ – ٧٥١ هـ].

٦٢.الزهد للإمام أحمد بن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني[١٦٤ - ٢٤١ هـ].

٦٣.الزهد لابن المبارك: عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي [١١٨ ـ ١٨١هـ]، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت. تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي.

حرف السين:

٦٤.سنن أبي داود: سليمان بن الأشعس أبو داود السجستاني الأزدي[٢٠٢ ـ٢٧٥هـ]، طبعة دار الفكر، تحقيق محمد محي الدين عبد المجيد.

٦٥.سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني[٢٠٧ ـ ٢٧٥هـ]، طبعة دار الفكر، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

٦٦.سنن البيهقي الكبرى: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي[٣٨٤ ـ ٤٥٨هـ]، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، تحقيق محمد عبد القادر عطا.

٦٧.سنن الترمذي: محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي[٢٠٩ ـ ٢٧٩هـ]، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون.

٦٨.سنن الدارمي: عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي[١٨١ ـ ٢٥٥هـ]، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت١٤٠٧هـ، تحقيق فواز أحمد زمرلي. خالد السبع العلمي.

٦٩.سنن النسائي (المجتبى):أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي[٢١٥ ـــ٣٠٣هـ]، الطبعة الثانية، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، تحقيق عبد القادر أبو غدة.

٧٠. سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله[٦٣٧ ـ ٧٤٨هـ]، الطبعة التاسعة، مؤسسة الرسالة، بيروت١٤١٢هـ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العقسوسي.

٧١. السيف المشهور، في شرح عقيدة أبي منصور للشيخ تاج الدين السُبكي: تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي [٧٢٧ – ٧٧١ هـ].

حرف الشين:

٧٢. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد مخلوف: محمد بن محمد بن عمر بن على ابن سالم مخلوف المنستيري المالكي، [١٢٨٠ – ١٣٦٠].

٧٣. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي: شهاب الدين أبو الفرج عبد الحي بن أحمد العَكري الدمشقي [١٠٣٢ ت ١٠٨٩هـ]، الطبعة الأولى دار ابن كثير دمشق ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، تحقيق محمود الأرناؤوط.

٧٤. شرب الكأس، للأستاذ الشيخ عبد المحمود بن الشيخ نور الدايم.[١٢٦١ ـ ١٣٣٣هـ].

٧٥. شعب الإيمان للبيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق محمد السيد بسيوني زغلول.

٧٦. الشيخ عبد القادر الجيلي ـ حياته وآثاره، للحفيان: الشيخ عبد المحمود "الحفيان" بن الشيخ الجيلي بن الشيخ عبد المحمود، [١٩١٩- ١٩٧٣م].

حرف الصاد:

٧٧. صحيح ابن حبان: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي[ت ٣٥٤هـ]، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة١٤١٤هـ/١٩٩٣م، تحقيق شعيب الأرناؤوط.
٧٨. صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبد الله البخاري[١٩٤ـ ٢٥٦هـ]، طبعة دار ابن كثير، اليمامة ، تحقيق د. مصطفى ديب البغا.
٧٩. صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري[٢٠٦ـ ٢٦١هـ]، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.
٨٠. صفة الصفوة ، لابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج ابن لجوزي[٥١٠ ـ ٥٩٧هـ]، الطبعة الثانية ، دار المعرفة ، بيروت١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، تحقيق محمود فاخوري. د.محمد رواس قلعجي.
٨١. الصدق للخرّاز: أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز ، :البغدادي. لت سنة: ٢٨٦ هـ].

حرف الطاء:

٨٢. طبقات الحفاظ للسيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية ، بيروت١٤٠٣هـ.
٨٣. طبقات الصوفية للسلمي : الحافظ أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى الأزدي النيسابوري،[٣٣٠ وتوفي سنة ٤١٢ هـ].
٨٤. طبقات المحدثين للذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، الطبعة الأولى، دار الفرقان ـ عمان، الأردن ـ ١٤٠٤هـ، تحقيق د. همام عبد الرحيم سعيد.

٨٥. طريق الهجرتين، لابن قيم الجوزية :محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي [ت ٧٥١هـ].

٨٦. الطبقات لابن خياط: خليفة بن خياط أبو عمر الليثي العصفري[١٦٠ - ٢٤٠هـ]، الطبعة الثانية، دار طيبة، الرياض، تحقيق د. أكرم ضياء العمري.

٨٧. الطبقات السنية في تراجم الحنفية، للتقي الغزي: القاضي تقي الدين بن عبد القادر التميمي الغزي المصري الحنفي [٩٥٠ – ١٠١٠ هـ].

٨٨. الطبقات الكبرى لابن سعد: محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري[١٦٨ - ٢٣٠هـ]، طبعة دار صادر، بيروت - بدون تاريخ.

٨٩. الطبقات الكبرى(القسم المتمم) لابن سعدن الطبعة الثانية، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة - ١٤٠٨هـ، تحقيق زياد محمد منصور.

٩٠. الطبقات الكبرى للشعراني: الشيخ أبو محمد عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني، [٨٩٨- ٩٧٣ هـ].

حرف الظاء:

٩١. ظاهرة التصوف الإسلامي في بلاد فارس، للدكتور محمد إقبال: الشاعر الدكتور محمد إقبال بن محمد نور [١٨٧٣ - ١٩٣٨م].

حرف العين:

٩٢. علل الشريعة، للحكيم الترمذي: محمد بن علي الحكيم الترمذي.

٩٣. علم القلوب، لأبي طالب المكي: محمد بن علي بن عطية الحارثي [ت ٣٨٦هـ].

٩٤. عوارف المعارف، للسُهْرَوَرْدي: شهاب الدين عمر السُهْرَوردي [٥٣٩ - ٦٣٢هـ].

٩٥. العِبر وديوان المبتدأ والخبر، لابن خلدون: أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد ابن خلدون ، الحضرمي الاشبيلي، (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ).

حرف الغين:

٩٦. الغُنْيَة لطالبي طريق الحق، للإمام الرباني سيدي عبد القادر الجيلاني أبو محمد محيي الدين عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني، الجيلاني، (٤٧١ - ٥٦١ هـ).

حرف الفاء:

٩٧. فتح الباري، للحافظ ابن حجر العسقلاني: طبعة دار المعرفة، بيروت ١٣٧٩هـ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب.

٩٨. فقه اللغة للثعالبي: أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، (٣٥٠ - ٤٢٩ هـ).

٩٩. فيض القدير شرح الجامع الصغير، لعبد الرءوف المناوي: شرف الدين محمد بن عبد الرءوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين المناوي [٩٥٢ - ١٠٣١هـ]، الطبعة الأولى، المكتبة التجارية الكبرى، مصر ١٣٥٦هـ.

١٠٠. الفتح الرباني، للشيخ عبد القادر الجيلاني: أبو محمد محيي الدين عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني، الجيلاني، (٤٧١ - ٥٦١ هـ).

١٠١. الفهرست لابن النديم: محمد بن إسحاق أبو الفرج ابن النديم[ت ٣٨٥هـ]، طبعة دار المعرفة - بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٨٧م.

حرف القاف:

١٠٢. قوت القلوب في معاملة المحبوب، ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد لأبي طالب المكي: محمد بن علي بن عطية الحارثي المالكي الواعظ المتوفى ببغداد سنة ٣٨٦هـ.

١٠٣. القاموس المحيط والقابوس الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط، للفيروزآبادي: مجد الدين أبو طاهر محمد ابن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الشيرازي الفيروزآبادي، [٧٢٩ - ٨١٧هـ].

حرف الكاف:

١٠٤. كتاب المريدين ليحيى بن معاذ الرازي: أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي، [تـ سنة :٢٥٨ هـ]..

١٠٥. كتاب الملامتية لأبي العلاء عفيفي.

١٠٦. كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للعجلوني: إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي[ت ١١٦٢هـ]، الطبعة الرابعة، مؤسسة الرسالة، بيروت١٤٠٥هـ، تحقيق أحمد القلاش.

١٠٧. كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة :مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي [١٠١٧ ـ ١٠٦٧هـ]، طبعة دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

١٠٨. كشف المحجوب لأرباب القلوب، للهجويري: علي بن عثمان الجلابي الغزنوي [ت ٤٦٩هـ].

١٠٩. الكنى والأسماء للإمام مسلم : مسلم بن الحجاج القشيري[٢٠٦ ـ٢٦١هـ]، الطبعة الأولى، الجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة ١٤٠٤هـ، تحقيق عبد الرحيم محمد أحمد القشقري.

١١٠. الكوكب الشاهق في الفرق بين المريد الصادق وغير الصادق للشعراني: عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني.

حرف اللام

١١١. لسان العرب لابن منظور: جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري المعروف بابن منظور [٦٣٠ – ٧١١ هـ].

١١٢. لسان الميزان، للحافظ ابن حجر العسقلاني: الطبعة الثالثة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

١١٣. لطائف المنن لابن عطاء الله السكندري: تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن عطاء السكندري الشاذلي [ت سنة: ٧٠٩ هـ].

١١٤. اللُّمع، للطوسي: عبد الله بن علي أبو نصر السرَّاج الطوسي [ت ٣٧٨هـ].

حرف الميم

١١٥. مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية.

١١٦. مجمع الزوائد، للحافظ نور الدين الهيثمي: علي بن أبي بكر الهيثمي[ت ٨٠٧هـ]، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٤٠٧هـ.

١١٧. مجموع الفتاوى للإمام ابن تيمية.

١١٨. مختار الصحاح لأبي بكر الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي[ت ٦٦٦هـ]، طبعة دار القلم بيروت لبنان.

١١٩. مسند أبي يعلى، لأبي يعلى الموصلي: أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي[٢١٠ ـ ٣٠٧هـ]، الطبعة الأولى، دار المأمون للتراث، دمشق ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، تحقيق حسن سليم أسد.

١٢٠. مسند أحمد: أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني[١٦٤ - ٢٤١هـ]، طبعة مؤسسة قرطبة، مصر.

١٢١. مسند البزار: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار [٢١٥ - ٢٩٣هـ]، الطبعة الأولى، مؤسسة علوم القرآن، بيروت١٤٠٩هـ، تحقيق د. محفوظ الرحمن زين الله.

١٢٢. مسند الحميدي: عبد الله بن الزبير أبو بكر الحميدي [ت ٢١٩هـ]، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي.

١٢٣. مسند الشاشي: أبو سعيد الهيثم بن كليب الشاشي [ت ٣٣٥هـ]، الطبعة الأولى، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة ١٤١٠هـ، تحقيق د. محفوظ الرحمن زين الله.

١٢٤. مسند الشهاب للقضاعي: محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي [ت ٤٥٤هـ]، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي.

١٢٥. مشاهير علماء الأمصار، لابن حبان: محمد بن حبان التميمي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٥٩م، تحقيق م. فلاشيهمر.

١٢٦. مصباح الزجاجة، للكناني: أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل لكناني [٧٦٢ - ٨٤٠هـ]، الطبعة الثانية، دار العربية، بيروت ١٤٠٣هـ، تحقيق محمد المنتقى الكشناوي.

١٢٧. مصرع التصوف: لبرهان الدين البقاعي – تحقيق – عبد الرحمن الوكيل مصرع الشرك والخرافة.

١٢٨. مصنف ابن أبي شيبة: أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي [١٥٩ ـ ٢٣٥هـ]، الطبعة الأولى، مكتبة الرشد، الرياض ١٤٠٩هـ، تحقيق كمال يوسف الحوت.

١٢٩. مصنف عبد الرزاق: أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، [١٢٦ ـ ٢١١هـ]، الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٣هـ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي.

١٣٠. مقدمة الدكتور أبي العلاء عفيفي لدراسة الأستاذ رينولد نيكولسون في التصوف الإسلامي وتاريخه.

١٣١. مقدمة ابن خلدون، طبعة دار الشعب ـ القاهرة ـ بدون تاريخ

١٣٢. مرهم العلل المعضلة في أصول الدين، لابن أسعد اليافعي.

١٣٣. من أعلام الفكر العربي في العصر العثماني الأول" د. ليلى الصباغ.

١٣٤. من تاريخ الحركة الإسلامية د. صادق أمين.

١٣٥. موارد الظمآن، للهيثمي: طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة.

١٣٦. مواعظ العارفين، لسهل بن عبد الله التُّستَري

١٣٧. موطأ مالك: الإمام مالك بن أنس أبو عبد الله الأصبحي [٩٣ ـ ١٧٩هـ]، طبعة دار إحياء التراث العربي، مصر، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

١٣٨. مولد العلماء ووفياتهم، لابن زبر الربعي: محمد بن عبد الله بن أحمد بن سليمان بن زبر الربعي [٢٩٨ ـ ٣٩٧هـ]، الطبعة الأولى، دار العاصمة، الرياض ١٤١٠هـ، تحقيق د. عبد الله أحمد سليمان الحمد.

١٣٩. ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٥م، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود.

١٤٠. المزهر لجلال الدين السيوطي

١٤١. المستدرك على الصحيحين للحاكم: محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري [٣٢١ - ٤٠٥هـ]، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١١هـ/١٩٩٠م، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا.

١٤٢. المسند المستخرج على صحيح مسلم لأبي نُعَيْم الأصبهاني: أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق[ت ٤٣٠هـ]، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٦م، تحيق محمد حسن إسماعيل الشافعي.

١٤٣. المعجم الأوسط للطبراني: للطبراني: سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني[٢٦٠ - ٣٦٠هـ]، طبعة دار الحرمين - القاهرة ١٤١٥هـ، تحقيق طارق عوض الله الحسيني.

١٤٤. المعجم الصغير للطبراني: سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني[٢٦٠ - ٣٦٠هـ]، طبعة المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، تحقيق محمد شكور محمود الحاج أمير.

١٤٥. المعجم الكبير للطبراني: سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني[٢٦٠ - ٣٦٠هـ]، الطبعة الثانية، مكتبة العلوم والحكم - المَوْصِل ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.

١٤٦. المغني لابن قدامة الحنبلي: عبد الله أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد [٥٤١ - ٦٢٠هـ]، الطبعة الأولى دار الفكر بيروت ١٤٠٥هـ.

١٤٧. المقتنى في سرد الكنى للذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي[٦٧٣ - ٧٤٨هـ]، مطابع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٤٠٨هـ، تحقيق محمد صالح عبد العزيز المراد.

١٤٨. المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد لابن مفلح: برهان الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد بن مفلح[ت ٨٨٤هـ]الطبعة الأولى، مكتبة الرشد . الرياض ١٩٩٠م، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين.

١٤٩. المنجد للويس معلوف، الطبعة الثالثة عشرة، المطبعة الكاثلوكية، بيروت ١٩٥٢م.

١٥٠. المنقذ من الضلال، لأبي حامد الغزالي.

١٥١. الملل والنحل للشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني الأشعري، [٤٦٩ – ٥٤٨ هـ].

١٥٢. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بخطط المقريزي.

حرف النون:

١٥٣. نشر الروض العطر في حياة سيدنا الخضر، لابن أسعد اليافعي.

١٥٤. نشر المحاسن الغالية، لابن أسعد اليافعي

١٥٥. نفحة الرياض البواسم في مناقب سيدي الأستاذ عبد المحمود نور الدايم، للشيخ عبد القادر الجيلي بن الأستاذ الشيخ عبد المحمود نور الدايم.

١٥٦. نوادر الأصول في حديث الرسول، للحكيم الترمذي: محمد بن علي بن الحسن أبو عبد الله، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت ١٩٩٢م، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة.

١٥٧. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير الجزري.

حرف الواو

١٥٨. الوصية، الحفيان: الشيخ عبد المحمود بن الشيخ الجيلي [١٩١٩-١٩٧٣م].

المحتويات:



شركة مطابع السودان للعملة المحدودة